مذكرات...

أحمد زازم

الدار العربية للكتاب

معرض طرابلس لعالم الكتاب
الدورة السادسة
15/1 طرابلس - 1996م

خالد علي بورقيبة

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

خالد علي بورقيبة

مذكرات أحمد زارم

أحمد زارم

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

© جميع الحقوق محفوظة الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس - 1399 / 1979

توطئــة

كان بودي ان يكون ما كنت افكـر في نشره في يـوم من الايـام ان قـدر لي ذلك . كان بودي ان يكون مدعمـا بنصوص ومقررات جمعيتنا في المهجـر . وبالرسائـل التي تـرد اليهـا حاملـة آراء واشارات مـن مختلـف الجهـات والشخصيات . تلك المنظمـة التي عملت في سبيل الـوطـن بنشاط وتضحيـة واخـلاص طـوال عشرين عامـا تحت اسماء مختلفـة . كلمـا دعت الظـروف الى التغييـر كنتيجـة لتطـورات دوليـة . او مقاومة اعـداء الحركـة .

فلقـد بـدأت حركـة مقاومة الاستعمـار الايطالي بصورة منظمة من طرف المهاجـرين الليبيين في المغـرب العـربي ومقرهـا في « المملكـة التونسيـة » الجمهوريـة التونسية اليوم سنة ١٩٢٩ م وقد اسسها اربعـة اشخاص هم :

محمـد محمـد عبـاس المسـراتـي

محمـد عمـار الشرادي الـرحيبـي

محمـود علـي الـزنتـانـي

احمـد زارم المجدوب صاحب هذه المذكـرات .

فالثلاثـة الاول هم طلبـة بجامـع الزيتونـة « اعـاد الله عمرانـه » ولقد بـدأت الحركـة اولا باسم (اللجنـة التنفيـذيـة للجاليـات الطـرابلسيـة البرقاويـة) ثم (جمعية الدفـاع عن طـرابلس وبرقـة) ثم (جمعية التوادد والتعاضد بين المهاجرين المسلمين) واخيرا (جمعية الوحدة الليبية) .

فبهذه الاسماء عملت المنظمة طوال عشرين سنة في الخارج ضد الوجود الايطالي في بلادنا ليبيا . ان هذه المذكرات لو قدر لها ان دعمت بتلك الوثائق المشار اليها آنفا . والواردة من جمعيات واحزاب عربية وغير عربية وشخصيات علمية وسياسية وزعماء حركات التحرير امثال :

شكيب ارسلان	سليمان الباروني	عبد العزيز الثعالبي
بشير السعداوي	عبد الحميد بن باديس	فخري البارودي
احسان الجابري	عوني عبد الهادي	محي الدين القليبي
الطاهر الزاوي	عمر فائق شنيب	فوزي النعاس

وغيرهم كثيرون رحمهم الله جميعا . وجزاهم بما هم اهل له من الرحمة والرضوان . قلت لو أن هذه المذكرات شاء لها القدر وابقى لها تلك الوثائق . لكان ذلك مما يعطيها قوة اكثر واهمية اعظم وتاثيرا ابلغ واعمق عند رواد الحقائق التاريخية . ولكن هذا ما شاء القدر وما نحن للقدر بمعارضين . « وما كل ما يتمنى المرء يدركه .. » اقول بكل أسف وحسرة فلقد فقدت مني كل تلك الوثائق في ظروف ضاغطة لا مجال للتفكير والتدبير فيها كما سياتي تفصيلها الامر الذي جعلني افكر كثيرا في العدول عن النشر الا ان الاخوان الذين كانوا مهاجرين في جهة المغرب العربي • ممن كان لهم سابق نشاط في حركتنا او اتصال بها في المهجر قد اتصل بي كثير منهم . وقالوا : ان جميع الحركات الليبية في الخارج ظهرت للوجود . وعرفها الناس حتى تلك التي ظهرت في « ساعة الصفر » كنتيجة حتمية لضغط الظروف وتحركات الاجانب •

اجل كل تلك الحركات ظهرت ، اما حركتنا في المغرب العربي فبالرغم من نشاطها المتواصل وضخامة تضحياتها من مادية وادبية بالنسبة لاوضاعنا وخطورة محيطنا ، فقد بقيت في عالم المجهول • وانت من مؤسسيها ومسيريها واكثر الاخوان التزاما بها . فانت اذن اعلمهم بها وبتطوراتها فالمسؤولية تقع عليك وحدك في اضاعة هذا الجانب الهام من تاريخ الحركة الوطنية الليبية في المهجر •

امـام هـذا الطلب الملح لم يسعني ـ رغم قلة بضاعتي العلمية ، وعجزي عن القيام بمثل هـذه الاعمـال من الناحيـة المـادية ، وضياع اهـم ما يجب ان يكون ضمن هـذه المذكـرات من الوثائـق ـ رغـم ذلك كله لم يسعني الا ان اتوكـل على اللـه راجيـا منه تعـالى الاعانـة والتوفيق في جمع شتـات مـا امكنني جمعـه استجابة لذلك الطلب من طرف الاخـوان الـذين وجهـوا لـومهم الي وحملوني مسؤوليـة تاريخيـة ووضعوا ثقتهم في ٠ وعملا بمـا يقـال « شيء خيـر من لا شيء » بعـد هـذا ارى انـه من الـواجب علي ان اشيـر في هـذه التوطئة باختصار الى اهم الاسباب التي جعلتني أتـردد في تنفيـذ هـذه المهمـة الصعبـة ، فاقـول :

انه مما لا شك فيه ان « القـدر يغلب الحـذر » فلقد داهمتني ظـروف جـد مزعجـة . وحـوادث هائلة متعبـة سيجـد القـارىء تفاصيلها في صفحـات آتيـة . كانت سببا في ضيـاع كل ما احتفظت به من الوثائـق . وليس مـن قبيل المبالغة حينما اقول انها اثمن ما اكتسبته في هجـرتي كلها . وانها اعـز ما اعتـز به في حيـاتي من اعمـال مع اخـواني في سبيـل الـوطـن والقوميـة . وهو اداء لـواجب مفـروض على كل مواطن نحـو وطنـه وقومـه مـا استطـاع لذلك سبيـلا .

والسبب في الضياع هـو انني حينمـا كنت اعمـل في ميـدان الحـركـة الـوطنية مع اخـواني في مقـر هجـرتنا بتـونس قبـل الحـرب العـاليـة الثانيـة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م علـمَ بي كثير من الايطاليين وتعـرفـوا علـي شخصيا في المنطقـة التي كنت اسكن بها رغـم انني اختفيت وراء عدة أسماء مستعـارة فيما انشره . ومع ذلك فقـد عـرف الايطاليون كل شيء عني . وان الذين قدمـوا لهم تلك المعونـة هم بعض اخـواننا سامحهم اللـه .

ولقد كانت تصلني تهديداتهم . ولم يكن هذا التهديد صـادرا عن جهاتهم الـرسمية كالسفـارة مثـلا . بـل كان ذلك التهديـد ياتي من السكان المتزعمين لجاليتهم المتعصبين لفاشيستيتهم . اولئك المنتسبين لمنظمـات لهـم تدعـى

« دوبــو لافــورا » وهذه المنظمــات كانت منتشرة في كامــل البلاد التونسية اينما وجــد ايطاليون . وهم عيون لحكومتهم وجنود لها متحمسون .

ولهــذه الاسباب التي كانت تحمــل في طياتها خطــرا اكيــدا بالنسبة لي لا شك فيه ولا ريب . فعند ما نــزلت جيــوش المحــور بتونس فجــأة سنــة ١٩٤٢ م حلت معها الظــروف التي يمكن فيها لهؤلاء الايطاليين وغيرهم ان يتصرفوا تصرف الغــالب . وهنا لم ار بــدا مــن مغــادرة المكــان فاسرعت للاختفــاء من بلــد « الكــرم » محــل اقامتي فخــرجت متنكرا علــى عــربــة « كــريطة » اي « كاراطــون » يجــرها حصان واحــد في اتجــاه الغــرب . صوب الحــدود الجزائــرية لاجئــا فــارا من زحــف جيــوش المحــور وبعبارة اوضح واصح ، من الايطاليين .

ولقــد وصلت في حالــة من التعب الشديــد الى منطقــة اسمها « الكــريب » من عمــل الكــاف بالاراضي التــونسية . حيــث كــان يقيــم الاخ الصــادق المخلص الاستــاذ « محمد محمد عبــاس المسراتــي » احــد مــؤسسي الجمعية واميــن مــالهــا . وحالمــا اختفيت من « الكــرم » اخــذ الايطاليون يبحثون عني فبلــغ ذلك بعض الاخــوان فجــاء فريــق منهم الى والــدي رحمــه الله تعــالى واعلمــوه بما تــرامى اليهم من الاخبــار . وهو ان الايطاليين يبحثــون عني . وطلبــوا منه بسرعــة والحــاح ان ينــزل عند رايهم بــدون تــردد حيث انهــم قــرروا احــراق الاوراق جميعها اي كل الوثائــق التي كنت محتفظا بها . اذ بلغهم ان الايطاليين سيقتحمــون البيت حتمــا حينما يتاكدون بانني قد افلت من ايــديهم وفي هــذه الحالــة سوف يلحــق الضرر بكثير من الاخــوان مــن اصحــاب النشاط في ميــدان الحركــة الــوطنية الليبية ضد الايطــاليين .

ولقد نــزل الوالــد عليه رحمــة الله ورضوانه عند طلب الجماعــة . وهــو عمــل من طــرف الاخــوان كان في الحقيقــة والواقــع بــوازع من الخــوف والشفقــة على عائلتي وعلى الكثيــر من جماعــة الحركــة الــوطنية الليبيــة في المهجــر الذين سوف يجــدون اسماءهم في الرســائــل والمحاضر والسجلات .

الا انهم بـدلا من ان يخفـوها بطريقـة تبقي عليها وتبعد الخطـر ، احـرقوها تمـامـا .

هـذا ما وقـع للوثائق التي كنت محتفظـا بها في البيت . وفي شهر مايـو من سنة ١٩٤٣ حينما عدنا الى تونس . وقد ارتحل عنها المحور منهـزما كنت قـد كونت وثائـق جديـدة تتعلـق باتصالنا بقيـادة الحلفاء . وبمشاركتنا الفعلية في المواجهة مع الجيش الثامن الانجليزي في سبيل تحرير بلادنا . ثـم مذكـرات ووثائق تتعلق بمباحثاتي مع الوفد الامريكي في لجنة الاستفتاء الرباعيـة الدوليـة في دار السفـارة الامريكية بتونس قبل حضور اللجنـة الى ليبيـا . وغير ذلك من الوثائـق وقد استصحبتها معي حينما عـدت الـى الـوطن في ينايـر ١٩٤٨ م .

وفي خـلال السنوات الاربـع ١٩٤٨ الى ١٩٥٢ م حـدثت لنا في ليبيـا مصادمات مع المستعمرين الجدد الذين كانوا الى غاية ٣١ اغسطس ١٩٦٩ م يسيطـرون على البـلاد ويحـرصون كل الحـرص علـى اثبـات وجـودهم وتمكيـن نفـوذهم وتمييع استقلال البـلاد . وقد اعانهم على ذلك فريـق من ابنـاء البـلاد « ويا للاسف المـذيب للقلوب » وهي طائفـة معروفـة لدى جميع الشعب . لذلك فانني سأضرب صفحـا عن ذكر الاسماء عند التحدث عن هـذه الفتـرة . والى حيـن آخـر .

ولمـا كان الانجليـز قد ازعجتهم تلك اليقظـة الشعبيـة العارمة والتظاهرات الملتهبـة المتواليـة التي عمت البـلاد في طـولها والعـرض . والاستعـدادات المخيفـة للمقاومـة . فقـد دفـع اولئك الذين اغـراهم بالوظـائف العليـا في بـلادهم . ومن مـال شعبهم الـذي باعـوه . فناصروه ومكنوه من الوطن فترة امتـدت سبعة عشر عامـا ونصف العـام مثلت في خـلالها مهـازل على مسرح هـذه البـلاد . ولم يقف المغـرورون عند هـذا الحـد بـل عمدوا باعانة سيدهم المستعمـر الى اخـراجنا من البـلاد بطريقـة تعسفية رهيبـة لا تمت للعـدل ولا للقانـون بشيء فضلا عن الاخـوة والمصلحـة الـوطنية ستجدون تفاصيلها في الصفحـات الآتيـة . فعـل المستعمر واعوانـه كل ذلك لكي يتخلص مـن

موقفنا . ذلك الموقف الجبار المستمد قوته من روح شعبنا الثائر المتحفز .

قلنا آنفا : انني قد كونت وثائق جديدة بعد تلك التي احرقت ، وقلت ايضا انني قد استصحبتها معي عند عودتي الى الوطن في سنة ١٩٤٨ م . وبهذه المناسبة اي : مناسبة اخراجنا من وطننا ظلما وعدوانا من اخواننا . فقد صودرت تلك الوثائق والمذكرات التي كونتها من جديد . واخرى كونتها هنا في ليبيا ايضا .

اخرجونا من بلادنا وانا لا املك حتى ورقة تدل على هويتي . فبهذه الاسباب جاءت مذكراتي هذه غير مدعمة بالوثائق والمستندات حتى عن المراحل الاخيرة للقضية الوطنية . وقد يؤدي فقدان هذه الاشياء الى تقديم وتاخير في تواريخ ما سأذكره . فضلا عن ضياع الكثير الذي لم اتذكره لطول المدة وعلى كل فالمهم في الموضوع هو ان اسجل ما بقى في ذاكرتي . كما وانني سأحافظ محافظة بالغة على صحة ما سأذكره . ولا اذكر الا ما انا على أتم الاعتقاد في صحة وقوعه . وضبط المداولات والاجوبة ضبطا دقيقا . خصوصا وان ما يدعوني للاحتياط والتحري البالغ هو ان الاخوان الذين عاشوا تلك الاحداث . والذين شاركوا فيها على الاخص لا يزال بعضهم على قيد الحياة وهم داخل الوطن . وعلى جانب من التعليم والثقافة . وسيطلعون على ما اسجله في هذه المذكرات .

والى هنا رأيت ان اقف بهذه التوطئة التي لا بد منها لتكون كالرائد يستوحي منها القارىء اتجاه الكتاب . وتشير الى اسباب صدوره بدون وثائق الا قليلا . وكان من المرغوب ان يكون مدعما بها . والى هنا اكتفي بما تقدم وابدا في صلب المذكرات .

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب .

احمد زارم بن خليفة بن عمر بن سعيد المجدوب

الغارة الايطالية على ليبيا

كانت الحيـاة تسير هادئـة رتيبـة ، عمـل ونشاط موسمي معتـاد يدور مـع دوران فصول السنـة . يتحـرك سكان القـرى والبـوادي عند هطـول الامطـار في فصل الخـريف بكل نشاط الى حـرث الشعير ليلا ونهـارا لكي يـزرع كميـة اكثـر من جـاره واذا تأخـر الفصل يتحولون الى زراعة القمح وهكـذا الى ان ينتهي فصل الحراثـة « ارتفع المحـراث » هكـذا يقـولـون فيعـودون الى اماكنهم في القـرى . ويبـداون في جنـي حبـوب الـزيتـون كامل فصل الشتاء . الى ان يدخـل فصل الربيع فيأخـذ اكثـر النـاس في الاستعداد ، يتفقدون بيـوتهم « الشعريـة » ويستكملون جميـع لـوازمها ونـواقصها . ثـم تؤخـذ على ظهور الابـل ويخرجـون الى مسافات بعيـدة فينتجعون حيث توجـد اغنامهم . وهكـذا فالربيـع يضاهي مصائـف المدن بـل هو خيـر عند من عرفـوه . وذاقـوا لـذتـه .

الـربيع يكثر فيه اللبـن والجبنـة والزبـدة والسمـن ولحـم الخـرفـان الصغيـرة . وصيـد الارنب والطيـور . وتكثر رياضة الكـورة . وفرق الكورة هي « النجـع » ـ فكل « نزلـة » تعتبـر فرقـة . وتبـدأ المبـاراة بين النزلتين والمغلوب يضيف الفريق الغالب . وكل مضيف يتفنن في ضيافته حتى يصبح في الافواه كرمه وحسن استعداده وأنواع طعامه . وفي آخـر « ابرير » العجمي وبعـد جـز الاغنـام ونقـل الصوف والسمن وما الى ذلك الى القرى ـ

تتحول بيوت الشعر الى حيث مزارع الشعير ويبدأ الحر والحصاد . ويبقون هناك الى ان يتم الحصاد « والدراسة » وخزن المحصولات في القرى على ظهور الابل . ثم تطوى البيوت الشعرية وتوضع في اماكن معينة انتظارا لعام مقبل . ويعود الجميع الى القرى . وتبدأ حفلات الزواج « اعراس » .

وهذه فترة آخر الصيف هي الاخرى جميلة ، اعراس في كل مكان ، خيول « تلهد » ، وبنادق تطلق ، ورياضة الكورة تنطلق مرة اخرى ولكن في الليل وليس بالنهار – وفي نفس الوقت تكون غلة التين قد بدأت في النضوج فيقع جنيها بكميات كبيرة وتطرح في اماكن نظيفة فوق فراش يوضع لها هذا ان كان خارج القرية . وعلى سطوح المنازل ان كان شجر التين في مشارف القرية . وتدب الحياة بصورة عامة على هذه الوتيرة ثم يقع جمع هذا التين بعد ان يكون قد ايبسته الشمس ويخزنونه ليستهلكوه في الشتاء وغيره . وبالتالي هكذا كان سير الحياة في القرية وهكذا كان الناس يعيشون في قراهم وبواديهم .

وفي آخر خريف سنة ١٩١١ م وفجأة بدأ الناس يتهامسون . وكنت اذ ذاك في السادسة من العمر حسبما ثبت لدي من والدتي رحمها الله . ان صح ذلك ولا اظنه الا صحيحا . علامات القلق بادية على الوجوه . ثم تجمعات الناس احاديث تدور بين تلك التجمعات لا نعرف نحن الصغار كنهها ولم ندرك اسبابها ودوافعها . وكل ما جد في نظرنا هو كثرة الاتصالات بين الوجوه والاعيان وليس من اهل القرية وحسب بل من القرى الاخرى . وكنا نرد ذلك الى انها ضيافات حسب عقولنا . ولم تطل هذه المدة حتى بدأت امامنا ظاهرة اخرى اوضح هي : دق الطبول فوق مرتفعات داخل القرى « كدوة » ونحن وان كنا صغارا ، نعرف ان هذه الآلة « الطبل » لا يقع اخراجه واستعماله الا في حالات الخطر كالغزو وما شاكله .

اجل ظاهرة اوضح : اصوات عالية للطبل يصل صداها الى مسافات

بعيدة وقد توالت هذه الظاهرة وعلى اثرها تاتي جموع من القرى الاخرى البعيدة والقريبة بعضها على الخيول وبعضها على الارجل ليتحروا الخبر ويعودوا الى قبائلهم ليبلغوهم الخبر اليقين عن اسباب « ضرب الطبل » ومن المعلوم ان الطبل لا يستعمل الا في حالات الخطر كما قلنا آنفا . وهنا بدات الكلمات تردد كثيرا بين السائلين والمسؤولين وهي كلمات : الجهاد ـ النصارى ـ طرابلس ـ ومن الغد تبدأ افواج الرجال تتوارد على القرية مركز المديرية من كل حدب وصوب . كما يبدو واضحا ظهور الاسلحة على عواتق الرجال في شوارع القرية . ثم اخذ الناس في استعمال الشارة . والشارة هذه عبارة عن حجر طوله اكثر من عرضه ينصبونه واقفا على مسافة يقع الاتفاق عليها . ويجعلون في وسط هذا الحجر بقعة سوداء ليتبارى الناس في اصابة تلك البقعة . وهي طريقة تدريبية واختبارية في آن واحد على ثبات اليدين وصحة العينين باصابة الهدف .

بدات افواج من الرجال تتجمع امام مركز المديرية مئات . آلاف . ثم تختفي . حيث تنتقل من هناك لكي تتواجد في مركز القائمقامية . ومنها الى طرابلس حيث ميدان الجهاد . ويعود الطبل من جديد لتتجمع افواج اخرى في نفس المكان وبنفس الطريقة ثم تختفي هي الاخرى آخذة طريق سابقتها . وبعد ايام قليلة تتواجد في القرية افراد من الافواج الاولى . ومع تواجد هذه الافراد بدانا نسمع . « النصارى » نزلوا في طرابلس . وهم محاصرون داخل اسوار المدينة . وكل من يتحرك منهم يموت برصاص المسلمين . وهكذا كان الجو دواليك . رنين الطبل ـ تجمع المجاهدين ـ افواج مسلحة تصل الى ميدان الجهاد واخرى تعود منه للراحة والاستجمام والقيام بشؤونهم الزراعية وغيرها . حتى ياتي دورهم ثانيا كي يعودوا الى الميدان .

جرحى المجاهدين ، منهم من يعالج فيما وراء الواجهة حيث وجود أطباء من ترك ومن عرب . وفي مخيمات « الهلال الاحمر » ومن كان جرحه

بسيطا يعـود الى قريته لكي يعـالج هناك حتى يشفى وتلتئم جراحه ليعود الى الميـدان من جديـد ـ « منصور بن خليفـة » رحمـه الله من اعيـان قريتنا كان في نظـرنا من انشط المتحـركين فيها في هذا الميدان ، تهيئة المجاهـدين ـ ارسال الاخبـار الى الجهـات ، اي : القـرى الاخـرى . وهو منادي القريـة بصوتـه الجهـوري . كان منصور هـذا في نظـرنا نحن الصغـار . وحتى الكبـار الذين عقولهم لا تبعـد عنا كثيرا والنساء كلنا كان في نظـرنا انـه يعلـم بكل ما يجـد وخبـره هـو الخبـر اليقيـن . ولذلك تجـدنا نحن الصغار وغيـرنا مما ذكـرت نلجـأ اليه لنسأله عن سيـر الجهـاد وكنا نثـق بخبـره تماما . وكنا كلما التقينا به في الشارع وعند « ضـرب الطبـل » واحيانا نـذهب اليه قصدا ، لنسأله عن اخبـار الجهـاد . ومن الغـالب ؟ النصارى أم المسلمون ؟ كان جوابـه لنـا دائما واحـد هـو كالاتي : « عـوالها في السماء ايعـول » ومعنى ذلك كما نفهمـه اليـوم : « يديـرها المولى سبحانه وتعالى في عليائـه » وكنا نفهـم من اقـواله هـذه ان اللـه معنا وسينصرنا علـى الكفـار فنـروح في سرور ونشاط لنبلـغ اضرابنـا بما سمعنـاه من عمنـا منصور محـل ثقتنـا .

اذكـر مـرة ان رجـلا لا اعـرف اسمه ولا من اي قبيلـة هـو كان في خط الواجهـة مـع المجـاهدين ثم هـرب لسبب أو لآخـر وعـاد الى القرية اثناء الليـل . وسمع بوصولـه سكان القريـة فتواردوا اليه يسألونه عن اقاربهم . اذ لا يخفى أن لكـل عائلـة شخصا على الاقـل في ميـدان الجهـاد . فسألـه بعضهم عن وضع الواجهة فقال لهم النصارى غلبـونا . وسألوه عن بعض افـراد فقـال لهم ماتـوا . فثارت بسبب هذه الاخبـار موجـة من « الصيـاح . والنـحيب » في القـريـة . وعندها خـف مديـر الناحيـة الى مكتبه وامـر اعـوانه « الزابطيـة » باحضار ذلك الرجل . وقد جـيء به الى مكتب المديرية . ولا ادري مافعلـوا بـه . والذي اعرفـه انه حجـزه عن النـاس . ثـم طـاف « الزابطيـة » على سكـان القريـة ينبهـونهم الـى عـدم الصيـاح ورفـع الاصوات على من يستشهد في الجهـاد . ومنـذ ذلك اليـوم اصبح النـاس

يقابلـون كل ما يحـدث في ميـدان الجهـاد بصبـر ورضى كأنه لم يحصل مكـروه . وعلى هـذه الوتيـرة استمـر الجهـاد .

وبالتالي فقـد حـرص الاهـالي على اقامـة الشعائـر الـدينيـة واحيـاء المناسبات الـدينية . والحقيقـة ان كل احتفالاتنا في ذلك العهد كانت دينية . ولقد حـرص الجميع على ان تبقى كما هي حتى نحن الصغـار مارسنا العابنـا ولبسنا الجديـد من المـلابس . وكأن ليس ثمـة مكدر او حـدث هـام . مع ان نفـوس الكبـار عبـر الهمسات والاجتماعات تقول الكثير وان بدت في كامـل الرصانـة والاتـزان كما قد سرى التاثيـر في بعض مظاهـر الحيـاة . اولها وربما اخطـرها بالنسبة لنا نحـن الاطفـال . كان اغـلاق الكتاب فلم نعـد نـذهب اليه كما ان المكـاتب الحـديثة قد اغلقت ابـوابها هي الاخـرى . وهذا الـوضع الذي جعـل الصغـار في الشوارع اضاف بـدوره جهـد مئات الاطفال لتصب في تيـار العمـل اليـومـي .

ثم بـدأت تصل الينا نتف من ازجـال المجاهـدين واخـذنا نرددها نحـن الصغـار بحمـاس واعتـزاز واستمـرار واليكم مثلا من هذه الازجال الكثيرة :

ريتوش يا خـوتي نهـار الهـاني نهار هجمـة المسلـم على الطليانـي

ولمـا عـاد بعض الذين حضروا ذلك النهـار التاريخي الكبيـر . بـدانـا نسمع الحكايات والاقـاصيص وضروبـا من الشجاعـة والفـداء لا نظير لهما . في عصرهما . توهمنا نحـن بعقولنا الصغيـرة ان « النصارى » انتهى امرهم ولم تبق منهم باقيـة بعـد يـوم الهـاني . ذلك اليوم الذي كان بـلاء وشؤما على الايطـاليين . اذ كانت عمليـة انتحاريـة مريعة . فقد اشتبكت الواجهتان الـوطنية والايطاليـة الممتدتان من « ابو ستة » الى « ابو مليانـة » وبعد قليل تأخرت الواجهة الوطنية بانتظـام . وتبعتها الـواجهة الايطالية . مخلفة المنطقـة الى الوراء مستسلمـة غير محاربـة . وبعـد هذا التاخـر الى مسافـة معينـة اساسا ثبتت الواجهـة الـوطنية واشتد القتـال بيـن الـواجهتين . وفجأة انقض اولئك السكان المستسلمون على طول الواجهة وركبـوا اقفية

العدو يصلونه نارا لا تبقي ولا تــذر . « والحرب خدعــــة » كما يقولون . ولم ينج من الواجهــة الايطاليــة الا افــراد كتب الله لهم بقيــة من عمــر في دفتــر القــدر .

دامت الحــرب بيننا وبيــن الايطاليين مــع وجــود القــوات العثمانية معنــا زهــاء عــام واحــد . ثم اضطرت تركيــا العثمانية « مــع الاسف » الى مصالحة ايطاليــا والانسحــاب من الميــدان في « طرابلس الغــرب » أو ليبيــا اليوم . ويجب ان نذكــر هنا حقيقــة للتاريخ لا يمكن نكرانها وهي ان الاتراك والحق يقــال في منتهى الشجاعــة وضباطهم في مستوى عــال من التدريب . كما انهم على جــانب وافــر من الاخــلاص . وانما الضعف كان في الدولة . والاهمــال في الــوزارات .

انسحاب الاتراك من الميدان
وتشكيل حكومة وطنية

على الرغم من وقفة الجميع موقف التصميم والاصرار عرب واتراك على الكفاح غير ان الحرب في ذلك الوقت اخذت الشكل التقليدي عبر تركيا صاحبة الوجود والوجه الرسمي خصوصا وهي مركز الخلافة الاسلامية آنذاك . فمن خلال ضباطها وجنودها عمل الكثير من مجاهدينا . تلقوا الاوامر وخاضوا المعارك وتواجدوا في المواقع والاماكن التي حددها لهم الضباط الاتراك حتى لقد اخذت الحرب وجهها التقليدي ، مفهوم « الحرب التركية الايطالية » وبالتالي ومع تدخل الدول المختلفة اما مع تركيا او ضدها اضطرت كما ذكرنا آنفا الى عقد صلح مع ايطاليا في اكتوبر ١٩١٢ م وعلى اساس هذا الصلح تركت البلاد لاهلها وحدثت مبادرة كبرى .

اجل حدثت مبادرة يمكن اعتبارها واقعة يسجلها التاريخ لشعبنا بفخر واعتزاز . فعند ما اضطرت تركيا للانسحاب من الميدان في « طرابلس الغرب » تطبيقا لهذه المعاهدة تلقى مركز المجاهدين في العزيزية منشورا من طرف السلطان العثماني يعلنهم فيه . بان الظروف السيئة قد اجبرت الدولة العثمانية على مصالحة ايطاليا . وقد تم هذا الصلح فعلا واصبحت

بمقتضاه مضطرة لمغادرة « طرابلس الغرب » فهي لذلك قد منحت بلادكم استقلالا داخليا تاما مطلقا .

وبينما كانت الاجتماعات بين الزعماء متوالية حول هذا الاستقلال وما ينبغي لهم ان يفعلوه . اذ تلقى مركز المجاهدين هذا منشورا آخر من الحاكم الايطالي في طرابلس يقول فيه (« ان طرابلس الغرب » اصبحت من اليوم فصاعدا تخضع خضوعا تاما كاملا للسيادة الملكية الايطالية ») ولقد كان لهذا الامر وقع شديد الالم على نفوس المجاهدين وهم كذلك في تلك الحالة النفسية المتوترة بسبب المنشور الايطالي اذ وصلت تعليمات من « وزارة الحربية التركية » تطلب الى الضباط الاتراك الكف عن محاربة الطليان والعود الى تركيا باسرع وقت ممكن . فاسرع الضباط بمغادرة البلاد بما لديهم من مقومات الحرب الا افرادا منهم رفضوا الانصياع لهذا الامر بغية البقاء مع اخوانهم ابناء البلاد لمواصلة الجهاد . ولكن بتوالي الالحاح الشديد من الدولة العثمانية انسحب اولئك الذين تخلفوا اول الامر

وهنا ياتي الحدث . حدث المبادرة حيث نودي في هذه الاثناء لاجتماع مؤتمر حضره بعض زعماء واعيان ووجهاء من دواخل البلاد . وتكررت اجتماعات متعددة درس فيها المجتمعون الحالة من جميع وجوهها وقرروا : اولا ان هذه المعاهدة لم يكن لهم فيها اي راي ولم يستشيروهم فيها بل ولم يسمعوا بها الا بعد وقوعها وتوقيعها مع انهم هم اهل البلاد واصحاب الشان فيها ، ولذلك فهم يرفضون هذه المعاهدة باجماع المجتمعين ولا يعترفون بها . وسيعتمدون اساسا على منشور السلطان العثماني الذي منح بلادهم الاستقلال وانهم يقبلون هذا الاستقلال والدفاع عنه . ثانيا وجوب تشكيل حكومة وطنية تتولى امور البلاد وتنظيماتها وتهيىء جو البلاد بامكانياتها الخاصة لمواصلة منازلة الايطاليين المستعمرين الى ان تثوب دولة ايطاليا الى رشدها وتعترف باستقلال البلاد والنصر بيد الله العلي القدير .

وفعــلا فقد تشكلت حكومــة برئاسة (الشيخ سليمان الباروني) ولا اعرف من هم اعضاؤها . الا شقيق الباروني حيث كان قد ارسله على راس وفد الى اوروبــا لابــلاغها قيــام هــذه الحكومــة وطلب الاعتراف بها . ولعلها هــذه هي الحكومــة الاقليمية التي كان يسعى البــاروني لتحقيقها . والتي اشــار اليها « غــرازياني » في كتابــه « نحــو فــزان » .

ولقــد قامت هــذه الحكومة فعــلا كما اجــرت تنظيمات داخليــة اداريــة وجنــدت كثيــرا من المجاهــدين لمنازلــة الايطاليين . ولقــد استتب الامــن خــلال عمــرها القصير بصورة تدعــو الى الاعجــاب في جميع الجهــات التي يعمها نفوذ هذه الحكومة . وبــدات المجابهة فعلا بين المجاهدين والطليان واستمرت متواصلة حتى منتصف سنة ١٩١٣ م معتمديــن على امكانياتهم الخــاصة وما يــرد اليهم من الاعانــات من اخــوانهم شرقا وغربــا وبصورة خــاصة « تــونس » التي لم تأل جهــدا في ارسال ما تستطيع ارسالــه مــن المؤن والامــوال ما بقى بــاب الاتصال مفتوحــا بين البلدين .

ورغــم محدوديــة الامكانيات فقــد دارت المعــارك سجالا . او مساجلة .. واحــرز المجاهــدون التفــوق اول الامــر . بل وحققوا انتصارات لهــا قيمتها ولكن تركيــز الايطاليين على العمــلاء والجــواسيس الــذين ينقلــون اليهــم الاسرار عن المجاهــدين وامكانياتهم . كــل ذلــك جعــل القــواد الايطــاليين يتحصلون على معلومات لها قيمتها الحــربية عن محدوديــة الامكانيات عنــد المجاهــدين وعن القصور في الحصول على الذخيــرة والاسلحة . وهذه شريان دوام الحــرب ووسيلــة النصر على الاعــداء والصعوبات التي تــواجههم في طــرق تــوفيــرهــا .

وبالتالي وطبقا لهــذه التقاريــر فقــد نشط الايطــاليون للعمــل السريــع والحاسم فعباؤا قوات سريعة واسرفوا في حشــد الامكانيات واستعراض مظاهــر التفــوق في العــدد والعــدة والتحــرك للعمــل الحــاسم او للضربــة القاصمة التي ظنوا انهم عن طــريقها يتــم الاجهــاز على المجاهدين والخلاص من المتاعب والمشاكــل والمعــارك الضاريــة ربما لــلا بــد فزحفوا على العزيزية

فـوقعت معـارك جـد عنيفـة الامـر الذي دفـع ايطاليا الى ارسال منـدوب لها للمفاوضة مع الوفـد الذي ارسله الباروني وبحضور الباروني نفسه . وقد حضر هـذا وذاك والوفـد للتفـاوض . ولكن في تلـك الفتـرة تـم احتـلال العزيزيـة وواصلوا زحفهـم الى منطروس وقبـر زايـد والزعترية وابو غيلان وغيرها كثيـر من المناطـق . وواصلوا الـزحـف تحـت وابـل مـن نيـران المجاهدين حتى امتلات الارض بجثثهم . ولكن أمام التفوق الذي لا يقـاس على قـوات المجاهـدين لا في العـدد ولا في العـدة تمكنوا بعـد فترة طويلـة من النضال المريـر والخسائر الباهظة تمكنوا من الـوصول الى « غريـان » عـاصمة الجبـل الغـربي . وتجمعت بعـد ذلك قـوات المجاهدين من كل حدب وصوب وبكل امكانياتهم وما يملكون في « جندوبـة » واستعدوا لمهاجمة العدو في « غـريـان » .

بينما المجـاهدون يستعدون للـزحف على « غريـان » لاجلاء العـدو عنها . اذ تجمعت لـديهم النـذر وكانت كلها توحـي بان المعركة الشديـدة قـريبة الوقـوع وستكون في « جندوبـة » بـدلا من « غريـان » حيث ان العـدو يزمع التحـرك في اتجاههـا . واراضي جندوبـة هـذه اراضي زراعيـة واسعـة وبها اثـار قديمـة تاريخيـة وهي تقـع الى الجنـوب من « غريـان » وقـد كانت في ذلك العهـد تعتبـر بعيـدة عن غريـان . اما اليوم فهي من اطراف غريـان بسبب امتداد العمـران وتطور وسائـل المـواصلات .

عـانى الايطاليون الامـرين في زحفهم اذ واجهـوا مصادمات عنيفـة وفي منتهى الشدة ما كانوا يتوقعونها . وتعرضوا لمـواقف غاية في الشدة والصعوبة تجرعـوا فيها مرارة الخسائـر الجسيمة الفادحة . ودفعوا الثمـن غاليا مع كل موقـع سقط في ايـديهم للمجاهدين . ومع ذلك فان التقارير المتجمعة لـديهم وبعض ما لمسوه اثنـاء الـزحف من مظاهـر كلها كانت تؤكد لهم قلـة امكانيات المجاهـدين من الاسلحـة والذخيـرة . وبالتالي فقد وجدوا الطريق مستشعرين امكانية الوصول الى نهايته مهما طـال بهم الطريق وزاد حجـم خسائـرهم . ووصلوا الي حيث قـوات المجاهدين في « جندوبـة » وكان المجاهدون بدورهم

يعرفون اهـداف الايطاليين القريبـة والبعيـدة من تواصل القتـال واصرارهم على الاستمرار وبكـل الاسلحة الجويـة والارضية التي تتبادل المـواجهة في خطة راقية لاجهاض خطط المجاهدين وارهاقهم واجبـارهم على الاعتراف بالهـزيمـة قبـل وقـوعها . وبمعنى آخـر النيـل من روحهم المعنوية عبـر سلسلـة متشابكـة من المعـارك تحت ظـروف قـاسية ابسطها عدم التكافـؤ في الاسلحـة وفي هذا الجـو وقعت معركـة « جندوبـة » الفاصلة في آواخـر سنة ١٩١٣ م صمـد فيها المجاهدون بصورة تحـولت الى مضـرب أمثال سجلتها وحكتها كتب الايطـاليين انفسهم قبـل ان يتحـرك لها الكتاب العرب . فقـد قاتـل الابطـال في اسوا الظـروف بضراوة وصبر عظيمين وجعلوا ميدان المعركة اشبه بما نعرفـه الآن بالتعبير العسكري الحديث « الحرب الانتحارية » دفعـوا مئات الشهـداء . وعند ما اوشكت ذخيرتهم على المـآل المحتوم غيـروا تكتيكاتهم وخططهم تحقيقـا لامكانيات اطول وصمود اعظم . ووصول بحجم الخسائـر في صفوف العـدو الى اعلى المعـدلات ولم ينسحب المجاهـدون من ارض المعـركـة الا بعـد نفـاد آخـر طلقـة من بنادقهم .

قلنـا آنفـا كان هناك استعداد للتفـاوض وكان بطلب من ايطـاليا بيـن منـدوب من هـذه والباروني وقد سافـر هذا للالتقاء بمندوب ايطاليا . غيـر ان انتصار الايطاليين وانسحاب المجاهدين في معركـة جندوبـة هـذه جعـل حكومـة ايطاليا تبـرق الى مندوبها بعـدم لزوم التفاوض والعودة الى ايطاليا . وهكـذا فقد انسحب المجاهدون من الميـدان بعـد ان صار للبقـاء معنى واحـد هـو الفنـاء التـام . وهنا تتوارد قصص وحكايات ونماذج غاية في الدلالـة. تعتبـر تجسيدا حقيقيـا لمعـاني البطولـة والتضحيـة والفداء في سبيـل العـزة والكـرامـة ليس هنا مجـال تعديد بعضها . وان كنت ارجـو ان تسنح لي الفـرصة لتسجيل بعض ما سمعنـاه وبالادلـة من رفـاق شهدوا المعركـة . وشاهـدوا معها مصارع اعزائهم ورفاقهم في درب الكفـاح والبـذل والنضال . بـل ان عملية انسحاب المجاهدين نفسها سادها نفس الظرف البطولي . فعند ما تأكد الايطاليون ان المعركـة قد انتهت لسبب واحد هو نفـاذ الذخيرة عند

المجاهدين . كما تأكدوا ان البطولة التي واجهتهم اصبحت مجردة من ابسط مقومات الدفاع عن نفسها . وان العديد من المجاهدين مصاب بجروح ، لما ادرك الغزاة ذلك حاولوا ان يطبقوا بوحشية وان يحولوا المعركة الى مجزرة لافناء المجاهدين . ولكن فيالق الابطال تمكنت من الافلات واتجهت صـــوب الحدود التونسية .

الهجرة الاولى نهاية سنة ١٩١٣ م

اتجهت جموع المهاجرين صوب الاراضي التونسية يتقدمها الزعيمان الكبيران : سليمان الباروني ــ ومحمد سوف) وهي تتكون من قيادات صغيرة ووجهاء واعيان ومحاربين وشرائح عريضة من مختلف الفئات الشعبية . ورضخت بعض الزعامات لهذا الاحتلال . ومنها من عين مستشارا لحكومة الاحتلال . كما بقى الذين لا حيلة لهم مجبرين غير مختارين تحت سيطرة الطليان فوق الاراضي التي احتلوها . وبوصول جحافل المجاهدين المهاجرين الى الاراضي التونسية . اتجه الزعيمان المذكوران مباشرة الى « تركيا » وفي « استنبول » راحا يبذلان الجهد ويواصلان السعي من اجل ضمان الحصول على المؤن والامدادات الاخرى لمواصلة التحرير . وبقى المهاجرون في انتظار ذلك متوقعين نجاح مساعي الزعيمين في الحصول على امكانيات لاستئناف الجهاد من جديد حتى وان بقيت « تركيا » بعيدا عن الميدان واقتصر دورها على مجرد القبول بامداد المجاهدين .

اما الطليان فبعد هجرة المجاهدين واصلوا تقدمهم نحو الغرب والجنوب . وفي يوم من الايام تغير جو القرية واخذ يزداد الهرج بين الاهالي وتتجمع الرجال في اماكن خارج القرية وماذا عليهم ان يفعلوا . وفي

احـد تلك الايـام وصل الطليـان الى مشارف القريـة . الفضول اخـذنا نحن الاطفـال وقلنا : « هيـا نمشوا نشبحوا النصارى شنو شكلهم » واتفق فريق منا على الذهـاب الى حيث نـزل الايطاليون ، وكنت انا من بين هذا الفريق . ذهبنا الى حيث نزلوا في طرف القريـة تحت اشجـار الزيتـون . ولمـا وصلنا وقفنـا امامهم نحملق باعيننا الى هـذه الاشكـال الغريبـة بالنسبة لنـا ومما ظهـر لنا غـريبا واضحكنا كثيرا وجعلنا نتهامس فيما بيننا هـو اننا راينا ريشا منتصبـا على قبعـاتهم . ولمـا راوا منا ذلك تحرك افراد منهم وتقدمـوا الينا واسلحتهم في ايـديهم ونحـن لم نتحرك وافتعـل بعضهم الابتسامـة . واخـذوا يسألـوننا : اين ذهب البـاروني ومن مع الباروني . ومتى يعـود . وغيـر ذلك . ثـم تقدم احـدهم خطـوة عن زمـلائه وبـدا يسألنا : الباروني كبيـر مثل الزيتونـة ويشير اليها بيـده . ام هـو مثلنا ويشير بيـده الينا والى نفسه . ولم يـرد عليه احـد منا . ثم اخـذ الجندي يقول لنا : « الباروني مسكينومنجاريـه ما فيش . فوشيليا ما فيش ـ باروني اسكابا ـ بارونـي مورطـو » . قـال لنا هـذا الكلام ونحن نسمع ولم نتكلم . وحينمـا سكـت الطليـاني : وكأنـه ينتظـر الجواب . تقـدم احدنا من تلقـاء نفسه ودون ان نعـرف نحن ماذا سيقول ، وقـال له : « الباروني كبير مثل الـزيتونة واشار اليها بيـده . الباروني منجاريـه بالـزاف . فوشيليا بالـزاف . شويى شويى اجـي البارونـي الطليـان الكـل مـورطـو » .

وهنا عـدل الجندي بندقيته وحـرك زنادها مستعمـلا السرعة والانفعـال ليجعـل الطلقـة في بيت النـار . فصارت للـزنـاد « خشخشة » اختلطـت بكلمـات منه لم نفهـم منها شيئـا « طبعـا » واطلق طلقـة في الجـو . وفي اسرع من لمح البصر اختفينا جميعا كل منا الى حيث اتجه . واحدنا الذي قال هذا الكلام كنت اظنه : « مسعود علي الصركيك » الا ان شقيقي « سعيد خليفـة المجـدوب » كان هـو الآخـر معنا في هـذا الفريق وهـو يكبرنـي بعامين اثنين فحينما سمعني اذكـر هذه الواقعـة في مناسبة . ما . قـال لي . لا . الذي قال هذا الكلام هو : « المقطوف علي الغويل » ولعـل شقيقـي

اثبت مني في هـذا الامـر . وعلى كل فالقائـل لهذا الكلام هـو احـد هـذين الاثنين لا شك في ذلك ولا ريب رحمهمـا اللـه تعـالى .

وبعـد ايـام لا ادري عـدتها ارتحـل اولئك الجنود متجهين الـى الغـرب نحو نالـوت فيما اظـن واستمر اهـل القـرى في زراعتهم وفـي الـرعـي . وبمعنى عـام سارت الحيـاة في القريـة على وتيرتها المعتـادة . ودارت عجلة الحيـاة مـع ذلك دورتها العاديـة . ودون ما قصور . الاشجـار جرت خدمتها ، والارض زرعت بالحبوب ، والحيوانات تخـرج وتعود للمراعي كالمعتـاد . وجـرى فتح « الكتاتيب » من جديـد وعـدنا نـواصل حفظ القـرآن الكريـم من جديـد وتعلـم القـراءة والكتابـة وبعض امـور الفقـه . اذ كان فقهـاؤنا يكتبون لنا سطرا او اثنين اسفل اللوح كلما محونا اللـوح ، ولا بـد من حفظ ذلك وفهمه . وكأن القوة البشرية في القرى لم تنقص وهذا ربمـا هو الذي اعطى العـدو ايحـاء بان القريـة بعيـدة باهتماماتها عما يجري فتركوها دونما تدخـل او محاولـة لاقتحامها . اما الروح المعنوية بين الاهـالي فكانت هائلـة يقويها ويدعمها ذلك الايمـان القـوي بالاسلام والجهـاد .

وهنا اذكـر واقعـة كان لها دورها في تململ الاهـالي واشعـال جـذوة الحمـاس ايضا فعند ما تجـاوز الطليان قـرى الجبـل الى الجنـوب عمـدوا الى اجبـار الرجـال والاطفال على تنظيف شوارع القرى والمدن ولم يكتفوا بذلك بـل اجبروا حتى النساء على المشاركـة في ذلك . وبالطبع فقـد كانـوا يقصدون بهـذا اذلال الشعب . وفهمت النساء المقصود وبالتالي فقـد نظمـن اشعـارا زجليـة في ذلك تدفـع الرجـال الى التفكيـر للتخلص من ذلك الاذلال بطريقـة او باخـرى ومن بين هذه الازجـال ما قالته احداهن وتناقله الناس :

« انـدزوا جواب لسوف والباروني   الطليان على مسح الكـدى لزوني »

لزوني تعني اجبـروني ـــ والكدى جمـع كدوة . وهي المـرتفعات غيـر الطبيعية المتكونة من الاتربة . وقد انتشر هذا الـزجل بين الكبار والصغار يـرددونه باستمـرار . وهـذا شكل من التعبيـر عن معارضة الاحتلال واظهار

السخط وعدم الرضا عن المستعمرين ذلك لأن ذكر الباروني وسوف يثير الرعب في نفوس الايطاليين وعملائهم .

ونظرا الى هذه البوادر التي تعبر عن شيء كامن في النفوس بدات تستجد ظواهر جديدة غريبة على الاهالي . استطاع الطليان ان يغري بعض ضعاف النفوس من الاهالي وذلك بتخصيص معاشات لهم مقابل اعطائهم المعلومات عما يدور بين الاهالي . وعن سير الحياة في القرية. والتزاما بالحذر قلل الناس بدورهم الكلام حتى لا يقدموا مادة سهلة لهؤلاء الخونة وحتى لا يتعرضوا لالوان التعذيب والاعتقال التي صار يمارسها الطليان بعنف ودون ما منطق . وزادت عمليات التصنيت والتجسس حتى ان بعض الاهالي اذا تصادف ان حاول فتح باب داره ليلا لسبب او لآخر فانه يفاجأ بمن يتصنت عليه . وذلك لاستراق السمع لمعرفة ما يدور في الداخل . والاثر المباشر لذلك انعكس ثقيلا على جو القرية فصار الناس جميعا يبدون صامتين واذا تكلموا ففي اقتضاب وباختصار . وفي الحقول الفسيحة اثناء العمل الزراعي او الرعي لم يمنع هذا الجو الخانق الاهالي من الكلام عن المجاهدين واحاديث الجهاد وترديد الاهازيج المتعلقة بوقائع الجهاد . ورغم ان المدد الايطالي وصل الى « فزان » في اقصى جنوب البلاد ورغم ان السيطرة الايطالية بحت شبه كاملة رغم ذلك فان المدد التركي الذي ذهب الزعيمان « سوف ـ والباروني » يسعيان في الحصول عليه لم يبدأ الا بوقوع الحرب العالمية الاولى .

وصل المدد الايطالي الى « فزان » وبما ان المرحوم « سالم بن عبد النبي » من سكان تلك المنطقة فقد التجأ هو ومن معه من ابطال الجهاد الى زاوية في الناحية الغربية من صحراء الوطن بعيدا عن متناول الغزاة . وبقى هؤلاء واولئك ينتظرون الفرصة المواتية لمواصلة تحرير الوطن . « وسالم بن عبد النبي » من زعماء الجهاد المخلصين فهو نظير « عبد العاطي الجرم » من حيث انه رجل امي ولكنه على جانب من

الشجاعـة وعلـو الهمـة . قلنـا انـزوى الى ركـن من الصحـراء . ولم يخرج من الـوطن حينما هاجـر المهاجـرون . ولعلـه هاجـر وعاد الى تلك الزاويـة الصحـراوية حينما انـذرت فرنسا المهاجـرين قائلة انها لا تقبـل وجـودهم لأمـد طويـل لأن اراضي تـونس ضيقـة لا تستوعب اكثـر من اصحـابهـا لا ادري ولعلـه فعـل ذلك لأنـه يـرى ان المجـال السيـاسي ليس مجالـه ، وانما مجالـه منازلـة العـدو في ميادين القتـال . ومن ملجئـه ذلك اخـذ يغير على الايطـاليين والمواقـع التي يحتلونها . وان اسمه كـان يثيـر حفيظـة الايطـاليين وبقـدر ما تأكـد لنا مـدى اثـارة هذا الاسم لحفيظـة الاعداء بقدر ما دفعنـا عنـاد الطفولـة الى ترديـده . وفي الحقيقة لقـد كـان اسم علـى مسمى فعـلا اذ ان صاحبه اعطى الكثير وسطر بحروف من نـور قصة مثيـرة ضمنها صحـائف الجهـاد ، مميـزة ناصعـة . وان لم تتناقلها كثيرا الصحف والمجـلات ولعـل ذلك بسبب فقدانـه الجـانب العلمـي ، فهـذا الجـانب في الانسان هـو الذي يفتح لـه بـاب الشهـرة في الحيـاة وابواب التاريخ بعـد الممـات حينما يقتـرن بالعمـل المخلص والنزاهـة في العمـل الصالح والثبات عليـه .

عـرفت « سالـم بن عبد النبـي » عن قـرب سنة ١٩١٥ م حينمـا جـاء بمحلته برئـاسة « المهـدي السني » وعسكرت في قـريتنا بالذات مـدة . ومنذ ذلك الحيـن لم اره . حتى قـدر لي ان التقي به في المهجـر وان اقابله (بلحمه وشحمـه) كما يقول المثـل . وقد اصبح شيخـا كبيـرا ينـاهـز الثمانين من العمـر طويـل القامـة قليل الكلام . وذلك حينما بدانا الحركـة الـوطنية في تـونس وبـدات بمكاتبة الاخـوان المهاجـرين في مختلف اماكنهم . وبالطبـع فان اول من يجب الاتصال بهم قبـل غيرهم ، العنـاصر البارزة وذات التجربة والماضي امثال : « سالم بن عبد النبـي ــ ومحمد الحاج حسن ــ والحاج محمد فكينـي ـ ومحمد غالب الكيب ـ وعمر ضيا المدفعي ـ وعبد الرحمـن شالابي ـ ومسعود بوسنوقـة . وغيرهم . وفي احـدى اجتماعات الجمعية سنة ١٩٣٩ م على ارض تونس الشقيقة وبعد الفراغ من اعمـال المؤتمر جلست

معه جلسة طويلة رجعنا فيها بذكرياتنا الى سنة ١٩١٥ م وعندها سألته عن كيفية اقتحام « قاهرة » في سبها فروى لي المثير والغريب فقال :

« قاهرة » هي « قارة » مرتفعة « بسبها » بها استحكامات ومساكن حصينة كانت معسكرا يعج بالاسلحة والجنود الايطاليين اختاروا ذلك الموقع بناء على اعتبارات عسكرية محضة . ونحن كنا نخرج احيانا من الصحراء الرملية التي التجأنا اليها في مجموعات للاغارة على الايطاليين والمواقع التي يحتلونها . وتلك هي طريقة الحصول على معيشتنا ، وعلى الذخيرة وبعض الاسلحة . وفي يوم من تلك الايام الغابرة خرجنا في كوكبة لا اذكر عددها . كما لا اذكر بالتحديد تاريخها بينما نحن نسير في الصحراء قريبا من سبها نفتش عما نجده واذا بنا أمام رجل يسير منفردا فاسرعنا للقبض عليه لنحصل منه على بعض المعلومات عن الايطاليين وتصرفاتهم وعن حالة الاهالي في ذلك الموقع . وبسهولة قدم لنا معلومات كافية بل اكثر مما نحن في حاجة اليه . اردنا ان نتثبت منه هو نفسه ان كان كاذبا او مبالغا . فاقسم لنا ان كل ما اورده هو الكلام الصحيح الذي يتأكد منه .

صدقنا قسمه استنادا الى بعض الامارات الاخرى البادية في كلامه . وهكذا فقد اخترنا ثلاثة من اشجع افراد المجموعة وكلفناهم بالذهاب معه على ان يسير واحد على يمينه والثاني على يساره والثالث خلفه . وقد انذرناه بشدة وحذرناه من اية حركة مريبة ياتيها قد تعني نهايته على الفور . وساروا كما وصفنا نحو البوابة . وتابعناهم من بعد . تعليماتنا للافراد الثلاثة ان يدهموا حارس هذا المنفذ الموصل الى قلب « قاهرة » فاذا تمكنوا منه دون ان يثير انتباه الاخرين فليجهزوا عليه . والا فاليطلقوا النيران عليه وعلى زملائه . وعندها سنتقدم نحن للمواجهة وليفعل الله تعالى ما يشاء فنحن عليه متوكلون .

المهم تقدم الافراد مع هذا الدليل حثيثا نحو الموقع الذي قال لنا ان على مدخله جنديا ايطاليا . وان الضباط والجنود يقبعون على مسافة في

الداخـل وفي اطمئنــان . لانهم لا يتوقعون أي هجـوم من هذه الجهـة بالذات . وهكـذا تقدم الافراد الثلاثة وحـدث بالفعـل ما اخبرنا به الدليل . كان جندي الحـراسة في غفـوة بجـانب سلاحـه لم يفق منها ابـدا . فقد عاجله الثلاثة وذبحـوه ذبحـا قبل ان يتمكن من اتيان ايـة حركـة ، وتكتموا على جسده حتى لا يحـدث منه صوت شخب الدمـاء اي انتبـاه . وبالفعـل صار الطريق الى داخـل « قاهـرة » مفتوحـا واسرعنا جميعا الى الداخـل . ضوء القمـر ينعكس بشدة فوق الرمال . ولكنه يترك ظلالا كثيفــة على جوانب وابواب المعسكرات والبيـوت في وسط المكـان . بـدا لنا سطح البيوت واضحا يمكن الارتقـاء اليه بسهولـة .

هـدانا التفكيـر عاجـلا الى امـر اسرع بمقتضاه احـدنا الـى الصعـود لهـذا السطح ومنه ارتفـع صوتـه بكل ما أوتي من قوة بالاذان « الله اكبر ... » وقد جـاءت النتائج كما توقعنـا . لم يكن ثمـة موعـد لصلاة بل ولم يكـن هناك جامـع ولا مسلمون . ومن هنا عنى الاذان ما قصدنـاه وهـو وصـول المجاهـدين بسرعـة . وفي ثـوان عـم الاضطراب الجميـع . الجنـود فـي المعسكرات داخـل « قاهـرة » واسفلها . والاهـالي في « سبها » وساد الهرج والمـرج وانفلت جنـود العـدو خارج المعسكرات بسلاح وبدون سلاح .

وانطلقت اعيرتهم الى غيـر هـدف محدود وفي كل اتجـاه في حالـة ارتباك وفـوضى . امـا نيراننا نحـن فكنا نعـرف مقدما وعندنا الخطـة مسبقا اين نـوجهها . وتساقط الجنـود على ابـواب المعسكرات وتدافعت جموع الهاربين الى ابـواب « قاهـرة » وخـلال وقت قصير لم يبق ثمـة اثـر لمقاومـة وصار المـوقع في ايـدينا باكمله وغنمنا كل ما تركـه الايطـاليون من اسلحـة ومـؤن وذخيـرة وانتظـرنا حتى الفجـر . ومع انبثـاق خيوطـه الاولى بدانا حملـة التطهيـر للمواقـع المحيطـة واصبح العـدو في وضع خطير جـدا . وتاكـد له ان محاولـة استرداد « قاهـرة » امـر مستحيـل . وان بقـاءهم في « سبها » معناه الفناء الكـامل فانسحبوا منهزمين تاركين كل مــا يملكـون متجهين صـوب الجبـل .

الى هنا انتهت قصــة احتلال « قاهـرة » في آواخـر سنة ١٩١٤ م التي حكاها لي صاحبها « الشيخ سالم بن عبد النبي » رحمه اللـه تعـالى . وهناك في ذلك المكـان تكونت « محلـة ـ المهـدي السني » وعلى ذكر عبـارة محلـة اود ان أوضح معنى هذه العبـارة . فأقـول : ان عبـارة « محلـة » كما كـان مفهومها في ذلك الوقت هو ان كل شخصية بارزة في المجتمع مهيبة الجانب واوتيت نصيبـا من قـوة الارادة والشجاعـة . او نصيبا من العلـم والشهرة الـدينيـة وينظـم حـولها عـدد من المجاهـدين يعـدون بالمئـات او بالالاف وتوفـرت لـديهم الاسلحـة والمـؤن يطلقون عليها اسم « محلـة » اي محلـة فـلان على اسم ذلك الشخص المتوفـرة فيه شروط الزعامـة فتتقدم هذه المحلة بقيـادة صاحبها الى ميـدان الجهـاد وتعسكر على ثغـرة من ثغـور الواجهـة لمنازلـة العـدو . اما فيمـا يختص برئاسة السيد « المهـدي السني » لهـذه المحلـة التي تكـونت في « سبهـا » فقد جـاءت بحكم الاعتبارات الـدينيـة ومكانتـه في نفـوس النـاس فقد كان من اتباع الصوفيـة .

سالم عبد النـبي

الحرب العالمية الاولى واستئناف الجهاد فى ليبيا

حينما انفجرت الحرب العالميـة الاولى ١٩١٤-١٩١٨ م كانت ايطاليا قد تأخرت عن دخولها . وكان الحلفاء غير مطمئنين لموقفها خوفا من ان تنحاز الى تركيا والمانيا والنمسا . ومن اجل ذلك فمنذ بدء الغارة الايطالية على « طرابلس الغرب » الى ان دخلت ايطاليا الحرب في صف الحلفاء عامان تقريبا تركت بريطانيا وفرنسا خلال هذه المدة حدودهما بين مصر وليبيا . وبين تونس وليبيا مفتوحة لتسرب العسكريين من ليبيين واتراك . ولورود الاعانات من اموال ومؤن وبعض المتطوعين من الاقطار العربية . وخصوصا تونس التي كانت اعاناتها تتوارد بلا انقطاع . وفي خلال سنة ١٩١٤ م حينما دخلت ايطاليا في صف الحلفاء اغلقت هذه الحدود في الشرق وفي الغرب .

والذي يجب ان نلاحظه للتاريخ هو ان فتح الحدود الآنف الذكر لم يكن بدافع الانتصار للمظلوم . او سيرا مع الحق والعدل . او حتى من قبيل الانسانية . كلا وانما كان الهدف من ذلك تهديد ايطاليا ، فكان لسان حال الحلفاء بعضهم ذاك يقول لايطاليا : اما ان تكوني في صفنا . والا فتحنا عليك ابوابا يتمكن منها المغرب والمشرق العربيان من مساعدة المجاهدين بالمال والرجال وكل الوسائل . وهكذا فقد نجحت المناورة وانضمت ايطاليا الى الحلفاء ، وبذلك اغلقت الحدود وانقطعت الاعانات التي

كـانت تتوارد على المجاهـدين . واصبحت ليبيـا داخـل دائـرة محكمـة . اذ ان الـدولتين المستعمرتين تسيطران على الحـدود من الشرق ومن الغـرب . وتلتقيـان في الجنـوب . والعـدو الايطالي يحتـل شواطىء البحـر . ورغـم ذلك فقـد واصل الشعب كفاحـه بلا هـوادة .

واعـود الى الـوراء قليـلا لنـواصل حكـايـة الـزعيميـن ـ سـوف ـ والبـاروني ـ سبق ان قلنا ان هذين الزعيمين بعد ما وصلا مع المهاجـرين الى الاراضي التـونسية . واصلا سفرهما كل بالطريـق الذي اراده مباشرة الـى تركيـا . وفي « استنبول » راحـا يبـذلان الجهـد من اجـل الحصول علـى المؤن وامـدادات مقومـات الحـرب من اسلحـة وذخيـرة لمواصلـة الجهـاد . الا ان الدولـة العثمانيـة كانت آنـذاك منهمكة في الاستعداد لدخول حـرب كبـرى . في جـانب « المـانيـا ـ والنمسا » ضد الحلفـاء . وكـانت هـذه الحـرب وشيكـة الانـدلاع . وهي الحـرب العالمية الاولى كما ذكرنا سابقا . وبما ان ايطاليـا تأخرت عن دخـول الحرب عـدة من الاشهر كما اسلفنـا . فقد بقـي الزعيمـان في تركيـا دون الحصول على شيء . وحينمـا دخلت هـذه الحـرب تحركت الدولـة العثمانية وزودت الزعيمين بالتعليمات الـلازمة لاستئنـاف الجهـاد في طـرابلس الغـرب .

وفي هذه الاثنـاء راجت اشاعات سمعناها من افـواه الناس . وقد انتشرت هـذه الاشاعـة مـدة . تقول « البـاروني » قـد اختفى من « استنبول » واتجه الى جهـة مجهـولـة . وبينما النـاس في اخـذ ورد ويضربون الاخماس في الاسداس حـول هـذه الاشاعات اذ بالاخبـار تقول « البـاروني » في « برقـة » الجـزء الشرقي من ليبيـا . والملاحظـة هنا التي ينبغي الاشارة اليها . هـو ان « البـاروني » منـذ ذهب الى تركيـا بعـد وصول المهاجـرين الى تـونس جاء الى ليبيـا وعـاد الى تركيـا اكثـر من مـرة . قلنـا ظهـر الباروني في برقـة ولكنه لم يصل الى اقليـم طـرابلس . ولعله عـاد ادراجه الى « تركيـا » . كما انتشرت بين النـاس حكاية لا اعـرف صحتها من بطلانها تقول ان «الباروني» قطـع المسافـة بين تركيـا وليبيا في زي الدراويش ، وبذلك تمكن من الوصول

رمضـــان السويحـــلي

رغم التعليمات المشددة التي عممها الحلفاء على جميع المنافذ التي كانوا يسيطرون عليها وذلك للقبض على الباروني قبل ان يصل الى ليبيا .

هذا فيما يختص بمجيء الباروني الى ليبيا في هذه المرة . اما مجيء « سوف » فلم اسمع بالطريقة التي عاد بها الى ليبيا من تركيا وما عرفت وجوده في الوطن الا حينما جاء بمحلته كما وصفت سابقا . والمهم في الامر وصل الزعيمان الى ليبيا

وقبل مجيء الباروني من تركيا الى طرابلس وفي ذلك الجو الصاخب والظرف المليء بالاحداث خلال سنة ١٩١٥ م تواردت علينا اخبار من الجهة الشرقية لاقليم طرابلس تفيد ان المجاهد الكبير « رمضان الشتيوي السويحلي » وعناصر قيادية اخرى معه من ترهونة وورفلة وزليتن ومسلاتة وغيرهم قد انقلبوا على الطليان في منطقة اسمها « القرضابية » وقد أفنوا في هذه الموقعة عشرات الالاف من الايطاليين . وغنموا من الاسلحة والذخيرة والمؤن ما يفوق الحصر . فكانت واقعة لا اقول انها درس للايطاليين المعتدين بل هي صدمة اذهبت صوابهم وكارثة اطارت عقولهم . لم يروا اشد منها فيما بعد .

هذه نقطة تشير الى الاخبار التي كانت ترد الينا من النواحي الشرقية لاقليم طرابلس . ولا استطيع أن أواصل الحديث عنها اجتنابا الى ما قد يحدث من الاخطاء اذ أن الاخبار عن هذه الواقعة دارت حولها احاديث فيها تضارب في اسباب وقوعها وكيف كان وقوعها . « الذي يكتب في الورق سواء طبع في كتب ام يبقى بعد صاحبه مسجلا بيده يكون له مكانه واعتباره في التاريخ عند الاجيال المتتالية ولذلك ينبغي الاحتياط والتحري من الكاتب . لان اخبار الناس في الغالب تتخللها العواطف والميول فيجب على من يكتب ان يستوي عنده حينما يكتب من كان معه او عليه قياما بالامانة التاريخية » .

ففي آواخر ١٩١٤ م على وجه التقريب ودون ما تأكد من التحديد سرت

الاخبـار في الجبـل ان « قاهـرة » قـد احتلها المجاهـدون وان الطليـان هرب من « فـزان » منهزمـا وبـدا الصدى يتواتـر في صورة عمليـة . وتحـركت الناس لاخراج المخبوء من الاسلحة البعض سعى الى مصادر اسلحة اخرى سواء عن طريـق شرائها او الحصول عليها بطـرق اخـرى . ولا يخفـى ان الايطـاليين حينما جـاءوا للبـلاد قامـوا بحمـلات مركـزة لجمـع الاسلحـة حتى الخناجـر والمـدى جمعوها وصادروها . وفي هذا الجـو المملوء بالاشاعات تواتـرت الاخبـار من مختلف الاماكن والمصادر « وما آفـة الاخبار الا رواتها » كما يقـول المثـل انتشرت بما يشبه المبالغـات حـول استسلام الايطاليين في الموقع الفلاني . ورحيلهم من هنا وفرارهم من هناك تحت ضغط المجاهدين وبطـولاتهم اخبـار كثيـرة مطمئنـة ومشجعـة .

بعـد مـدة عبـر هـذا الجـو وكعـادة صارت واردة ان تنطلق اخبـار عن وصول المجاهـدين . فيخرج الاهـالي ، نقف بالساعات لنفاجـأ بخبـر آخـر يقـول ان المجاهدين غيـروا طريقهم . وهكذا كان الجـو ، وكان موظفو الحكومـة بما فيهم المديـر اكثـر قلقا واشد خـوفا من غيرهم . وفي يوم مـن الايـام تأكدت اخبـار وصول طلائـع المجـاهدين الى مسافة غير بعيـدة مـن القـرية ، فلم يبق من شك عند موظفي الحكومة ان الاخطـار قد احـدقت بهم ، وانهم يوشكون ان يقعوا في قبضة المجاهـدين بمـا فيهم المديـر . فانطلقـوا فـارين دون انتظـار احـدهم للاخـر متجهين نحو مركـز القائمقاميـة قبـل وصول المجاهـدين .

وهنا اذكر واقعة لا زلت اتخيلها كما وقعت بالضبط طريفة . ففي قريتنا وما يـزال صاحب هـذه القصـة حيـا يـرزق يتجـاوز عمـره الخـامسـة والثمانين . فلقـد حـرك الحمـاس أحـد اهـالي القـريـة وهـو : السيـد « علـي المبروك بن امحمـد » وكان في ريعـان الشبـاب . كنت واقفـا فـي مـرتفـع « كـدوة » اتفـرج على فلول الفـارين واذا بـ « علي المبروك المذكور » « الحـاج علي المبـروك » اليوم يندفـع الى فـرس كانت امـام منزل اصحابها دون اذن منهم حيث تغلب عليه الحمـاس . فامتطى تلك الفرس بدون سـرج

واطلــق لها العنان ملتحقا بالمــوظفين الفاريــن فــادرك احــد « زابطية المديـر » فصاح عليــه : « سلــم البندقيــة » فسلمها لــه . ثم صاح به ثانيــة ان « اسلب الحــولي » فسلبه وسلمه ايــاه . هــذا ما كنت اشاهــده بعينــي آنــذاك . من ذلك المـرتفع . وفي هــذه الايــام نجتمع احيــانا بهــذا الشيخ الهـرم . وفي احـد اجتماعاتنا عــادت بنا الذاكـرة الى تلك الايام الخــوالي وما تخللها من احداث ، فقلت له على سبيل المزح (عان اليوم آثــار سلب ذلك الرجــل الذي لم تكتف ببندقيته فسلبت « جــرده » وتركته عاريــا) فقال : البندقيــة فعــلا اخــذتها امــا « الجــرد » فلم اخــذه ولا ادري مــن منا اثبت علــى المـوقــف .

هــرب الايطــاليون منهزمين من خط الجبــل ابتداء بالجهــة الغربيــة منــه تاركيــن ما عندهم من اسلحــة ومـؤن في مركز القائمقاميــة وتدافع النــاس الى تلك المخــازن فنهبوهــا . خصوصا الاسلحــة التي كان النــاس يفضلونها عن كــل ما سواهــا . وفي ذلك الــوقت اي من الغــد وصل الى قريتنا زعيــم غيــر معــروف لــدينا من قبــل اسمه « الشيخ بلقــاسم خيشة » يقــال انه من المحاميـد قالــوا هــذه « محلــة خيشة » كانت مجموعــة بسيطة . قوامها هــو ومجموعــة صغيــرة من المجاهــدين سمعنا فيما بعــد انه استشهد في « زوارة » او في « بوعجيلــة » وتفــرق اتباعــه . وبعــد مــدة جــاءت محلــة « سليمان باشا البــاروني » كانت محلــة ضخمــة ضمت اعــدادا وافــرة من الفــرسان والمشــاة .

بعــد مــدة من مغــادرة « محلــة » الباروني . وصلت الينا اخبار مفــادها ان شخصا يــدعى « الهــاشمي » بمحلتــه وصل الــى « الحرابــة » ومنهــا سينتقــل الى الــرحيبات . ويشاع ان هــذا الشخص من « الزويــة » وينتسب الى السنوسيين وكانت قــد وصلت عنه اخبــار من قبــل واشاعات بانه رجل مفسد ما دخــل قريــة الا واذل رجــالها ونهب امــوالها وعمــل فيها ما يعــف القلــم عن ذكــره . كما اشيع عنه انــه تــزوج امــراة من فــزان بعــد ان قهر والــدها وجلــده وعذبــه ليوافقــه على طلبــه ، وبالتالي فان اخبــاره كــانت

مزعجـة مخيفـة . ومن هنا بـدا التفكيـر في الـرحيبات كيف يمكن تفـادي شـر هـذا الطاغيـة الفـاسق الـذي صار وصولـه وشيكـا .

هـداهم التفكيـر الى ارسال وفـد على الخيـول الى « الشيخ سوف » ولعله كان اذ ذاك في « الجـوش » ليطلبوا منه تـدارك المـوقـف بالـوصول الـى الـرحيبـات قبـل ان يصلها هـذا الـدعي المفسد . لأن وصول « الهـاشمي » يعني مجابهـة لا تبقي ولا تـذر بينه وبيـن الـرحيبات . وسافر الوفد قبيل المغـرب ، ومن الغـد قبل الظهـر بقليل وصلت الابـل محملـة مـن الحرابـة بالاسلحـة والـذخيـرة وحفظت في حـوش « علـي بن سالـم » وهي مقدمـة لمجـيء « الهـاشمي » المذكـور . ومن الطـاف القـدر أن وصلت طلائـع محلـة سوف « الخيـول » قبيـل المغـرب بقليل من اليوم الثاني لسفر الوفـد وضبطت تلك الاسلحـة والذخيـرة . امـا « الهـاشمي » المذكـور فلمـا بلغـه وصول طلائـع محلـة سوف الى الـرحيبات نـزل من « الحرابـة » الى اسفل الجبـل واخـذ طريقـه في اتجـاه الشرق ، ولم أسمـع عنه بعـد ذلك . وكانت محلـة سوف محلـة ضخمـة تضاهي محلـة البـاروني أو تزيـد عنها عـددا .

وبعـد مغادرة محلـة « سوف بـك » الـرحيبات بمدة وصلت « محلـة المهدي السنـي » بقيـادة « الشيخ سالـم بن عبد النبي » ولم تكن هذه من الضخامـة كسابقتيها محلتي « سوف ـ والبـاروني » ولكن يبدو لي انها اكثـر نظامـا لانها في مظهـر عسكري نظامـي . وكل هـذه المحلات كانت تمـر بالقريـة مقتفيـة اثـر الايطـاليين . وكل محلـة تضع رحالـها يومين أو ثلاثة للراحة ثـم تـواصل زحفهـا خلف قـوات العـدو المنهـزم . ووصول كل محلـة كان يعنـي عيـدا للقريـة . الجميع رجـال ونساء واطفال يخرجون الى الطرقـات والحمـاس يجـرف الجميع . يرتقبون وصول محلات المجاهـدين ، زغاريـد النساء ، وهتافـات وتكبيرات الكبار واناشيد الاطفـال ، واهازيج تندفع مـن حناجـر كانها من صلب أو من نحـاس ترحيبـا وفرحـة . فتردد صداها تلك الاجواء الثائرة الهادرة وتتوالى الصور حتى لقد اصبح الكثير منها يعلـق

باذهـاننا نحن الصغـار فنرددها تلقائيـا مع الكبـار . وان بعضها رغم مرور عشرات السنين ما زال عالقا بذهني بنفس الـوضوح كالآتي مثـلا :

طقـوه مكبـوس الاوتـار (1) ورآ نزلـة الشيـخ غومـه
ظهـروا محـاميد لحـرار على ظهـور شقـرتضمـار
قليـل حبهـم من يرومـه

من الغـرب سيدي السنـي ومن الشـرق سيدي العابـد
ويـا حصلتـك يـا مطليـن حصلـة جمـل بين المجابـد

يـا مهـر نكويـك بالنـار ونقطـع لربعـه ال شايلاتك
لا يـوم فرحتنـي بمشـوار وخيـول العـدو مقابلاتـك

ورد الفعل يصل الى اقصى حدود الايجـابيـات فسرعـان مـا تنتظـم الاجتماعات بين الكبـار من اهـالي القريـة وبين المجاهـدين في تلك المحلات ويتمخض الامر بسرعة على انضمام المزيد الى صفوف المجاهدين . وبالطبع فلم نبق نحن الصغار بلا دور في الترحيب بالمجاهدين . فسرعان ما ظهر دور جماعـي فمع وصول ايـة « محلـة » ونزولها بالقريـة نسرع نحن للخيـول فناخـذها الى حيث منابـع الميـاه لنسقيها . لأن هذه المنابـع كانت آنذاك تبعد عن القريـة بحـوالي اثنين أو ثلاثـة كيلومتـرات . وليس هـذا بالنسبـة للحيوانـات وحسب . بـل وحتى شرب النـاس يجلب من هناك على ظهـور الـدواب في حـالات نضوب الصهاريج من ميـاه المطـر . ولم يكن الـوضع مثل ما هـو اليوم اصبح المـاء ينبـع في داخـل المساكـن . اجـل نسرع الى خيـول المجاهدين لنسقيها . وتحت ستار اداء هذا الـواجب نحو المجاهدين بخـدمتهم كنا نتسابق على الخيـل مع بعضنا لنتعلـم « اللهيـد » والفروسية . وذلك عند ذهـابنا . اما في العـودة فلا « نلهـدهـا » .

وهذه المحلات كان قـوامها مجاهـدون من فـرسان ومشاة كلهم في صـور

---

(١) مكبوس الاوتـار : الطبـل

مـدنيــة . الا محلــة « المهــدي السني » كانت على مظهر نظامــي عسكري . وفي نفس الــوقت التي تواردت فيه هذه المحلات بزعمائهــا ظهــرت زعــامــة جديــدة . اقول جديدة بنــاء على ما اعرفــه انا شخصيا ـ وقد يكون لها جذور سابقــة في الحركــة يعــرفها غيري من النــاس لا ادري . ولقد كــانت هــذه الزعامــة الجديدة على جانب من قــوة الارادة والتصميم والاخــلاص . تلك هي زعامــة المجاهــد المخلص « خليفــة بن عسكر » من مدينة « نالــوت » فاحــدثت هــذه الزعامــة جــوا متزائــدا من الحمــاس بين سكــان القــرى والبــوادي ولهجت به الالسن حتى كان الصغــار والكبــار يــرددون كلمــة سجــع هــي :

« يا مطليــن جــوك الفلاقــة بنعسكــر وامعــاه رفــاقــه »

ولقد ازداد خطــر هذا الزعيــم حينما كمــن برجاله في جبــل « اتكــوت » حتى اذا حــاولت حاميــة نالوت الايطالية وما تجمع معها من حامية « سيناون » وغيــرها . حــاولت هذه العساكر الايطاليــة الهروب من نالوت الى « زوارة » للنجــاة بنفسها . فاصلاها هــذا الزعيم وابطاله نــارا حــامية في معــركــة كانت في منتهى الشدة ولم يفلت من اولئك الجنود الا افراد قليلون ، هامــوا على وجــوههم مذعــورين حتى دخلوا الحدود التونسية القريبة من نالــوت ، وبسبب هذه المــوقعة اطلق على ذلك الجبل اسم : « خشم بنعسكر »

وكلمــة « فلاقــة » هذه اطلقها الايطاليون والمتطلينون على المجاهــدين قصد الحط من قيمتهم واهــدافهم الــوطنية على عــادة المستعمرين ضد كل من يقف في وجــوههم مدافعــا عن وطنــه وحــريته . وقد جرت هذه العبارة على افواه الصغار والعامة الذين لا يدركون الحقائق فكانوا يرددونها بفخر واعتزاز ، لانهم يفهمون منها ان الفلاقــة يعملون على طــرد الطليان من البــلاد ومعاقبــة المتطلينيــن .

اكتمــل هروب الطليان من كامــل خــط الجبــل واستولى المواطنون علــى مخــازن الاسلحــة والتمويــن التي تركها العــدو الهــارب . وانطلق الكثيــر من الاهــالي في اثــر الايطــاليين طمعــا في الحصول على مزيــد من الاسلحة

وغير ذلك . وكان من بين الاقارب الذين خفوا مع الناس لملاحقة الايطاليين الفارين المرحوم « علي بوراس » ومن جملة ما تحصل عليه بدلة عسكرية كاملة بقبعتها وحذائها . وعند عودته البسنيها امام مجموعة من الاقارب والاطفال . وذلك هو اول يوم في حياتي ارتديت فيه بدلة فرنجية . وقد كانت البدلة ضخمة لا تتناسب مع حجمي فكانت مثار ضحك الجميع . وما البسونيها الا لذلك . ولقد كانت هزيمة الايطاليين تلك هزيمة شنيعة فقد انتحر الكثير منهم خوفا من الوقوع في اسر العرب وبعضهم مات عطشا وامتلأت « سانيتي » القصور ـ والحمراء بجثثهم اذ كانوا يرمون بانفسهم فيها . اما للخوف اللحاق بهم . او طلبا للماء من شدة الظمأ او انتحارا للراحة مما هم فيه من الرعب والجوع والعطش والتعب .

على اثر توارد تلك « المحلات » الواحدة تلو الاخرى . تقودها زعامات أهم مقوماتها الشجاعة وبعض الثقافة الاجتماعية . الا قليلا منهم له من العلم نصيب وهي تتصارع على تزعم اكثر عدد من القبائل وتسعى لانتشار نفوذها مع عدم وجود حكومة مسؤولة في تلك الظروف الطارئة الاستثنائية . ففي هذه الظروف رفعت الفوضى راسها . فتحركت عصبيات جاهلية واختلافات اسروية وانانية شخصية وعوائد صفوفية سيئة هذه العوامل التي ليست من الاسلام في شيء ولا تمت لمصلحة الوطن بصلة . بعثها من مرقدها . واثار كوامنها واضرم اوارها اولئك الزعماء . أو بعضهم فحدثت نتيجة لذلك احداث مريعة واعمال جد فظيعة اكتوى بنارها الطرفان على السواء . اذ تحولت افواه البنادق من صدور الاعداء الى صدور المواطنين بعضهم البعض . فذهب ضحية ذلك عدد غير قليل من ابناء الوطن . وبددت ثروات يصعب حصرها .

وبالتالي فقد سادت تلك الظروف سيطرة الاقوى فلا رادع من قانون ولا وجود لنظام ولا اعتبار لمصلحة الوطن . فاصبح الحكم للبندقية والغلبة للعصبية الاكثر . حتى قيلت فيها اشعار كثيرة تعطي للقارىء وضوحا كاملا يتصور من خلالها حالة تلك الفترة حتى لكأنه عاشها والى القارىء نموذجا من تلك الازجال على سبيل المثل وليس الحصر :

كملت ايـام الحكمة والدولة　　اليوم «بوزمنكة» (١) الناس ينطاعوله
كـمـلـت ايـام هـنـانـا　　اكملت ايـام البنـدقـه الصـوانـه
اليوم بوزمنكه علقو نيشانه　　يحكم بـلا قانـون جاء في اصوله

ولقد خلفت تلك الحالـة في النفوس آلامـا وآثـارا . نرجـو من اللـه جـل شانـه أن يزيلها نهائيـا ابـديا . ولا شك انه سيلقى الذين اثـاروها عن سوء نيـة جـزاءهم عند ربهم يـوم يقفون بين يديـه . فيسأل اولئك الذين راحوا ضحيـة تلك الاحداث المشؤمـة المؤلـمة وسوف يكون جـوابهم :

« **ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا . ربنا ءاتهم ضعفين من العـذاب والعنهـم لعنـا كبيـرا** » وبعـد هذه الفتـرة المؤسفة . وصل الباروني الى ليبيا قادما من « استنبول » بواسطة غواصة المانيـة يحمل فـرمان من السلطان بانـه هو الحاكم المدني والعسكري لاقليم طرابلس وقـد كـان لوصولـه صدى رنـة فـرح وسرور عمت البـلاد من اقصاهـا الـى ادناهـا شملت حـاضرها وباديها . وكان يحمـل معه منشورا من السلطان العثمـاني يحرض فيه اهالي البلاد على مواصلـة الجهاد لتحرير الـوطن . كما كان يحمل معه هدايـا واوسمة للعناصر القيادية تشجيعا لهم . وبوصولـه الـى « مسراتة » استقبلته جماهير المـواطنين والزعمـاء والعلمـاء وفي الطليعـة « رمضان الشتيوي السويحلي » بسـرور عظيـم .

صادف وصول البـاروني وجود سوء تفاهم بين « السويحلي » من جهـة ـ و « احمـد التواتي ـ وصفى الدين » من جهة اخرى ادى الى مشادة خطيرة ، يقـول البعض ان سببها الغنائم التي استولى عليها المجاهـدون في معـركـة « القرضابيـة » ويقول آخـرون غير ذلك ، والله اعلـم بالحقيقة . وقـد وقعت تسويـة ذلك الخـلاف . وانسحب « صفى الدين ـ والتواتـي » عائـدين الى برقـة . وبذلك انقطعت الصلـة الحربية بين جـزءي الوطن ، وبعـد ان قرىء

---

(١) بوزمنكه : نوع من السلاح الايطالي انتشر عند العرب اول الحرب ثم حـل محله سلاح ثان هو « بومشط » .

المنشور السلطاني على الجماهير في « مسراتــة » واصل الركب سيره الــى « زليتــن » ثم مسلاتــة حيث كان يقيــم « السويحلي » بقواته بسبب خـلاف ايضا ناشب بين « رمضـــان » من جهة « واحمد المــريض » كبيــر قبائل ترهونــة ، واحــد كبــار زعمــاء الجهــاد ، وقـد وفق اللــه الجميــع فانحسم الخـلاف واجتمع الزعيمان المختلفان ، وقــرئ المنشور السالــف الذكــر في « ترهــونــة » و « ورفلــة » وغيــرهــا .

وبعــد ان سويت جميع الخلافات في تلك الفترة المضطربة اجتمع الزعمــاء من كــل حــدب وصوب في صفاء واتحــاد . واخــذوا في تنظيم البلاد اداريا . وربطوا مراكــز المجاهدين ببعضهــا تلفيونيا ويقــوم على هذه النـــواحي التليفونية والبرقية عامل فني الماني .

وقام على تشكيل الجيش وتنظيمه وتدريبه صغار الضباط من الشباب الليبي الذين درسوا وتدربــوا في تركيــا وعــادوا الى وطنهم وهم كثيــرون امثال : ابراهيم الكاباوي - واحمــد كردي - وشرف الدين - وعمر ضيا المــدفعي - وخليفــة خالــد - ومحمد غالب ، وغيرهــم . كما ارسلت تركيا فريقــا من كبار الضبــاط امثــال : انــور - ونشات - وفتحي - وادهم - وخليل - واسحاق - وتامسكت ، وغيــرهــم .

ولقــد قــام اولئك وهؤلاء بتدريب المجاهــدين النظاميين وغيــر النظاميين على المعــدات الجديــدة لشؤون الحرب وادارة دفــة الحياة في المناطق المحررة . والحقيقــة كانت كل البلاد محررة الا بعض المــدن الساحلية ، ولقــد نظمــت الواجهــة تماما من غــربي البلاد الى شرقها امام العــدو . وبــدات الحــروب من جديــد تزداد قــوة وضراوة مع عــودة الاتراك بمناسبة الحــرب العالمية ، فضرب المجاهــدون امثلــة فــذة في البطــولات والتضحيــات فكان الايطاليون لا يجــرؤون على الخــروج من المــدينة المحصورين فيها ، وما حاولوا الخروج مــرة الا وكانت كارثــة عليهم .

٢

١

٣

١ ابراهيم رمضان شريحة

٢ حسن الفيتوري ربيع

٣ ابراهيم رمضان كباو

هذه الصور التي تحصلنا عليها تمثـل بعض الضباط الوطنيين الذين ذكرنا بعضهم آنفـا ، والذين كانوا يقودون الجيوش الوطنية النظامية مع مجموعة من الضباط العثمانيين الذين ذكرنا بعضا منهم هم الاخرين . وحينما انسحب هؤلاء الضباط من ميدان الجهاد تنفيذا لمعاهدة الصلح الذي وقع نتيجة لانهزام الدولة العثمانية وحلفائها الالمان والنمساويين ، تـولى اولئـك قيـادة الجيوش الوطنية بمفردهم فبرهنوا على مستوى رفيع من التصميم والمقدرة الفنية ومـن التكتيك الحربي بالنسبة الى عهدهـم .

الا انهم في ظرف عسير من ظروف أواخر ايام ذلك الجهاد اختلفـت آراؤهـم وتباينـت في الموقف افكارهم . ففريق منهم رأى حسب اجتهاده ان استمرار المقاومة اصبح غير مجد نظرا الى ان مقومات الحرب من الاسلحة والتموين قد اخذت في النضـوب الواضح . ونتيجة لذلك بدأت الحالة تسير نحو نتيجة مؤسفة فاصحاب هذه النظرية استسلموا للعدو مجبورين غير مختارين بحكم الظروف . ومنهم من اساء ومنهم من احسن بعد ذلك .

والفريق الثاني راى ان الاستسلام لعدو عجموا عوده وسبروا اخلاقه امر فيه خطر محقق ومذلة ومهانة . وعليه فقد رأى ان بطن الارض خير واعز والله ارحم بعباده . فاستنكف هذا الفريق عن الاستسلام وواصل جهاده عدة سنوات بعد ذلك الى ان غادر الوطن مهاجرا .

والجدير بالملاحظة هو ان الضباط الوطنيين كثيرون وكان أقل ما يجب علينا من الوفاء نحو اولئك الذين « غرسوا فاكلنا » احياء ذكراهم بتسجيل اسمائهم للتاريخ لا فرق بين الفريقين في هذا الباب اذ لكل منهما جهود وتضحيات وان تفاوتت . ولكنني لم أتوصل الى معرفة الآخرين . وعسى ان اصل الى ذلك في مستقبل الايام اذا ما كتب الله لي بقية من عمر في دفتر القدر .

والا فحسبي انني قد فتحت الباب بهذه الذكريات البسيطة للباحثين في تاريخ هذا الشعب وامجاده الغابرة من ابنائه وغيرهم . ولا يكلف الله نفسا الا وسعها

وما عند الله خير وابقى

اليوزباشي عمر ضياء الدين المدفعي

تخرج من الكلية الحربية باستنبول . والتحق بالجيش العثماني وكان مع فرقته التي تعسكر في البلقان . وحينما استؤنفت الحرب في ليبيا سنة ١٩١٤ م يقول انه تقدم بطلب الى الجهات المختصة طالبا ارساله الى ليبيا فقبل طلبه . ووصل الى بورت سليمان حيث انظم الى معسكر السيد احمد الشريف الذي كان يقوده ضابط مصري اسمه : «صالح المصري» (ولعله صالح حرب) ، هذا الضابط المصري الذي انظم مع مائة وخمسين جنديا من الهجانة السودانيين الى قوات السيد احمد بغية الجهـاد .

يقول المدفعي انـه امضى عشـرة اشهر هنـاك في تدريـب الوطنييـن . وبعـد هذه المـدة تقدم الى جبهة القتال التي كان يسيرها الضابط المصري المذكور قرب « المطروح »ودارت معارك عنيفة ضد الانجليز الذين كانوا اذاك يسيطرون على مصر بما فيها السودان . وبعد احد عشر شهرا من القتال يقول ضياء المدفعي : وصلتهم اخبار بتقهقر القوات العثمانية في اغلب الجبهات الداخلية، الامر الذي اضطرهم تحت ظروف سيئة الى التراجع الى « سيوه فالجغبوب فجالو » .

ومن هناك واصل عمر ضياء السير الى (سرت) ومنها الى (مسراته) حيث التحق بالجبهة الطرابلسية الضاربة هناك . وواصل الجهاد الى ان وقع الصلح العمومي « نهاية الحرب العالمية الاولى » حيث صدرت اوامر الدولة العثمانية لضباطها بالانسحاب من الميدان والعود الى تركيا تنفيذا لشروط معاهدة الصلح ، وعندها طلب زعماء الجهاد من جميع الليبيين في الجيش العثماني ان لا ينسحبوا مع الاتراك نظرا لحاجة بلادهم الاكيدة اليهم .

ولقد كان من بين الذين استجابوا لنداء الوطن « عمر ضياء الدين المدفعي » رحمه الله فكان احد قادة الجيش النظامي الوطني . وواصل الجهاد الى ان بدات حالة المجاهدين تؤول الى الضعف ، الامر الذي ادى ببعض الضباط وبعض المجاهدين الى الرضوخ لايطاليا تحت ظروف عسيرة جدا ، وانسحب المجاهدون الى ترهونة ومنها الى ورفلة . ويقول المدفعي ان المجاهدين بقوا في (ورفله) عشرة اشهر هاجمهم فيها مرارا فكانوا يردونه على اعقابه . ثم يقول : ولكن الموقف العام اصبح في غير صالح المجاهدين ولا يمكن للمدافع في مثل هذه الحـالات احـراز نصر نهـائي ضد خصـم يزداد قوة يوما بعد يوم فكتبت لعدونا الغلبة وحقت علينا الهجرة الى الوديان والحمايد واراضي الصحراء الشاسعة ومنها قررت الهجرة الى الاراضي التونسية التي دخلتها سنة ١٩٢٤ م .

المؤلـــف

لم تسبق لي معرفة المرحوم عمر ضياء الدين المدفعي داخل الوطن . ولكنني عرفته في المهجر جيدا ، فعرفت فيه رجلا متزنا قليل الكلام صادق القول كثير التفكير عميق الشعور الوطني . وقد كانت بيننا مراسلات في الحركة الوطنية . وان انس فلا انس يوما من تلك الايام الخوالي حيث التقيت به في بلدة من البلاد التونسية هي : « منزل تميم » بمنطقة دخلة المعاويين ، وقد كانـت سنة جفاف في الجنوب والوسط التونسي وهو مستقر في جهة تابعة لمدينة صفاقس .

حضر الى هذه البلدة ليكتال ما هو في حاجة اليه من القمح وغيره . وقبل تلك المـدة كانت ايطاليا اعلنت العفو عمن يعود من المهاجرين . وقد اغتـر البعض ومـن بين مـن اغتـر : احمد راسم كعبار والشيخ المبروك الختروشي . وهذا الاخير حال وصوله القي عليه القبض واودع السجن وفي بداية الحرب العالمية الثانية نقلته السلطة الى ايطاليا مع عائلة الكيخيا وغيرها ، ومات هناك في ايطاليا ، حينما التقيت بالمدفعي اردت اختبار عزيمته فقلت له ان ايطاليا اعلنت العفو وعاد بعض الاخوان فلماذا لا تعود انت . فنظر الي نظرة فيها شيء من العتاب وقال : اتريد مني ان اصوم دهرا ثم افطر على جرادة يا فلان ... فقلت له الله يكون في عونك هذا ما اردت ان افهمه منك .

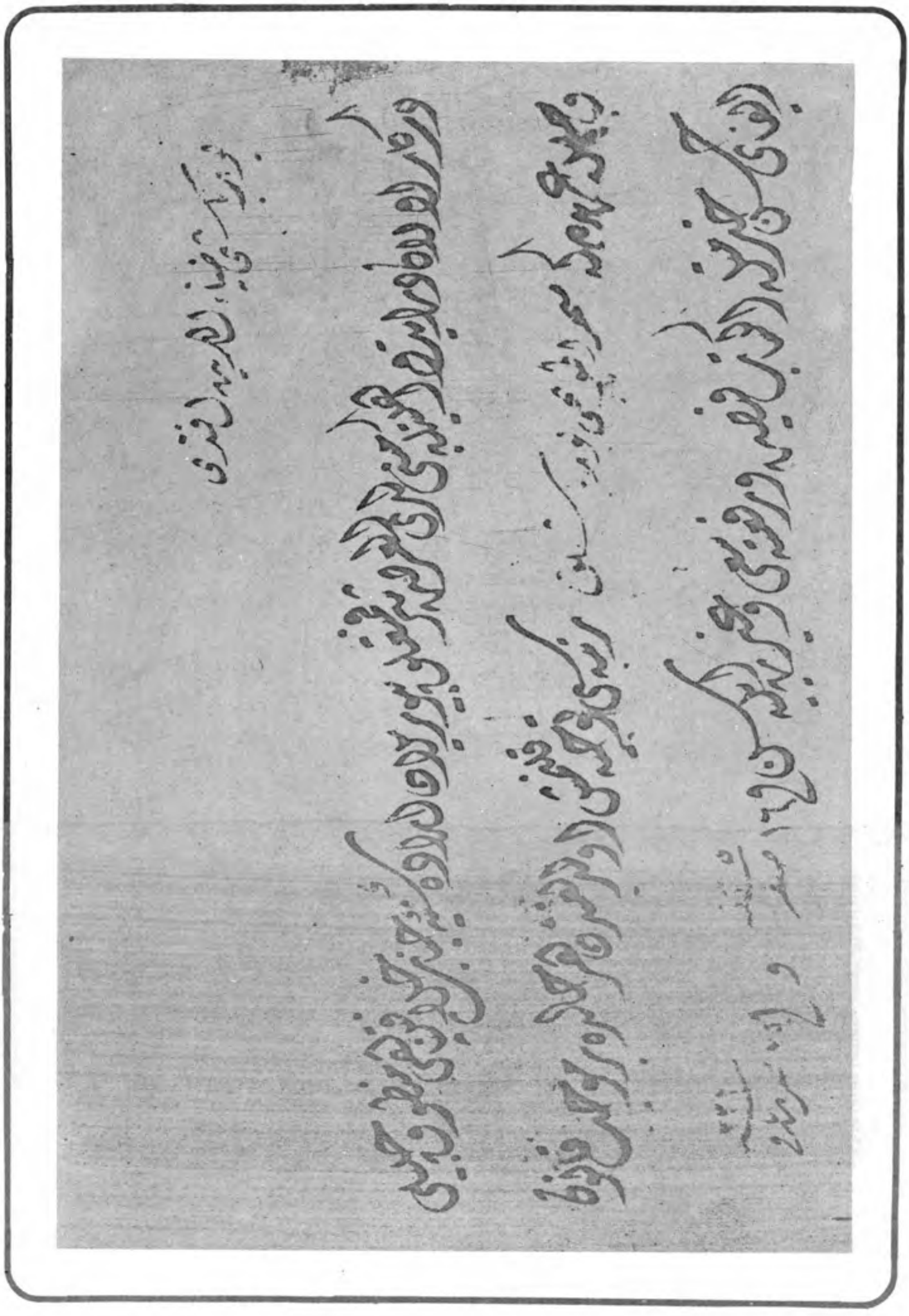

الحالة الاجتماعية والمعنوية فى البلاد

وهكـذا استمرت الحـرب على هـذا المنـوال لمدة اربـع سنوات هي عمر الحـرب العالميـة الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م وعلى الرغـم من مـوقف التصميم والاصرار من الجميـع ، وقيـام الحـرب على كامـل الشعب الليبي . حيث انه بعـد انسحاب تركيـا الاول سنة ١٩١٢ م لـم تعـد جيوشها الى ميدان الحرب في طـرابلس . اجـل عـادت تركيـا الى هذا الميدان بمناسبة انفجـار الحرب العالميـة الاولى . ولكن ذلك كان فقط بارسال مجموعة من كبار الضباط الاتراك الذين ذكـرنا بعضهم فيما تقدم لقيـادة المجاهـدين . وفعـلا فمن خلال هؤلاء الضبـاط تلقى مجاهـدونا الاوامـر ، وتواجـدوا في الاماكن والمواقع التـي حـددوها لهم ، وخاضوا المعـارك العنيفـة ، وعلى الرغم من ذلك فـان هـذه الحـرب قد اخـذت الشكل التقليـدي عبـر تركيـا صاحبة الوجود والوجـه الـرسمي مفهوم : « الحـرب التركيـة ـ الايطالية » ومن هنـا وعلى هـذا الاساس صار من المفـروض بحكـم الجـوانب القانـونية والشكلية ان يشملها ايقاف القتال اسوة بالـدول الاخـرى حينما انتهت الحرب بهزيمة « تركيـا ، والمـانيـا ، والنمسـا » .

هـذا من الناحيـة الحـربية . ولنقف هنا قليلا عن مواصلة الكلام في هذا المـوضوع ، لنبدا تسجيل بعض من الجـوانب الاجتماعية ثم نعود بعد ذلك الى الكـلام عن سيـر الحـرب ونتائجها حسبما عرفناه . فاقـول في سنتـي

١٩١٦ ـ ١٩١٧ م تقريبا واجهت البلاد ازمة جفاف خطيرة وقد كان لهذا الجفاف تأثير شديد على الناس جميعا ، فاشتد الاحتياج ومظاهر المجاعة وتكاثرت الاوبئة والامراض ، ومن المعلوم ان البلاد كانت كما اسلفنا مطوقة تطويقا محكما ، فالفرنسيون يسيطرون على تونس ويمتد سلطانهم عبر الجزائر وتشاد الى النيجر . والانجليز يسيطرون على مصر ويمتد سلطانهم عبر السودان فتلتقيان الدولتان الاستعماريتان في حدود النيجر .

هذا من جهات الشرق والغرب والجنوب . اما من الشمال فان شواطىء ليبيا يحتلها الايطاليون . وهذا الطوق العدو قطع ورود اي اعانة تماما . والحكومة الوطنية اعتمدت على الموارد المحلية التي زعزعتها الحرب والجفاف والتطويق . وقد اتخذت تدابير شديدة افادت من جهة ، واضرت من جهة اخرى . فلقد انتدبت افرادا من التجار المحنكين يتمركزون في اماكن معينة مما يلي الحدود يتصيدون كل ما ياتي للاسواق من المواد الغذائية بطريق التهريب وهو نزر ضئيل ما يحمله الانسان على ظهره فيشترونه لحساب الحكومة لتموين المجاهدين الذين هم في الواجهة خاصة ، وترك الشعب لشانه ، افادت هذه التدابير في استمرار الواجهة في المواجهة بقوة وصبر ، واضرت من جهة الشعب مع ازمة الجفاف التي كانت على البلاد ضربة من ضربات الدهر القاصمة كما اسلفنا ، الامر الذي دفع مئات الالوف الى الهجرة للاقطار المجاورة كتونس ، ومصر ، والسودان طلبا للعيش . وكانت الاكثرية تتجه الى تونس لقربها .

وبقية من الشعب التي كانت متيسرة الحال نوعا ما ، حيث يملكون بعض الاغنام والابل فقد ارتحلوا الى الصحاري جنوب الجبل الغربي حيث توجد بعض اماكن محدودة اصابتها امطار الخريف لرعي حيواناتهم هناك والانتفاع بلبانها مع التمر حيث تذهب قوافل من تلك النجوع الى فزان وتاتي بحمول التمر . كما ان هذه الاماكن المطرة وجد بها « الترفاس » فاستفاد منه الناس في التغذية . كما اختزنوا منه بعد

تجفيفه ويستعمل في طبخ الطعـام فهـو فيه لـذة تشبه القديـد . كما ان هناك في تلك الاماكـن بعض الصيد كالغـزال والطيور الكبيرة خصوصا « الحباري » وغيـر ذلـك . وهناك في تلك الصحـاري المترامية صعوبة توفير الميـاه . توجـد آبـار متناثـرة عبر تلك الصحـراء بعيـدة عن بعضها البعض ، وبمـا أن الاهـم للنـاس آنـذاك هـو مرعى الحيوانات . ومن هنا صار جلب الميـاه فيه مشقـة ، حيث تخـرج مجموعـة من الناس من النجـع على الابل الى اي بئـر فيها مـاء . وبعض هـذه الآبـار قليلـة الميـاه ، ووسط البئر مرتفع من تراكم الاتربة فتكون المياه في جنباتـه وفي هذه الحالة لا بـد من انـزال شخص من المجموعـة لكي يدفـع الدلو الى حيث يوجد المـاء . وقد تستغـرق الرحلـة من الفجـر الى الظهـر واحيانا اكثر من ذلك وقد تصل الى يوم كامل ، وذلك على حسب بعـد البئـر من النجعـة وتزاحم الناس عليه . وكثيرا مـا يؤدي هـذا التزاحـم الى نزاع خطيـر حيث ان كل الناس باسلحتها حتـى لقـد جـرى مثل على السنـة الناس يقولون « عـد رجالك وارد المـاء » أمـا البقيـة من الشعب تلك التي لا حـول لها ولا طول فقد قعـد بها الـزمن فبقيت في القـرى تعيش على « الـلاقبي » ولحم الحيوانات اي حيوان كلاب ، قطط ، ذئـاب ، ان وجـدت ذلك . وكذلك « الفكـريس » : دقيق يستخرج من جذوع النخيـل . وحتى هذه الاشياء لا تتوفر الا لـمن بقيت له بقيـة من جهـد .

ولقـد مـات عـدد من هـذه البقيـة جـوعـا . والتجـا عـدد كبير منهـا الى التسول في مختلف جهـات القطـر . امـا المجاهـدون فقد بقوا في الواجهة يتلقون التمويـن من الحكومـة من ذلك النـزر الضئيل الذي يتحصل عليـه اولئك التجـار المكلفون ، وما تجود بـه « السواني » في الاماكن المحـررة من سلطـة العـدو ، وما تاتي به الغواصات الالمـانية . وهو ايضا شيء قليـل لا يذكـر لانها مختصة قبل كل شيء بجلب الاسلحـة والذخيرة ، مع انها قليلة المجـيء نظـرا لحالـة الحصار البحـري المعـادي . وبالجملـة فان ظـروف سنتي الجفـاف تلك يطول شرحهـا ، واعتقد انه لو استوفى الانسان ذكرها بدقـة كما رآهـا وعاشها لقالت بعض العقول الحديثة انها مستحيلة الوقوع ،

ولقال آخرون انها حكايات من قبيل الخيال الخصب ليس الا . ولكنني اختصرت الكلام عنها جدا تلك الحالة التي سادت ٩٠ بالمائة من الشعب .

اذكر قصة على شيء من الغرابة وقعت في اوائل تلك الظروف العصيبة . فأقول : كان عمي « محمد بن عمر بن سعيد » شقيق والدي رحمهم الله جميعا رحمة واسعة ، من ذوي الحالة المتيسرة . ومن التجار الناجحين في تجارتهم بالنسبة الى تجارة منطقتنا وكانت تجارة جهاتنا الغربية اذ ذاك مع مدن تونس القريبة من حدود طرابلس . وفي يوم من تلك الايام الخوالي وفي احدى سفراته اصطحبني معه لرعاية « البعاير » : الابل عند الراحة وغير ذلك . وكنا في قافلة كبيرة من التجار لشراء ما يسمح لهم به الحاكم الفرنسي من المواد الضرورية وغيرها .

وصلت هذه القافلة الى مركز عسة يدعى « قرع الصيعان » وهناك اخذ الحاكم الفرنسي يستعرض ما عند كل فرد من القافلة من اموال وغيرها . فمن كان من التجار عنده ذهب او فضة . نقودا كان ذلك او « حليا » او منسوجات صوفية ، تعطي له رخصة ليواصل سفره الى « تطاوين » لبيع ما عنده وشراء ما يريد من الاشياء المسموح بشرائها . اما اذا كانت نقودا طليانية ورقا كانت ام نحاسا وما شابهه « وكانت مبالغ كبيرة منها عند الناس » او غير ذلك من الاشياء غير المرغوب فيها فلا تعطى له الرخصة ويمنع من مواصلة السفر الى الامام . بل يقع ارجاعه الى الوراء حتى داخل حدود طرابلس .

وبما ان عمي رحمه الله تحصل على الرخصة فقد واصلنا السفر ووصلنا الى « تطاوين » وهناك باع ما لديه من الحلي ذهبا وفضة لاحد اليهود . ولا اعرف هذا اليهودي يشتري للحكومة ام لنفسه . واشترط علينا ان نحطم كل ذلك « الحلي » وجاء لنا بمطرقة لكل منا ، واخذنا في « تكسيره » حتى جئنا على آخره . ثم قبض عمي رحمه الله الثمن واخذ في شراء اشياء تجارية مختلفة وترك « بعيرا » واحدا للشعير . وبعد

الانتهاء من شراء الاشياء التجارية ، ذهبنا لشراء الشعير . كيف باعوا لنا الشعير .. ؟ بعد ان كالوا لنا الكمية المشتراة حولوها الى طاحونة « كبرت » ذلك الشعير الحبة على اثنتين . ثم سلموه لنا لا هو دقيق صالح ، ولا هو شعير صحيح . ولا اعرف لماذا فعلوا ذلك ، ولم اسأل عنه ، ولكنني بعد ان عرفت الاستعمار ومكره واوروبا وتعصبها الديني والعرقي ظننت انهم يقصدون بعملهم ذاك افساد الشعير حتى لا يزرع اذا هطلت الامطار عندنا كمساعدة غير مباشرة لايطاليا بعد ان اصبحت طرفا من الحلفاء في تلك الحرب .

هكذا كانت احوال البلاد في ذلك العهد . ومع هذه الجوائح التي انتابت الشعب في طرابلس الغرب . فان الدولة التركية قد زادت في ثقل هذه المصائب باهمالها امره يتخبط في ظروف مرة في الوقت الذي كان فيه هذا الشعب يتمسك بدولة الخلافة الاسلامية العثمانية باعتبارها مهد العالم الاسلامي وروحه الحية ويعمل بكل امكاناته لنصرتها حتى بلغ به ان نسي نفسه بدفع مصلحته الخاصة الى الخطر المحقق . اذ حاول محاربة ثلاث دول كبرى قوية في آن واحد . بريطانيا في مصر ، وفرنسا في تونس ذلك علاوة على ايطاليا العدو الاول المباشر ولا شك ان حركة كهذه في غير مصلحته الاقليمية .

اهملت تركيا امر هذا الشعب الذي كان هذا موقفه وهذا اخلاصه لها على الرغم من أن بعض مبعوثيه في مجلس الاعيان العثماني قد ابلغوها الحالة التي يرزح الشعب تحت وطأتها الخانقة المهلكة بأن رفعوا لها تقارير كتابية في الموضوع في الوقت المناسب . تدمي القلوب الحية ولكن ... ولكنها مع ذلك كله صمت عنه اذنيها ولم تحرك ساكنا تاركة البلاد تصارع الاهوال لوحدها ، وتتجرع مرارة الحالة الرهيبة التي تقدم وصفها بصورة جد مختصرة . وعلى الرغم من هذه الاحوال والظروف الشديدة التي أناخت على البلاد بكلكلها القاتل ، ورغم موقف تركيا ذلك الموقف المتخاذل ، فان الواجهة كانت في موقف صلب واصرار عظيم فمعنويات المجاهدين كانت

مرتفعة حيث استمر الجهاد متواصلا دون ما هوادة أو ضعف والايطاليون محصورون في بعض المدن الساحلية لا يستطيعون الخروج منها . واذا ما حاولوا ذلك تكون كارثة عليهم كما قلنا .

وهناك نماذج من مواقف فردية ولكنها ذات دلالة عميقة ، جديرة بان يحفظها التاريخ . ومن بين هذه المواقف الفذة اذكر موقفا للبطل المجاهد (عبد العاطي الجرم) على سبيل المثال ، فهذا الرجل رحمه الله كان شجاعا لا يهاب الاعداء . بل لا يهاب الموت ، وكان ملازما لطليعة الواجهة بدون ملل ولا كلل ، حتى انه احصى له رفاقه في السلاح حسبما سمعناه من بعضهم ستة وثلاثين جرحا في جسده . وقد صادف في احدي المعارك ان انهالت عليه الطلقات من طرف العدو فسقط مضرجا بدمائه في حالة خطيرة جدا حتى يئس منه رفاقه واعتقدوا انه في عداد الشهداء وكانوا يعودونه باستمرار . وفي احدى المرات كان حوله افراد من المجاهدين فجاء بحركة كانه يريد ان ينهض ، ففرح الذين حوله بحركته تلك . وقال له احدهم : الآن تحقق لدينا ان حالتك قد تحسنت . فقال : لمخاطبه وماذا كنتم تظنون .. ؟ فاجابه : الحقيقة كنا ننتظر ساعة النهاية . فقال « الجرم » : لا تفكروا في هذا فانني لا اموت في هذه . وسأعود الى الميدان ان شاء الله . فقال له مخاطبه : من اين لك هذا التاكيد .. ؟ فقال حينما اصبت واغمى علي لم ار الحور امامي . ومن هنا تأكدت بأنه لا تزال لي بقية من عمر . وفعلا فقد عولج وصح وشارك في معارك عديدة ببطولته المعهودة حتى استشهد خلال احدى المعارك ، ودفن بجوار ضريح العالم الصالح الشيخ « الزروق » بمسراتة . وقبره معروف هناك ، رحمه الله تعالى .

هذا ، وهناك كثير من عناصر المجاهدين القيادية من الدرجة الثانية والثالثة وحتى غير القيادية تستحق الذكر والتخليد ، ولكن الذاكرة لم تحفظ من اسماء هذه العناصر الا القليل النادر . ولذلك تخليت عن ذكر من اعرف منهم . اذكر انني في يوم من تلك الايام الغابرة كنت بين جماعة كان بينها شخص عائد لتوه من ميدان الجهاد وقد رايت تلك

الجماعــة تثني على هذا الشخص باعجاب وتوجــه الشكر والاكبــار لمواقفــه الفريــدة في ميــدان الجهــاد وعــدم مبالاته بالمــوت ، وكيف انــه يندفــع بحصانــه وسط معاقــل العــدو . وهنا انبرى احــد هذه الجماعة وقال بصوت جهــوري يدفعــه الاعجاب والاكبــار بشجاعــة الرجــل : « نلقاها شهــاده اللي ما يقــر علك ما هــو راجــل » فأجابــه هذا البطــل بقولــه : « اسمع يا فلان انا حتى في الشــارع سروالي واسع ، فمن العار علي ان اضمه أمام العدو ، والمــوت آجــال فلا عــاش الجبــان » يعني انه حتى في قريته وفي حــالــة السلم كان رجــلا مهــابــا .

وهناك « عبد الله تامسكت » وهو ضابط تركي ، قــال عارفوه انه من عائلة عملها في بــلادها الصيد البحــري والملاحظ هنا ان عبــارة « تامسكت » هــذه ليست اسمــا لوالــده ، ولا هي لقبــه العائلي ، وانما هي لفظة اطلقها عليــه المجاهــدون . جــاء عبد الله تامسكت هــذا مع مجموعة الضباط الاتراك ، الذين عــادوا الى ليبيــا حينما قــامت الحــرب العالميــة الاولى . ولمــا انتهت الحرب سنــة ١٩١٨ م سحبت تركيــا ضباطها طبقا لشروط الحلفاء فرفض تامسكت الانسحاب مفضلا مــواصلة الجهــاد فبقي في طرابلس حتى انسحب مع فريــق من زعمــاء الجهــاد الذين هاجروا الى مصر وغيرها من بــلاد الشرق سنــة ١٩٢٣ م . وقــد عــرف هذا الضابط بالشجاعة المفرطة وبغيرته على الاسلام والمسلمين ، وكراهيته للاستعمــار عامــة وايطاليا بصورة خــاصة . انتظــم في صفوف المجاهــدين وصار قائــدا من قــواد الجيش النظامي ، وكان شديدا على الايطاليين يهاجــم معسكراتهم وجيــوشهم بدون هــوادة ، ومن شجاعته المفرطــة اطلق عليه الايطاليون : « التركي المغامــر » . فهو لا يقبل الانسحاب من موقــع الى آخــر بسهولة . فهــو حينما يــرى المجاهدين المــدنيين يحاولون تغييــر مواقعهم اثنــاء القتــال يصيح بهم « عرب تامسكت » ويعني امسكوا مــواقعكم يا عــرب . وظلت « تامسكت » هذه تتــردد منه في كــل مناسبــة فاخــذها عنه المجاهدون حتى اصبحت جــزءا من اسمه خصوصا وهم لا يعرفون والده فاصبح يعرف بــ « عبد الله تامسكت » رحمه الله تعالى .

هـذه نمـاذج من مـواقف فردية سجلتها على سبيل المثـال ، وهنـاك عشرات الالاف من امثـال هذه المـواقف التي يتضح منها سيطرة الدين آنـذاك على نفـوس المجاهـدين وعمـق ايمانهم بالجـزاء الاخـروي ، وتشبعهم بعزة الاسلام وشرفـه وشعـورهم بانهم خلف لاولئك السلف الذين فتحوا الاقطـار وخـاضوا البحـار واقتحمـوا الـديـار شرقـا وغـربا . بهذه الروح الموروثة وقف هـذا الشعب في وجـه الغـزو الايطالي ١٩ سنـة . والى هنا ارى انـه من الـواجب وانا اسجل هذه الذكريات التي يرجع تاريخها الى سنة ١٩١١ م ايـام الطفولـة البريئـة ، اجـل يرجع بنا الى مـدى ست وستين سنة مضت والاعتمـاد كله على الذاكـرة وحـدها . ومن المعلوم بالبداهة ان الذاكرة مهمـا كانت قـوتها . فان طول المـدة وما تخللها من تقلبات في الحيـاة ومـا توالت عليها من احـداث مزعجـة حينا ومخيفـة احيانا ، والمناظر التي مـرت بها ، والظروف التي عاشتها في ايـام قوتها كل هذه وغيرها عوامـل لها تاثيـرها على النفس ، وآلام النفس من صدمات الدهر يعود تاثيرها على الذاكـرة فـي الغـالب الا من حفظ اللـه ، « ولله في خلقه شؤون » ، الامـر الـذي يجعـل الذاكـرة لا تستطيع الحفـاظ الا على القليل من تلك الاحـداث ، وهذا القليـل الذي يبقى عالقـا بالذاكـرة غالبا ما يكون في صورة مشوشة فـي تـواريخ وقـوعها ومتداخلـة من حيث تسجيلها . ومن هنا رايت ان الفت انتباه الابناء والاخـوة ومن بقـي ممن عـاشوا تلك الظـروف بانهم سوف يجـدون فيها ما اشرت اليـه آنفـا من تقديـم وتاخيـر وعلى ذلك اقول فانا كثيـرا ما انتبه بعض الاحيـان . ولكن انتباهي غالبا ما يكون بعد فوات الوقت الذي يمكن فيه تلافـي تلك الاخطـاء ، وعـذري في ذلك كلـه هـو ضعف الذاكـرة وامتـداد الزمـن بما فيه من آلام واوصاب لا يتصورها كما هي الا الذي عـاشها فعـلا وذاق حلـوهـا ومـرهـا .

اعلان قيام الجمهورية الطرابلسية
نوفمبر سنة ١٩١٨م

الحــرب الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ م في الرمــق الاخيــر من عمــرها . وتوقيع استسلام « تركيــا ، والمــانيا ، والنمسا ، » اصبح شبه الواقع الملمــوس . والنــاس في طرابلس الغــرب بين مصدق ومكــذب لهذه الاخبــار التي تنتشر في اوساط الشعب . الناس في هذه الحالــة اذ بأوامــر تــرد من « استنبول » تطلب الى الضبــاط الاتــراك الموجودين في طــرابلس ، والذين عــادوا اليها حينما اعلنت الحــرب العالميــة ، تطلب اليهم الكف عن المقاومــة . وان الدولة قــد استسلمت . فانكمش هؤلاء عن اية حركــة ، وانتشرت هــذه الاخبــار في البــلاد مؤكــدة ما كان مشكوكا فيه ، فاحــدث ذلك بلبلــة في الافكــار وكثــر الاخــذ والــرد وخيــم الوجوم على العامــة بصورة خــاصة لأن اكثرهم كــان يعتقــد ان الدولــة العثمانية لن تهــزم ، وانها لن تتخلى عن بــلادهم مهمــا كــان الحــال .

في هــذا الجــو القاتــم الحــزين اسرع كبــار زعمــاء البلاد الى اجتمــاع فيما بينهم استعرضوا خلاله (مبــادىء الدكتــور ولسن) رئيس حكــومــة الولايات المتحــدة الامريكية . هذه المبــادىء التي كانت في ظاهرها تشمل كل الامــم والشعــوب كبيرها وصغيرها في جميع انحــاء العالم دونما تفرقة ولا ميــز ولكن ... ولكن التضامن الاستعمــاري والتعصب الديني والجنسي كــل

هـذه العوامـل جعلت تلك المبـادىء « الولسونية » حبرا على ورق بالنسبـة للبعض .

وتدارسوا الامـر من جميع جوانبه وماذا ينبغي لهم ان يفعلوه بعـد تخلـي الاتـراك عن البـلاد فقـر قرارهم على دعـوة لعقـد مؤتمر عـام ليقرر مـا يـراه في صالح الوطـن ويحـدد مـوقف البلاد من هذه الظروف . وعلى هـذا الاساس ارسلت الـرسل الى اطراف البـلاد لدعـوة اعيانها وعلمائها ورؤساء مجاهـديها واصحـاب الـراي فيها . فجـاءت الوفود من كل حـدب وصوب تمثـل جميع الطبقات في مختلف نواحـي القطـر وعقد الاجتماع في جـامـع « مسلاتـة » وتكررت الاجتماعات وتباينت الاراء وتشعبت الافكـار وتعددت الاقتراحـات . وآخـر الامـر حصل الاتفـاق بين الجميع فقرروا انشاء حكومة وطنيـة جمهوريـة تنظـم ادارات البـلاد وتحـافظ على الامـن وتنظم الواجهة للقيـام باعبـاء الدفـاع عن الـوطن وتفتح بـاب المفاوضات مـع الحكومـة الايطاليـة لانتـزاع استقلال البـلاد وتامين مستقبلها اذا ما احسنت ايطاليا النيـة . والا فمواصلة الحـرب حتى تثوب هذه الى رشدها وتسلـم بالحقوق المشروعـة .

وهكـذا ففي نفس المكـان والزمـان اجـريت الانتخابات وقد انتخب لمجلس ادارة الجمهورية اربعـة رؤساء هم : « سليمان الباروني ، احمـد المـريض ، رمضان الشتيـوي ، عبد النبي بلخيـر » ووزيـر ماليتهـا « مختار كعبـار » واسندت القيـادة العامـة لجيش الجمهورية الى « عبد القادر الغنـاي » كمـا انتخب لها مجلس شورى برئاسة « محمد سوف » وبعـد اتمام هذه الاجراءات اعلنت نبـأ قيامها بواسطة اللاسلكي . ثم قامت بجميع التنظيمات المحلية من مـدنية وعسكرية وشكلت مجلسا شرعيا اعلى ووضعت ميزانيـة البلاد كمـا جمعت الضباط الاتـراك بما فيهم افـراد من الالمـان والنمساويين ونقلتهم الى « غريـان » للاقامـة فيها كضيوف لا شان لهم في ايـة حركـة بعـد قيـام الجمهوريـة الطـرابلسية . ثم ارسلت بلاغات تحريرية الى ايطاليا والـدول العظمى تبلغهم رسميا بقيـام الجمهورية وتطلب منهم الاعتراف بها . وكـان

البلاغ المرسل الى ايطاليا مرفقا بقواعد تحفظية اشترطت الجمهورية الطرابلسية بانها لا يمكنها الدخول في اية مفاوضات الا بعد قبول تلك القواعد وعلى اساسها (١) .

ولزيادة الفائدة انقل هنا النص الحرفي لهذا البلاغ ، وقواعده المرفقة به عن كتاب « الدولة العربية المتحدة » .

الى رئيس الحكومة الايطالية ،

1 ـ تفتخر الامة الطرابلسية بتتويج استقلالها باعلان الحكم الجمهوري وانتخاب نواب عنها من كافة انحائها لمجلسي الحكومة والشورى ولا هدف لها الا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة ولا نقصد الا ان تعيش عيشة هنيئة مسالمة لجميع الامم التي لا تحاول غصب حقوقها .

2 ـ لذلك تدعو الحكومة الايطالية الى الاعتراف بها وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية الى مداومة الحرب الى ان تحقق املها المشروع .

١٣ صفر ١٣٣٧

ملحق

اذا قبلت المواد الاتية ووضعت في موقع الاجراء فالحكومة الجمهورية الطرابلسية مستعدة للبحث مع الحكومة الايطالية في عقد صلح طبقا للقواعد الاتية :

أ ـ في حالة دوام المذاكرة يجب على كل من الطرفين المحافظة على مواقعه بصورة هدنة .

---

(1) **ملاحظة :** كل عضو من اعضاء مجلس الجمهورية الاربعة له حرية التصرف في المنطقة التابعة له . ولا يتقيد الا فيما يختص بالاتصال بالعدو فهذا يكون من مكان معين واحد عن طريق شخص واحد يرضاه الجميع . يسلم ويتسلم الى ـ ومن .

ب ـ لا تقرب السفن الحربيــة السواحل المحتلــة بالعساكر الايطالية .

ج ـ لا تتجــاوز الطيــارات حــدود الاستحكامــات .

د ـ لا تقــع مخابرة خصوصية مع اي احــد كان لا من جهة المناطق الحربية ولا من غيــرهــا .

هـ ـ تقطع كل ما فيه وسيلة للاختلاط بالاهــالي من طرف الحكومة الايطالية كأخذ واعطاء البضاعة وتوزيــع الاعانات على اي صورة وبــأي طــريقــة كــانــت .

و ـ المخابــرات الرسمية والدخــول والخروج لا يكون الا من الموقع الذي يصير تعيينه في منطقة الخمس من طرف الحكومة الطرابلسية .

ز ـ الحكومة الجمهورية الطرابلسية مستقلة في شؤونها وحركاتها تمــام الاستقلال وغير مسؤولــة باي شرط أو قيــد تضعه حكومة اخرى او تتعهــد به لحكومة ايطاليــا في طــرابلس .

ح ـ ضباط التــرك والالمــان والنمسا الموجودون في داخل طــرابلس هــم بمنزلة ضيوف عند الحكومة الطرابلسية ولا تسمح بسفرهم الا بصورة تكفــل منفعــة وشرف الدولــة الطــرابلسية وحكومتها الجمهورية .

ط ـ بما ان الامــة الطرابلسية لها الحــق في اظهار صوتها للعالم الانساني وبالخصوص الحكومات الموجودة قناصلها في مدينة طــرابلس مثــل انكلترا وفرنسا وامريكا فعلى الحكومة الايطالية قبول وايصال مــا يرسل من الحكومة الطرابلسية اليها بدون اطلاع عليه واخذ سندات من القناصل المذكورين وارسالها الى الحكومة الطــرابلسية حتــى لا تضطر الى اتخــاذ طريقــة أخــرى لمواصلة مخابراتها المذكــورة .

ي ـ المخابــرة مــع الحكومة الايطاليــة لا تجوز الا تحريرا ولا يعتبر أي كــلام شفــاهــي .

١٣ صفــر ١٣٣٧

احتفال الشعب بشارع العزيزية

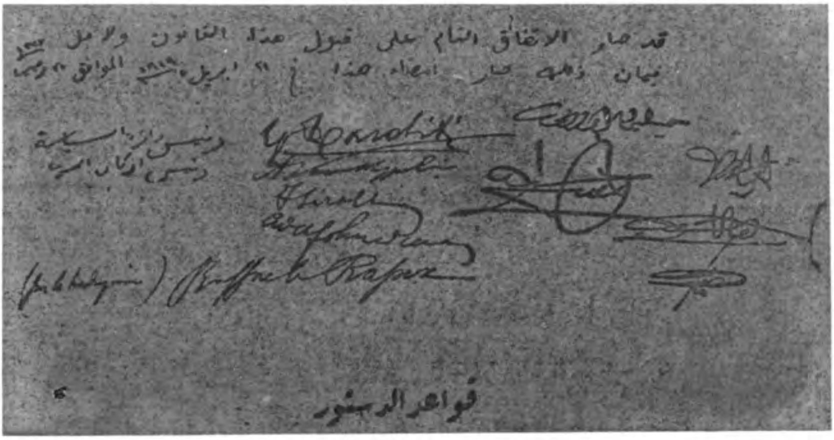

توقيعات الصلح

لم تتلق ايطاليا بـلاغ الجمهوريـة الطـرابلسية برضى او بحكمة وتعقل . بـل تلقته بكبرياء وعنجهية اذ اسرعت للجواب عليه بمنشور القي بالطـائـرة على اماكـن المجاهدين . وقد كان هـذا المنشور مشحونا بالوعيـد والتهـديـد الامـر الذي ادى الى نشوب القتـال بين الطـرفين في جميع الواجهات واستمر بقـوة وعنف احيـانا وبمناوشات حينا آخـر الى ان طلبت ايطاليا الدخول في مفاوضات للصلح فتبودلت الرسائـل بين الطـرفيـن في المـوضوع وقبلـت ايطاليـا بتلك القواعـد ، وطلبت تحديد المكان والزمـان لبـدء الاجتماع ، وتـم ذلك ووقع الاجتماع الاول في « خلـة الزيتونـة » في شهر مارس مـن سنـة ١٩١٩ م وانفض الاجتماع دون الوصول الى نتيجـة . وبعد ايام انقطـع فيها الاتصال طالبت ايطاليا من جديد باعـادة المفاوضات ، واجـابت الجمهوريـة الطـرابلسية بالقبـول واجتمع الطرفان للمرة الثانية في اواخر ابريل ١٩١٩ م وفي هـذا الاجتماع توصلوا الى الاتفاق على قواعـد يقوم عليها دستور البلاد . وتـم التوقيع عليها . وهـذه توقيعات الفـريقين ، نقـلا عن المصدر الآنـف الـذكـر .

تـم توقيـع الصلح كما اسلفنا وانتشر خبـره في اوساط الشعب بسرعة البرق فعم السرور المدن والقرى والبوادي بعيدها وقريبها كبيرها وصغيرها الرجل والمـراة فاصبحت الـرؤوس مرفوعـة والكرامة موفورة محفوظة . ودخل الزعمـاء والعلمـاء ورؤساء المجاهـدين والاعيـان وشرائح عريضة من الشعب دخلـوا العـاصمة « طـرابلس » في يوم مشهود فتلقاهم ، او استقبلهم سكان المـدينة بالاهازيج والرياحين وزغاريد النساء وتعالت الهتافـات مـدوية في ارجـاء المـدينة بحيـاة الجمهورية واستمرت الافراح ليـلا ونـهـارا وصـار النـاس يـرددون الاشعـار الـزجلية وهي كثيرة مثل قولهم : « اللـه ينصـر جيش الجمهوريـة ـ اللي خلى الطليـان رعيـه » وغير ذلك كثير كقول احـد الشعـراء : « هالتاو واتاني الكلام انقوله ـ على ناس فكوا حقهم من دوله » بعـد مرور ايـام في تلك الاحتفالات بـدأت المـداولات وتـم وضع القانـون

الاساسي لحكومة طرابلس ـ بينما وضع قانون اساسي آخر لحكومة برقة قصد التفرقة بين جزاي الوطن . ووقع ملك ايطاليا على القانون الاساسي ، ولم يبق الا بدء تنفيذ ما جاء به هذا القانون .

وفي هذه الفترة ، فترة هذا الصلح وقعت واقعة طريفة بالغة الدلالة يسجلها التاريخ باحرف من نور وهذه القصة وقعت في احد شوارع طرابلس ، ذلك انه تصادف مرور ضابط عربي من المجاهدين بجوار جندي ايطالي . وكانت التقاليد العسكرية وبحسب اتفاق الصلح تقضي انيحيى الجندي الضابط. بالتحية العسكرية من الفريقين الليبي والايطالي ... ولكن الجندي الايطالي حين مروره جعل نفسه متشاغلا في شيء ما ، فلم يؤد التحية للضابط العربي فناداه الضابط بعد ان تجاوزه بخطوات قليلة فعنفه ويقال انه صفعه ايضا . فوقعت مشادة كلامية حامية حول هذا الموضوع بين جهات رسمية من الطرفين ادت الى تشكيل محكمة عسكرية مختلطة للنظر في القضية .

وتشكلت هذه المحكمة من ممثلين من الجانبين . كان من بين ممثلي المجاهدين فيها « عبد العاطي الجرم » ويراس الجانب الايطالي « الجنرال تارديتي » وعقدت المحكمة جلساتها بين الواجهتين . وتعددت الجلسات وطال الكلام في الموضوع . ويبدو ان عبد العاطي الجرم قد عيل صبره من هذا التطويل ، وهو ساكت لا يتكلم وفي الجلسة الثالثة ضاق صدره . وفي لحظة كان فيها تارديتي » يتكلم . اعتدل الجرم في جلسته واشار بيده نحو المتكلم وقال : « اسكت يا تارديتي » فسكت هذا واتجهت كل الانظار نحو « عبد العاطي الجرم » الذي تكلم قائلا : اسمع يا تارديتي لا تظن اننا راضون بهذا الصلح ... وانما هذا الرجل « واشار بيده الى « عزام » جربناه فوجدناه صادقا ومخلصا ويفهم الامور فقال لنا نصالحهم على الحرية والعدالة والمساواة فقبلنا كلامه على مضض . ولولاه « لا نرضى ان نسوي انفسنا بالروم » والآن جندي منكم لم يحيى ضابطا منا فعنفه تاديبا حتى لا يعود لمثل ذلك فجعلتم لنا محكمة من اجل ذلك وثلاث جلسات ولم ينته الموضوع . فأين العدالة .. ؟ واين المساواة .. ؟ فعلي هذا الحال اعتقد اننا عائدون الى الحرب معكم .

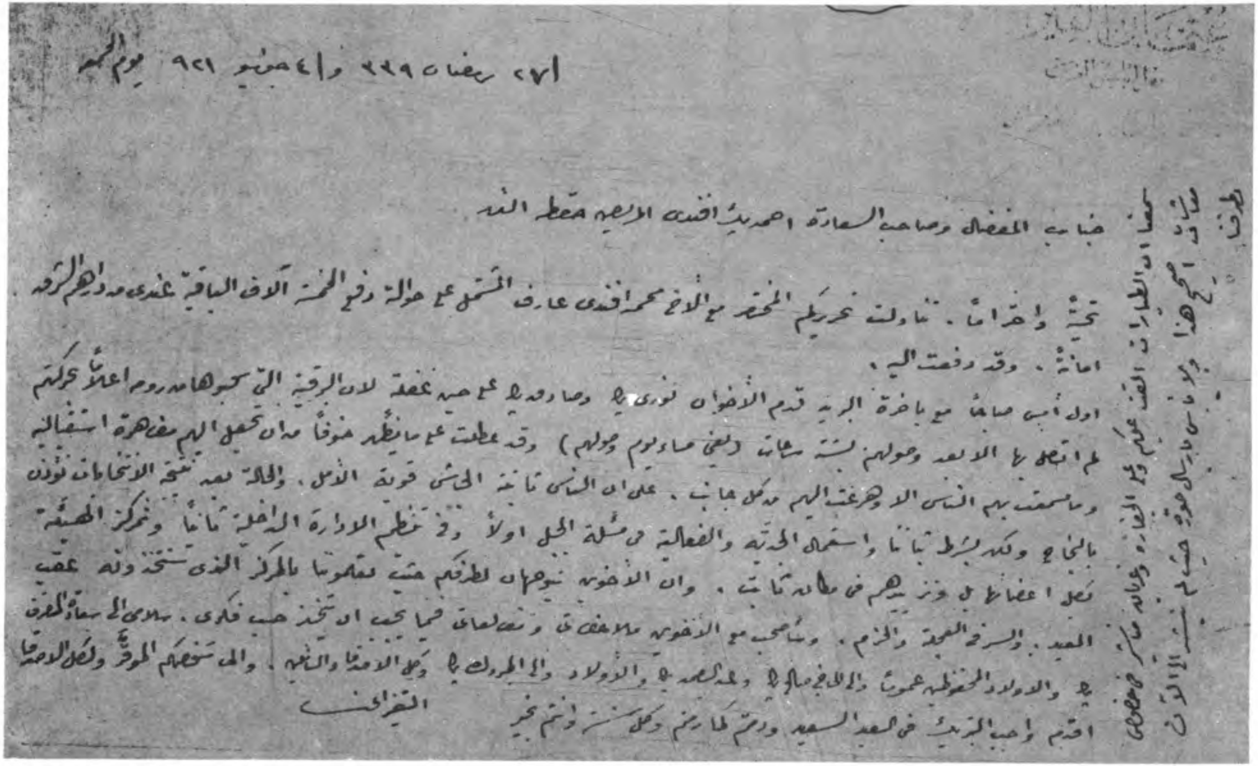

٢٧ رمضان ١٣٣٩ و٤ يونيو ٩٢١ يوم الجمعة

جناب المفضال وصاحب السعادة احمد بك افندي الاسعد حفظه الله

تحية واحتراما. تناولت تحريركم المختصر من الاخ محمد افندي عارف المشتمل عن حوالة دفع الخمسة آلاف الباقية عندي من ذهبكم [illegible] امانة. وقد دفعتها اليه.

اول امس صباحا من باخرة البريد قدم الاخوان نوري بك وصادق بك [illegible] لان الرقية التي كتبوها من روما اعلاماً بحركتهم لم تتصل بنا الا بعد وصولهم بستة ساعات (يعني صباح يوم وصولهم) وقد [illegible] عن ما نظر خوفا من ان تحصل لهم مظاهرة استقبالية وما سمعت بهم الناس الا وهرعت اليهم من كل جانب. على ان الناس ثابتة الجأش قوية الأمل. والحالة بعد نتيجة الانتخابات تؤذن بالنجاح وكذا شرط ثباتنا واستعمال [illegible] والفعالية من مسألة الحل اولاً وفي خطط الادارة الداخلية ثانياً وتمركز الهيئة [illegible] اعضاءها في وزارتهم في [illegible] ثابتة. وان الاخوان سيوصلون لطرفكم حتى تعلموا بالمركز الذي تتخذونه عقب العيد. والسرعة العجلة والحزم. ونصحت من الاخوان [illegible] فيما يجب ان تتخذ حسب فكري. سلامي الى سعادة [illegible] بك والاولاد المحفوظين عموماً والانجال [illegible] والاولاد والمحروس بك وعلى الاحفاد [illegible]. والى سعادتكم الموفر ولكل الاحبة اقدم واجب التبريك في العيد السعيد ودمتم [illegible] وكل سنة وانتم بخير

القيزاني

سعادة [illegible] الطيارات [illegible] عليكم [illegible] باشر في خصوص [illegible] الصحيح هذا [illegible] حتى لم [illegible] الا الآن [illegible] طرفنا

الرسالة الاولى لعثمان القيزاني

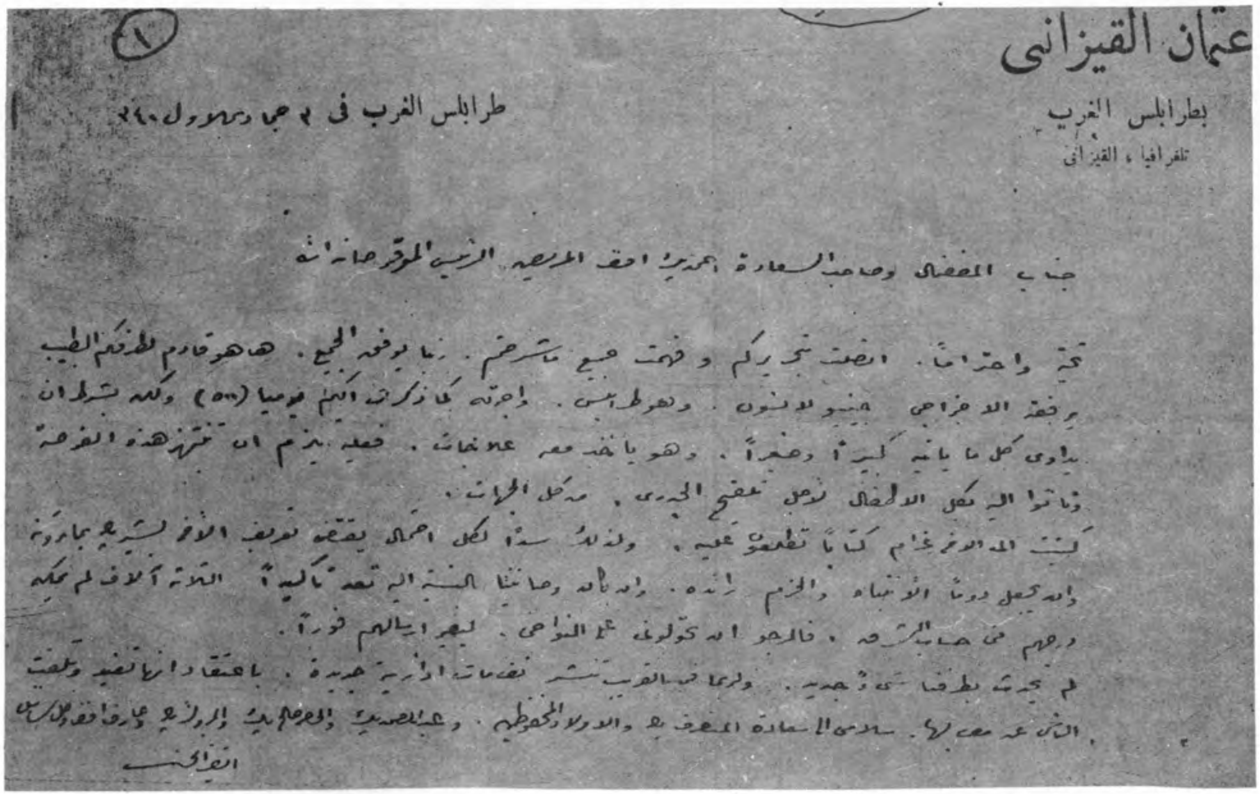

عثمان القيزاني

بطرابلس الغرب

تلغرافيا : القيزاني

(١)

طرابلس الغرب في ٢ جمادى الاول ٣٤٠

جناب المفضال وصاحب السعادة احمد بك المريض الرئيس الموقر حفظه الله

تحية واحتراما. اطلعت على تحريركم وفهمت جميع ما شرحتم. ربما يوفقه الجميع. ها هو خادم للدكتور الطبيب
يرفقه الاوفراجي [illegible] ولا يلبسون. ولهو طرابلس. واجرته كما ذكرت الكيم يوميا (٥٠٠) ولكنه يشترط ان
يداوي كل ما يأتيه كبيرا وصغيرا. وهو يأخذ معه علاجاته. فعليه يلزم ان تنتهز هذه الفرصة
ويأتوا اليه بكل الاطفال لاجل تطعيم الجدري. من كل الجهات.
لأن المدة [illegible] كما تطلعون عليه. ولذلك سيدي لكل احتمال يقتضي توقيف الاجر لشريعة [illegible]
وان يجعل دوما الانتباه والحزم لديه. وان تأتيه حاجتنا السنة التي تعد تالية؟ الثلاثة آلاف لم يمكنه
دفعها من حساب الشرطة. فالرجو ان تكونوا عند النواحي. ليعرا اليهم فورا.
لم يحدث بطرفنا شيء جديد. ولربما عن القريب تنشر نشرات اذاعية جديدة. باعتقادي انها تفيد وتلفت
الانظار عن مصرنا. سلامي الى سعادة المعرف به والاولاد المحفوظين. وعلى الصديق والحاج [illegible] والرازقي [illegible]

القيزاني

الرسالة الثانية لعثمان القيزاني

عثمان القيزاني

يقول « عبد الرحمان عزام » رحمه الله ، حاولت جاهدا أن أصل الى معرفة الاسباب والدوافع الخفية لهذا الموقف الصلب وهذا الكفاح الطويل المرير المستميت الذي يقوم به شعب اعزل وجاهل وفقير . هذا الشعب يقف في وجه دولة اوروبية عصرية تفوقه في العدد ثلاثين مرة مستعملة في حربه والقضاء عليه جميع انواع الاسلحة الحديثة بما فيها الطائرات . شعب كهذا يقف في وجه هذه الدولة سنوات عديدة ! . اجل فكرت كثيرا طوال مدة وجودي مع هؤلاء الناس فلم اهتد الى سر هذا الموقف حتى اذا ما سمعت جملة « عبد العاطي الجرم » هذه : « نحن لا نرضى أن نسوي انفسنا بالروم » هنا بهذه الجملة احسست بانني قد وضعت يدي على سر هذه المقاومة ودوافعها » .

قلنا آنفا تم وضع القانون الاساسي وصدق عليه ملك ايطاليا « فيكتور عمانوئل » الثالث ، وبذلك فقد اكتسب هذا القانون الصبغة الشرعية . فكان الواجب والحالة هذه يفرض على ايطاليا ان تأمر بالبدء في اجراء الانتخابات النيابية لقيام مجلس النواب طبقا لما نصت عليه قواعد الدستور . لكي يتولى هذا المجلس بدوره انتخاب مجلس ادارة الحكومة الطرابلسية ، ومن ثم اتمام جميع الاجراءات التي نص عليها القانون ، ولكن الحكومة الايطالية قد سكتت عن القيام بهذا الواجب ، وقام المجاهدون يطالبونها بالتنفيذ ، ولكنها اخذت تتلمس الاعذار غير المقنعة وتكررت المطالبة ، وتوالت الاعذار . ومر على هذه الحال عام او يزيد ، وفي بحر هذه المدة غادر الباروني الوطن الى الشرق نهائيا ، وانتقل رمضان الشتيوي الى رحمة الله تعالى . قلنا تكررت مطالبة المجاهدين لايطاليا بان تقوم بتنفيذ ما التزمت به ولكن دون جدوى ، وفي هذه الاثناء انتبه المجاهدون بان اتصالات مريبة تجري من ورائهم مع بعض مرضى النفوس وفاقدي الضمير وعديمي الوجدان . ثم اتضح ان مبالغ طائلة من الاموال وكميات كبيرة من الاسلحة قد تسربت وقد تأكد من ذلك ان ايطاليا اصبحت تسعى لبذر الشقاق بين ابناء الوطن لخلق الفوضى وايقاد نار الفتن .

هيئة الاصلاح المركزية سنة ١٩٢٠م

قلنا انتبه المجاهدون الى الخطر الذي اصبح يهدد مستقبل الوطن وثبت لديهم ان ايطاليا غير جادة في موقفها . وبالتالي فهي غير سليمة النية . وعلى هذا فكر الزعماء في الامر وتبادلوا الآراء حول الحالة التي آلت اليها البلاد بسبب موقف ايطاليا هذا فراوا انه من المفيد القيام بدعوة حضور الزعماء والعلماء والاعيان لعقد مؤتمر عام للنظر في الحالة وتلافي الامر باتخاذ ما يرونه لصالح الوطن . وعقد مؤتمر عام في « مدينة غريان » سنة ١٩٢٠ م وبعد جلسات متوالية بحثت فيها الحالة من جميع الوجوه للوصول الى ما ينقذ البلاد مما يتهددها من الاخطار المحدقة . قرر المؤتمر الاتصال بحكومة ايطاليا في طرابلس ومطالبتها بالكف عن سياسة المخاتلة واثارة الفتن في البلاد . وان تقوم بتنفيذ ما نص عليه القانون الاساسي من تاليف حكومة وطنية حيث ان البلاد لا يمكنها ان تستقر وتتجه الى النواحي العمرانية والاقتصادية ما لم تكن فيها حكومة وطنية برئاسة زعيم مسلم تعمل على توفير راحتها وحفظ امنها .

قرر المؤتمر توجيه وفدين احدهما الى البلاد الايطالية للاتصال والسعي لدى الجهات الرسمية والحزبية وغيرها لمطالبتها بتنفيذ ما التزمت به تجاه الامة الطرابلسية . حيث كان يخالج النفوس بعض الظن بأن تلك المواقف السلبية هي نتيجة لتدابير محلية من حاكم طرابلس

الايطالي « الوالي » لذلك راى المؤتمر انه من المفيد الاتصال المباشر بالدولة الايطالية في بلادها والتفاهم على اعلى المستويات .

والثاني الى « برقة » للتفاهم مع السيد « ادريس » حول توحيد البلاد حتى تكون جبهة واحدة امام العدو . ومبايعته اميرا على البلاد كلها . وهذا الوفد قد وجد قبولا مبدئيا من الشعب ومن الامير .

كما قرر المؤتمر انشاء حكومة وطنية اطلق عليها اسم : « هيئة الاصلاح المركزية » برئاسة « احمد المريض » وعين « عبد الرحمن عزام » مستشارا لها واربعة عشر اعضاء . وكانت حينئذ جميع الدواخل تحت سيطرة المجاهدين . اما الاحتلال الطلياني فلم يتجاوز السواحل .

وحينما تم تشكيل هيئة الاصلاح بدات في تنفيذ مقررات المؤتمر فالفت الوفدين وسافر كل منهما الى مهمته وقد علمت ايطاليا بما وقع وبسفر الوفدين فحذرت السيد « ادريس » من مغبة قبوله للوحدة والامارة ونشطت في خلق المشاكل واثارة الفتن للحيلولة دون اتحاد الاقليمين لما في الاتحاد من القوة الامر الذي تخشاه ايطاليا .

وفي شتاء سنة ١٩٢٢ م اشيع في اوساط الشعب ان السيد « ادريس » قد تدهورت صحته . وبعد مدة اخرى سمعنا انه وصل الى مصر . وقد تضاربت الاخبار حول سفره . فمن قائل يقول انه مرض ديبلوماسي . الهدف منه التخلص من المسؤولية . واكثر الاقوال تقول انه مريض فعلا . والله اعلم بالصحيح . اما الوفد الذي ذهب الى ايطاليا فقد وصل اليها واخذ في السعي لدى الجهات المختصة . وقد امتدت مدة وجوده بها حوالي عام تقريبا وقد وجد لدى بعض المسؤولين والحزبيين آذانا صاغية وكاد ان ينجح في مهمته . ولكن تدابير حكام طرابلس الايطاليين ومعاضديهم من « المواطنين » قد اثرت في دوائر حكومة ايطاليا واوغرت صدور اولي الامر على وفد المجاهدين حتى لقد اعتزمت القاء القبض على اعضائه ومحاكمتهم . غير ان رجال الوفد كانوا دائما في يقظة وانتباه لعلمهم بما

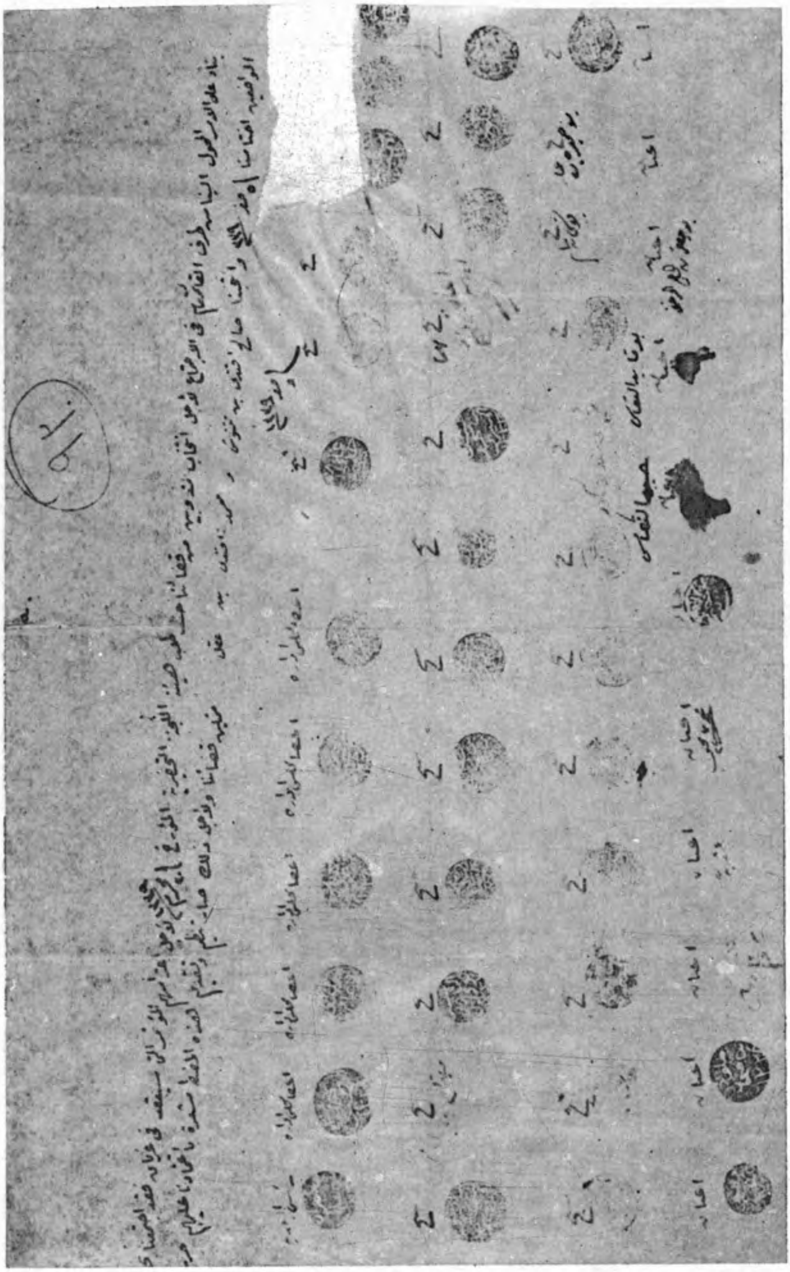

من نماذج انتخابات محويين لحضور مؤتمر غريان

يدبره لهم حكام طرابلس من الايطاليين واعوانهم المخلصين لهم من « مواطنينا » مع الاسف . ولذلك فقد علموا بطريقة ما . « ولعل ذلك كان بواسطة جماعة الاشتراكية الديمقراطية لحماية الشعوب المظلومة » اذ ذاك . وعلى كل فقد علمو بما يراد بهم في الوقت المناسب . فغادروا ايطاليا مطرودين بطريقة ما . وبذلك افلتوا من المؤامرة جميعا الا سكرتير الوفد « الاستاذ عبد السلام البصيري » فقد قبض عليه وحوكم فصدر عليه الحكم بالسجن لمدة عشرين سنة امضى منها ثمانية اعوام ثم افرج عنه .

وبعد سفر الوفدين الآنفي الذكر اتصلت « هيئة الاصلاح المركزية » بالحكومة الايطالية في طرابلس وابلغتها بطريقة رسمية مقررات المؤتمر بما في ذلك اجماع الامة على توحيد البلاد وان وفدا مكلفا بهذه المهمة قد سافر الى اجدابيا لمقابلة اولي الاختصاص في الموضوع . واوضحت الهيئة في مذكرتها الى حكومة ايطاليا بأن المؤتمر قد جعل في حسابه مصالح ايطاليا . ولذا فان مقرراته جميعها لا تتنافى مع هذه المصالح سياسية كانت ام اقتصادية .

رغم ما اتخذته الحكومة الوطنية من الاعتبارات والتساهل في مصالح ايطاليا في طرابلس فان هذه رفضت الاعتراف بمقررات المؤتمر جملة وتفصيلا . فكان جوابها على ذلك حاسما اذ هاجمت مسراتة والزاوية وعدة نقط اخرى فنشب القتال من جديد بشدة وعنف بين الفريقين ودامت على ذلك الحال عدة اشهر فوجدت ان قوات المجاهدين لا تزال كما عرفتها من قبل قوة واستماتة وصمودا . فطلبت الهدنة فأجيبت اليها . وبذلك اسكتت البنادق . واوقفت التحركات على طول الواجهة من شرقها الى غربها ، ثم وقع تعيين المكان والزمان لبدء المفاوضات .

اجتمع الوفدان « بفندق الشريف » الذي يقع الى الجنوب من مدينة طرابلس بحوالي ٢٥ كم . وكان الوفد الايطالي يتكون من ثلاثة اشخاص . اما وفد هيئة الاصلاح فكان يتكون من رئيس الهيئة احمد المريض .

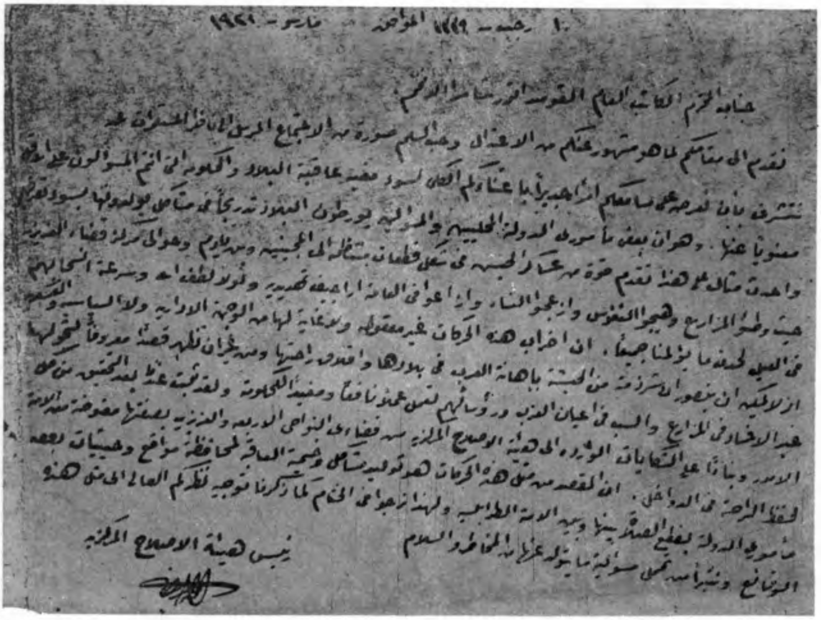

١٠ رجب ١٣٣٩ الموافق مارس ١٩٢١

جناب المحترم الكاتب العام المفوض الفرنساوي الأفخم

رئيس هيئة الاصلاح المركزية

احتجاج هيئة الاصلاح المركزية

والصويعي الخيتوني ـ ومختار كعبار ـ وعثمان القيزاني ـ وافراد آخرين ادنى مستوى . وبدات المفاوضات وطال امدها . وفهم المجاهدون ان موقف ايطاليا موقف مريب . وتبادر الى الاذهان ان طلب ايطاليا الهدنة ودخولها في المفاوضات ليس الا كسبا للوقت لتتمكن من الاستعداد . وفعلا فقد صدق الحدس اذ في الوقت الذي كان وفدها يخوض المفاوضات . وردت معلومات اكيدة الى مركز المجاهدين تفيد ان الاستعدادات تجري بسرعة قصوى وسرية مطلقة تحت جناح الظلام . من ورود افواج متعاقبة من الجنود الايطاليين من ايطاليا وارتريين من « ارتريا » وغيرهما . الى تجنيد المرتزقة . من نفس البلاد ومن خارجها . وتكديس الاسلحة من مختلف انواعها . وكميات ضخمة من مواد التموين ووسائل النقل وغير ذلك ...

قلنا بدات المفاوضات بين الطرفين « بفندق الشريف » ودامت امدا طويلا كما المحنا آنفا . ثم انتهت على غير طائل واستونفت الحرب على طول الواجهة . وتواصلت سجالا . وفي هذه السنة صدرت الاوامر من ايطاليا الى « فولبي » بأن يعمل بكل ما يستطيع على سحق كل حركة في البلاد ولو بأبشع الطرق واوحشها . فشمر هذا على ساعد الجد فاسند الى « غرازياني » قيادة العمليات الحربية . وتراس هذا بنفسه القيادة المباشرة لجملة المنطقة الغربية المتجهة نحو الجبل بطريق (الوطية) الجوش ـ السلامات ـ كما وضعت فصائل من الجيوش في عدة مناطق من بينها منطقة « بئر الغنم » ومنطقة « العزيزية » وغيرهما وصدرت لهذه المناطق الاوامر بأن تواصل تلك الفصائل مناوشاتها بنشاط واستمرار ودون توقف لاشغال قوات المجاهدين في هذه الجهات عن نجدة اخوانهم في الجهة الغربية .

تجمعت الجيوش والمرتزقة في « الوطية » وهنا ، وقبل ان اواصل الكلام على تحركات الجيوش . اقف قليلا لاتعرض باختصار الى مأساة فظيعة وواقعة جد مريعة وقعت في نفس المكان قبل بدء زحف جيوش

خليفـــة بـــن عسكـــر

العدو نحو الجبل . تلك المأساة التي فقد فيها الوطن بطلا من ابطاله . وعنصرا من عناصر الاخلاص له . حيث كبابه جواد الحظ فاختفى نهائيا من الميدان ذلك هو : « الشهيد خليفة بن عسكر » الذي شاءت الاقدار ان يتمكن « غرازياني » من افتتاح زحفه بازالته من طريقه . حيث القي عليه القبض في « الوطية » ونقل منها الى طرابلس واعدم في مدينة « الزاوية » .

وهكذا انتهت حياة بطل طالما ازعج العدو وكبده الخسائر في الانفس والاموال . وقد شهد هذا العدو نفسه بمقدرة « خليفة بنعسكر » واخلاصه للوطن حتى آخر ايام حياته . وهو تحت سيطرة هذا العدو نفسه . فكانت هذه المأساة نذير شؤم على مستقبل الجهاد والمجاهدين . ويؤخذ من الاخبار التي تواترت في ذلك الحين بصورة تثبت ما قيل من ان الذي ترصد لحركاته واكتشف مراسلاته مع رئيس : « هيئة الاصلاح المركزية » هو : « يوسف خربيشة » وابلغها الى العدو . فلو قدر لابن عسكر أن يستمر في حركاته السرية دون ان تكتشف لكان مآل حملة « غرازياني » الخسران المبين المحقق ولتغير سير المعارك . ولكن ذلك كان قدرا مقدورا .

وبعد الاشارة المختصرة الى اختفاء هذا البطل المجاهد اعود الى الكلام على « غرازياني » وزحفه . فاقول : زحف هذا القائد الايطالي يعاونه « يوسف خربيشة » في قيادة المرتزقة . وتحركت تلك الحشود الضخمة من الجنود والمرتزقة تعززها قوات آلية كثيفة من المدفعية واسراب الطائرات . تحركت من « الوطية » ووصلت الى « سواني الكردي » وهذه السواني عبارة عن آبار تقع في آخر اراضي الرحيبات من جهة الغرب والتي تعرف باسم « غدو » وهي قليلة المياه ومع قلتها فهي غير عذبة . وصلت قوات العدو الى هذه الآبار . بينما كانت قوات المجاهدين بقيادة « الحاج محمد فكيني » تحتل الجنوب الشرقي من نفس الارض بالنسبة لوضع المتحاربين . حيث يوجد في هذا الركن منها « وادي الوخيم » وفي وسط هذا الوادي مياه سطحية متوفرة « اثمد » فاذا ازال الانسان

التراب بيده الى عمق نصف ميترو تجمعت المياه بما يكفي الانسان والحيوان وهي مياه عذبة تماما . لذلك سيطر المجاهدون على منطقة « وادي الوخيم » في انتظار تقدم العدو .

قلنا نزلت قوات العدو في « سواني الكردي » وهي كما اوضحنا آنفا قليلة المياه والقوات التي نزلت بها ضخمة . فلم تكفيها مياه تلك الآبار فتحرجت حالتها لحاجتها للمياه مع اشتداد الحر . فحاول العدو ان يستعين « بسانية الحمراء » ولكن هذه كانت قد ردمها المجاهدون حتى لا يستفيد منها العدو . ثم اضطرت قوات العدو الى التقدم نحو « وادي الوخيم » فتلقاها المجاهدون بنار حامية حيث جرت معارك ضارية عنيفة . واستمرت الحرب مساجلة بين الفريقين عدة من ايام . ونظرا الى تفوق العدو في مجالات الاسلحة الثقيلة واسراب الطائرات التي كانت تتوالي غاراتها بدون انقطاع ، استطاع بعد معارك شديدة أبلى فيها المجاهدون بلا حسنا ، استطاع احتلال منطقة « الوخيم » وبذلك توفرت له المياه . وتواصلت المعارك بعد ذلك بشدة وعنف حول مركز « الجوش » التابع لتصرفية نالوت ، الى الجنوب الغربي من « وادي الوخيم » وتبعد عنه ببضع كيلومترات .

ولما اصبح مركز « الجوش » مهددا بالسقوط اتخذ المجاهدون تكتيكا آخر فانسحبوا الى اعلى الجبل وسدوا منافذه لمنع العدو من الصعود اليه وبعد احتلال منطقة الجوش تقدم العدو نحو الجبل . ونظرا الى ان مرتزقة الجهة . وهم اكثرية المرتزقة في هذه الحملة ، نظرا لما لهم من الخبرة بتلك الجبال ومنافذها المعروفة والمجهولة . فقد مكنوا العدو بعد جهود مضنية ومعارك شديدة رهيبة وخسائر باهظة من الطرفين . مكنوه من التسلل الى اعلى الجبل من بعض منافذ صغيرة ومجهولة عن غيرهم. تؤدي الى بلد « السلامات » وهذه البلدة هي آخر بلدة من بلاد الرحيبات من الجهة الغربية . تمكن العدو من الوصول اليها وهو مطمئن من النواحي الغربية . اذ لم يبق بها اي محارب من المجاهدين بعد اختفاء

« بنعسكر » ووقوع اتباعه تحت سيطرة العدو . نشبت هناك معارك في منتهى الشدة وغاية الصمود والفداء حتى ان الناس اصبحوا يعرفون تلك المعارك بـ « يوم السلامات » لشدة ذلك اليوم .

وبوصول طلائع العدو الى « السلامات » اسرعت تلك القوات الضخمة للالتحاق بها باقصى سرعة ووقع احتلال « السلامات » وامام هذا الزحف المنجج والاعداد التي لا آخر لها ، مع انهم اخذوا يجندون من يجدونه من الاهالي قهرا ، امام هذا كله انسحب المجاهدون في اتجاه الشرق والجنوب . والملاحظ هنا ان المعارك اسفل الجبل دامت حوالي عشرين يوما منذ بدء القتال حتى دخول طلائع العدو الى « السلامات » وبسقوط السلامات سقطت « جادو » وهي المركز الرئيسي – او القائمقامية لثلاث مديريات هي : « الرحيبات ، فساطو ، الرجبان » فاصبحت هذه الثلاثة تحت سيطرة العدو . وبذلك اصبح الاحتلال يهدد « الزنتان » وفعلا فقد واصل العدو زحفه نحو الشرق ولم يكن انسحاب المجاهدين ولا تقدم العدو يجري بسهولة او سرعة . بل كان يتقدم ببطء عبر معارك غاية في الشدة والعنف في كل خطوة ، الامر الذي كلف العدو خسائر فادحة .

وفيما كان المجاهدون ينسحبون بانتظام بعد تلك المعارك العنيفة للوصول الى « قصبة صفيت » بظاهر القلعة ، « يفرن » حيث توجد هناك قوة من المجاهدين وعدد من زعماء الجهاد منهم : احمد السني ، خالد القرقني ، وغيرهما . اذ اغار على حيواناتهم التي كانت تسير خلفهم . اغارت عليها مجموعات من « الريباينة » من اتباع جلبان ، « وجلبان » هذا هو ذلك الرجل الذي انتمى للعدو علنا . وهو الذي ذبح بالموسى ، وبيده ، ٢٨ شخصا من رجال الريباينة الذين لم يوافقوه على « الطلينة » والقى بجثثهم في بئر هناك ترضية للعدو وليثبت له اخلاصه وتفانيه في نصرته .

كانت قوة من المجاهدين تعسكر في « قصبة صفيت » تستعد لارسال جانب منها لنجدة القوات التي يقودها « الحاج محمد فكيني » والمشتبكة

الحاج محمد فكينــي .

في معـارك ضاريـة مع قـوات العـدو التي يقودهـا « غرازيـاني » ويساعده « يـوسف خـربيشة » . وفي نفس الظـروف كانت اخبـار منتشرة تقول : ان الهـادي بـك كعبـار على اتصالات سريـة مع العـدو وقد كان النـاس بيـن مصدق ومكـذب لهـذه الاشاعات . نظـرا لان مـوقف الهـادي بـك في عهـد الجمهوريـة كان مـوقفا وطنيـا فيما سمعـه عنه النـاس . غير ان مخابرات مركـز المجاهـدين في « يفـرن » قـد اكتشف بصورة قطعيـة بان انحـراف « الهـادي » امـر لا شك فيه . ولم يقتصر هـذا الانحـراف علـى شخصيته وحسب . ولا حتى محليـا في حدود « غريـان » بـل اخـذ « الهـادي » يتصل ويسعى خـارج غريـان لدى بعض رؤسـاء القبائـل وزعمـاء حركـة الجهـاد في عـدة جهـات يطلب منهم السيـر على منوالـه . وهو التسليم للعـدو .

وهذه التصرفات التي ثبت وجـودها قد ازعجت المجاهدين في « يفـرن » اذ في الـوقت الـذي يـزحف فيه العـدو من غـربيهم . وهم يحاولون ارسال نجـدة لايقـاف تقدمـه ، في الـوقت نفسه اصبح شرقيهم يتمخض عن حوادث قـد تجعلهم مطوقيـن يتهددهـم الخطـر . ولهـذه الاسبـاب ارسلت قـوات « يفـرن » مذكـرة الى « رئيس هيئـة الاصلاح المركـزيـة » تشكـو فيهـا تصرفـات الهـادي ، وتطلب منه تدعيم مركزها بفرق من الجيش النظامي ومن الاسلحـة والذخيـرة باقصى سرعـة حتى يتمكنوا مـن نجـدة اخـوانهـم الغـربييـن .

وما كادت تصل بعض القـوات المطلوبـة والاسلحة الى يفـرن وتستقـر ايـاما معـدودة حتى وصلت قـوات الغـرب منسحبـة . وبعـد ايـام مـن وصولهـا ، وصلت قـوات العـدو وبوصولها اندلعت معـارك في منتهى الشدة والعنف واستمات الطرفان في القتال بصورة مذهلة . ولكن وفرة الاسلحة على اختـلاف انـواعهـا ، والتفوق العددي الذي لا يتناسب مع عدد المجاهدين . وتصرفات « الهـادي كعبـار » ومساعيه التي شغلت بـال المجاهـدين خشية

رسالة خالد القرقني واحمد السني

ان يقعوا بين نارين فيصيروا مطوقين كل هذه العوامل اجبرت المجاهدين على الانسحاب من « يفرن » الى « غريان » كي ينضموا الى قوات المجاهدين هناك .

كانت توجد في « غريان » قوة من المجاهدين نظامية بقيادة عبد الله تمسكت ، والسنوسي العصبلي ، حضرت هذه القوة لتاديب المجموعة الضالعة مع العدو التي تتكون من : « عاكف ، والقعود ، ونافع ، والخوجة » وهذه المجموعة كانت تتلقى الاموال من الطليان والاسلحة منذ مدة ماضية وضيقت على آل كعبار ، وبطلب من مختار كعبار انتقلت هيئة الاصلاح المركزية الى « غريان » لان وجودها هناك يحمي آل كعبار من ضغط المجموعة الضالعة . اذ كانت الحالة في « غريان » في غاية الارتباك والخطورة .

نزاعات واختلافات بين المتصدرين . فالاخوة كعبار وقع بينهم انشقاق ، (فالهادي) اعلن بوضوح انحيازه الى جانب العدو . بينما مختار من المخلصين للوطن ويأنف التسليم للطليان . واحمد راسم . وان كان قد قاد « باندة » في سنة ١٩١٣ م وحارب المجاهدين ، الا انه في هذه انحاز الى جانب اخيه « المختار » في موقفه ضد اعداء الوطن ، وهناك المجموعة الضالعة الانفة الذكر . وحينما اعلن الهادي طلينته بوضوح خشي هؤلاء ان تطغى عليهم شخصية (الهادي) فاصبحوا يسابقونه بنشاط كبير للفوز برضى ايطاليا حتى يكونوا اكثر حظوة منه لديها .

في هذه الاثناء وصلت قوات المجاهدين المنسحبة من « يفرن » الى غريان ، فوجدت الحالة كما المحنا آنفا . وقد وجهت مجموعة عاكف ومن سار على دربها الى رئيس هيئة الاصلاح المركزية التي كانت قد انتقلت الى (ترهونة) حينما سقطت « يفرن » وجهت اليها انذارا بان لا ترسل اية نجدة الى « غريان » والا فانهم سوف يحاربونها بدون هوادة كما هددوا قوات المجاهدين الموجودة في غريان بانهم سيهاجمونها ان لم ترتحل عن بلادهم . وفي هذا الوقت بالذات كانت قوات العدو

الضخمة في « يفرن » ولا يفصلها عن « غريان » الا بضع عشرات الكيلومترات . وبما ان الدفاع عن غريان والحالة هذه اصبح متعذرا .. فقد انسحبت قوات المجاهدين ملتحقة بهيئة الاصلاح في « ترهونة » وبعد مدة زحف العدو على « غريان » فاحتلها دون أية مقاومة ولا طلقة واحدة . وذلك في آخر خريف سنة ١٩٢٢ م . وبعد احتلال العدو « لغريان » صار وضع المجاهدين في « ترهونة » مزعزعا والمسافة الفاصلة بين ترهونة وغريان كتلك التي تفصل بين غريان ويفرن تقريبا .

وبعد احتلال غريان تجمعت هناك قوات العدو ، وبصورة اضخم مما كانت ، وتولت قيادتها مجموعة من : خربيشة ، وعاكف ونافع ، والقعود، وجلبان ، وتحركت هذه القوات من غريان اوائل سنة ١٩٢٣ م نحو ترهونة ، وفي الوقت نفسه سير العدو قوات أخرى لا تقل عن الاولى يقودها : محمود عزيز ، وقد اخذت هذه طريقها في محاذاة البحر في اتجاه الشرق . وقد اصطدمت بقوات المجاهدين في معارك عديدة ولعله من ابرز هذه المعارك تلك التي لا يزال الناس يذكرونها : « معركة قصر خيار » تلك التي ضربت فيها قماطة الرقم القياسي في التضحية والفداء . غير ان توالي النجدات للعدو وتوارد الاسلحة اليه بلا انقطاع مع مساعدة قواته البحرية والجوية كل هذه مكنته من تصفية المعركة ومواصلة زحفه حتى احتل المنطقة وواصل تقدمه فاحتل « مسلاته » ومنها اتجه الى ترهونة ، لتعزيز القوة الزاحفة من غريان .

كما كانت هناك قوات اخرى طليانية تحركت من العزيزية وبوعرقوب متجهة الى ترهونة عن طريق (فم ملغة) وفي (فم ملغة) او قريب منه اصطدمت هذه القوات العدوة بقوة للمجاهدين يقودها « عبد السلام المريض » وهو ابن أخ رئيس هيئة الاصلاح المركزية ، ولقد حكى لي هذا القائد الصلب تفاصيل تلك المعركة فقد كانت معركة جد عنيفة صبر فيها المجاهدون صبرا جميلا ، ولكن امام قوات غير متكافئة في العدد وفي جميع مقومات الحرب اضطر المجاهدون الى الانسحاب من الميدان .

جناب رئيس المؤتمر الملي وحزب الاصلاح الوطني صاحب السعادة احمد بك المريود المحترم

المعروض على سعادتكم ان يوم الاربعا الموافق ١٩ تشرين ثاني ٩٢٦ كان وقع اجتماع بين عبابنة غربيان من القريقية بواسطة بعض اعيان اهالي ناحية الاصابعة لاجل الاتفاقة والمصالحة بينهم فيكونوا عموما متحدين ومرتبطين بالمؤتمر الملي وبعد كل المباحثة والمذاكرة فيما بينهم جعلوا مواد صلحية بشرط يكونوا بضابط محرره من الفسخية واخترقوا على هذا القرار . وان اهالي قبيلة الكليب كانت وقعت بينهم مقاتلة قبل قدوم الغربان وارتحلوا قسم من اهالي القبيلة المذكورة الذين هم من تبعة نافع ورفقائه الى قبيلة ثانية وابقوا ارزاقهم وخيمهم بقبيلتهم الكليب . وفي يوم الاجتماع المذكور طلب من نافع بأن نزل عبدالله افندي المصاري وقسم من العساكر الى القبيلة المذكورة لاجل تسليم ارزاقه ومنقوبات الاهالي الذي انفصلوا منها لهم واجراء التقيف بينهم بما يمكن فرأيته ان ذلك صوابا . وفي يوم الجمعة صباحا الموافق ٢١ منه امرت عبدالله افندي المومى اليه وقسم من العساكر بالتوجه الى القبيلة المذكورة لاجل رفع الشقاحة المتكونة والقطيعة بين القسمين بما يقتضيه الايجاب فتوجهوا العساكر تحت قومندانية المومى اليه الى ما ذكر فعند وصولهم الى الجهة اصبح وجدوا قبيلة اوسادة وقبيلة الكليب متقابليين لبعضهم بعضا ومشتد بينهم الحرب بدون صلح . والسبب في ذلك هو ان نافع لما عرف ان العساكر متوجه تلك اليوم الى القبيلة المذكورة جمع قوة وهجم بها على الكليب مرادة اخذ ارزاقه والاهالي المنتمين اليه عنوتاً قبل وصول العساكر . ولما رأوا العساكر التقدم الى جهة القبائل المذكورة ومنهم من تقاتلت بعضهم وتسكين ذلك تعرضوهم بطلق انما من اهالي قبيلة البزايزة التابعين لنافع فرجعوا وسكنوا حتى اصبح وبقيت المحاربة تلك اليوم بين القبيلتين المذكورات الى قدر الساعة واحده ليلا فحلت ثلاثة اشخاص من قبيلة الكليب وقتل من اوسادة ونفر مجروح . وفي يوم السبت الموافق ٢٢ منه اتى المبروك القعود وعاكف الى عبدالله افندي المصاري ومن معه من العساكر الذي باصبح مصحوبين معهم الاكل والشعير للعساكر ومعهم مقدار من المسلحين وبعد وصولهم الى محل العسكرية صاروا يأتونهم المسلحين قسم بعد قسم من جماعتهم الى ان يلغوا عدد ... مسلحا بوسط العسكرية مرادهم ان يعملوا خيانة للعساكر ويطردونهم من قرب اصبح كونه محل مستحكم وعسكرية لانفسهم يستحكمون فيه . ولما رأوا العساكر والقومندان عبدالله افندي المومى اليه ان نيتهم مبنية على خيانة صاروا يطردونه تحت المسلحين الذي مع عاكف والقعود ويمنعونهم من الاختلاط مع العساكر فصاروا يتمهلون ويتمنعون من الذهاب لينفذوا اغراضهم السيئة فطردوهم العساكر ولم يبقوهم بقربهم والقوا القبض على المبروك القعود مسكوه وعاكف فر هاربا وترك سلاحه وجواده وفي هذا الاثنا هجوم من الاهالي تبع المذكورين على العساكر الذين باصبح واطلاق البارود وصارت بينهم المقابلة الشديدة الى المساء فاستشهد مصباح افندي الشريف والجندي احميده افندي الشرقاوي جرحا خفيفا على رجله وهم فتقدمهم جرأة انقاذ . فلما اشتدت المقابلة بين العساكر والاهالي المخالفين بمحل اصبح المذكور القيت القبض على هاشم رشاده ومحمد ابو خيلان وجملة المخالفين التابعين لهم بقبيلة تغاث ووضعتهم بالسجن خوفا من ان يقع منهم تشويش بمحل الراحة وباقيين تحت التوقيف مع المبروك القعود . وفي تلك

الآن اجتمعت عموم اعيان واختيارية قبيلة تفات الذي هي محل المركز واعطيتهم الاوامر الشديدة بجمع كافة
المسلحين الموجودين بالقبيلة عموماً فاجتمعوا حالاً بعموم مسرهم واخذت معهم بقية العساكر الموجودة
بالمركز وتوجهت معهم بالذات مستعيناً بالله فباشرنا اولاً بقبيلة السقايف التي هي قبيلة عاكف
فضبطناها ومنها الى قبيلة النطاحات كذلك ومنها الى قبيلة كمون ومنها الى قبيلة الزوية ولم يقع
ادنى ضرر ولا جرح للعساكر ولا للاهالي الذي معنا بالكلية والحال حيث فروا المخالفين ولم يقابلونا
الا شيئاً خفيفاً وقد مات منهم نفر من قبيلة السقايف ونفر من قبيلة كمون . وفي يوم الاحد الموافق [illegible]
توجهت الى سعادة الهادي بك لاجل بعض مذاكرات فأتونا بعض اعيان قبيلة الفحاصات الذي هي قبيلة
القعود وقدموا الطاعة بموجب مضبطة ممهورة وطلبوا الامان فاعطيناهم الامنية وقبلنا منهم ذلك
وفي ليلة الاثنين لما سمع نافع بذلك فر هارباً مع بعض اناس من قبيلته قدر خمسة وعشرون نفراً وفي يوم
الاثنين الموافق ٢٧ [illegible] اتانا الشيخ العالم السيد محمد افندي السنوسي مع بعض اعيان قبيلة اولاد سادة التي هي قبيلة
نافع وقدموا الطاعة بموجب مضبطة ايضاً واعطيناهم الامان وقبلنا منهم ذلك وارسلت ثلاثمائة نفراً
من العساكر تحت قومندانية عبدالله افندي الى قبيلة اولاد سادة المذكورة وباقيين بها . وعموم قبايل ربع
بني خليفة مطيعين وقدموا الطاعة بموجب مضابط كذلك وامثالهم . والمسموع ان نافع وبعض المخالفين
معه توجهوا الى جهة الاصابعة ومجتمعين بمحل يقال له هنشير ابو زيد بين حدود غريان والاصابعة ومرادهم
يجعلوا فزع من اهالي الاصابعة ولكن لم يكن لهم اهمية حيث يقال ان عاكف هرب الى جهة اولاد بو ليل .
وقد اخذنا خبراً من الشيخ محمد بن خليفة السالمي القاسمي بانه بلال ومقدار عشرة انفار [illegible] ومعه جلبوا اربعة
صناديق جبخانة من طرابلس ومقدار من النقود معاشات حاملين بهم الى حوش شطبه ولما سمع الشيخ محمد بن خليفة [illegible]
ارسل جواب الى شطبه في تسليم بلال ومن معه مع الجبخانة الذي عندهم والنقود فلم يجاوبوه الملعونين فاخذ الشيخ
المذكور مقدار من المسلحين وتوجه بهم الى حوش شطبه لاجل محاصرة بلال ورفقائه والقاء القبض عليهم واخذ
ما عندهم فاجتمعوا قسم من المخالفين مع شطبه بتدبيره وقدموا الى الشيخ محمد بن خليفة واخاروه بانه لا يمكن هنا
[illegible] في بيت شطبه واخراج بلال ورفقائه من سوى الجبخانة الذي عندهم نسلموها لكم وغيرها لا يمكن شيئاً
وفي هذا الاثنا يقال ان شطبه ارسل ستة انفار [illegible] بجوست الى العزيزية وهرب بلال ومن معه من الحوش
وهذه حوادث طرفنا . وان شاء الله في امد قريب تحصل الراحة والامنية العمومية بالقضاء وندعو
الله ان يصلح حال المسلمين عموماً ويوفق الجميع لما فيه صلاح البلاد وراحة العباد والله المعين ونؤمل
من سعادتكم ارسال مائة نفر عسكرية كاملين العدة والعدد بغاية الاستعجال ومنتظرين الامر بصورة
موضحة بما يقتضيه نظركم العالي في هذا الخصوص وعزم اقدام ٢٨ كانون ثاني [illegible]   قومندان [illegible]

وحسب المسموع ايضاً بان نافع ومعه [illegible]
مراده [illegible]
[illegible] قبيلة [illegible]
الاصابعة [illegible]

جناب رئيس المؤتمر الملي وحزب الاصلاح الوطني صاحب السعادة احمد بك المريض المحترم

المعروض على سعادتكم ان يوم الاربعاء الموافق ٢٢ كانون الثاني ١٣٣٦ كان وقع اجتماع بين اعيان غريان من الفريقين بواسطة بعض اعيان اهالي ناحية الاصابعة لاجل الاتفاق والمصالحة بينهم ليكونوا عموما متحدين ومرتبطين بالمؤتمر الملي وبعد كل المباحثة والمذاكرة فيما بينهم جعلوا مواد صلحية بشرط يكونو بمضابط ممهورة من القسمين وافترقوا على هذا القرار . وان اهالي قبيلة الكليبة كانت وقعت بينهم مقاتلة قبل قدومنا لغريان وارتحل قسم من اهالي القبيلة المذكورة الذين هم من تبع نافع ورفقائه الى قبيلة ثانية وابقوا ارزاقهم وغيرها بقبيلتهم الكليبة. وفي يوم الاجتماع المذكور طلب مني نافع بان نرسل عبد الله افندي المصماري وقسم من العساكر الى القبيلة المذكورة لاجل تسليم ارزاق ومكاسب الاهالي الذين انتقلوا منها لهم واجراء التحقيق بينهم بما يمكن فرايت ان في ذلك صوابا . وفي يوم الجمعة صباحا الموافق ٢٤ منه امرت عبد الله افندي المومى اليه وقسم من العساكر بالتوجه الى القبيلة المذكورة لاجل رفع الشقاق المتكون والتصفية بين القسمين بما يقتضيه الايجاب فتوجهت العساكر تحت القومندان المومى اليه الى ما ذكر فعند وصولهم الى جهة اصبيع وجدو قبيلة اوسادن وقبيلة الكليبة متقابلين لبعضهم بعضا ومنشدينهم الحرب بلا فاصلة ، والسبب في ذلك هو ان نافع لما عرف ان العساكر متوجه ذلك اليوم الى القبيلة المذكورة جعل قوة وهجم بها على الكليبة مراده اخذ ارزاق الاهالي المنتمين اليه عنوة قبل وصول العساكر . ولما اراد العساكر التقدم الى جهة القبائل المذكورة ومنعهم من مقاتلة بعضهم وتسكين ذلك تعرض لهم بعض الناس من اهالي قبيلة ابو زيان التابعين لنافع فرجعوا ومسكوا قصر اصبيع وبقيت المحاربة ذلك اليوم بين القبيلتين المذكورتين الى قدر الساعة واحدة ليلا فمات ثلاثة اشخاص من قبيلة الكليبة . ونفر من أوسادن ونفر مجروح وفي يوم السبت الموافق ٢٥ منه اتى المبروك القعود وعاكف الى عبد الله افندي المسماري ومن معه من العساكر الذين بآصبيع مصحوبين بالاكل والشاي للعساكر ومعهم مقدار من المسلحين وبعد وصولهم الى محل العسكرية صار يأتونهم المسلحون قسما بعد قسم من جماعتهم الى ان بلغوا قدر اربعين مسلحا بوسط العسكرية مرادهم ان يجعلوا خيانة للعساكر ليطردوهم من قصر آصبيع لكونه محلا مستحكما يمسكونه لانفسهم ويتحكمون فيه ولما راى العساكر والكومندان عبد الله افندي المومى اليه ، ان ضيوفهم يضمرون لهم الخيانة صاروا يضطرون المسلحين الذين مع عاكف القعود ويمنعونهم من الاختلاط مع العسكر فصاروا ينمهلون ويتمنعون من الذهاب لينفذوا اغراضهم السيئة فطردوهم العساكر ولم يبقوا بقربهم والقوا القبض على المبروك القعود ومسكوه وفر عاكف هاربا وترك سلاحه (وحرامه) وفي هذه الاثناء وقع في الاهالي تبع المذكورين صراخ البارود على العساكر الذين بآصبيع وصارت بينهم المقابلة الشديدة الى المساء فاستشهد مصباح افندي الشريف وجرح احميدة افندي الشرقاوي جرحا خفيفا في رجله . وبلغ قتلاهم خمسة انفار . فلما اشتدت المقابلة بين العساكر والاهالي المخالفين بمحل آصبيع المذكور القيت القبض على عاصيم برشان ومحمد ابو رخيص وجملت المخالفين التابعين لهم بقبيلة تغسات.ووضعتهم في السجن خوفا من ان يقع منهم تشويش يخل بالراحة وبقوا في التوقيف مع المبروك القعود . وفي تلك الاثناء جمعت عموم اعيان واختياريت قبيلة تغسات التي هي محل المركز واعطيتهم الامر الشديد بجمع كافة المسلحين الموجودين بالقبيلة عموما فاجتمعوا جملة بصورة مسرعة واخذت معهم بقية العساكر الموجودة بالمركز وتوجهت معهم بالذات مستعينا بالله فباشرنا اولا بقبيلة السقايف التي هي قبيلة عاكف

ضبطناها ومنها الى قبيلة انطاطات كذلك ومنها الى قبيلة كمون ومنها الى قبيلة الزوية ولم يقع ادنى ضرر ولا جرح للعساكر ولا للاهالي الذين معنا بالكلية والحمد لله حيث فر المخالفون ولم يقابلونا الا شيئا خفيفا وقد مات منهم نفر من قبيلة السقايف ونفر من قبيلة كمون وفي يوم الاحد الموافق ٢٦ منه توجهت الى سعادة الهادي بك لاجل بعض مذكرات فأتانا اعيان قبيلة القحاصات التي هي قبيلة القعود وقدموا الطاعة بموجب مضبطة ممهورة وطلبوا الآمان فاعطيناهم الامنية وقبلنا منهم ذلك وفي ليلة الاثنين لما سمع نافع بذلك فر هاربا مع بعض اناس من قبيلته قدر خمسة وعشرون نفرا وفي يوم الاثنين الموافق ٢٧ منه اتانا الشيخ العالم السيد محمد افندي السنوسي مع بعض اعيان قبيلة اوسادن التي هي قبيله نافع وقدموا الطاعة بموجب مضبطة ايضا واعطيناهم الامان وقبلنا منهم ذلك وارسلت ثلاثين نفرا من العساكر تحت قومندان عبد الله افندي المصماري الى قبيلة اوسادن المذكورة والباقيين بها . وعموم قبائل ربع بني خليفة مطيعين وقدموا الطاعة بموجب مضابط كذلك وامناهم والمسموع ابن نافع وبعض المخالفين معه توجهوا الى جهة الاصابعة مجتمعين بمحل يقال له هنشير بوزيد بين حدود غريان والاصابعة ومرادهم ان يجعلوا فزعا من اهالي الاصابعة ولكن لم تكن لهم اهمية ويقال ان عاكف هرب الي جهة اولاد ابريك . وقد اخذنا خبرا من الشيخ خليفة السالي القاسمي بان بلال ومقدار عشرة انفار جندرمة معه جلبوا اربع صناديق جيخانة من طرابلس ومقدارا من النقود معاشات واتوا بها الى حوش اشطيبه ولما سمع الشيخ محمد بن خليفة المذكور بذلك ارسل جواب الى شطيبه في تسليم بلال ومن معه مع الجبخانة التي عندهم والنقود فلم يرجع له المضمون فاخذ الشيخ المذكور مقدارا من المسلحين وتوجه بهم الى حوش شطيبة لاجل محاصرة بلال ورفقاه والقاء القبض عليهم واخذ ما عندهم فاجتمع قسم من المخالفين مع شطيبه بتدبيره وقدموا الى الشيخ محمد بن خليفة وافادوه بانه لا يمكن منك شرف بيت شطيبه واخراج بلال ورفقائه منه سوى الجبخانة التي عندهم ليسلموها لكم وغيرها لا يمكن شيئا ، وفي هذه الاثناء يقال ان شطيبة ارسل ستة انفار جندرمة ببوستة الى العزيزية وهرب بلال ومن معه من حوشه وهذه حوادث طرفنا، وان شاء الله في امد قريب تحصل الراحة والامنية العمومية بالقضاء وندعو الله ان يصلح حال المسلمين عموما ويوفق الجميع لما فيه صلاح البلاد وراحة العباد والله المعين ونؤمل من سعادتكم ارسال مائة نفر عسكرية كاملي العدة والعدد بغاية الانتظام . ومنتظرين الامر بصورة موضحة بما يقتضيه نظركم العالي في هذا الخصوص وغيره افندم ٢٨ كانون ثاني ٣٣٦ .

قومندان عمومي

توقيع

وحسب المسموع ايضا بانه نافع ومن معه من المخالفين الفارين مرادهم نهب اغنام قبيلة الكليبة فمنعوهم الاصابعة ولم يرضوا لهم بذلك والسلام

وفي هذا الوقت نفسه كانت قوات المجاهدين في « مسراتــة » مشتبكة مع قــوات الــعـدو الارضيــة والبحـريــة والجـويـة بقيـادة « سعـدون السويحلي » في معـارك كثيرة وكـاد المجاهـدون ان يحتلوا « مسراتــة » من جديـد . وفي منتصف سنــة ١٩٢٣ م تقريبـا عـزز العـدو قواه بصورة قوية ووقعت مصادمـة بين هذه القـوات الطليانية الضخمـة وقـوات المجاهـدين في مكـان يدعى « المشرك » وصمد فيها المجاهـدون صمودا تاريخيا . وقد مني الطرفـان بخسائر فادحـة جـدا ، ومن خسائر المجاهدين التي لا تعـوض ، والتي كان لها تاثيـر عميق في نفـوس المجاهـدين هي استشهاد هذا القائـد الـوطني الجـريء لمـا عـرف به من الشجاعـة والاخـلاص ، وعلى اثر ذلـك تولى مكانـه ابن اخيـه « ابراهيـم رمضان السويحلي » في قيـادة الجيش النظـامـي ، الا ان هـذا كان شابا صغير السن تعـوزه الفـراسة والمـرونـة والتجـارب . وانسحب المجاهـدون الى « وادي نفـد » .

واعـود الى ذكـر تلك القـوات الزاحفـة صوب « ترهـونة » مـن جهـات ثـلاث (غريـان ، العزيزيـة ، مسـلاتـة) فلمـا احسـت هيئـة الاصـلاح المركـزية بالخطـر انتقلت من ترهـونة الى « وادي ويـف » وبعـد معـارك في كـل الاتجاهـات التي زحـف منها العـدو تمكن هذا العـدو من احتـلال « ترهـونة » ومنـذ احتـلال « غريـان » واحتلال « ترهـونـة » اختلفـت اتجاهات انسحاب المجاهدين ففريق اخذ يميل الى جهة «سرت» وفريق الى « ورفلـة » بينما هناك مجموعات اخـرى استقـرت في جهـات « غـدامس ، ومـزدة ، والقريـات » يقـودها زعمـاء مدربون على قهـر غـول الصحـراء الـرهيبة . كما انتشرت شرائح عريضة من المجاهـدين في اماكن اخـرى في دواخـل الصحـراء يتوفـر فيها الى حـد ما ، ما لا بـد منه للانسان والحيوان كالمـاء والكـلأ والحصون الطبيعيـة .

وعلى كـل فقـد صمم الجميع في الشرق والغـرب والجنوب على مـواصلة الدفـاع عن الوطـن الى ان يحكـم الـلـه بما يشاء لا حاكم غيـره ولا قاهر لمن

ينصره . وتواصلت المعارك بكل ضراوة وقد احرز المجاهدون انتصارات فتحت امامهم ابواب الامل على الرغم مما اصابهم .

واعود الى القول ان شرائح عريضة من المجاهدين اتجهت نحو « ورفلة » وهذه كان اكثرها من نواحي الوطن الغربية والملاحظ هنا ان « ورفلة » اذ ذاك لاتزال سليمة نسبيا ، أولا لبعدها عن مناطق المصادمات مع العدو والتي كانت تجري في المناطق الساحلية ، والجفارة ، وخط الجبل ، وثانيا ان زعيمها « عبد النبي ابو الخير » هو احد اعضاء مجلس الجمهورية الاربعة . ومنذ تناقص اعضاء هذا المجلس بانتقال « رمضان السويحلي » الى رحمة الله ، ومغادرة « الباروني » الوطن الى الشرق انكمش عبد النبي في بلاده ، ولم يشارك في اية اجتماعات خارج « ورفلة » ولا حتى في اجتماع غريان وتمهيداته ، الذي نتج عنه تشكيل هيئة الاصلاح المركزية ، اللهم الا حضور « العيساوي بوخنجر » ولكن هذا ليس له اتباع ، وكان لموقف « عبد النبي ابو الخير » هذا اسباب غير معروفة لدينا ، ولكن من قبيل التخمين الفكري اقول : لعله كان من رايه يود تسديد النقص الذي حدث في اعضاء مجلس الجمهورية ومعالجة القضية على اساس الصلح الاول والسعي بالطرق الديبلوماسية داخل البلاد وخارجها لتنفيذ القانون الاساسي . وهو يندفع الى هذا الاتجاه لاقتناعه بعدم الاطمئنان الى امكانيات البلاد لمواصلة الحرب ، وذلك على الرغم من موقف ايطاليا المتحرش . ولربما ، لما لم يجد تجاوبا فيما اتجه اليه انكمش في « ورفلة » والذي اوحى الي بهذا التخمين هو ان « قوافل ورفلة » كانت تذهب الى طرابلس وتعود لابتياع الحاجات الضرورية وهي طريقة اقرها الصلح الذي وقع مع ايطاليا عند قيام الجمهورية فهو اذن يسير في نفس الطريق الذي كان عليه الوطن كله قبل مؤتمر غريان .

واذا نظرنا من جهة اخرى الى انه عند انتخاب الاربعة رؤساء الذين هم « مجلس الجمهورية » كان مما قرر باتفاق الجميع ان كل رئيس منهم حر في تصرفاته في المنطقة التابعة اليه ولا يتقيد بالاخرين الا في

مخابـرة العـدو والتفاهـم فيما يتعلق بالوطن من نواحي السياسة والحـرب والسـلام ليس الا . هـذا والله تعـالى اعلم بحقيقـة المـوقف .

قلنـا فيما تقدم اتجـه قسم من المجاهـدين الـى « ورفلـة » للاعتبـارات السـالفة الذكـر ، واصبحت همـزة الاتصال بين طرفي واجهـة المجاهـدين التي تمتـد من « غـدامس غربـا » الى « قصر بوهـادي » في « سرت » شرقا فكـانت بذلك نقطـة استراتيجيـة .

وفي اواخـر سنة ١٩٢٣ م بـدات ايطاليـا في الاستعداد لمهاجمة (ورفلـة) فخططت لها تخطيطـا جهنميا اشتركت فيه عقـول بعض المـواطنين وافكارهم « مـع كل اسف » مع عقـول وافكـار اعـداء الوطن الايطاليين « ولا يقطـع الشجـرة الا جـزء منها » كما يقولون وفي آخـر ايـام هذه السنة وبالتحديـد في شهـر ديسمبـر ١٩٢٣ م هـوجمت « ورفلـة » من قبـل العـدو باعـداد وافـرة من المرتـزقة المحليين والاريتريين والجيوش الايطالية وغيـرهـا . مع اعداد وافرة من الخيل والابل والآليـات ، وكميات ضخمـة من الاسلحة ، وفـرق من السلاح الجـوي ، وزحفت عليها من ثلاث جهـات من الغرب ومـن الشرق والجنوب واصطدمت هذه القوات بقوات المجاهدين ودارت رحـى معارك شديدة جـدا .

بعـد هذه المعـارك التي لا اعـرف مدتها احس المجاهـدون بالضعف امـام هـذه القـوات المهـولة ، كما انهم قد انتبهـوا الى محاولة العـدو لتطويقهم فعملوا بطريقـة ذكيـة الى كسر هـذا الطوق الذي ضربه العـدو عليهم بقصد افنائهم وانسحبوا نحـو الجنوب تاركين منطقة « ورفلـة » فاحتلها العـدو بعـد ان تكبـد من الخسائر في الامـوال وفي الرجـال الشيء الكثيـر الامـر الذي جعـل قائـد هذه الحملـة الجنـرال « غرازياني » يوجـه بلهجة انفعالية حاقـدة الشتائـم والاوصاف الذميمـة الى زعيـم هذه المنطقـة « عبد النبي ابـو الخيـر » في كتابـه « نحـو فـزان » وبصورة تـدل على حمـق وحقـد عميقين في نفسه بسبب تلك اللطمة التي تلقتها « حملته » على « بني وليد » والتي اعتبرها نتيجـة مباشرة لدهـاء « عبـد النبي ابو الخيـر » وغمـوض

موقفه الذي جعل « غرازياني » رغم مقدرته وذكائه كانه يسير في ظلام لا يعرف أين يضع رجلـه حتى لقد كاد ان يخسر المعركة . لولا تناقص الاسلحـة والذخيـرة وحتى التمويـن عند المجاهدين وضخامـة هذه المـواد ووفرتها عند قـواتـه فضلا عـن الاعـداد البشريـة .

وفي اعتقادي انني لا اكتشف مجهولا ، ولا اقول افكا حينما اقول : لـم ينتصر علينا الايطاليون بشجاعتهم فنحن ابنـاء بجـدتهـا . ولا بخبرتهـم العسكرية . فقد كنا في جيشنا النظامـي اكثـر نظاما واسرع تكتيكا . وانما انتصروا علينا بعـد عشرين سنة من الكفاح المريـر المتواصل بفضل عددهم . وعـددهم . فايطاليا امـة عـددها في ذلك التاريخ خمسون مليونا بما لهـذا العـدد من موارد ماليـة وتقدم صناعـي بالنسبة لنا . ونحـن شعب عـدده مليونـان في ذلك التاريـخ نفسه .

ورغـم هذا الفـارق الكبيـر بيننا ورغم كوننا اصحاب الحـق . فقد كانت « اوروبـا » تساعـدهم بمختلف الطـرق . ولقد ذكـرت فيما تقـدم من هـذا الكتـاب كيف بـاع لنـا الاستعمـار الفـرنسي « الشعيـر » وهـي طريقـة من طـرق كثيرة في مساعـدة « اوروبـا » لايطاليـا . بينما نحـن لم نجـد من يمـد الينا يـد الاعانـة وحتى اخـواننا العـرب والمسلميـن كانـوا كلهم تحت سيطرة الاستعمار آنـذاك . فهم لا يستطيعون نجـدتنا بطريقة مفيـدة ما لم يتغاض الاستعمار الجاثم على بلادهم والمتحكم في حركاتهم . وهــل يتغاضى الاستعمار وهو كما ذكرنا ..؟

عبد النبي بلخير

بدايـــة النهـــاية

قلنا انقسم المجاهدون الى اتجاهين حينما وقع احتلال العدو « لغريان » « وترهـونة » فان مجموعة من الزعمـاء : (احمد المريض ـ محمـد سوف ـ بشيـر السعـداوي ـ أحمـد السويحلي ـ عبد الصمد النعـاس ـ المبـروك المنتصـر ـ عبد الله تمسكت ـ مختـار كعبـار ـ عبد الجليل سيف النصر ـ ابـراهيم رمضان السويحلي) . وغيرهم من القيـادات الادنى ، وعـدد محدود من المجاهـدين . هـؤلاء اتجهوا نحو الشرق بين الشميخ ، وويف ، والسدادة ، وسرت ، واخيـرا اصبح مقـر الجميع « قصر بوهادي » في سرت . ومجموعة ثانيـة من الزعمـاء : أحمـد سيف النصر ، وعمـر سيف النصر ، وعبد النبي أبو الخير ، محمد بن الحاج حسن ، الحاج محمد نكيني ، سالم عبد النبي ، الصويعـي الخيتوني ، محمد فرحات الـزاوي ، احمد راسم كعبـار ، حسين ابن جابر ، عمر ضيا المدغعي ، وغيرهم . مع عـدد غير قليل من القيادات الادنى . وشرائح عريضة من المجاهـدين هـؤلاء اتجهوا الى الغـرب والجنوب منتشرين من « غـدامس » غربـا الى « بني وليـد » شرقا ومن خط الجبل الى ابـواب الصحـراء من الشمـال . وهؤلاء الزعمـاء في هذه الجهـات لهم اقدام راسخـة في ميـدان الجهـاد :

ولقد واصل الجميـع الذين في الشرق . والـذين في الغـرب ، واصلـوا الحـرب ضد اعـداء الوطـن . غير ان حالـة المجاهـدين بـدأ عليها شيء من

الضعف . فاستشهاد قائد الجيش النظامي « سعدون » كان له تاثيره كما اشرنا سابقا ، ثم اعقب ذلك احتلال العدو لورفلة . وهي موقع استراتيجي بالنسبة للمجاهدين فزادت الطين بلة ... حيث اصبحت « ورفلة » حاجزا خطرا فصل واجهة المجاهدين الى قسمين . فاصبح الاتصال شاقا بينهما . كما تعسرت حالة التموين ايضا ذلك لانهم اصبحوا في حالة هجرة من مساكنهم وفي مناطق صحراوية ، القسمين الشرقي والغربي .

وقبل سقوط (ورفلة) ارسل المجاهدون وفدا الى « مصر » للاتصال بالسيد (ادريس) باعتباره امير البلاد لابلاغه ما آلت اليه حالة المجاهدين لعله يجد طريقا ما ، لمساعدتهم . وكان من بين اعضاء هذا الوفد « عثمان القيزاني – وخالد القرقني » وانطلق هذا الوفد من موقع السدادة . وقد انتبهت ايطاليا لسفره وبمجرد وصوله ثار ثائر ايطاليا وطالبت بتسليم اعضائه اليها . الا ان الحركة الوطنية في مصر وقفت ضد هذا الطلب وحصل نوع من الازمة . وتفاديا لزيادة التوتر غادر الوفد مصر الى الاقطار الشرقية الاخرى .

ولما طال الانتظار ولم تسفر مساعي الوفد عن نتيجة اخذت فكرة الهجرة الى مصر تختمر في رؤوس زعماء المجاهدين الذين هم في المنطقة الشرقية « أبو هادي » وفي هذه الاثناء غادر « عبد الجليل سيف النصر » تجمعات المجاهدين في سرت عائدا الى « الجفرة » للانضمام الى مجاهدي جهتي الغرب والجنوب وبعد ذلك بايام وقعت مصادمة بين قوات العدو والجيش النظامي بقيادة (ابراهيم رمضان السويحلي) وعلى اثر هذه المعركة انسحب ابراهيم بجيشه واتجه الى « الجفرة » هو الآخر في طريقه الى « فزان » .

وهكذا فلما يئس المجاهدون من اية مساعدة من الخارج . وقد نضب معين التموين في داخل البلاد كما اشرفت الذخيرة الحربية على الانتهاء ، نفذ زعماء هذه المنطقة فكرة الهجرة . وقد بدات جموعهم تتحرك في افواج متلاحقة وفي اوقات مختلفة ولكنها ليست بعيدة عن بعضها اذ

جميعهم دخلـوا الاراضي المصرية في سنة ١٩٢٤ م وبمجرد وصولهم الى مصر قامت ايطاليا تطالب بتسليمهم اليها . ومـرة اخـرى وقفت الحركـة الـوطنية المصرية بزعامـة « سعـد زغلول باشا » في وجـه طلب ايطاليا قائلة ان هؤلاء ليسوا مجـرمين حتى يمكن تسليمهم . وانمـا هـم سياسيون وطنيـون . ومجاهـدون شرفاء دافعـوا عن وطنهم . وهذا من حقهم بل مـن واجبهـم ، واليوم قد غلبـوا على امـرهم فهاجـروا لاجئين . لا يمكن تسليمهم باي حـال من الاحـوال .

وامام هذا الموقف تراجعت ايطاليـا في طلبها . وطالبت باخـذ تعهدات منهم بان لا يتدخلـوا ولا يهتموا باي حـال من الاحـوال بحالـة طـرابلس الغـرب . ومن يتمنع عن التعهـد يجب اخراجـه من مصر . وقبلت الحركـة الـوطنية هذا الطلب بحكـم ظروف ذلك العهـد .

وهكذا وقـع فعـلا ، فبعضهم تعهـد بما طلب منه وبقي في مصر . ومنهم من رفض ذلك التعهـد وغـادر الاراضي المصريـة الى سـوريـا وفلسطيـن والعـراق وتركيـا وغيرها من البـلاد العربية والاسلاميـة مفضلا مواصلـة الكفـاح السياسي ضد الاستعمـار الايطالي في « طـرابلس الغرب او ليبيا » كما هي اليـوم . ومن ابـرز هذا الفريق بـل ابرزه على الاطـلاق . واكثـره عمـلا في سبيـل الوطـن واعمقهم اخـلاصا له « بشيـر السعـداوي » وقـد اشرنا فيما تقدم اشارة خاطفـة لبعض اعمالـه وجهوده في سبيـل الوطـن خـلال هجـرتـه .

وهكذا . بعـد اثنتي عشرة سنة من الكفـاح الطويل والنضال العنيف المرير في سبيـل الـدين والوطن والكرامـة . غادرت هذه المجموعات الوطن مجبورة غير مختـارة مهاجـرة الى الاراضي المصرية حيث ربضت الاكثرية منهم في المناطـق الادنى الى الوطـن العزيـز . كمـا كـان نفس الـوضـع بالنسبـة للمهاجـرين فيما بعـد حينما هاجـروا الى منطقة المغـرب العـربي ، وخاصة الذين منهم في البـلاد التونسية فقد انتشروا هم الاخرون بين قفصة وقابس وما اليهما من الاراضي قـرب التخـوم الليبيـة وهـؤلاء كاولئك في انتظـار

ما ستلده الليالي من الاحداث التي قد تكون فاتحة باب لاعادة الكرة وعسى ان يكون في الاعادة فتح ونصر والله على كل شيء قدير « والليالي من الايام حبالى ... » كما يقولون وما طالب الناس بحق الا وصلوه ان كان في الطلب جدية واقدام .

واعود بعد الكلام على القسم الشرقي من المجاهدين الى القسم الثاني الذي بقي في جهات الغرب والجنوب وواصل كفاحه ضد المغيرين . وفي هذا الجانب وجدت خطأ جديرا بالاهتمام والتصويب ذلك انه جاء في بعض الكتب . وبالاحرى كتب بعض الذين كتبوا عن الحرب الليبية الايطالية قولهم : ان الحرب قد انتهت في اقليم طرابلس سنة ١٩٢٢ م وهذا خطأ واضح جلي . ولا ادري أجاء الكاتب بذلك من معلوماته الخاصة . أم اعتمد على السمع ؟ وعلى كلتا الحالتين فالامر غير صحيح اذ ان الحرب تواصلت في اقليم طرابلس الى سنة ١٩٣٠ م . اللهم الا اذا كان يريد ان يعتبر هجرة رئيس هيئة الاصلاح المركزية هي نهاية الحرب ولا عبرة لمن واصل الحرب بعد ذلك باعتبار « كل الصيد في جوف الفرا » ولكن هل يصح ذلك .. ؟ كلا . ففي سنة ١٩٢٢ م هاجر « السيد ادريس » وهو بصفته امير البلاد كلها اذ ذاك . ولكن الحرب لم تنته بهجرته . ولا قال قائل انها انتهت في الجبل الاخضر او في الجبل الغربي أو في اية جهة من الوطن . وكذلك حينما هاجر رئيس هيئة الاصلاح المركزية لم تكن هجرته هي نهاية الحرب . بل تواصلت الحرب بشدة وضراوة بقيادة مجموعة من الذين ذكرنا اسماء من تذكرناه منهم . وقد دامت الحرب في خط الجبل الغربي الى سنة ١٩٢٩ م ومن المعروف ان معركة « مزدة » كانت في منتصف سنة ١٩٢٨ م . وان معركة « خرمة بوغره » التي كان بطلها « محمد بن الحاج حسن » هي الاخرى وقعت في سنة ١٩٢٨ م وان معركة « بئر علاق » التي قام بها فريق من اتباع سالم بن عبد النبي والحاج محمد فكيني كانت في سنة ١٩٢٩ . ذكرنا هذه المعارك الثلاثة ليس على سبيل الحصر . ولا لاهميتها كلا . فالمعارك كثيرة وفيها

الاعظم . وانما اثبتناها كدليل قاطع على ان الحرب تواصلت بعـد هجرة رئيس هيئة الاصلاح لمدة سبعة أعوام .

قلنا تواصلت المعارك وكانت تدور رحاها في منطقة الجبل رغم احتلال العدو لمدنه وقراه وكان العدو يتلقى الضربات الواحدة تلو الاخرى في هذه المنطقة حتى ضاق ذرعا بذلك . الامر الذي دفع حكومة « رومة » الى تغيير وضع البلاد الليبية . فلقد عمدت الى توحيدها بعد ما كانت قسمتها هي نفسها . ولقد ذكرنا فيما تقدم كيف قاومت بشدة وتهديد رغبة اهل البلاد في ارجاع وحدتهم بعد ما فرقتهم .

قلنا عمدت الى توحيد البلاد فعينت « بادوليو » حاكما عاما عليها فاتخذ مقره طرابلس ، وزودته بكل الامكانيات ومنحته نفوذا واسعا . وطلبت منه العمل وبسرعة للقضاء على اية حركة وطنية في البلاد بدون شفقة ولا رحمة ولو بابشع الطرق واوحشها . وجاء « بادوليو » للحكم في ليبيا سنة ١٩٢٩ م وافتتح حكمه بخطب انشائية ووعود سفسطائية ظانا في مخيلته انها تكسبه سمعة طيبة بين السكان في المدن المحتلة . ومن جهة اخرى تغري المجاهدين فيستسلموا له ليقعوا في « فخه » وانتظر ما ستسفر عليه خطبه ووعوده تلك ولكنها لم تسفر عن نتيجة لا في المدن ولا في الدواخل . فعمد الى القاء مناشير في مختلف انحاء البلاد . وبصورة خاصة في مواقع تجمع المجاهدين . وكانت مناشير كلها تهديد ووعيد ينذر بانه سوف يتجرد من كل ضمير وانسانية في معاملة المجاهدين ان لم يستسلموا له ويأتوه خاضعين طائعين للعلم الايطالي .

وفعلا فلقد نفذ تهديده اذ قد جرت اعمال بعيدة كل البعد عن الانسانية والعدالة والضمير وانا اذكر على سبيل المثال من جملة اعماله الوحشية : ان جيوشه حينما بدات زحفها على مواقع المجاهدين واجهت مقاومة جد عنيفة ومستميتة الامر الذي ازعج تلك الجيوش رغم ضخامتها جوية وارضية فعمد قادتها الى طريقة لعلها فريدة من نوعها لم يسبقهم اليها غيرهم من المستعمرين الذين اجتاحت جيوشهم

افـريقيا وقسما من آسيـا . ذلك انهم كل ما وجـدوا موقعـا اشتـدت فيـه المقاومـة بصورة اشد من غيـره فعند ما ينسحب منه المجاهـدون وتحتله تلك الجيـوش المختلطة من كل جنس ولون . ومرتزقـة مـن كـل حـدب وصوب تعطى لهم ما يسمونـه « كارته بيانكه » ومعناهـا ورقـة بيضـاء . تطلـق ايديهم في اولئك السكان المستسلمين العاجـزين عن الحـرب والهجرة ليفعلوا فيهم ما يشاءون لمـدة يومين او ثلاثـة ينهبـون الامتعـة ويعتـدون علـى الاعراض ويقتلون من يصادفونه من النسـاء والشيوخ والاطفال لمجرد الانتقام والتشفي وذلك لخلـق جـو من الارهـاب والفـزع ظنـا منهم ان ذلك يدفـع النـاس للاستسلام . ولكن ادت هذه الفظائـع البربريـة الى العكس . فلقـد زادت المجاهـدين استماتـة . واجبرت النـاس كبارا وصغارا نساء وشيوخـا على ان يهيموا على وجـوههم في دروب الصحراء الـرهيبة مفضلين المـوت جوعـا وعيـاء وعطشا على تحمـل تلك الاعمـال الـوحشية البشعـة .

وهكذا فقـد تواصلت الحـروب في الصحراء كامـل العـام ١٩٢٩ م ومعظم عام ١٩٣٠ م وكانت الحروب سجالا . وقد انتشرت بين الناس اخبار تلك الاعمـال المنافيـة للاخـلاق ولقـوانين الحـروب الحـديثة الامـر الذي دفـع النـاس الى الهجـرة كما قلنـا آنفـا واخـذت افـواج المهاجـرين تتـلاحـق متجهـة نحـو الغـرب والجنوب فـرارا من التعـرض الى تلك الاعمال المرعبة . ولم تكـن الهجـرة هذه بصفـة عامـة كـلا ، فالمجاهدون لا يزالون يواجهـون العـدو ويصدون تقدمـه وانما خـف للهجـرة الذين ضعفت امكانياتهم . اذ كل على قـدر ظروفـه وامكانياتـه . ولم يصل الايطاليون الى فـزان ويتـم لهم الاحتـلال الكامـل الا اواخـر سنة ١٩٣٠ م .

يوم مغادرة الوطن وكيف فكرت فى خدمته

في يـوم اشعث اغبـر ، يوم تصادمت فيه الريـاح العاتيـة الهوجاء على وجـه الارض حتى ارتفـع الغبـار في الافـق فحجب شعـاع الشمس فاستحال الجـو الى منظـر كئيب رهيب بعث في نفـوسنا المتململـة الكسيرة مزيدا من الالـم والاضطراب ، فتراكمت الهـواجس والمخـاوف الـرهيبة فـزادت النفـوس المـا على آلامها وحـزنا على احـزانها .

ففي ذلك اليوم الذي لا تـزال ملامحـه تبدو في مخيلتي كلما رجعت بي الذاكـرة الى تلك الايـام الغابـرة . ذلك هـو اليوم الـذي تـوارى فيه الحظ منهزمـا امـام طلائـع النحس المتقمصة تلـك الوجـوه الشريـرة والقلـوب القـاسية المتـوحشة . وجـوه وقلوب جيـوش الاستعمـار الايطالي البغيض . هـذا الاستعمـار الفريـد من نوعـه . استعمـار لا يعيش مع النـاس . انما يريـد العيش على انقـاض النـاس .

ففي ذلك اليـوم حتمت علينا الاقـدار الالهيـة التي لا مـرد لحكمهـا ولا اعتراض على مشيئتها . حتمت علينا ترك مـواطن الابطال . وديـار الكـرم . ومرابـع الاقـارب والاصدقاء والاتـراب . ومرابض المجاهدين الاباة وتربـة الاجـداد وممتلكات الابـاء . تـرك المهاجـرون كـل ذلك مجبـوريـن غيـر مختـاريـن .

اجـل تـرك المهاجـرون كل ذلك حفظـا للكرامة كي لا تـداس . واعتزازا بالانفة كي لا ترغم . واستمرار للنضال ضد الاعداء حتى لا تنطوي القلوب على نفسها وتنسى ماضيها . ترك المهاجرون كـل ذلك وفي نفوسهم حسرة وفي افئدتهم آلام . وآلام . وقلوبهم تخفق متضرعة الى الله العلي القديـر من شدة الظلم والطغيان الذي يسلطه الانسان على اخيه الانسان .

ذلك الظلم الصارخ الفظيـع الذي كان سببا مباشـرا في مآس فجيعة واحـداث هائلـة مريعـة ذهبت ضحيتها مئات الالوف من الانفس البريئـة حيث صعـدت الارواح تسبح في الافـق الاعلى شاكيـة الى اللـه العلي القدير جلت قدرتـه وتعـالت حكمته ظلـم ظالميهـا .

هذه كلمـة موجـزة عن ملامح ذلك اليوم وعن اسبابه ومسببيه ونتائجـه . ذلك اليـوم الذي عمـل فيه المهاجـرون بقـول الله تعـالى :

ان الذين توفاهم الملئكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض

الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئـك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتـدون سبيلا ، فاولئك عسى الله أن يعفـو عنهم وكان اللـه عفوا غفورا ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفورا رحيما) . الايات ٩٧ ــ ٩٨ ــ ٩٩ ــ ١٠٠ ــ سـورة النسـاء

وبعد ما تقدم نشير باشارة خاطفة لحوادث الطريق ومناظرها وما فيها من اتعـاب واوصاب وارهـاق . مناظـر تفتت الاكبـاد وتـذيب الجمـاد اذ كثيـرا ما تقـع اعين السائـر مع الطريق على هياكل عظميـة لاجسام بشرية

متناثـرة هنا وهناك . وبين حين وآخـر كنت تـرى جثثا بشرية مطروحـة بالعـراء كاملة التكوين لم تتناثـر بشيء بعـد . وأخرى لا يزال بها رمـق من حيـاة قعـد بها الجهـد مستندة الى كثيب من الرمـل لا حول لها ولا قـوة . ولا شك عندي انها تلك هي مرحلتها الاخيرة من هذه الحيـاة الـدنيا ... وغير ذلك من المناظـر المفزعـة الـرهيبـة .

وان انس ، فلن انسى ذلك الرجل الكهل الذي وجدناه على حافة الطريق مستندا الى كثيب من الرمـل . ولمـا وصلناه . اشـار بيـده وقـال : « يـا اخـوان لحقـوني لاصحابي . وها هي عندي عشرة غـروش خـوذوهـا » واصحابه امامنا لا يبعدون عنه بكيلوميتر واحد على اكثـر تقدير . فاجابه احـد من جماعتنا هـو المرحوم « ... » قائـلا له : « يا عـم لو كانوا اصحابك يبغـوك ما خلـوكش اهنى . فنرفعك من اهنى ونتركك نحن واصحابك هناك . فلا فائـدة » وقد تركنـاه في مكانه ذاك . ولعل آخـر لحظـات حياته كانت في ذلك المكـان ، لا ادري .

ولنترك تفاصيل حـوادث الطريق ونتجـاوزها الى الحـديث عن حـركتنا بعـد وصولنا الى الاراضي التونسية . وغني عن البيـان اننا لم نعـرف تلك الاراضي من قبـل . ولذلك فقد امضينا سنوات في التنقل من جهـة لاخـرى بحثـا عن مكان تتوفـر فيه طـرق المعيشة واسباب الاستقرار حتى انتهى بنا المطـاف الى منطقـة « حلـق الوادي » من ضواحي تـونس العـاصمة وهناك في هـذه المنطقـة كان محـل الاقامـة .

وبعـد الاستقرار بهـذه المنطقة والاتصال ببعض الاخـوان التونسيين . وحضور الاجتماعـات الحـزبية والمحـاضرات الـوطنية ومطالعـة المقالات في الصحف التونسية . والمصرية التي كانت تصل الى تـونس اذ ذاك . كـان من نتيجـة ذلك كلـه مـع ما كان يعتمل في وجـداني مـن مشاعـر وطنيـة حبيسة ان بـدات افكـر فيما يجب علي عملـه تجـاه الوطـن . اسوة بالحركة التي تنمـو وتكبـر في تـونس . الا أن هنـاك عامـلا آخـر كـان ينازعني هـذا التفكيـر . ذلك هـو ما يجب علي نحـو نفسي وعـائلتي . وانـا ذلك

الرجـل الغـريب المحتـاج الذي يعيش من كـد يمينه أو كـدح فكـره . كمـا هـو معـروف .

وهكذا فقد تنازعتني الفكـرتان . هـل اعمـل لنفسي فقط .. ؟ أم اعمـل لـوطني وعائلتي معـا .. ؟ وهـل استطيع ذلك ام لا استطيع .. ؟ علمـا بأن وطنـي في اشـد الحاجـة الى اي عمـل من ابنائه مهما كان ضئيلا . ولقـد تجاذبتني هذه النوازع واستمر هذا التفكير معي امـدا . واحتـدم الصراع بيـن الضميـر الطيب الشفـاف . وبين رغبات النفس الامـارة . التي تميـل دائمـا الى الراحـة ولذائـذ الحيـاة .

واخيرا تغلب الخيـر على نقيضه بفـوز الضمير على النفس . فتصورت في اعمـاق نفسي بان كل مـواطن ليبـي هـو مسؤول أمـام الله والتاريخ . وانا كواحـد من بينهم . فلمـاذا ابـرىء نفسي . واهرب من واجبي .. ؟ خصوصا وقـد اصبحت في محيط لا سيطرة فيه لعـدو بـلادي . ذلك العـدو الذي مـا انفك يعمـل على اذلال شعبنا والتنكيـل به . وامتـلاك اراضيـه . ومحـق قوميته . وازالة عقيدته . وطلينة معالمـه . فلا بد والحالـة هذه من عمل سياسي في الخـارج لاحياء روح الكفـاح . واعـداد المهاجـرين على مختلـف اسبـاب هجـرتهم ليوم الثار باعـادة الجهـاد في مستقبل الايـام والحيلولـة دون تسرب اليأس الى نفـوسهم الى ان يحـل اليـوم المـرتقب . ذلك اليوم الذي ظهـرت بـوادره واضحـة جلية منذ اجتماع « هتلـر ـ وشمبـرلان » وبكـى هـذا الاخيـر .

وهكـذا فلقـد املى علي ذلك الصراع العنيف بين النفس والضمير . بـان الانسان مهما تمتـع بالراحـة ، ومهما اكتسب من الثـروة فهـو اذا لم يكـن له شعب ينتمي اليه . ووطـن يفتخر به . وعمـل لفائدتهما يسجلـه له التاريـخ بمـداد من النزاهـة والاخـلاص فهـو بلا شك انسان تافـه يعيش حقيرا ذليلا . لا شأن له كالواو في عمرو بين الجماهيـر وبالجملة يحيـا حيـاة خاليـة من كل المعنويـات .

وفـوق هـذا وذاك فان نسيان ذلك الشعب الذي انـا منه . وتناسي ذلك الوطن الذي تعلمت فيه والربوع التي ترعرعت بها وتغـذيت مـن خيـراتها . واستنشقت نسيمها . وهاتيك التربـة التي توارت فيها سلسلة طويلـة مـن اجـدادي لا يعلـم عـدد حلقاتها الا اللـه . فان نسيان كل ذلك والركون الى الراحـة ولـذة الحيـاة ذلك هـو اقصى درجـات العقـوق .

وهكـذا فبهذه الفلسفة الـوطنية تفاعلت الافكـار في نفسي . وتبلـورت حتى لقـد اصبحت عقيـدة راسخـة لا استطيع التخلي عنهـا . ولا الهـروب منها . ومما زادها تفاعـلا ورسوخـا في النفس تلك الاخبـار التي نطالعها في الصحـف عن الحركات الـوطنية التحريرية . والاهتزازات الشعبية واليقظـة القومية التي ادت الى اتصال الغرب بالشرق والشرق بالغرب بين اقطـار الامـة العربيـة اتصالا عمليـا لا عاطفيـا .

وعـلاوة على هذا وذاك فانا في بلـد تتوالى فيه الاجتمـاعـات الحـزبيـة والمحاضرات الـوطنية . وتقوى وتتطور دائمـا وباستمـرار في مقـاومة المستعمـر الـدخيل من يـوم لآخـر . فلهذه الاسباب والعـوامـل مجتمعـة انـدفعت في ميدان العمـل بقـدر امكانياتي المـادية والثقافيـة والتعليميـة مضحيـا بكـل ما اكتسبته واكتسبه من مـال ووقـت .

وانني حينما اقـول هـذا لا اريـد عليه جـزاء ولا شكورا . ان اجري الا على اللـه رب العالميـن . كما وانها ليست منـة على احـد من النـاس . فالمنـة للـه وحـده . ولكنني اقـول هذا للتاريخ ، تاريـخ هـذه البـلاد وللموعظـة والقـدوة . لمـن سياتي بعـدنا من الاجيـال . ذلك لان الصراع بين البشـر دائـم ما دام الجـديـدان .

والله ولي التوفيـق

بدء الحركة الوطنية بصورة منفردة
والاختفاء وراء اسماء مستعارة

في سنة ١٩٢٦ م وبعد الاستقرار في منطقة « حلق الوادي » من ضواحي تونس العاصمة ، وبعد ذلك الصراع الذاتي الذي تقدم ذكره باختصار بدات الحركة الوطنية منفردا وذلك بنشر كل ما يصلني من اخبار الوطن في الصحف التونسية . ولقد فتحت لي هذه الصحف صفحاتها ، وعززت كلامي باقلامها وافكارها الامر الذي شجعني فاخذت اترصد لكل قادم من ليبيا خصوصا اولئك الذين اعرفهم ، واعرف اتجاهاتهم ومواقفهم . وقد كان الكثير من اخواننا يفدون الى تونس في مصالحهم الخاصة ومنهم استقي الاخبار بطريقة او باخرى . وكنت كثير المبالغة على اعتبار ان « المبالغة لا تعد كذبا » وفي كل ما انشره كنت اختفي وراء اسماء مستعارة .

والى هنا اود ان اقول : لا بد وان القارىء سيقف عند عبارة الاختفاء وراء « الاسماء المستعارة » وقد يتساءل في نفسه لماذا هذا الاختفاء .. ؟ وما هي اسبابه ودواعيه .. ؟ وقد يكون شديد الرغبة في معرفة هذا السر . ذلك ان الانسان بطبعه تواق الى اكتشاف المجهول . ومن هنا وجب علي أن اقول للقارىء : ان ذلك الاختفاء كان لضرورة حتمتها ظروف البلاد التونسية

انـذاك . ووضع ايطاليـا القـوي فيها . ومصلحـة الحركـة الـوطنية ايضا . واليك تحـديـد الاسبـاب :

١ ـ كان الهـدف من الاختفاء لايهام العدو بان المقاومين له مجموعة وليسوا فـردا واحـدا .

٢ ـ قـوة نفوذ ايطاليا المتغلغل في البلاد التونسية في ذلك العهد يفرض هـذا الاختفـاء .

٣ ـ مجاملة فرنسا لايطاليا طمعا في جذبها الى جانب الحلفاء .

٤ ـ حوادث ارتكبتها ايطاليا في تـونس لا تترك مجـالا للشك فيما لهـا من اليـد المطلقـة بسبب الامتيازات القنصلية . وضخامـة جاليتها في تونس . هذه العوامـل التي تمتلكها ايطاليا في تـونس تجعلها ترتكب ما تريد . وكدليل على صحـة ما اقـول اوضح حـادثتين على سبيـل المثـال . لا الحصر .

الحـادثـة الاولـى

كـل الاخـوان الليبيين المهاجـرين في ربـوع المغـرب العـربي وخـاصة الذين منهم في تـونس . والذين يعملون في ميدان الحركـة الـوطنية الليبية . أو لهم بها اتصال بصورة أخص يتذكرون جيدا ذلك الفريق من اخواننا الذين كانـوا معسكرين في « سبهـا » كجنـود ايطاليين . وبمناسبة غـارة ايطاليا على الحبشة سنة ١٩٣٥ م صدرت الاوامر بارسالهم الى الحبشة للحـرب . وفي طـريقهم من الجنوب « فـزان » الى العاصمة « طرابلس » لركوب البحـر منها الى الحبشة . وحينما وصلوا الى مكان يدعى « بـرق النصـف » الواقـع بين سينـاون ونالـوت ثاروا على ضابطهم المـلازم « بيونـدي » المستعمـر المتعصب المتعجـرف فقتلـوه بسبب اهانـة فظيعـة لحقتهم منه . ولقـد فـر فريـق منهم أي الفريق الذي قـام بالعملية . فـر من وجـه السلطة الايطاليـة وتمكنوا من الوصول بسلام الى حـدود الاراضي التونسية . وهنـاك بعـد اتصالات بالجهـات العليـا الفرنسية سلمت لهم سلطات الحدود أوراقا رسمية تسمح لهم بالاقامـة والعمـل والتنقـل في اراضي البلدين تونس والجزائـر .

وبعـد مـدة من هـذه الاجـراءات طالبت ايطاليا بتسليـم اولئـك الاخـوان الليبيين اليها والحت في الطلب .

وحينما نمي الينا ذلك الخبـر المـؤلـم المـزعج اجتمعت الجمعيـة لبحـث المـوضوع والقيـام بالمساعـي اللازمـة لدى الجهـات المختصة وقد نتج عـن ذلك الاجتمـاع تكليف « سكرتير الجمعيـة » لـلاتصال بجهـات الاختصاص وباسرع وقت ممكـن لتلافي المـوقف قبـل فـوات الاوان . ذهب صاحب هذه المذكـرات الى الكتابـة العامـة للحكومة التونسية ..والكتابة العامة هـذه في تـونس على عهـد الحمايـة الفرنسية هي وزارة الـداخلية تمامـا .

قلنـا ذهب سكرتير الجمعية الى هذه الكتابـة واوضح لها أن هذا التسليم اذا وقـع فعـلا فانه يشوه سمعـة فرنسا ويمس بشرفها خصوصا بعـد ان امنتهم وسلمت لهم وثائـق رسمية وبموافقـة الجهـات العليـا . وماذا كـان جـواب الكتابـة العامـة على مساعينا هذه .. ؟ كان الجـواب : « ان ايطاليا الحت في الطلب وشددت ونحن فيظروف سياسية دقيقة تفرض علينا مجاملة مـوسوليني لا معاكسته . وعليه فلا نستطيع ان نفعـل شيئا في المـوضوع لانـه امر حكومـة باريس » هكذا كان جواب فـرنسا على مساعينا وهذا مـوقف يـوضح بصراحـة تامـة مركـز ايطاليا في تـونس . ومـا لها مـن الهيبـة في نفـوس الفـرنسيين .

وعلى كل فنحـن الآن لسنا بصدد تحديـد الاسباب التي دفعت فرنسا الى هـذا المـوقف اهي لرغبـة ؟ ام لرهبـة ؟ ام لهذه وتلك ؟ وانما الذي يهمنـا هـو بيـان تلك الظـروف التي كنا نعيشها والتي فـرضت علي الاختفاء وراء اسمـاء مستعـارة .

عـدت الى الاخـوان وبينت لهم كل ما حصل في جملـة مقتضبة ولكنهـا كافيـة للتعبيـر على النتيجـة اذ قلت لهم : ايطاليا شددت الطلب ، وفرنسا ركعت امـام ارادة مـوسوليني ونحـن لنا الله ولم يبـق لنا أي امـل فـي انقـاذ اخـواننـا .

ولقد نفذت فرنسا طلب ايطاليا فجمعت اولئك الاخوان من مختلف الجهات بعد ما تفرقوا في المدن والقرى والافاق وهم مطمئنون لموقف فرنسا وذمتها . وجاءت باخرة ايطالية الى ميناء تونس ونزل منها اعوان الامن الايطاليون وتسلموا من رجال الامن الفرنسيين اولئك الاخوان مكبلين بالسلاسل واقلعت بهم هذه الباخرة الى طرابلس حيث نفذ حكم الاعدام في اثنين منهم احدهما « رحيبي هو الشهيد ـ خليفة سعيد التايب الغالي » والثاني « شعنبي هو الشهيد ـ محمد صالح الشعنبي » وقد اعدم الشهيدان في نفس المكان الذي قتل فيه الضابط الايطالي الانف الذكر بعد ما جمعت ايطاليا مئات من المواطنين وحملتهم لنفس المكان ليشاهدوا اعدام اخويهم نكاية في الشعب وارهابا له واذلالا .

وعلى اثر هذه الخيبة المرة التي صادفت مساعينا لانقاذ اخواننا . على اثر ذلك اسرعت بكتابة كلمة مختصرة تحت عنوان : « كيف يعامل العرب في بلاد العرب » وارسلت بها الى مجلة « الرابطة العربية » التي كانت تصدر في القاهرة لصاحبها الاستاذ « امين سعيد » رحمه الله . ولقد نشرت هذه الكلمة في العدد ٦١ الصادر في ٢٧ جمادي الاولى ١٣٥٦ هـ الموافق ٤ اغسطس ١٩٣٧ م وعلى اثر صدور المجلة وفيها الكلمة المشار اليها وقعت تدخلات واحتجاجات ومساع من طرف شخصيات ليبية وغير ليبية في الشرق العربي وهيئات عربية عديدة أتذكر من بينها « عصبة العمل القومي » في سوريا ولكن ايطالية « موسوليني » التي يغلب عليها التعصب الديني واضحا جليا والتاخر الاخلاقي بالنسبة لبلدان اوروبا الغربية ، لم تهتم بتلك التدخلات ونفذ الحكم بالاعدام في الشهيدين المذكورين امام اعين ذويهم ومواطنيهم . تولاهما الله برحمته واسكنهما فسيح جنته .

ملاحظة لا بد منها

بما اننا ذكرنا تفاصيل هذه الحادثة فقد بدرت لي ملاحظة تتعلق بها . بل هي جزء منها ، رايت من الافضل تسجيلها هنا والتذكير بها وان الذكرى

تنفــع المــؤمنين . وهي ان الايطاليين اقامــوا بنايــة بالاسمنت المسلح على هيئــة « تيطــون » خيمــة تخليــدا لذكرى ضابطهم المستعمر المعتدي المغتصب وفي نفس المكــان الذي قتــل فيه ، وفي ارض ليبيــا ولا يزال هذا البناء قائما حتى اليوم حسبما سمعت ، اما شهيدا الوطــن وبطلا الانفــة والكرامــة فقد بقيــا نسيا منسيا رغــم مرور ٢٤ عامــا على استقــلال البــلاد منها ست سنوات في عهــد الثــورة التي أتت على بقايــا الاجــرام الاستعمــاري فجعلتهم اثــرا بعــد عيــن . الا أن هــذا الاثــر لا يــزال منتصبا . اما شهيدا الوطــن فلا يزالان مجهولين ولا يعرف قصتهما الا الذين عاشوا ظروفهم تلك ..!

الحــادثــة الثانيــة

كانت توجــد في تونس جمعيــة ايطالية تدعى « انتي فاشيستة » تعمــل في مناهضة النظــام الفاشي القائم بايطاليا اذ ذاك وقد كان عملها مثلنا بطرق سريــة وبحــذر واحتياط وحينما تحرجت الحالة الدولية واخذت بوادر الابتعاد بين فــرنسا وايطاليا تظهــر نوعا ما ، في افق السياسة الــدولية فحينئــذ اخــذت هذه الجمعيــة ترفــع عن نفسها ستار السرية رويدا رويــدا ، ثــم اتخذت لنفسها مركــزا في تــونس العــاصمة وارتفع صوتها علنــا واصدرت جريــدة لها باللغــة الايطاليــة في تــونس .

وفي يــوم من ايــام سنة ١٩٣٨ م فيما اتذكر جــاءني رئيسها واسمــه (...) جــاءني الى بيتي في الكــرم جــاء به شاب من جماعتي . وقد كــان يصحب رئيس هذه الجمعية رجــل ايطالي طويــل القامــة خصب الجسم في حــوالي الخمسين من العمــر فيما يبدو لي تظهــر عليه علائم التعب واضحة ، فقدمــه لي رئيس الجمعية بوصفه شيخ مدينة « ... » في ايطاليا وقــد وصل الى تونس حديثا فارا من ظلم الفاشيست ، وبعد حديث حــول تصرفات النظــام الفاشي في بلاده فاتحني رئيس هــذه الجمعيــة بخصوص التعــاون معهم في العمــل ضد الحكــم الفاشي بحجــة اننا مظلومون على السواء علــى حــد تعبيــره .

وبعد مداولات طويلة في هذا الموضوع سلمت له قائمة فيها شروط تتعلق ببلادنا فيما اذا آل اليهم الحكم في ايطاليا باي طريقة واي سبب بحرب أو بسلام عاجلا أو آجلا وبما انني لااتقن اللغة الايطالية فانني ساعتمد على هذا النص العربي في اي خلاف أو سوء تفاهم . بهذا الشرط الاخير ختمت تلك الشروط ، كما كتبت في نفس الوقت مقالا يحوم حول الموضوع نفسه طلبت منهم ترجمته ونشره في جريدتهم ، وذلك لهدف جس نبض اتباعهم وماذا سيكون رد فعلهم . وطلبت الاجابة عليها كتابيا في مدة محددة، ولكن يبدو ان الشروط لم تحظ بالقبول لديهم لانهم لم يجيبوا عليها . اما المقال فقد نشروه مشوها اذ جاء فيه كلام لم يصدر عني اذ فيه ما يفيد اننا اتفقنا على العمل معا وو .. الامر الذي تحركت له الدوائر الفرنسية في تونس بصورة ما كنت اتصورها .

وفي اليوم الموالي اليوم نشر المقال استدعتني جهة عليا فرنسية وسئلت من طرفها عن صحة ما نشر فنفيت الخبر واعدت لها ما دار بيني وبين رئيس الجمعية الايطالية وسلمت لهم صورة طبق الاصل من المقال الذي تصرفوا فيه فشوهوه.ثم افهمتهم انني لم أفتش عن هذه الجمعية ولا صلة بيني وبينها قبل ذلك . وانما رئيس الجمعية هذا هو الذي جاء يفتش عني واهتدى الي بواسطة الاخوان . ولما فاتحني في الموضوع سلمت له تلك الكلمة لنشرها والقصد من ذلك هو انني أود معرفة حقيقتهم لانني لم اكن أثق بالدولة الايطالية ولا بالايطاليين .

والى هنا انتهى موضوع هذه الجمعية الايطالية فيما بيني وبينها . وذلك هو الاجتماع الاول والاخير . وعليه فلنعد الى بيت القصيد من قصتها . قلنا في مبدأ الكلام ان هذه الجمعية كانت تعمل في الخفاء ولما أحست بتغير الظروف نوعا ما وظنت ان فرنسا فهمت موقف ايطاليا وانها أي فرنسا لم تعد تجامل ايطاليا . لما ظنت ذلك برزت تعمل جهرا واتخذت لنفسها مقرا فكان لعملها تاثيره على ايطاليا في هذه المنطقة الامر الذي حدا بحكومة ايطاليا بان تعمد الى ارسال باخرة تدريب (مدرسية) وعليها شباب من غلاة الفاشيست في صورة طلبة يتدربون جاءوا لزيارة تونس .

وصلت هذه الباخـرة الى ميناء تـونس ونزل ركـابها اولئـك الشبـاب يتجولون في مدينة تـونس. ومما لا شك فيه انهم لا يعدمون الدليل في تونس فان جاليتهم فيها وافـرة جـدا واكثرهم مولودون بها فهـم يعرفـون دروب البـلاد المعلومـة والمجهولة كاملها تماما . اجـل نزلوا من الباخـرة يتجولون في تـونس العـاصمة وقصدوا مركـز الجمعية « الانتي فاشيست » وقد صادف ان وجدوا سكرتيرها في المكتب فاطلقوا عليه النار من مسدس فاردوه قتيلا لحينه ظنـا منهم انه رئيس الجمعية (هكـذا سمعت مـن بعض افـراد مـن جاليتهم بعـد ما انتهى الحـادث . قالـوا ان قتـل السكرتير كـان غلطـا) فعلوا ذلك في قلب العـاصمة التونسية وفي وضح النهـار ثم رجعـوا الـى باخرتهم بعـد ان اتموا مهتهم ورجعت بهم سالمين الى بـلادهم ولم ينلهم اي عقـاب ولا حتى استهجان فيما نعلـم .

لقـد ذكرت هاتين الحـادثتين الكبيرتين على سبيل المثال لا الحصر . ذلك لان هـاتين الحادثتين امـرهما عرفـه الليبي وغير الليبي في تـونس انذاك . اما الاشياء الاقـل اهمية من هذه فهي كثيرة جـدا . فهذه الاحـداث وغيـرها ومـوقف السلطات الفرنسية تجـاه هذه الاعمـال الرهيبة . وتسامحها الكريـم مـع ايطاليا على حساب الضعيف يومئذ . تلك هي مـن الاسباب الـرئيسية التي فـرضت علي الاختفـاء وراء عـدة من اسماء مستعـارة . فمن اجـل ذلك كنت اسيـر في عملي بقـدر وحذر شديدين . اجتنابا الى مـا قـد يؤدي الى قيـام ايطاليا بالضغط على فرنسا لاخـراجنا من هـذه البـلاد المجـاورة لبلادنا . كما وقـع لاخـواننا في الشرق والذي سبق ان اشرت اليه . ونحـن بفيـدنا جـدا القـرب من بـلادنا . فلهذه الاسباب ولمـا قد تقوم بـه عناصر الفاشيست من الاعمـال الاجراميـة الفرديـة اختفت وراء اسماء مستعارة فيما انشـره .

كيف ومتى تم الاتصال بالسعداوى لاول مرة فى المهجر

في خلال شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٩ م ارسل المجاهد المخلص الزعيم بشير « بك » السعداوي رسالة من دمشق نشرتها جريدة « الصواب » الاسبوعية التي كانت تصدر بتونس لصاحبها المرحوم الشيخ « محمد الجعايبي » وذلك بعدما اخرجته بريطانيا من مصر سنة ١٩٢٤ م هو وزملاءه من مواطنيه اولي الثقافة وارباب القلم والمبادىء الوطنية ، اخرجتهم من مصر . وقد كانت صاحبة السلطة فيها انذاك . اخرجتهم بطلب من ايطاليا وارضاء لها وذلك لامتناعهم من التعهد بعدم الاهتمام بوطنهم وان لا يناهضوا الاستعمار الايطالي في بلادهم .

فخرجوا من مصر . منهم من ازعجه الموقف فركن الى الراحة . واهتم بالاعمال الخاصة ومنهم من واصل كفاحه بطريقة او باخرى . وكان السعداوي من بين الذين فضلوا الكفاح في سبيل الوطن على الراحة والخصوصيات فاعلنها حربا على الاعداء لاهوادة فيها بعد ما انتقل من مصر الى سوريا واستقر « بدمشق » ومنها بدا حركته الوطنية ، وفيها ايضا ارسل رسالته المشار اليها . وهي رسالة نداء موجه الى المهاجرين بالقطر التونسي وغيره من بلاد المغرب العربي يذكرهم فيها بواجباتهم

الـوطنية ويستنهض هممهم طالبا اليهم التكتل وتنظيم الصفـوف وتوحيـد الجهود وتكوين الجمعيـات للعمـل بمختلف الطرق والوسائـل المكنـة علـى احيـاء روح الكفـاح لانقـاذ بلادهم مما وقعت فيه .

وبالجملـة فهي اثـارة لشعـور المهاجـرين الليبيين الذين قدر لهم الافلات من حكـم الاستعمـار بعـد ان جابهـوه أمـدا طويـلا في حـرب متواصلـة . كانت سجـالا . الى ان تغلب العتـاد وتكاثف الاستعمـار . والتعصب ايضا ..

كان السعـداوي بعملـه هـذا يثير شعـور المهـاجـرين الليبيين كـي لا ينسوا أو يتناسوا بـلادهم التي تركوها تـرزح تحت كلاكل افظع استعمـار اوروبـي متعصب دينيـا متأخـر حضاريا ، فقيـر ماديـا بالنسبة للـدول الاستعمـارية الاوروبيـة . وحتى لا يفسدوا مـاضيهم الجميـل وجهـادهم الطويل بالسكوت والاستسلام للواقع الاليم . ذلك الجهاد الذي ضربوا بـه الرقم القياسي في عصره من حيث التضحية والاستماتة وقوة الاحتمال في سبيـل الوطن والدين .

وذلك اذا ما ركنوا للراحة وتناسو اخـوانهم الذين بقوا تحت سلطة العدو ـ وتلك البقيـة المباركة من المجاهـدين الذين بقـوا في ميدان الجهاد يجوبـون الصحـاري ويفتكون بطلائـع العـدو كل ما حـاول التقدم نحو الجنـوب . وداوموا الجهـاد في الاقليـم الغـربي الى اخـر سنة ١٩٣٠ م وفي الاقليـم الشرقـي الى سنة ١٩٣١ م . ولذلك كان وجـوب مواصلة الكفاح في الخارج لتعزيـز روح الاستماتـة في تلك البقيـة المباركة داخـل الـوطن . واعـداد المهاجـرين للمستقبـل المتوقـع .

قلنـا نشرت جريـدة « الصواب » رسالـة السعداوي وكانت مذيلة بعنوانه ولمـا كانت هذه الرسالة قد ارسلت الى جريـدة الصواب راسا . وهذه الجريدة قد توقفت عـن الصدور بسبب وفـاة صاحبها رحمه اللـه . وذلك قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة . ولا اعـرف احـدا من ورثته . فقـد اتجه تفكيري الى الاخ الفـاضل الـوطني الاستاذ (محمد المـرزوقي) فكتبت لـه رسالـة

رجوتــه فيها ان يفتش لي عـن هذه الرسالة في احدى اعداد الجريدة المذكورة لسنة ١٩٢٨ م . هكــذا كان في ذاكــرتي هذا هــو العــام الذي نشرت فيــه الرسالــة . ولقــد اهتــم الاستاذ المــرزوقي بهــذا الرجاء جــزاه الله خيرا . اذ جــاءني الجــواب متضمنا للرسالــة المطلوبــة . ولــذا فانني انقــل هنــا نص جواب الاستاذ المرزوقي بما فيه رسالة السعداوي زينكوغرافيا ثــم بيانــه خطيــا .

تونس في ٢٤ جمادي ١٣٩٥ هـ

المــوافــق ٤ ـ ٦ ـ ١٩٧٥ م

حضرة الاخ الكريم الاستاذ احمــد زارم دام محفوظا بعناية اللــه

سلاما وتحية طيبة ،

وبعــد فقــد وصلتني رسالتكم المؤرخــة في ٣ جمــادي الاولى والمتضمنــة طلبكم البحث عن رسالــة للمرحــوم الزعيــم (بشير السعــداوي) نشــرت بجريــدة الصواب عــام ١٩٢٨ م . وبحثت عن الرسالــة المطلوبة في مجموعة السنة المذكــورة فلــم اعثر عليها . وتوقعت خطــأ في التاريخ فرجعت الــى مجموعــة ١٩٢٧ م فلم اجــدها كذلك . وانتقلت الى مجموعة سنــة ١٩٢٩ م وعثــرت عليها في هذه المجموعــة والحمد للــه .

ولما كانت جريدة « الصــواب » مفقودة ولا توجد الا في مجمــوعة « دار الكتب الــوطنية » بالعطــارين فقــد تعــذر الحصول على قصاصة منها . كمــا تعذر تصويرها لان الجريدة قد بليت ولذا آثــرت ان انسخهــا لكم حرفيا مــع اضافة بعض التعليقــات . والعــدد الذي نشرت فيه الرسالة هــو عــدد ٥٩٦ من جــريدة الصواب بتاريخ ١٧ جمادي الاولى ١٣٤٨ هـ الموافق ١٨ اكتوبر ١٩٢٩ م في الصفحة الثالثة .

تونس فـي ٢٤ جمادى ١٣٩٥هـ
الموافــق ٤/ ٦ / ١٩٧٥م .

حضرة الاخ الكريم الاستاذ أحمد زارم دام محفوظا بعناية الله سلاما وتحية طيبة ...

وبعد فقد وصلتني رسالتكم المؤرخة في ٣ جمادى الاولى والمتضمن طلبكم البحث عن رسالة للمرحــــوم الزعيم (بشير السعداوي) نشرت بجريدة الصواب عام ١٩٢٨م . وبحث عن الرسالة المطلوبة في مجموعة السنة المذكورة فلم اعثر عليها . وتوقعت خطأ في التاريخ فرجعت الى مجموعة ١٩٢٧م . فلم اجدها كذلك . وانتقلت الى مجموعة سنة ١٩٢٩م . وعثرت عليها في هذه المجموعة والحمد لله .

ولما كانت جريدة ((الصواب)) مفقودة ولا توجد الا في مجموعة ((دار الكتب الوطنية)) بالعطارين فقد تعذر الحصول على قصاصة منها كما تعذر تصويرها لان الجريدة قد بليت ولذا آثرت ان انسخها لكم حرفيـا مع اضافة بعض التعليقات . والعدد الذي نشرت فيه الرسالة هو عدد ٥٩٦ من جريدة الصواب بتاريــــخ ١٧ جمادى الاولى ١٣٤٨هـ الموافق ١٨ أكتوبر ١٩٢٩م . في الصفحة الثالثة .

وهذا نص الرسالة :

وهـذا نص الـرسالـة :

كتـاب مفتـوح

الى عمـوم الجالية الطرابلسية بالقطـر التونسي

« بعث لنا رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات الطـرابلسية البرقاويـة بكتاب تحت العنـوان اعـلاه فبادرنا الى نشره بحروفه وهذا نصه » :

« جريـدة الصواب »

اخـوانـي الافـاضـل

لا يخفى على حضراتكم ان المـوقف الشريف الذي وقفته الامـة الطرابلسية البرقاويـة منذ ثماني عشرة سنة وهي تجاهـد في سبيل نيـل حريتها جهاد الابطـال معتمدة على اللـه في نضالهـا الى ان تظفر بنيـل حقوقهـا المشروعة ، ولمـا كـان العالـم الاسلامـي بمعزل عما يحـدث في تلك الارجـاء ولم يسمع بما تلاقيـه الامـة الطـرابلسية البرقاويـة من مظالم الدولة الايطالية التي لا ترحـم طفـلا صغيرا ولا شيخا كبيرا بـل تنـزل انـواع العـذاب والظلـم والاستبداد بكـل من لا يحني عنقـه للنيـر ولا يمـد يـده للقيـد ، كـانهـا قطعت على نفسها عهـدا بان لا تبقي على نفس ابيـة في جميع القطـر مـن ادنـاه الى اقصاه في الـزمـن الذي تطورت فيه الامـم واصبحت تفكك فيـه القيـود وتحطم فيه الاغـلال وتتباهـى فيـه الشعـوب بالتشوق للحـريـة والاستقلال ولذلك عـول فريق من اخوانكم المهاجـرين في هـذه الجهات على القيـام بما يحتمه الـواجب الـوطني لخدمـة القضية الطرابلسية البرقاويـة باقـلامهم وبما هـو داخـل في حيـز امكانهم وانتخبوا لجنة تنفيذية لتقوم بمطالبـة حقوقنا المهضومـة وحـريتنا المسلوبـة وتبسط القضية الطرابلسية البرقاويـة على صفحـات الجرائـد في كل الاقطـار الاسلاميـة .

وغني عن البيـان ان الجدال اليوم اصبح لا يقوم بالسيف وحده بل لا بـد لـه من اقـلام تـعـززه واراء تؤيـده ولذلك فان اللجنة التنفيذية منـذ تالفت اخـذت على عاتقها الدفـاع عن حقوق الامـة الطرابلسية البرقاوية والمطالبـة بتحقيق الميثـاق الوطنـي المتضمن حقوقنـا ، وهـو :

كتاب مفتوح

الى عموم الجالية الطرابلسية بالقطر التونسي

"بعث لنا رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية بكتاب تحت العنوان اعلاه فبادرنا الى نشره بحروفه وهذا نصه":

اخواني الافاضل :

لا يخفى على حضراتكم ان الموقف الشريف الذى وقفته الامة الطرابلسية البرقاوية منذ ثمانى عشرة سنة وهي تجاهد في سبيل نيل حريتها جهاد الابطال معتمدة على الله فى نضالها الى ان تظفر بنيل حقوقها المشروعة ، ولما كان العالم الاسلامى بمعزل عما يحدث فى تلك الارجاء ولم يسمع بما تلاقيه الامة الطرابلسية البرقاوية من مظالم الدولة الايطالية التى لا ترحم طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا بل تنزل انواع العذاب والظلم والاستبداد بكل من لا يحنى عنقه للغير ولا يمد يده للقيد ، كانها قطعت على نفسها عهدا بأن لا تبقى على نفس أبية فى جميع القطر من ادناه الى اقصاه فى الزمن الذى تطورت فيه الامم واصبحت تفكك فيه القيود وتحطم فيه الاغلال وتتباهى فيه الشعوب بالتشوق للحرية والاستقلال ولذلك عول فريق من اخوانكم المهاجرين فى هذه الجهات على القيام بما يحتمه الواجب الوطنى لخدمة القضية الطرابلسية البرقاوية باقلامهم وبما هو داخل فى حيز اوطانهم وانتخبوا لجنة تنفيذية لتقوم بمطالبة حقوقنا المهضومة وحريتنا المسلوبة وتبسط القضية الطرابلسية البرقاوية على صفحات الجرائد فى كل الاقطار الاسلامية .

وغني عن البيان ان الجدال اليوم اصبح لا يقوم بالسيف وحده بل لابد له اقلام تعززه وآراء تؤيده ولذلك فان اللجنة التنفيذية منذ تألفت أخذت على عاتقها الدفاع عن حقوق الامة الطرابلسية البرقاوية والمطالبة بتحقيق الميثاق الوطنى المتضمن حقوقنا وهو: —

١ ـ تاليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية .

٢ ـ دعوة جمعية تاسيسية لسن دستور للبلاد .

٣ ـ انتخاب الامة مجلسا نيابيا حائزا على الصلاحية التي يخولها الدستور .

٤ ـ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في دواوين الحكومة وفي التعليم .

٥ ـ المحافظة على شعائر الدين الاسلامي وتقاليد القطر في جميع انحائه .

٦ ـ العناية بالاوقاف وادارتها من قبل لجنة اسلامية منتخبة .

٧ ـ العفو العام على جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه .

٨ ـ تحسين العلاقات والمصالح بين الامة الطرابلسية البرقاوية والدولة الايطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابي .

وبما ان القيام بهذا الواجب يتحتم على كل فرد من افراد الامة الطرابلسية البرقاوية داخل القطر وخارجه فاني الفت انظار عموم اخواني النجباء المهاجرين في القطر التونسي وادعوهم الى معاضدتنا ونصرتنا في هذا الامر الجليل ونرغب اليهم مخابرتي بالعنوان التالي لنتضامن ونوحد صفوفنا ونتعاون على خدمة بلادنا ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه والسلام عليكم .

رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية

بشير السعداوي

دمشق : المهاجرين حي ـ أبو رمانة رقم ١٧٦

واني رهن اشارتكم أيها الاخ الكريم فيما تطلبون من وثائق أو مراجع والله يحرسكم ويرعاكم . والسلام من المخلص .

امحمد المرزوقي

ص . ب ١١٢٤ تونس

(٢)

١) ـ تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية
٢) ـ دعوة جمعية تاسيسية لسن دستور للبلاد
٣) ـ انتخاب الامة مجلسا نيابيا حائزا على الصلاحية التى يخولها الدستور
٤) ـ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية فى دواوين الحكومة وفى التعليم
٥) ـ المحافظة على شعائر الدين الاسلامى وتقاليد القطر فى جميع انحائه
٦) ـ العناية بالاوقاف وادارتها من قبل لجنة اسلامية منتخبة
٧) ـ العفو العام على جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه
٨) ـ تحسين العلاقات والمصالح بين الامة الطرابلسية البرقاوية والدولة الايطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابي .

وبما ان القيام بهذا الواجب يتحتم على كل فرد من افراد الامة الطرابلسية البرقاوية داخل القطر وخارجه فانى الفت انظارهم اخوانى التجاء المهاجرين فى القطر التونسى وادعوهم الى معاضدتنا ونصرتنا فى هذا الامر الجليل ونرغب اليهم مخابرتى بالعنوان التالى لنتضامن ونوحد صفوفنا ونتعاون على خدمة بلادنا . والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه والسلام عليكم .

رئيس اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية
بشير السعداوى
دمشق : المهاجرين حى ـ أبورمانة رقم ١٧٦

وانى رهن اشارتكم ايها الأخ الكريم فيما تطلبون من وثائق أو مراجع والله يحرسكم ويرعاكم
والسلام من المخلص

محمد المرزوقى
ص.ب ١١٢٤ تونس

اقـول الحـق : انني حينما وقـع نظـري على هذه الرسالـة والعنـوان غمرتني موجـة من السرور وهـزني الفرح حتى لقد شعـرت بحالـة شبيهـة بذلك الذي يتلقى عفـوا بعـد حكم باعـدام . او عطـاء كريما بعد فقر مدقـع وحرمـان . وان هـذا السرور الذي غمـرني بهذه المفاجـأة السارة كان لامرين اثنيـن :

اولهما لمـا سبق ان علمناه من خبـر التضييق علـى اخـواننـا الاحـرار واخـراجهم من مصر ارضاء لايطاليـا . وبطلب منها . فلقـد اصابنا الكثير من القلـق . وخالجتنا افكـار مخيفة على مستقبلنا خصوصا وان محيطنا اكثر من الشرق تعـرضا لمثل هذه التضييقات ، واقرب لاجابـة رغبات ايطالية في هذا المـوضوع ، وحينما نشر مقال السعداوي . او رسالته الى المهاجـرين الانفـة الذكـر . علمنا بان اخـواننا مصممون على العمـل رغـم مكائـد الاستعمـار وتكـاتفـه .

ومن هنا فقـد رسخ في نفوسنا ان تضامن الاستعمار على ظلمنا وملاحقته لنا حتى خارج بلادنا . ومحاولته ارغامنا على قبول الـذل والاستسلام لا يمكن ان يمنعنا عن خدمـة بلادنا . خصوصا بعد ظهور اخـواننا في ميدان العمـل علنـا ، هـذا الظهور الذي كان مبعث سرورنا ، وهكذا فان رسالة السعـداوي المذكـورة وسعت لنا في مجال العمـل وفتحت في نفـوسنا ابـواب الامـل علـى مصراعيهـا .

وثانيهما لمـا يصاحب بدايـة اي عمـل من تهيب وصعوبة ، واقول الحـق فانا مبتدىء في العمل ينقصني الكثير من الخبرة في هذا الميـدان . فضلا عـن النواقص الاخـرى . وفي جـو غامض وظروف شديدة ومستقبل مجهـول كنت فيها التمس الطريـق وافتش برغبة ولهفة عن المشجع والرفيق ، فبينمـا انا كذلك اذ بهذا الشعـاع من النـور المضيء ينبعث من « جلـق » الشمـاء كما تنبعث خيـوط الشمس من وراء سحب كثيفـة رانت على الافـق ـ فتضيء الكـون وتبعث فيه قـدرا من الحـرارة الصالحة لحياة الانسان . والمعينة على مقاومـة الحشرات الطفيليـة الضـارة .

وهكذا فلقد كان ذلك الشعاع المعنوي المنطلق من دمشق مرقد صلاح الدين قاهر الصليبيين من قبل . وملجا المجاهد الليبي عدو الاستعمار بشير السعداوي من بعد . كان ذلك الشعاع بالنسبة لنا نحن في المغرب العربي كقوة معنوية في نفوسنا لا تقهر ونجدة متواصلة لا تنقطع .

انطلق ذلك الصوت مدويا مزمجرا منذرا الظالمين بحرب متواصلة لا هوادة فيها ، انطلق من ضفاف (بردى) اعلنه المجاهد المخلص ، فرددت صداه تونس الخضراء منطلق الفاتح العربي المسلم « أسد بن الفرات » بلسان المهاجرين الليبيين ان حي على صالح العمل .

اجل فلقد بعث ذلك الصوت في نفوس المهاجرين الليبيين نورا اضاء لهم تلك الظروف المظلمة فارتفع الايمان بالعمل الى مستوى حرك المشاعر والهب النفوس بعد ما أصيبت بفترة من الذهول الشديد ادت الى فتور الهمم فتورا مخيفا نتيجة لهول الصدمة . صدمة سقوط الوطن تحت كلاكل الاستعمار بعد جهاد مرير طويل ذهبت خلاله ثروات طائلة . وارواح كثيرة لا يعلم عددها الا الله تعالى .

اجل فلقد كان لذلك الصوت تاثيره القوي فتحرك المهاجرون في جهات المغرب العربي يحدوهم الامل في المستقبل الذي يجب أن يتهيأوا اليه . ويستعدوا لظروف آتية . وقد يكون فيها خير لوطننا . اسرعت بالكتابة الى (السعداوي) على العنوان المنشور بالجريدة ، ولم تطل المدة حتى تلقيت جوابه .

ومنذ ان وصلني هذا الجواب ارتبطت بيننا الصلة واخذت الرسائل تتبادل فيما بيننا . ولا يزال عملي في سبيل الوطن عملا فرديا ومقتصرا على النشر في الجرائد ، وبعد مدة من وصول الرسالة الاولى تلقيت منه رسالة لا ادري أهي الثالثة ام الرابعة . وفيها يقول لي : انه يوجد اخ لنا بجامع الزيتونة اسمه « محمد عباس » ارجو ان تتصل به .

قلت تلقيت رسالة من (دمشق) تشير علي بالاتصال بالاخ محمد عباس

بجامع الزيتونة ، وقد اخذت في البحث عنه ، وما كنت ادري ان هذا الاخ نفسه قد اسرع هو الاخر بالكتابة الى السعداوي حالما اطلع على رسالته في الجريدة ، وتلقى الرد منه ، وفيه نفس الاشارة ، اذ أشار عليه بالبحث عن « احمد زارم » والاتصال به ، وهكذا فلقد كان المرحوم السعداوي همزة الوصل بيني وبين الاخ محمد عباس ، فعرفنا بعضنا بواسطته جزاه الله بما هو اهل له من الرحمة والرضوان .

ولقد كان من بين طلبة جامع الزيتونة أحد الاخوان من الرحيبات هو : الشيخ « محمد عمار الشرادي » فسأله الاخ محمد عباس اذا كان يعرف شخصا رحيبي اسمه « احمد زارم » وانه يود مقابلته ، وفي احد الايام جاءني الشيخ « محمد عمار » وقال لي : ان شخصا مسراتي اسمه « محمد عباس » من طلبة جامع الزيتونة يسأل عنك ويود مقابلتك ، وما كان هذا الاسم جديدا على مسامعي ، فأنا بدوري افتش عنه ، وارغب الاتصال به ، ولقد تم اللقاء بيني وبين الاخ (محمد عباس) بواسطة الشيخ « محمد عمار الشرادي » وفي دكان « الحاج محمد المجدوب التاجوري » .

ومن بشائر المستقبل الحسنة ان وجدت في الشيخ « محمد بن محمد بن عباس المسراتي » الضالة المنشودة والعضد القوي المتين ، والرفيق الوفي الامين . فهو رجل نادر المثال قليل النظير على مستوى رفيع من التدين في قوله وفي عمله وفي جميع تصرفاته فمعرفته للدين معرفة حقيقية نظيفة من كل الشوائب الدخيلة ، التي كثيرا ما تصحب المتظاهرين بالتدين وعلى اعمق ما يكون من الاخلاص للوطن .

يتحلى ابن عباس بمستوى طيب من الشهامة والوفاء ثقة في المعاملة سخي النفس كريم اليد صادق الاقوال عظيم الاهتمام بالحركة الوطنية كثير النشاط والبذل في سبيلها ، وبالجملة فانه رجل خلق فوق مستوى الجميع باعماله وصفاته ونكران الذات بين مجموعتنا المتحركة على الاطلاق ، وحسبي الله انني ما قلت الا ما اعتقده في هذا الرجل ، وتلك هي معرفتي

فيه بعـد اختلاط وتجـارب لفتـرة من الزمـن امتدت زهـاء عشرين عـامـا ، والله على ما نقـول وكيـل .

هذه كلمـة اقـولها بهـذه المناسبة في الاخ « محمد عبـاس » وفي اعتقادي انها حـق علي وديـن في ذمتي فمن الـواجب علي بعـد ان تصديت لكتابـة هذه المذكرات . ان اؤديه للحقيقة والتاريخ وانني حينمـا اقـول هذا في رجـل عرفته طويـلا فسبرت غـوره ، وعجمت عـوده ، فاعجبت باخـلاصه واخلاقـه وكل مواقفـه ، فان قولي هذا لا ينقص من اعمـال غيره شيئا فكـل من الاخـوان عمـل في ميدان الحركـة بقـدر مـا سمحت لـه بـه اوضاعـه الخـاصة . وما اتفق مع ظروفـه وامكانياته وحتى مستوى الايمـان بالواجب الـوطنـي .

بعـد الاتصال والتعـاون مع ابن عبـاس والحاج محمد المجدوب التاجـوري والتعاهـد على العمـل في سبيل الـوطن مهما كلفنا الامـر أخـذنا في الاتصال بالاخـوان والتـردد على الحاج المجـدوب في (حانـوته) فعـرفت في هـذا الرجـل ، انه وطنـي مخلص متحمس ، ومتدين الى حـد التزمت ، ولكنه كان معجبـا بنفسه فؤولا في غيـره كثير الادعـاء لا يسلم منه مجالسه ولا البعيد عنه . به كثيـر من الطيش حـاولنا جاهـدين الانسجـام معـه ولكننـا لـم نستطـع تحمـل تصرفاته .

لهـذه الاسباب وليس لغيرها تركنـاه وانقطعنـا عنه ، فغضب المجـدوب من ذلك الانقطـاع وكتب الى السعـداوي يشكو لـه انقطاعنا عنه فجـاءتنـا رسالـة من هـذا الاخير يتساءل فيها عن سبب شكوى المجـدوب ، ويقول في رسالته : ارجـو منكم ان لا تطلبوا من كل من ينضم اليكم ان يكون وطنيـا مائـة بالمائة . بـل اقبلوا حتى انصاف الـوطنيين ، والايام كفيلـة باصلاح الافـراد والجماعـات ، فنحـن اليوم في حاجـة الى التكتل والانسجام وضم الافـراد حتى لا يقـع استغلالهم من طرف الاعـداء .

فكتبنا اليه وافهمناه اننا لم نترك الحاج المجـدوب للشك في وطنيته ، ولم

نسىء اليه قط ، فهو وطني مخلص الى حد بعيد وافهمناه الاسباب التي جعلتنا نبتعد عنه ، وبذلك سكت السعداوي عن هذا الموضوع ، ولم نعد نحن للالتقاء بالحاج المجدوب ، ولم نره بعد ذلك اي منذ سنة ١٩٢٩ م ولم نسمع عنه في أي بلد من بلاد الله هو ، الا انني سمعت انذاك من بعض الاخوان بانه قد غادر البلاد التونسية .

وفي سنة ١٩٧١ م فيما أتذكر كانت هناك مناسبة لاداء واجب التعزية بوفاة أحد ابناء الاخوة العائدين من المهجر التقيت صدفة بالاخ الحاج محمد المجدوب هنا في طرابلس بعد غياب ٤٢ عاما تقريبا وبسؤالي له اعلمني بانه قد اصبح من سكان « سبها » بفزان .

تشكيل اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية بتونس

رسمنا مواد الميثاق الوطني للشعب الطرابلسي البرقاوي بالضبط كما جاء في رسالة السعداوي التي نشرتها جريدة « الصواب » بتونس وهذا هو الميثاق الذي اجمع عليه المهاجرون في جميع الاقطار التي يوجدون بها ، واصبح هدفا لهم من اعمالهم في مقاومة الاستعمار الايطالي . واقسموا ان لا يحيدوا عنه قيد انملة .

الا انه بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م وانتماء ايطاليا للمحور « روما ، برلين ، طوكيو » اصبح الاتصال بيننا وبين الحلفاء في الشرق وفي الغرب متواصلا على طريقي ـ لندن ـ وباريس ـ واستعدادات المهاجرين للمشاركة في الحرب واضحة جدا .

بعد هذه التطورات اصبح هذا الميثاق ، في صورته تلك غير ذي موضوع ، ولا بد من تغيير الطريق للوصول الى الهدف عن طريق الخصم الجديد المنتظر . ولا بد ايضا من تخطيط جديد يختلف عن التخطيط الاول ، اذ لكل مقام مقال ، ولكل دولة رجال ، لذلك فقد تركنا الميثاق جانبا ليدخل صفحات التاريخ وتقدمنا نحن في المغرب العربي لفرنسا مواد ثمانية اخرى سياتي ذكرها حرفيا ان شاء الله .

بعـد تبادل عـدة رسائـل بيننا وبين السعـداوي بعضها كان مصحوبـا بكشوف تحمـل الينا اسماء اعضاء اللجنة التي اسسوها اتفقنـا على مـوالاة الاجتماعات فيما بيننا للتفكيـر فيما يجب عملـه . ونحـن اربعـة اشخـاص هـم : (محمـد عبـاس ، محمد عمـار ، محمود علـي ، احمـد زارم) وبعـد خمسة عشر يومـا من الاجتماعات درسنا خـلالها اوضاعنا ومحيطنـا .

كنـا في بحـر هذه المـدة نفكـر في طريقـة عملنا وما قد يثيـره علينـا من المشاكـل ، وقد كان السعـداوي نفسه يقـول لنـا في بعض رسائلـه : « احـذروا في عملكم فان محيطكـم ليس كمحيطنـا » وفعـلا فـان البـلاد التـونسية مكتظـة بالجاليـة الايطالية حتى ان عـددها يفوق عدد الفرنسيين عـدا ، هـذا فضلا عمـا تتمتع به دولـة ايطاليا من الامتيازات القنصليـة في تـونس ، الامـر الذي جعـل لها سطوة ونفـوذ حتى لقـد كـادت ان تطغـى على الفـرنسيين حكـام البـلاد اذ ذاك .

وبعـد تلك الاجتماعات وقـع الاتفـاق على تشكيل لجنـة مـن اربعتنا ، بـدون رئيس ، وقد اسندت كتابتها العامـة ، او سكرتيـريتها (بالتعبيـر العصري) الى صاحب هذه المذكـرات ثم دار فيما بيننا نقـاش بشان وضـع اللجنـة ، فالاسم هـو الاسم الذي اتخـذه اخـواننـا في سوريـا وهـو : « اللجنـة التنفيذيـة للجاليـات الطـرابلسية البرقاويـة » ولكن هـل تكون لجنـة مستقلـة ، او نجعلها فرعـا للجنة الشرق . ؟ هنا في هـذا المـوضوع دار البحث طويـلا لمدة ثلاثة ايـام ، واخيـرا تـم الاتفـاق على ان تكـون مرتبطة بلجنـة الشام ، دون ان تكون فرعـا منها ولا هي منفصلـة عنها ، وذلك سعيـا وراء الاتحـاد والتكتـل ، وحتى لا يقـع اي تضارب بين اعمالنا واعمالهـم وفي ذلك ما فيه من القـوة وعمـق التاثير على الاعـداء .

وبعـد ما اتممنا تنظيماتنا كتبنا بذلك لاخـواننا في سوريـا ، وسارت هـذه اللجنـة في عملها سيـرا مباركا . فقـد اخـذت تنشر في الجرائـد كل ما تتصل به من تصرفات الايطاليين في الـوطـن الليبـي . ولقـد صادف ان ارسلت الينا اللجنـة التنفيذيـة من سوريـا كمية من منشور طبعته . « واظن

ظنــا قويــا انــه ذلك المنشور الذي وزع على وفــود العالم الاسلامي المجتمعة في المؤتمـر الاسلامي العـام بالقـدس الشريف » ارسلت الينــا كميــة منــه لتوزيعهــا في اقطــار المغـرب العـربي ، وقد كان منشورا شديــدا ومؤثــرا جــدا .

كنت انا في ذلك الظرف ١٩٢٩ م اشتغل كسائق سيارة في أحـد المحــلات التجاريــة الكبرى لبيــع الآلات الزراعيــة بتونس العــاصمة ، وهــي : دار انجليزيــة ، ومديــرها المبــاشر يهــودي تونسي ، وفي يــوم من ايــام هذا الشهــر وردت الينا كمية من المنشور المشار اليه آنفا ، واخــذ كل منا مجموعة ليتولى تــوزيعها فيما خصص اليه من مناطق العالــم ، بما في المنطقــة التي خصصت له من صحف ومؤسسات واحزاب وشخصيات ونوادي ومساجد ، وغيــر ذلك بمعــرفته وعلى حسابــه الخــاص .

ولقد قــام كل منا بتوزيع ما كلف به سواء ذلك مباشرة او بواسطة البريــد بالنسبة للاماكن البعيــدة ، وفيما يخصني وزعت كل ما كلفت بــه ، وطلبت من ائمة المساجد ان يقرا المنشور اثر صلاة الجمعــة ، وقد فعــل الكثير منهم ذلك جــزاهم الله خيــرا . فاحدث ذلك ضجة استحالت الى جــو متوتــر في البــلاد التونسية ادى الى وقــوع مظاهــرات في مختلــف انحــاء البــلاد وكانت اشدهــا في تــونس العــاصمة حيث قتــل اثنان من الايطاليين حسبما اشيع بين النــاس انــذاك ، ولا ادري صحــة الاشاعة من بطلانها .

ولقــد اهتزت لهذه الحركة الدوائــر الفــرنسية في تــونس ، واخــذت في اجــراء التحريــات عن مصدر هذه المناشير ومروجها ، وبعــد هــذه الحوادث بثلاثة ايــام ، وردتني رسالة مع شخص خــاص للاستعجال ، والــرسالــة من احــد الاخــوان يدعى « عبد القادر الورفلي » يقيــم في بلدة « تاجروين » مما يلي الحــدود الجزائرية من اعمــال الكــاف ، وهذا الاخ ليبــي ، ورفلــي مهنتــه تعليــم القــرآن الكريــم ، في هذه البلدة ولــه بيــن سكانها احتــرام وتقــديــر .

يقـول الاخ عبد القادر الـورفلي في رسالتـه هـذه : ان قـراءة المنشـور احـدثت حركـة توتـر نفسي شديدة في (تاجـروين) ولقد توصلت المباحث الى ان مـروج هـذه المناشير في « تاجـروين » هـو عبد القـادر الورفلي ، وقـد اخـذوه للتحقيق وطلبوا منه ان يخبرهم عن مصدرها ، وقال في رسالته انـه يمضي ساعتين كـل يـوم في مركز البوليس للتحقيق . وقـد تضايـق كثيـرا لذلك فقـد طلب مني الجـواب بسرعـة مع الحامـل ، ومن الرسالـة ادركت ان الرجـل صار في قلـق شديـد ، ومن واجبي أن لا اتركـه فاشرت عليه بان يقـول لهم عن المصدر الذي تلقـى منه .

وفي يـوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٩ م بينما كنت في جولـة عمـل بسيارة الدار التجاريـة المذكـورة آنفـا ، وعند عـودتي وجـدت فـي المكتـب بطـاقـة استدعـاء من الكوميسار المركـزي « او كوميسار فندق الفـول » كما يسمونـه في تـونس انـذاك . وفي الـوقت المحـدد في الاستدعـاء ، ذهبت الى هذه الكوميساريـة ، وبقيت في الانتظـار حوالي ساعـة ، ثم ادخلت الـى مكتب الكوميســار نفسه ، فأشار علي بالجلوس فجلست حوالي ربع ساعة دون ان يكلمنـي . وبعـد ذلك اخـذ في التحقيق معي الى منتصف النهـار ثـم طلـب مني الرجـوع بعـد الظهـر .

عـدت بعـد الظهـر حتى نهايـة ساعات الـدوام ، ولقد استمرت الحالـة على هـذا المنـوال لمدة ثلاثـة أيـام متوالية حتى لقـد كـدت ان افقـد عملي الذي اتعيش منـه . ذلك ان مديـر الـدار التي اعمـل معها سألني وكأنه قـد تضايـق من غيـابي فقـال لي : ثلاثة ايام كثير ماذا فعلت .. ؟

قلت : في احـدى الليالـي المـاضية كنت مع صاحب لي في جولـة فوقعت معركـة بين جماعتين ، كنا نعـرف بعضهم فتدخلنا بينهم وحسمنا الخلاف . ولكـن النـزاع رفـع الى الجهـات الـرسميـة بسبب ادعـاء أحـدهم بفقـد نقـوده اثنـاء المشاجـرة فدعينا لاداء الشهادة هـذا كل ما في الامـر .

أمـا من جهـة التحقيق في الكوميسارية فلقـد فهمت من اليـوم الاول ان

ليس في الموقف خوف لانها كانت تحقيقات شكلية ، اذ أن استقبالي كان طيبا . والتحقيق معي كان في لطافة واحترام ، ويبدو أن الموضوع القصد منه التعرف على الشخص ودراسته من خلال كلامه في مقابلاته .

وفي شهر ديسمبر الموالي تخليت عن هذا العمل كسائق سيارة في الدار المتقدم ذكرها ، نظرا الى ان العمل في هذه الدار يبدأ وينتهي مع ظهور الشمس واختفائها ، ولا توجد في ذلك الوقت حماية قانونية نافذة المفعول في تونس . وكما هو معروف نحن مشتغلون بقضية وطننا . وهي في نفوسنا فوق كل اعتبار ، واحيانا تفرض علينا ظروف القضية اجتماعات ولقاءات واتصالات ، وهذه الواجبات الوطنية لا تتفق وهذه الضغوط في اوقات العمل فلهذا السبب تخليت عن العمل في هذه الدار .

وبمجرد تركي لهذا العمل التحقت بدار لبيع السيارات من ثلاثة انواع هي : « الشفروله — أوكلاند — بونتياك » والدار بها قسم لتجميع السيارات . اذ كانت تاتي مفرقة في صناديق فيقع تجميعها بهذه الدار . وبها قسم لتصليح السيارات من أي نوع - أعني ورشة - وقسم كمستودع « غاراج » تاوي اليه السيارات بايجار شهري . وقد استمررت في هذا المحل لمدة سنة ونصف . وقد كان العمل فيها اخف وطأة من الاولى نظرا الى ان العمال في هذا المحل فنيون وكلهم من الايطاليين وبعض الفرنسيين ، وليس بها من العرب الا اثنان فقط شاب تونسي من بنزرت وانا .

ثم تخليت عن هذا العمل ايضا والتحقت بالعمل في شركة « الترامواي » في مهنة « خلاص » وقد كان الاجر اليومي في هذه الشركة « للخلاصين » ١٢ فرنكا . وهو اجر كبير في ذلك الوقت . والعمل هنا ثماني ساعات في اليوم فقط وقد كان دخولي في هذا العمل بواسطة فرنسي صديق اسمه « مالفا » عملت بهذه الشركة « خلاص » لمدة عام ثم تخليت عنها بطلب من صديق فرنسي اسمه « فارول » أراد أن نعمل واياه عملا حرا شركة ،

فعملنـــا كمقاولين باسمه هــو في تغطيــة سطوح المنــازل « بالــزفت » وبعد ان كونت منه راس مــال لا بــاس بــه . ورحــل صاحبي الى فرنسا ومكـث بها مــدة عــام . فتحت متجـرا لبيــع المــواد الغــذائية في منزلي بالكرم .

وفي شهــر ينايــر من سنة ١٩٣١ م فيما اتذكــر ، ولعله قبــل هذا الــوقت بقليل . وعلى كل فحينما كــان الاخ محمد عبــاس يواصل دراسته في جامــع الزيتونة وكان يسكن بيتا يقع « بنهج النساء » منطقة باب المنارة بتونس . ففي هــذا التاريخ وردت الينا رسالة عن طريق البريــد من طرف رئيس اللجنة التنفيذيــة ،، في سوريــا على عنــوان البيت وفي طيها رسالــة يطلب منــا رئيس اللجنــة المذكــورة تسليمها الى الاستــاذ محي الــدين القليبي الزعيــم التــونسي رحمــه اللــه تعــالى .

والمرجــوم « محي الدين » هــذا خليفة الــزعيم التونسي الكبير المرحــوم « عبد العزيــز الثعالبــي » وهو اي محي الدين من اقطــاب الحركــة الــوطنية في تونس ، ومن اخلص العاملين فيها ، وله فكــرة أوسع من أن تشده الى تــونس أو حتى المغرب العــربي ،،، بــل هو مسلــم عــربي تستــوي فــي نظـره اقطــار العــروبة والاسلام ، ولــه شخصية بــارزة ومحبوبة في تونس ، وعلى اخلاق اسلامية عاليــة ونزاهــة قــل نظيــرهــا فيما نعلــم وهــو مــن الكتــاب الموهــوبين والمعــروفين في العالــم العــربي ، ومــن المشاركين في خدمــة القضيــة العــربيــة العــامــة .

امــا بالنسبة للحركــة الــوطنية التونسية فيرجع له الكثير من الفضل في ايقــاظ الشعب التونسي واعــداده للعمــل وتهيئــة افكــاره للمقاومــة ، وقبوله للتضحيــات . وهــذا بعــد الزعيــم الثعــالبي والذين زاملــوه مــن رجــال تــونس وشكلوا « الحــزب الحــر الدستوري التونسي » وبهذا التشكيل دخلت الحركــة الــوطنية في تــونس ميدان الكفــاح الفعلــي المتواصل . الامــر الذي سهــل قيــادة الحركــة الــوطنية للذين قــادوها فيمــا بعــد للــوصول الــى النتيجــة التي هي الاستقــلال ، دون عنــاء كبيــر ولا زمــن طويــل بالنسبة

للمــاضي ولضخامــة القضيــة واهميتها وعنــاد الاستعمــار ذلك لانهم وجدوا الطريــق معبــدا والبــاب مفتوحــا ، وبعبــارة أصح وأوضح : وجـدوا شعبا يفهـم ما يقــال لــه وينفـذ ما يؤمـر به ويدرك لمــاذا يعمـل وكيف يعمل ؟ وكل مجتمـع وصل هــذا المستوى لا تعب في قيادتــه ولا شك في انتصــاره . اقــول هــذا لا على سمــاع من النــاس او دراسة في الكتب ، وانما قلت مــا قلتــه بنــاء على معاصرتي لتلك الظـروف في تــونس ومعــرفتي لاحداثها . لانني عشتها ثلاثين عامــا وشاركت في بعض حــوادثها الخطيـرة احيانــا بصفتي عــربيا مسلمــا يجب علي أن اشارك بما استطيع .

والى هنــا تبـدو لي ملاحظــة لا بــد منها للحقيقــة والتاريــخ . وهــي : انني حينمــا أنــوه ببعض اقطـاب الحركــة الــوطنية التــونسية واقــول انهم عبـدوا الطريــق وفتحــوا البــاب لا اعنــي بذلك التقليــل من جهــود الاخرين الذين تولوا الحركــة فيما بعــد ووصلوا النتيجــة ، بــل ان لهم جهودا تذكــر فتشكر وتضحيــات لا تنسى ولا تنكــر . وانما قولي هــذا دفعتني له المناسبة وفــرضه علي الــوفــاء لتــونس والتــونسيين وليس لجهــة معينــة . وفوق هــذا وذاك الامانــة التاريخية التي لا ينبغي لها أن تجــامــل او تخــاف أو تطمع على حساب الحــق . وانــه لمــن المعلــوم بالبداهــة ان الحركات الوطنية . بــل وكل الاعمــال من اجــل الحيــاة الكريمــة ما كــانت أبــدا محصورة في زمــن محــدود ولا في فريــق لم يسبقه عامــل ولم يخلفه مجهود . وانما هي امانــة مقدسة يسلمها السابق للاحــق من الاجيــال المتعاقبــة ، وبديهي ايضا انه لولا السابق ما استطاع اللاحق أن يصل الى نتيجة . كمــا وانه لولا اللاحــق لــذهبت اعمــال ومساعي السابق ادراج الرياح ايضا وهذه هي سنة العمــل في كــل شيء على قاعــدة : « غرسوا فاكلنا ، ونغــرس ،،، » .

هذه جملــة استطراديــة اقتضاهــا ذكــر الرسالــة التي وردت الينــا مــن « السعــداوي بــك » رحمــه اللــه ، وفي طيهــا رسالــة موجهــة الى الاستــاذ « محــي الدين القليبــي » وبــدون وجود رقابــة معلنــة ولا حتى ظــروف تبرر ذلك فقــد عمــدت السلطــات الفــرنسية الاستعمــارية الــى فتح رسالتنــا ،

وكان بالطبع أن وجدت في طيها الرسالة الموجهة للاستاذ القليبي ، وهو من هو بالنسبة للاستعمار الفرنسي بصورة خاصة والاستعمار بصورة عامة ، وعلى غير انتظار جاء رجال الامن الفرنسيون يصحبهم كوميسار « طبقا لما اخبرنا به الشاب الموجود في البيت » جاءوا الى منزل الاخ محمد عباس ومن باب الصدف لم يجد احدا منا ، بل وجدوا شابا تونسيا يدرس في جامع الزيتونة تحت رعاية الاخ محمد عباس . وهو ابن أحد اصدقائه من الفلاحين ، فهددوه وضربوه طالبين منه أن يخبرهم باسماء الذين يترددون على ذلك البيت وتحديد أوقات ترددهم ، وبصورة خاصة التونسيين .

واخيرا أوصوه وشددوا في التوصية بان يبلغنا بلزوم حضورنا جميعا بنفس المحل في يوم وساعة حددوهما له وقد ابلغنا الشاب بكل ما حصل ، وقد تواجدنا في اليوم والوقت المحددين من طرف رجال الامن الا انه رغم انتظارنا طويلا فلم يات أحد منهم وهذا الموقف من طرف الفرنسيين كان مطمئنا ومشجعا لنا نوعا ما . فاستمررنا في اعمالنا بكل نشاط وبقدر امكانياتنا .

استشهاد بطلين من ابطال الجهاد
عمر المختار واحمد الشريف

نبـا استشهـاد عمـر المختـار

قلت آنفـا انني اعمـل كسائق سيـارة في تلك الـدار التي تبيـع الآلات الـزراعية ، وقـد كان كل العمـال بها ايطاليين ولم يكن بينهم عـربي الا انا ، امـا الموظفون فكلهم من اليهود ، ولقد كان من بين الايطاليين شخص اسمه : « كسباريـنـو » فاتخذتـه صديقـا من بين الآخرين ، والسبب في اختيـاره هـو انني عـرفت فيه الهـدوء وعـدم الثرثـرة ، ثم انـه كان يملك جهـاز استقبـال « راديـو » وهـذا ما زادني تـوددا اليه وتقربا منـه ، وذلك ان هذا الجهـاز كان في ذلك الـوقت نـادرا من يمتلكه من بيننا نحن الطبقة العاملـة مـن العـرب .

ولقد استمرت صداقتي بهـذا الايطالي بعـد ان تخليت عن العمـل في تلك الـدار فقـد كنت اتصل بـه وازوره في بيتـه كثيرا ، واكثر ذلك كـان مـن اجل (الراديو) اذ كان الرجل يخبرني بكل مـا يسمعه في الاذاعـة من الاخبار ـــ وما يسمعه من ابناء جلدته مهما كان نوع الخبـر وانا كما هـو معـروف في حاجـة الى هـذه الاخبـار ، و « كسباريـنـو » هذا لا يعـرف عني شيئا الا كعامـل من جملـة العمـال لا شان لي ، انني ايطـالي بحكـم وضـع بـلادي .

احمد الشريف

وفي يـوم ١٧ سبتمبـر ١٩٣١ م فيما أتذكـر التقيت بصديقي الايطالي هـذا ، وبعـد تبادل التحيـة سألته هـل هناك اخبـار جديـدة ؟ فقـال نعـم هنـاك خبـر جميـل . قلت : ما هـو يا صديقـي .. ؟ قـال هناك شخص قاطـع طريق عـاث في البـلاد فسادا يدعى « مختـار » « في سيرينايكـه » قبض عليـه ،،، فاحسست ان جميـع امعـائي قـد نزلت الى اسفل واندفـع قلبـي في خفقـان بصورة يكـاد يسمع دقاتـه محـدثي ، ولكنني اسررتها في نفسي ولم اشعـره بشيء رغـم وقـع هذا الخبـر الاليـم علـى نفسـي وفي المساء ذهبت الى الاخوان بمنـزل الاخ محمد عبـاس حيث كنا نلتقي ليـلا لنتبـادل ما يجـد لـدينا من اخبـار عن وطننـا وغيـره من الاخبـار التي تهمنا ، واخبرت الاخـوان بما سمعته من ذلك الخبر المـزعج بالنسبـة لنا فكـانت صدمـة شديدة هـزت مشاعـرهم هـزا عنيفـا .

وبعـد ذلك بيوم أي يـوم ١٨ منه تقريبـا نشرت الصحف ذلـك الخبـر المـزعج ، وعلى اثـر هذه النكبـة الـوطنية التي ختمت صفحـة الجهاد الليبي في ميادين الكـر والفـر داخـل الـوطن اصبح عبء القضيـة الـوطنية على كواهـل المهاجـرين في الخـارج الذين وجـدوا متنفسا تنطلق منه اصواتهـم وحـركاتهم ، ولا لـوم على اخـواننا داخـل البـلاد وهم تحت كابوس حكـم جائـر يتحسسون بعـداوة مكضومـة في النفـوس في طول البـلاد وعرضها يتشوقـون للانفـلات من القهـر والاستعبـاد ، ولا عبرة بأقلية ذات نفـوس مـريضة انحـرفـت .

على اثـر هذه النكبـة الـوطنية ،،، اجتمعت اللجنـة بتونس يوم ٢٠ من نفس الشهـر وفي هـذا الاجتمـاع قـررت القيـام بطبع بضع مئات من صور الشهيـد ، وفعلا تم ذلـك وكتب تحت الصورة « الامير عمـر المختـار » بخط المرحـوم الشيخ « محمود علـي الزنتـاني » وحينما اصبحت الصور جاهزة اجتمعت اللجنـة للاتفـاق على كيفيـة التوزيـع حـدثت مـواقف اقـل مـا يقـال فيها انها سخيفـة اذا جـاز علينا هـذا التعبيـر .

ان هذه المواقف وغيرها سوف تاتي في صفحات تالية كتبها الاخ محمد عباس ، فلقد كتبت اليه طالبا منه ان يمدني بما لديه من وثائق ان كانت ،،، او ما بقي عالقا بذاكرته من حوادث حركتنا في الهجرة ، ولا غرو فان ابن عباس من ابناء بجدتها وصاحب السهم السمين فيها فكتب الي صفحات وطلب نشرها برمتها كما هي وسوف تاتي في مكانها .

ولقد قامت اللجنة بتوزيع تلك الصور على الصحف والاحزاب والشخصيات من علمية وسياسية في المغرب العربي وفي كثير من بلاد اوروبا وقد ارفقت بعضها برسائل توضح بطولة هذا المجاهد وشيخوخته وعدالته في حروبه ومعاملته للاسرى . هذا ولقد كان لهذا العمل وقعه واثره في النفوس فلقد احدث جوا قاتما امام السياسة الدعائية الايطالية في اقطار المغرب العربي .

وفي الشهر الموالي اكتوبر ١٩٣١ م قامت اللجنة باصدار منشور تستنهض به همم المهاجرين وتحثهم على التمسك بمواقفهم النضالية رغم الصدمات والعثرات وتثير به الحمية الوطنية في نفوسهم تفاديا لما قد تصاب به من الذهول بسبب هذه الكارثة الاليمة التي ختمت جهادا مريرا دام عشرين عاما . ولقد كان هذا المنشور مفتتحا بالابيات التالية من نظم طلبة ليبيين في جامع الزيتونة اتذكر من بينهم الاستاذ « محمد فياض » الغدامسي .

واليكم هذه الابيات :

يا شعب ليبيا جرد السيف والقنا ... ففي ظلها تحيا الشعوب وتسعد
ويا مسلمي الاقطار جمعاء اننا ... اليكم نمد الكف بالله فانجدوا

وهكذا فقد سارت حركتنا الوطنية في عملها الى حد اتضح لنا تاثيرها على الدوائر الايطالية في تونس هذه الدوائر التي اخذت تبحث عن الطرق التي تمكنها من اسكات اصواتنا بطريقة او باخرى كما سياتي

بيانــه في صفحــات آتيــة ان شاء اللــه من هذه المذكــرات . ومن جهة أخرى فقــد بــدأ يتضح لنا اهتمــام الدوائــر الفــرنسية بتونس هي الاخــرى . هذه لتستغلنــا وتلك لتقضي علينا ونحــن على علــم وحــذر من الطرفين .

هــذا الاهتمام الذي اخــذ يتزايــد من هــذه وتلك لم يــرهبنا بــل زادنا نشاطــا في عملنا الــوطني وتظاهرا بــه ومهما تكن نتائج هذا الاهتمام مــن طــرف فــرنسا سواء كانت لنا او علينا لا يهمنا كثيرا ، بل ان المهــم عندنا هــو ان تشعــر هذه وتلك بوجــودنا حيث ان هــذا الشعور هــو مقدمة لاعتبار حــركتنا بانها حركة واقعيــة وذات مبادىء واهداف محددة لــدى الفرنسيين ، واذا كانت فــرنسا قد بــدأت تهتــم بوجــودنا وتحركاتنا ، فمن غير شك ان تكون ايطاليــا اكثــر اهتماما خصوصا وهي في ظروف خطيرة وصعبة تقــف على ابــواب حــرب منتظــرة وخطيــرة .

وما كادت هــزة نبــأ سقوط آخــر قائــد من قــادة الجهــاد الليبي في الميدان الــداخلي الشهيــد « عمــر المختــار » ويخلــو جــو البــلاد الليبية مــن صدى اصوات البنادق وزمجــرة المدافــع وهمهمــة الخيول وهديــر الطائرات ، مــا كــاد يخــف تاثيــر هذه الهــزة على نفــوس المهاجــرين في الاقطار الغربيــة من الــوطن العــربي الكبيــر حتى نعت الينا في احــد شهور سنــة ١٩٣٢ م أخبــار الاراضي المقــدسة وبالتحديد مدينــة الــرسول الاعظــم عليه وآلــه افضل الصلاة وازكى التسليم . وفــاة المسلم الصادق والقائــد المخلص المغفور لــه السيد « أحمــد الشريــف » فكانت هذه هــزة ثانية اجتــاحت النفــوس فاحــدثت موجــة مــن الحــزن والاسف عمت الجميــع .

ولقد قــامت اللجنــة بما يفــرضه عليها الــواجب نحو عظيم مــن عظمــاء المسلمين ، وقائــد من قــادة العروبــة وبطل من ابطال الجهــاد الليبي مخلص لم تلــن له قنــاة في يــوم من الايــام أمــام تهديــدات الاعداء تارة واغراءاتهم تــارة أخــرى ولم يصغ لــوسوسة وسطــاء الاستعمــار . اقــامت اللجنة على روحــه الطاهــرة صلاة الغــائب بمدينة تــونس ولقد حضر في هذه المناسبة

فريق من الاخوان التونسيين ، وجمع غفير من المهاجرين الليبيين وقد القيت كلمات التنديد والتشهير بتصرفات الاستعمار الايطالي في ليبيا ، ولقد كان لهذه المناسبة وغيرها اثر واضح خصوصا لدى السفارة الايطالية بتونس الامر الذي اقلق بالها .

وبعد هذه المناسبة بثلاثة ايام اجتمعت هيئة اللجنة للتفكير فيما يجب عمله استغلالا لهذه المناسبة فقررت في اجتماعها هذا اصدار منشور يوزع على أوسع نطاق ممكن ، ولقد صدر هذا المنشور مفتتحا ببيتين من الشعر أخذا من قصيدة قالها الاستاذ محمد عباس ، وفيما يلي البيتان اللذان افتتح بهما المنشور :

ونظرا لنشاط الجمعية وتوالي اصدارها للمناشير وتوزيعها على اوسع نطاق ، مع تتابع نشر الاخبار عن تصرفات الايطاليين في ليبيا في الصحف كانت هذه عوامل منشطة دفعت فريقا من الاخوان للانضمام الى الجمعية وذلك في سنة ١٩٣٤ م فيما اتذكر .

والاخوان المنضمون هم :

١ ـ محمد شكري كويدير ، بنغازي	١٠ ـ مفتاح الدقيني ، ساحل الاحامد
٢ ـ عبد القادر الورفلي ، بني وليد	١١ ـ مفتاح غليليب ، زليتن
٣ ـ المبروك عمر الغرياني ، غريان	١٢ ـ رمضان شادي ، ورشفانة
٤ ـ أحمد تريفيس ، زليتن	١٣ ـ احمد الفرجاني ، ترهونة
٥ ـ رمضان حسن طالب ، سوق الجمعة	١٤ ـ محمد خليفة بن عامر ، ورشفانة
٦ ـ محمد غالب الكيب ، صبراتة	١٥ ـ ابراهيم محمد السويطي ، زليتن
٧ ـ عمر مالك ، غدامس	١٦ ـ محمد علي الشعثاني ، ككلة
٨ ـ سالم النعمي ، تاجوراء	
٩ ـ محمد فياض ، غدامس	

واتماما للتعريف بهذه المجموعة اشير الى صفة عمل كل منهم ، فاقول : ان الثالث ، والخامس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع ، والخامس عشر هم طلبة بجامع الزيتونة وجلهم في الاعوام الاخيرة اذ ذاك ـ والرابع ، والعاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر ، تجار مواد غذائية بالتفصيل ـ والثاني ، والثالث عشر ، في التعليم الحر ـ والرابع عشر ، تاجر « بياض » بالجملة ـ والسادس ، تعليم عصري حر ـ والاول عامل بحدائق حكومية .

ولقد افاد الجمعية انضمام هؤلاء الاخوان فسارت في عملها رغم امكانياتها المحددة اذ كانت تسير على حساب افراد يعدون على اصابع اليد الواحدة ، ذلك لان الاكثرية الساحقة في البلاد التونسية كانوا في حالة اقرب الى اليأس منها الى الامل في النتيجة من حركتنا وذلك بسبب سيطرة ايطاليا على بلادهم ووضعها في البلاد التونسية التي التجأ اليها اكثر المهاجرين عددا ، وضعفنا نحن في نظرهم حتى ان احد الاخوان سامحه الله لامه صديق له لماذا لا يعاضد الحركة فاجابه بقوله : « يا رجل الكف ما يعاندش لشفى اتعاب واخطار بدون نتيجة » ولقد غاب عن هذا الاخ اذ ذاك ، ان الله تعالى اذا اراد شيئا يهيء له اسبابه وظروفه حتى يتحقق ، والله على كل شيء قدير ، ولكن على صاحب الحق ان لا ينام ، والا فتسنح الفرص وتذهب دون ان ينتبه لها او يستفيد منها .

فلهذه الاسباب قد استولى على النفوس ما يشبه اليأس وقد نتج عن ذلك الشح بما لديهم والتقاعس عن العمل الى درجة خطيرة جدا ، وكدليل على ما تقدم ذكره أحب أن أسجل هنا موقفا لاحد الاخوان على سبيل المثال وليس الحصر فاقول : في يوم من تلك الايام الخوالي دعونا الى اجتماع يقع في بيت الاخ الشيخ رمضان حسن طالب من ابناء شرفة الملاحة . وكان بيته (بالمدرسة القاسمية) بتونس للتفاهم في طريقة الاشتراك بمبلغ معين يتعهد بدفعه من يريد مساعدة الحركة وتسمح له حالته بذلك .

وفعلا فقد وقع الاجتماع ليلا بالمحل المذكور وحضره عدد من الاخوان ، ولا اتذكر منهم اليوم الا الاخوان : الشيخ رمضان صاحب البيت ، والشيخ المبروك عمر الغرياني ، والاستاذ محمود الرخصي ، وصاحب هذه المذكرات وغيرهم وافتتحت الجلسة بتلاوة من آيات الذكر الحكيم تتناسب وموضوع الاجتماع ، ثم بدات المداولة في الموضوع وتكلم كل منا بما يراه ، وجاء دور الاستاذ « ... » وهو من المتعلمين والمثقفين ومن المتدينين جاء دوره في الكلام ، فقال هكذا باللهجة الدارجة وبالحرف الواحد : (انا ما نعطيش افلوسي للرجال ياكلوهم ويضحكوا علي) ولقد كانت هذه الجملة عبارة عن قنبلة انفجرت وسط ذلك الاجتماع فتشتت المجتمعون ، وفشل المشروع الذي وقع الاجتماع من اجله ، وعلى هذا فليقس ما لم يقل .

وعلى كل فلقد كان لاعمال حركتنا تاثيره السيء على سمعة ايطاليا ، وصدمة عنيفة مخيبة لآمالها ، وكبحا قويا لدعايتها في هذه الاصقاع بسبب مفعول تلك المناشير التي كنا نوزعها في كل المناسبات ، والاخبار التي كنا ننشرها في الصحف في هذه المنطقة التي كانت مطامع ايطاليا الاستعمارية فيها غير خافية على احد ، خصوصا البلاد التونسية التي كان ذكرها يسيل له لعاب موسوليني . ولذلك فان ايطاليا تعمل جاهدة بمختلف الوسائل لتحسين سمعتها في هذه الرقعة من البلاد العربية ، مستغلة كراهية هذه البلاد للاستعمار الفرنسي الذي كان جاثما على هذه الجهات وما يقترفه من مظالم ، وما ياتيه من تنكيل بكل من يرفع راسه .

ولكن بتاثير من نشاط لجنتنا فقد اصبحت نشراتها التي كانت توزعها ، ودعاياتها التي كانت تنشرها ومساعيها لتغطية تصرفاتها في ليبيا اصبحت مكشوفة وفاشلة ، وغير ذات تاثير في اقطار المغرب العربي . وبالاخص في البلاد التونسية ، ذلك لان الشعب التونسي حسبما عرفناه في ذلك الوقت شعب قوي الاحساس بالاخوة العربية عميق الشعور بالحمية الاسلامية .

وبهذه المناسبة ارى ان الواجب يحتم علي أن لا أمر مرور السحاب على ذكر بلد عشت به اربعا وثلاثين عاما دون ان اسجل انطباعاتي وشعوري نحوه ، لذا فانني أسجل هنا للحقيقة والتاريخ شكري واعترافي للشعب التونسي العربي المسلم ، فلقد وجدنا فيه موطنا كريما آمنا ، ومنطلقا لحركتنا الوطنية ضد عدونا ، واخوة صادقة ، وجدنا في علمائه وصحافته وشخصياته ورجال الحركة الوطنية فيه ، « وذلك قبل انقسام هذه الحركة على نفسها » ، فلقد وجدنا من الجميع تشجيعا معنويا وعطفا أخويا وتقديرا ادبيا تجاه حركتنا الوطنية .

أسجل شهادتي هذه اليوم وأنا خارج تلك البلاد ، فأقول ان الشعب التونسي كشعب ينطوي على روح عربية وثابة . ويتحلى بحمية اسلامية وقادة ، وشعور قومي أصيل ، الامر الذي يجعله في طليعة شعوبنا الناهضة التي يحق للامة العربية أن تعتز بها . والتي بحكم معرفتي لتونس كبلاد وللتونسيين كشعب على مدى عشرات السنين اكن لهما كل خير ومحبة وذكر طيب لا تمحوه هفوات فردية وقعت ، ولا تغطيه منعطفات في بعض الاحيان حدثت ولا ينسنيه مرور الايام ولا كر الاعوام ، وفي ختام هذه اللمحة الخاطفة ادعو الله العلي القدير مخلصا صادقا للشعب التونسي بالمستقبل الزاهر الاجمل وحياة العزة والكرامة الافضل .

صراعنا مع ايطاليا

قلنـا ان حـركتنا سواء التي منها في الشرق او التي منها في الغـرب قـد اثـرت تاثيـرا بالغـا في سمعـة ايطاليـا وافسدت دعـايتها ، ولقـد ظهـر هـذا التاثيـر واضحـا جليـا في تصرفاتها الحمقـاء ومساعيها الفاشلة لشل حـركتنا بطـرق غيـر شريفـة . ففي الشرق عمـدت بواسطة سماسرتها الى استدراج افـراد من ذوي الحاجـة وضعيفي الايمـان من الاخـوان المهاجـرين في سوريـا وغيـرها فكتبوا مذكـرة مهروها بتوقيعاتهم واختامهم التقليديـة يقولون فيها ما معنـاه : انهم من صميـم الجـاليـة الليبيـة ، (وانهـم لا يعترفـون « باللجنـة التنفيذيـة للجاليات الطـرابلسية البرقـاويـة » التي تدعـى النيابـة عنهم ولا يؤيـدونها ... الـخ) .

ولقـد نشرت هـذه المذكـرة في الصحـافـة السوريـة اذ ذاك منقـولـة (بالزنكو غراف) من طرف السفارة الايطالية بدمشـق مردفـة بشـرح عبـاراتها بخط اسود غامـق بـارز ، ولقـد وصلتنـا حينـذاك اعـداد مـن الصحيفـة التي نشرت هذه المذكـرة ، الا انها مـع كـل الاسف ضاعت كمـا ضاع غيـرهـا ، وهـذه البـادرة السيئـة قد اضطرت اللجنـة الـى تغييـر عنوانهـا اثـر اجتماعات بحثت خـلالها عـواقب هذه البادرة وما قـد يترتب عليها وقـررت ابـدال اسمها من : (اللجنة التنفيذية للجـاليات الطـرابلسية البرقاويـة) الى : (جمعيـة الدفـاع عن طرابلس وبـرقـة) ولعـل هـذا

التبديـل كان في سنة ١٩٣١ م بمناسبة اجتماع المؤتمر الاسلامـي بالقـدس الشريـف .

وفي نفس الـوقت كتبت الينا هـذه الجمعية بما تـم عندهم . وخـوفا من مثـل تلك الاعمـال في محيطنا ايضا « لان هـؤلاء يوحـي بعضهم الى بعض » ومحافظـة منـا على دوام الارتبـاط والتكتـل وانسجام العمـل مع اخـوانـنـا لفائـدة سيـر القضيـة فقـد ابدلنـا نحن بـدورنـا اسـم لجنتنـا بنفس الاسم الذي اتخـذه اخـواننا ، وبهذه الطريقـة سارت حـركتنا في طـريقها المـرسوم لهـا ولم تتاثـر بتلك التدابيـر الاستعمـارية ، وسقط بيـد ايطاليا وخـاب الـذين عـاضدوهـا .

ولعـل سبب هـذا العمـل من طـرف بعض الاخـوان في سوريا يرجـع الى الاختلافـات الفكريـة وتباين الآراء في سيـر القضية الليبية بمناسبـة انعقـاد المؤتمـر الاسلامي في القـدس الشريف ، ذلك ان من الاخوان من يرى ابقـاء القضية الليبية مستقلـة عن القضية العربية العامـة ـ ومنهم من يـرى افضليـة دمجهـا في هذه القضيـة ، اقـول لعـل ذلك هـو سبب تلك المذكـرة التي استغلتها ايطاليا بواسطة سفـارتها بدمشق ، ذلك ان اصحاب هذه المذكرة لم يواصلوا مقاومة الجمعيـة ولم نسمع باي نـزاع نتيجـة لذلك ولا ذيول ، اللهم الا رسالـة واحـدة وردت الينا من المرحـوم « فوزي النعـاس » وكـان سكرتير اللجنـة حينذاك يشعرنا فيها (بانه ترك اللجنة نهائيا ولم تعـد لـه ايـة صلـة بعملها وهي أي اللجنـة لم يبق بها الا السعـداوي وحـده وقد انـدمج **في المؤتمر الاسلامي العـام المنعقد بالقـدس** ، وان السعـداوي لا هدف لـه من هذا الا كسب الشهـرة لاظهـار نفسه .... الـخ) .

ومن هنا من هذه الرسالـة يخالجنا شيء من التفكيـر في موضوع المذكـرة ودوافعهـا ، اذ لعـل اختـلاف التفكير وتباين الاراء هـو الدافـع لاولئـك الاخوان في اصدارهم تلك المذكرة ، التي قد تكون تسربت بطريقة او باخرى الى السفارة الايطالية فاستغلتها ولم تكن نتيجة انحراف والله أعلم بالحقيقة وفي الواقـع ان عمـلا كهـذا رغـم بشاعته الا ان وقـوعـه ليس بالشـيء

الغـريب عـن البشـر ، فان مثـل هذه العناصر لا يخلـو منها زمان ولا مكان ، فكما وجـدت هـذه العنـاصر في الشرق وجـد مثلها عندنا في الغرب ، وكذلك داخـل الـوطن مع اختـلاف الطرق في عملهم ، ففي الغـرب عندنا انحـرف ثلاثـة اشخـاص احـدهم من « زليتـن » هـو : ،،، والثاني من ككلة هو ،،، والثـالث من غـدامس هـو : ،،، هـؤلاء الثلاثة الذين انحرفوا في منطقة المغرب العـربي فيمـا عـرفنـا .

فالاول على جـانب من العلـم وهو يظهـر نفسه انـه من رجال الحـركـة في الجمعيـة ولكنه كان ياخـذ تحركاتنا واقوالنـا وينقلهـا الـى السفـارة الايطاليـة ولقـد وصلتنا معلومات عنه من احـد مستخدمي السفـارة نفسهـا يـدعى « المختـار العـربي » ثم تولينا رصده فتأكـد لنا الامـر ولكننا سكتنا ولم نظهـر له ما يفهـم منه اننا قـد اكتشفنا امـره الا اننا تحفظنا من جانبه ولم نشأ ان نزعجـه ، وليس من مصلحـة حـركتنا انتشار مثل هذا الخبـر عن احـد افـراد الجاليـة ، الا انـه يبدو ان الرجـل شعـر بجـو التحفـظ السائد بين اعضاء الجمعية من جهته فاراد ان يختبر الموقف بطريقة ما .

وفي يـوم من تلك الايـام الخاليـة تلقيت منه رسالة وفي طيها « حوالـة بريـدية » بمبلغ عشرين فرنكا مرسلـة من هذا الشخص ذاته كمساعـدة منـه للحركة الوطنية ، ولم نعرف له ايـة مساعدة او مشاركة ماديـة في يوم من الايـام قبـل هـذه . تلقيت الرسالـة ، ولـما كان الامـر يتعلـق بشخص مـوقفه من الحركـة الـوطنية كما ذكرنـا آنفـا وكل الاخوان على علـم بامره رايت من الـواجب عـرض المـوضوع على الاخـوان ليـروا فيه رأيهم .

استدعيت هيئـة الجمعيـة للاجتماع وطرحت امامهم الرسالة وما فيها ، وبعـد الاطـلاع على الرسالـة وادلاء كل واحـد برايه في الموضوع طلب البعض اعـادة المبلـغ لصاحبه وقـال آخـرون بقبولـه فاختلفـت الآراء . فالذيـن يقولون بـرد المبلـغ ، يقولون ان قبـول المبلـغ يعتبر رضا بتصرفاته ولـم يبـق لنـا حـق بعـد ذلك في لومـه عمـا ارتكبه أو حتى التحفظ من جانبه ولـذا فالـرد اصـوب .

والذين يقولون بقبول المبلـغ يقولون ان القبول ليس رضا بتصرفاته وانما هو تفاديا من انتشار الاشاعات وظهور مثـل هذا التصـرف داخـل هيئة الجمعيـة يحط من قيمتها . وبعـد اخـذ ورد دام حصة من الـوقـت ، وقـف الاستـاذ محمـد فيـاض واعلـن في شدة وتصميم انـه اذا قبلت مساعـدة فـلان فانـه لا يستطيع البقـاء في الجمعيـة .

ونظـرا الى تحـرج المـوقف فقد تراجـع اكثر الاخـوان الذين قالوا بالقبول واصبح الـرفض شبه اجماعـي فحـرر محضر بـرد المبلغ الـى صاحبـه ، فكتبت لـه رسالـة شكـر وعـذر اجهـدت فيها فكـري كي تكون عبـاراتها مهذبـة هادئـة تتسم بالاحتـرام والتقدير . وذكـرت له ان هيئـة الجمعية رات اعـادة المبلـغ انتظارا لاجتمـاع مقبل بهدف جمـع مساعـدات للحركـة واعـدت لـه الرسالة وفي طيها (الحوالـة) بالبريـد المسجل كمـا تلقيتهـا وبمجـرد وصول الرسالـة اليه يبـدو انـه ادرك حقيقـة المـوقف فامطرنـي بوابـل من الرسائـل الواحـدة تلـو الاخـرى وكلها مشحـونـة بالسبـاب والشتائم والتحقيـر وكل ما املته عليه حماقته الانفعالية ، اما انا فلم اجبـه ولو بكلمـة واحـدة لا كتابيا ولا شفويا الامر الذي جعلـه يكاد يتميز غيظـا . ولمـا انهـزم المحـور من تـونس في مايـو ١٩٤٣ م احس الرجـل بانه قـد اصبح في خطـر واضطربت نفسه وغمـره القلـق والخـوف لظنه السيء اننا من الحماقـة بمنزلته ، واننا سنغتنم الفرصة مع الجيش الثامن الانجليزي الذي كنا نعمـل معـه في الواجهـة ولنا كلمـة مسموعة لدى الضباط الـذين كنـا معهم خصوصا في مثـل هذه الامـور اجـل ظـن اننا سننتقم منه ، وبما ان الرجل كان موقفه مني كما اوضحت آنفا ولم ينس رسائله وشتمائه تلـك فقد التجأ الى الاخ محمد عباس واعترف له باتصالاته بالسفارة الايطاليـة وطلب منه ان يكون منه ببال فطمأنه الاخ محمد عباس وهو يعرف ان للاخ عباس كلمة بيننا لا ترد لذلك لجأ اليه .

امـا الثـاني فكان يحتـرف (مصوراتي) انتسب للجمعية مـرة واختلط بافرادها فعـرفهم وعرفـوه ، وبعد مـدة اكثر من عـام يبدو انـه كلف

من جهة ما ، من الايطاليين ولم تتضح لنا هذه الجهة بالتحديد ان كانت السفارة او مؤسسة ايطالية اخرى لان المؤسسات الايطالية في تونس كثيرة اذ ذاك ، وعلى كل فالذي عرفناه انه كلف من جهة ايطالية بنسف مقر الجمعية في حالة اجتماع اعضائها ، وليس العمل بغريب عن الايطاليين فلقد سبق ان فجر اتباع الفاشيت قبل هذا التاريخ باعوام مقر السفارة الايطالية حينما كانت (بنهج زركون) بتونس .

وفي يوم من الايام وبمناسبة اجتماع موسع عمد هذا المصوراتي الى محاولة تنفيذ ما أمر به وجاء للاجتماع (بمصورته) ومعه المتفجرات مخفية عن الاعين ومن باب الصدف ومشيئة الاقدار ان اكتشفه أحد الاخوان والقي عليه القبض متلبسا بالمتفجرات وتسلمته السلطات الفرنسية للتحقيق معه ومنذ ذلك اليوم لا ادري ما فعل الله به ولا اين يوجد .

اما الثالث ويدعى « البشير الغدامسي » فقد كان يعمل كمباشر في مدرسة ايطالية (في حلق الوادي) من ضواحي تونس وكان يحب ايطاليا جدا ويعتز بالانتماء اليها ويعلن ذلك بصراحة ووضوح ويدافع عنها جهرا في كل مجتمع يغشاه وينقل اليها ما يسمعه من الاخبار ، ولكنه رغم ذلك كله كان اخف ضررا واقل شرا من سابقيه ، ولما انهزم المحور ودخل الحلفاء الى تونس قبض عليه من جملة اسرى الايطاليين وسيق معهم الى جهة المغرب فيما بلغني ، بينما الذين ينتسبون لحركتنا لم يقبض على احد منهم نتيجة اتفاقاتنا مع الفرنسيين .

وهكذا فمن هؤلاء الثلاثة وغيرهم مع وسائلها الخاصة الاخرى علمت سفارة ايطاليا بكل تحركاتنا وعرفت عناصرنا المتحركة فاخذت تفكر في الطريقة التي تمكنها من تسديد ضربة قاضية لهذه الحركة التي وقفت في وجه دعايتها وشلت مفعولها في منطقة هي تحلم بالاستيلاء عليها في وقت انتبه فيه العالم كله ومنه اصحاب هذه المنطقة الذين اصبحوا يتحفزون لطرد الاستعمار منها واعلان الاستقلال ، واخيرا اهتدت هذه السفارة الى طريقة رهيبة وسخيفة في آن واحد .

تكلمنا عن اولئك المنحرفين من شعبنا الذين في الشرق والذين منهم في الغرب ، وان ذكر هذه العناصر المنحرفة يدفعني الى الاستطراد في الحديث عن الذين هم داخل الوطن ايضا . والحديث شجون . فأقول ولعل في أولئك وهؤلاء الضالعين مع عدو بلادهم من لا يزال على قيد الحياة وقد يكونون اليوم كلهم او بعضهم من الذين يقفون في الصف الاول ويحتلون اماكن الصدارة في المناسبات مرتدين ثياب الاخلاص متقمصين جلود المجاهدين وينعمون بثمرة الاستقلال مدعين انهم من صانعيه بدون خوف من الله ولا حياء من عباد الله .

وشان هؤلاء شان اولئك الذين قادوا الجيوش المغيرة المتكونة من الايطاليين والمرتزقة لاحتلال بلادهم وتسليمها لقمة سائغة للاستعمار الايطالي بعد ما حار هذا في التغلب عن حماة الوطن بكل ما لديه من قوة وعدد ولولا اولئك الضالعون لما استطاع الطليان احتلال ليبيا بواسطة ابنائها ولامكن للحرب ان تمتد . والاحظ هنا انني لا اقصد كل من خدم مع ايطاليا ، كلا فهذا امر حتمته الظروف ولكنني اقصد اولئك الذين خفوا برضى ورغبة لمحاربة اخوانهم والذين سعوا للايقاع بهم ، واعود فاقول : اجل ، لامكن للحرب ان تمتد الى ان تدخل عليها الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م علما بان بين نهاية الحرب الميدانية في ليبيا ، واندلاع الحرب العالمية الثانية ثماني سنوات ، هذا بصرف النظر عما تخلل هذه السنوات الثمانية من الاضطرابات والاعتداءات على الحكومة الايطالية واعوانها وعملائها في مختلف انحاء البلاد الليبية .

وكذلك الذين تجسسوا بجد واجتهاد لفائدة عدو بلادهم وللايقاع باخوانهم ، والذين كانوا يصيحون وسط الجماهير بكل صفاقة وقلة حياء قائلين : « الزعيم في قلوبنا » ! ! وهم يعنون بذلك « موسوليني » طالبين رضاه وهو لا ينظر اليهم الا كما ينظر للحيوانات العاملة في مزارع ابناء جلدته ، وأولئك الذين بلغ بهم التذلل والاستخذاء حتى اخذوا يطوفون على المواطنين ليجبروهم على استقبال « الدكتاتور الفاشي »

مهددين اياهم بقولهم : ان لم تفتعلوا نحرق عليكم دكاكينكم ، حسبما اكدته لنا عناصر عليمة وامينة على ما تقول .

واولئك الذين اعانوا المستعمرين باخلاص على مقاومة وفد المجاهدين الذين مرت عليهم سنون طويلة وهم يعيشون على حبات من التمر ، ويفترشون الغبراء ، ويتوسدون بنادقهم ، واصابعهم على ازندتها دفاعا عن الوطن وطلبا للحرية ، وصيانة للاسلام والمسلمين في بلادهم ، فلو كان هؤلاء واولئك جميعهم الذين فقدوا الشعور بالواجب الوطني ، وتهاونوا بالضمير ، وداسوا على الكرامة ، لو كان هؤلاء من الاميين ومن سواد الشعب لالتمسنا لهم عذرا من مستواهم في المجتمع وجهلهم بالنتائج المقبلة لاعمالهم المخزية ومواقفهم المنحرفة ، اما وهم من رجال العلم ومن ارقى طبقات الشعب ومن وجهائه فالامر جد عظيم ، ومؤلم .

ولكن هكذا سولت لهذه العناصر المتردية في حضيض المهانة ، القليلة العدد ، ولكنها اثرت في الموقف تاثيرا سيئا ، سولت لها نفوسها الامارة بالسوء ، وزين لها الشيطان سوء عملها فاتبعت خطواته ، واستبدلت حياة العزة والكرامة بحياة الذل والاستخذاء ، فعلت ذلك لكي تجعل من نفسها مجموعة من العبيد الاذلاء ، عسى ان تحظى مقابل ذلك بنظرة من « موسوليني » خاطفة ، او ابتسامة من بالبو واضرابه ساخرة ماكرة .

انهم بمواقفهم تلك قد اضاعوا عن الشعب العربي في ليبيا النتيجة الطبيعية لحرب تحريرية تواصلت احدى وعشرين سنة بلا انقطاع من الكفاح الميداني المسلح ، وثماني وخمسين سنة من الحربين النارية - والسياسية . اريقت في خلالها دماء طاهرة زكية وتبددت ثروات ضخمة على اختلاف انواعها ، وشردت عائلات كريمة عزيزة ومواطنون مخلصون ، واهين شعب باكمله بصورة لن تنسى كان من اسبابها مواقف تلك العناصر المنحرفة .

ومع كل ما حصل من النتائج المشؤومة التي كانت من أسبابها مواقفهم

تلك ، فهم لم يتعظوا بذلك الماضي الاسود الذي اقترفوه والخطأ الفظيع الذي ارتكبوه ، بل ظلوا سادرين في ضلالهم يعمهون ، فلقد اعادوا سيرتهم تلك حتى ايام الادارة البريطانية وهم يعلمون جيدا بانها لا حق لها في البلاد ، ولكنهم عملوا على تمكينها مع الامريكان والفرنسيين ، اجل مكنوها من تكبيل الشعب بمعاهدات هي الاستعمار بعينه ، بل هي ادهى وأمر وأنكى وأشر ، لانها استعمار مشروع بمقتضى تلك المعاهدات التي جعلت استقلال البلاد اسما بلا مسمى ، كل ذلك لكي يمكنهم الاستعمار من الجلوس على كراسي الحكم في بلادهم ، حتى ولو كانوا على كراسيهم تلك اشباحا بلا ارواح ، عبيد يؤمرون ، ولا يأمرون ، الا على اخوانهم في بعض الامور ، ولولا الطاف الله بهذا الشعب المجاهد لقاست البلاد من تلك المعاهدات من الاتعاب والاهوال امدا لا يعلم مداه الا الله تعالى .

تحدثنا عن تلك المذكرة الصادرة عن بعض الاخوان في الشرق ، كما الحقنا الي العناصر الثلاثة في الغرب المنحرفة هي الاخرى . ثم ندددنا باختصار بتلك الطائفة المستخذية الضالعة مع العدو المغير في داخل الوطن . ولقد جرنا الاستطراد للاسترسال في اثارة اشياء تضمنت اكثرها صفحات التاريخ فيما قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها . ولقد طويت تلك الاحداث المؤلمة في اكفان التاريخ ، وما كنا نريد لها نشرا ولا ذكرا ، لو انها كانت موعظة لاصحابها ، وأعادتهم الى الصراط المستقيم ،، ولكن ...

وعلى كل فلنقف هنا ، لنعود الى موضوعنا ، فنقول : كانت جمعيتنا تسير في عملها طبقا « لترموميتر » السياسة الدولية بين انخفاض وارتفاع .

ففي أواخر سنة ١٩٣٥ م تلقيت رسالة من أحد الاخوان داخل الوطن . ولقد كانت هذه الرسالة شبه تحذير اذ قال فيها صاحبها : ... يا اخي احذر غوائل الدهر فان في الامر خطورة ، فلقد قامت حكومة ايطاليا

هنا باجراء تحريات عنك ، وذلك بتوجيه سؤال الى المديرية والقبيلة قائلة ماذا فعلت ايطاليا لهذا الشخص حتى يقف منها هذا الموقف .. ؟ هل تعلمون شيئا عنه ، فكان الجواب هو ان هذا الشخص ذهب الى تونس صغيرا وليس لنا به أي اتصال ولا نعلم عنه شيئا ، الى ان يقول صاحب الرسالة : ان الجواب في عمومه اشبه بالتبرىء منك ، وها انا قد اعلمتك ونظرك صلاح ... والواقع انهم معذورون حينما يتبرأون ، في ذلك الوقت لان ظروفهم تفرض عليهم ذلك .

كان يوافينا باخبار الوطن بقدر استطاعته منذ سنة ١٩٣٢ م المرحوم الشيخ « خليفة عدالة » من الرحيبات رغم كونه كان محل شبهة عند الحكومة الايطالية ، وقد كان يرسل رسائله مع « القوافل » الذاهبة من الجبل الى « بنقردان » ومن هناك توضع في البريد ، وقد كنا نتخذ منها اساسا للتنديد بتصرفات ايطاليا .

وايضاحا لقولنا أن المرحوم عدالة كان محل شبهة عند ايطاليا ، اقول : ان خليفة عدالة هذا كان من اعيان المجاهدين الذين لم يرضخوا لايطاليا وقد هجر بلاده . مع من كانت لهم استطاعة على الهجرة من الرحيبات ، حينما استولت ايطاليا بواسطة المرتزقة على المنطقة ، فانتقل من بلد الى آخر مع جموع المجاهدين من كل مكان ، وجاب الصحاري والقفار ، ولما ضعفت وسائل الحرب واضطر الكثير من المجاهدين الى هجرة الوطن ، اضطر هو الاخر مع مجموعة الرحيبات الى الهجرة ، فاتجهوا نحو الجزائر ، وحينما اجتازوا الحدود الليبية تلقفتهم الجيوش الاستعمارية الفرنسية ، وسلمتهم الى ايطاليا ، وهذه اعادتهم الى البلاد ومن الطاف الله جلت قدرته وتعالت حكمته ان ابقت عليهم ، ولعل في ذلك يد ، فالايدي الخيرة لم تنقطع حتى من بين الراضخين للعدو ، والمحاربين معه ، ولقد تاكدنا بعض ذلك .

ومن ثم كان محل شبهة دائمة ، وفي هذه السنة فيما اتذكر وقد يكون قبل او بعد لا ادري ، المهم انه جاء الى تونس بطريقة تعتبر سرية

لانــه بـدون جـواز سفـر ، وقد مكث بطرفنا مـدة قصيرة ثـم عـاد الـى الـوطن . وقـد أبلغت عنه السلطات الايطالية ، وهو مـا زاد الطيـن بلـة ، فاصبح تحت رقابـة يقظـة . ولذلك فحالمـا عـزمت ايطاليـا على اعلان الحرب على الحلفـاء بجـانب المحـور القت عليه ايطاليا القبض واودعتـه السجـن وبقـي بـه حتى انهـزام ايطاليـا من ليبيـا فاطلق سراحـه الانجليز ولـم يلبث بعـد ذلك الا مـدة قصيرة حتى تداعت صحته ومرض مرضا شديدا من تاثيـر السجـن فانتقـل الى رحمـة اللـه تعـالى رحمـه اللـه .

وفي سنة ١٩٣٦ م حينما تعـرفنا بالاخ الحـاج محمد يـونس الكريكشي كثـرت معلـومات الجمعيـة عـن تحركـات ايطاليـا واستعداداتها العسكريـة وتصرفـاتها في ليبيـا . اذ قـد وجـدنا في الحـاج محمد المذكـور تفهمـا واستعدادا لمـوافاتنا بكـل ما يجـد ، وفعـلا فقـد كانت تصلنا منه اخبـار دقيقـة والكيـدة ، الامـر الذي جعـل السفـارة الايطالية في تـونس في قلق كما ان الحـاج عبد السلام ابو سهمين من زوارة كان هـو الاخـر ياتينا باخبار افـادتنا ، غيـر ان هـذا كان بعـد انهـزام ايطاليا ، وليس قبل ، كما انه كان مركـزا لنا امينـا في زوارة يقصده كل من نرسله سريا للاطـلاع .

وفي سنة ١٩٣٥ م اغارت ايطاليا على الحبشة ومن سوء حظ الاولـى انها قـد استيقظت من نومها متاخـرة فوجـدت دول اوروبا تسيطر علـى جـل شعـوب افريقيـا وآسيا فارادت ان تمـد هي الاخـرى سيطرتها على ما بقي ، في وقت اصبحت فيه هـذه الشعوب في مستوى نهضة ايطاليا بل فيها من هو اكثر يقظـة حتى لقـد عجـز الاستعمـار عن مقاومتها واصبح وشيك الارتحال عنهـا الى غيـر رجعـة .

قلنـا في هذه السنة اغـارت ايطاليا على الحبشة فانتشرت انباء الغـارة ، وقد حفـزت هذه الغـارة المهاجـرين الليبيين للقيـام بثورة في بلادهم ضـد عـدوهم فتحرك السعـداوي من دمشق الى القاهـرة ، وهذه الصورة تمثـل السعـداوي مجتمعـا الى المـرحـوم « احمـد بـك المـريض » رئيس هيئـة الاصلاح المركزيـة ايـام الجهـاد يتفاهمـان في هـذا الشان .

قلنا انتشرت انباء الغارة وفي الوقت نفسه انتشرت انباء تقول : ان الثورة قد اندلعت في ليبيا ضد ايطاليا وتقول مصادر هذه الاخبار ان هذه الثورة قد بدأت في « الجغبوب » وقد كان لهذه الاخبار صدى في نفوس المهاجرين الليبيين في كل مكان ، ولقد وصلتنا رسائل من عدة اخوان يتساءلون عن صحة وقوع هذه الثورة ولا زلت اتذكر عبارات وردت في رسالة من الشاب المتحمس اذ ذاك «الاستاذ سالم النعمي التاجوري» يقول فيها : « ... ما هو المبرر لبقائنا هنا في تونس والثورة قد بدأت في بلادنا .. ؟ ان الاخبار عنها تواترت وتكررت اليس من الواجب علينا ان نلتحق بها قبل فوات الوقت .. ؟

ولقد اجبت الشيخ سالم على رسالته هذه ، بعد ان شكرته على الروح الوطنية المتأججة والشعور الفياض بالواجب الوطني بما يلي : ... اما مسالة الثورة ففي اعتقادي ان الاخبار عنها ليست الا من قبيل حرب الاعصاب القصد منها التاثير على ايطاليا يخلقها ويطلقها المعارضون لها في غاراتها على الحبشة . ولذلك يجب ان نتريث حتى تتضح لنا الامور .

وعلى فرض صحة وقوع هذه الثورة فان الواجب والاصلح ايضا ان نبدأ ثورتنا من هنا من الحدود الغربية الليبية وسوف نجد بكل تاكيد من الاخوان التونسيين كل ما في استطاعتهم من المساعدات . ومع ذلك فان تعدد اماكن الثورة بطريقة : اضرب واهرب ، يرهب العدو اكثر من وجودها في مكان واحد . هذا وعلى كل فسوف نكتب لاخواننا في الشرق وننتظر ما يفيدوننا به في الموضوع ما هو موقفهم منها ان كانت . لانهم هم اقرب منا للحبشة ولمكان الثورة .

وفعلا فقد كتبنا للاخوان في سوريا وفي مصر نسألهم عن مبلغ هذه الاخبار من الصحة . وقد كانت رسالة سوريا موجهة للمرحوم « بشير السعداوي » أما رسالة مصر فقد كانت موجهة للمرحوم « احمد الشتيوي السويحلي » وبعد مدة تلقينا من كل منهما جوابه على ذلك .

جـواب السعـداوي يقـول : « ... نحـن من ايـام مـاضية على اتصال مستمر بامبراطور الحبشة بالطرق الـرسمية في هـذا المـوضوع ولا زلنـا منتظـرين جوابـه وسوف نعلمكم بما يتـم في الامـر حينما نتلقى جـوابـه باذن اللـه .. ؟

جـواب احمـد السويحلي يقول : « ... لا وجـود للثـورة التي تسألـون عنها وكيف يمكن ان تكون ثورة في الجغبوب وهي في ربع الدنيا الخالي » هكـذا حسب تعبيـره بالضبط .

السعـداوي والمريـض

مساعى فرنسا لمعرفة دخيلتنا

ففي اوائل سنة ١٩٣٧ م اصبحت الظروف الدولية دقيقة وتتسم بالخطورة . فلقد أخذت التحضيرات وتبادل الزيارات تجري بطريقة متواصلة ، ومفاهمات اكثرها كانت سرية ، وبالجملة فهي في حالة جاهمة وعلى غاية من الغموض بالنسبة لنا ، الامر الذي جعلنا نفكر ليلا نهارا في موقف فرنسا نحونا ، فنحن نرى بوضوح مساعيها لاجتذاب ايطاليا الى صف الحلفاء ، ونرى من جهة اخرى موقف هذه الاخيرة وتلميحاتها . ومن هنا صار تفكيرنا مضطربا وتكهناتنا غير مستقرة ، لاننا نرى ان موقف فرنسا نحونا لم يكن ثابتا وانما هو يتأثر بموقف ايطاليا تجاه الحلفاء ، وهذا ما بعث في نفوس اكثر الاخوان موجة عنيفة من التهيب والقلق والتشاؤم .

أجل لقد ساد الاخوان جو من التردد وحجتهم هي : ما دام موقف ايطاليا غير واضح لا ينبغي لنا ان نندفع في الظهور ذلك لان الدول تجري وراء مصالحها وتحقيق مطامعها ، وان عداواتها سريعة الزوال فهي كسحابة الصيف تنتهي بمجرد الحصول على المصلحة ، ومن يدري ففي هذا الجو المفعم بخطر حوادث رهيبة آتية تتوفق فرنسا في ترضية ايطاليا بطريقة او باخرى فتصبح هذه بين عشية وضحاها في صف الحلفاء .

هـذا كان مـوقف الاكثريـة الساحقة من الاخـوان . امـا انا شخصيا فبرغم اعتباراتي لظـروف تـونس وللـوضع القـوي الذي تتمتع بـه ايطاليـا في تـونس ، وبالرغـم عما يتراءى في الجـو السياسي الفـرنسي من الميـول لايطـاليا والاغـراق في مجاملتها ، رغـم ذلك كلـه فقد كان يخالجني شيء من الاطمئنـان للمستقبل لاعتقـادي ان ذلك المـوقف وتلك المجاملـة لن تسفر عن اية نتيجة بناء على مـا اعرفه من نفور ايطاليـا من حلفائها السابقين ، يؤكـد ذلك ما كنت اسمعـه من شخصيـات ايطاليـة في تـونس ، ومـن اولئك الايطاليين المتزعمين لمـؤسساتهم الشعبيـة التي يسمونها «دوبولافورا» .

ومن هذا وغيره يبدو لي ان حلـم فـرنسا في امكانية جـذب ايطاليا الى صف الحلفـاء بعيـد جـدا جـدا ، وان ايطاليا منحـازة الى المحـور حتمـا . لان المـاضي تـرك في نفس « مـوسوليني » اثـرا سيئـا فصار حانقا ساخطا على حلفـاء بـلاده في الحـرب العالميـة الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م لاعتقـاده أن بـلاده قد غبنت وظلمت ، وبصورة خـاصة في اقتسام الغنائم الناتجـة عن هـزيمة « تركيـا والمـانيـا والنمسا » وبالاخص المستعمرات التي كـان يسيل لعـاب ايطاليا لمجـرد ذكـرها وهي الـدولة التي تفتش باستمرار علـى المتسع الحيـوي لشعبهـا الـذي ضاقت بـه ارضـه .

وعلى كل فنتيجـة لهـذا كله سوف تاتي المناسبة المنتظرة التي يقف فيهـا زعيم ايطاليا العظيـم خطيبا فينسف آمـال الفرنسيين تلك بكلمـة منه يبعثها من شرفة قصر البندقية وهو يسبح في خياله الخصب يستدرجـه طموحه الجامع فيتخيل نفسـه مخترقا شوارع تـونس الخضراء معلنـا للمـلايين « بـزوغ الشمس الجديـدة على منطقـة اثـار الرومـان » (١) وذلك بقيام امبراطورية ايطالية على انقاض فرنسا . ومنها يجمح به الخيال فيرى نفسـه طائرا من تونس الى حدود مصر الغربية عبـر ليبيا ليجد (في طريقه) الحصان الابيض ممسكا باعنته السيد : « ... » الذي عينتـه ايطاليا ليكـون حاكما لمصـر باسـم الدوتشي .

---

(١) في تاريخ لا اتذكره جاءت فرقة ايطالية تمثيلية الى تونس وفي نهاية الرواية خطب احد افرادها قائلا : « فوق خرابات قـرطاج التي لا تزال بها آثـار الرومان بادية ربما بزغت عليكم شمس جديدة ، موجها كلامه للايطاليين ، هذا حسب الجرائد التونسية التي ترجمته .

ومن هناك يتقدم الزعيم الايطالي يحذو ركابه الحاكم المذكور - الى القاهرة ليقف على ضفاف النيل ويعلن قيام الامبراطورية الرومانية على انقاض خلفاء الامس ، مبشرا المصريين بالحاكم المسلم الجديد منوها بمقدرته واخلاصه (للدوتشي) . ولكن شاءت الاقدار ما لم يشأ الزعيم الفاشي فلقد ذهب هو ضحية الغرور والتهور الى الابد ، وانكمشت ايطاليا ، بل تقهقرت الى الوراء بدلا من التقدم ، بعد ما خسرت الكثير والكثير جدا ، كما ذهبت امال ذلك الحاكم الذي عاد اليوم ، وادعى الوطنية ، بل الوطنية المتطرفة ، وحتى القومية الاوسع « شفويا » وليس لي أمام هذا التطور المفضوح الا ان أقول : تبا وبعدا وسحقا للوطنية التي تخضع للاحداث وتضعف للاغراءات وتتوارى لمصلحة الاقارب والاصدقاء .

وهكذا فلقد ذهبت كل تلك الظروف وتبخرت تلك الامال العريضة لهذا وذاك تاركة في مخلفاتها التاريخية ذكريات كريهة للطرفين ، ولم يبق منها اليوم شيء ملموس بين ايدينا الا مرسوم تعيين ذلك الحاكم المشار اليه آنفا عميل الفاشية بالامس - وحامل لواء الوطنية او مدعيها اليوم . لم يبق بين ايدينا الا صورة من المرسوم المذكور يذكرنا بتلك الظروف السوداء كل ما تصفحناه محتفظين به كوثيقة تاريخية لا نظير لها . وقد ياتي يوم ان شاء الله ينشر فيه للناس ذلك المنشور كموعظة للاجيال المقبلة ليس الا .

والى هنا نعود الى القول : ففي هذا الجو الخانق ، وهذه الدوامة في التفكير ، تحرك مكتب الشؤون الاهلية الفرنسي بتونس ، وكان مقره اذ ذاك « نهج الجزيرة (Bureau des Affaires Indigènes) وأخذ يرسل لنا باعوانه وبطريقة تنكرية . وقد كانت كل الرسل من العرب ، ولقد اتضح لي فيما بعد أن السلطات العسكرية الفرنسية تهدف من وراء ذلك الى معرفة دخيلة افكارنا وما يدور فيها لكي تتأكد من سلامة موقفنا وحقيقة نوايانا . لان اقتسام البلاد بينها وبين بريطانيا جعلها

حـذرة من جهتنـا . اذ ربما تكون لنا اتصالات بجهـة او جهات ما . غيرهـا هـي .

ولقد كانت تلك الـرسل التي توالى تواردها مـدة من الـزمن تتكون مـن : بيض ـ وسود ـ وبـدو ـ وحضر ـ ودائما من شخص واحـد ، ولما كـانت هـذه الرسل كلها تسعـى لامـر واحـد فان محادثاتها كانت تدور في حلقـة واحـدة ، اجـل تتغيـر بعض الالفـاظ ولكن المعنى واحـد والهـدف واحـد ، الامـر الذي جعلني ادرك القصد من تـوارد هذه الـوفود ، ولكن الامر الذي حيـرني أول الامـر هـو كيف ينبغـي أن يكون الجـواب في ظروف غامضة كما تقدم . ولـما كانت هذه الرسل تضرب على وتيـزة واحـدة فانني اكتفـي بذكـر ما دار بيني وبيـن احـد هذه الوفـود . وعليه يقاس ما لم يذكـر .

ففي يـوم من أيـام شهـر فبرايـر ١٩٣٧ م بينمـا كنت فـي منـزلي « بالكـرم » اذ برجـل غـريب في آخـر ايـام الكهولـة على ما يبـدو لـي كما انـه يتضح من لهجتـه وملامحـه وزيـه انه من سكان الجنوب التونسي . جـاءني به رجـل من سكان المكان اعرفه ويعـرفني ، فحيـاني ذلك الضيف ورددت التحيـة باحسن منها ، ثـم انصرف الرجـل الذي جـاءني به الى شانه فدعـوت الضيف الى الجلـوس وبعـد راحـة قليلـة تناولنا طعـام الغـداء وفي فتـرة الشاهـي سألت ضيفـي عـن حـاجتـه .

وبـدأ الكـلام بتقديـم نفسه قائـلا : انه طـرابلسي ، وقبل أن يواصل كلامـه ابتدرته بقولي : مرحّبـا بك واهـلا وسهلا ، فمن اي قبيلة الاخ .. ؟ فقـال : انـه من « وازن » ووازن هـذه كما هـو معـروف لدى الجميع قريـة تقـع في الحـد الفاصل بين ليبيـا وتـونس الى الغـرب مـن نالوت بحوالي ستين كيلومتـرا ، ولقد تبادر لي من اول وهلـة ان الرجـل قد يكون تـونسيا ولعلـه من قريـة « ذهيبـة » التـونسية وقد انتسب الى « وازن » قصدا ، لان سكان هاتيـن القريتين المتجاورتين لا يختلفـون عن بعضهم لا في اللهجة ولا في الـزي ، وعلى كل فقـد اسررت ذلك في نفسي ولم اجـادله في نسبه

تسليمـا بالمثـل القائـل : الناس أمنـاء في ثـلاث : اعمـارهم - واموالهم - وانسابهـم . ثـم بـدأ الحـديث بيننـا :

قلـت : تفضل يا اخ هـل لك حـاجـة .. ؟

فقـال : انـه مرسل من طـرف مجموعـة من اخـوانه الطـرابلسيين بدافع من هـذه الظـروف التي تنـذر بالحـرب للاتصال بالسيد أحمـد زارم لكـي يـرشدهم الى المـوقف الذي ينبغـي لهم ان يقفـوه .

قلت : ان مـوقفنا واضح ولا يحتـاج الى شرح .

فقـال : وكيف ذلـك .. ؟

قلت : اننا ضـد عـدونا الذي احتـل بلادنا وشرد شعبنا واستولى علـى ارزاقنـا .

فقـال : نعـم هذا كلام صحيح ومعـروف ولكن الذي نريد معرفته هـو : من اين السلاح ومن اين سيأتي الينـا .. ؟

قلـت : السلاح لـم يحـن وقتـه بعـد .

فقـال : الامـر كما تفضلت ، ولكن لا بـد لنا من دولة نعتمـد عليها فهـل اتفقتـم مع أي جهـة حتى نطمئـن لامـدادنا بما يلـزم عند الحاجـة ، ونتمنى ان نعـرف ذلـك .. ؟

قلت : اسمع يا أخا العـرب : عند ما يحيـن الـوقت سوف تسعـى الينا الدولـة نفسها وتسلـم لنا كـل ما يلـزم وعليه فلننتظـر حتى يحيـن وعنـدها تعرفـون كل شيء ان شاء اللـه . ولا تنسى (انـه مـن طلب الشيء قبـل اوانـه عـوقب بحرمـانـه) .

وهكذا فلقـد حـاولت تلك الـرسل بطرق مختلفة وعبارات متباينة واحاديث ملتويـة ، حاولت ان تعـرف ما كلفت باكتشافـه ، وذلك هـو جـوابي لجميع الـوفود ، وبعـد مواجهـة هـذه الـرسل التي امتـد تواردها مدة طويلـة . ابتدأ (مكتب الشؤون الاهليـة) المتقدم ذكـره الاتصال المباشر بنا خـارج

المكـاتب ، وانما في أماكـن مختلفة بعيـدة عن الدوائـر الحكوميـة . ولقد تـواصل هـذا الاتصال بمختلف ضباط هـذا المكتب مـدة طـويلـة ايضا وكلهم من الفرنسيين ، ولا زلت اتذكـر بعض الاسمـاء منهم : كمثل : لوفيفر ــ لفدان ــ ميكار ــ أوجي ــ بوري ــ وغير هؤلاء كثيرون الا انـني نسيت اسماءهم لطـول المـدة .

ولقـد كانت لقـاءاتنا مع الضباط على جـانب كبير من الجديـة والحـذر والاحتـرام من الجميع الا هـذا الاخيـر « بـوري » فهـو رجـل متعصـب استعمـاري رديء الاخـلاق متعجـرف ضيق الصدر فلقـد حصلت مناسبـة اجتمع فيها بالاخـوان : محمد عبـاس ـ المبروك الغرياني ـ رمضان حسن بن طـالب ـ محمد أحمـد عريقيب .. وشخص آخـر نسيته مـن هـو ، وبسبـب تصرفات هـذا الضابط الارعـن حصلت مشادة بينه وبين الاخـوان المذكورين كـادت ان تؤدي بنـا الى مـأزق خطيـر في تلك الظروف الاخطر لولا الطاف اللـه .

وفي غمـرة هذه الاتصالات السرية اتذكـر انه في شهر مايو سنة ١٩٣٧ م ارسل لي مكتب الشؤون الاهليـة رسولا ليقول لي انك على موعـد مع ضابطين اثنين على ان يكون اللقـاء في حـديقة « بلفيديـر » وذلك في الساعة الرابعة بعـد الظهـر من يـوم ،،، واحـرص على الحضور في الـوقت المعين بالتدقيق وسوف تجد الضابطين واقفين حـذو مدخل الحديقـة من جهة الميـدان وهما برتبـة « كبتـان » ينتظرانك ويتحادثـان مع بعضهما وحينما يريانـك يرفـع احـدهما يـده الى الاعلـى كانه يشير الى صاحبه الـى شيء مـا . فاقصـدهمـا .

وحـديقـة « بلفيديـر » هذه تقـع في مكان مرتفـع نوعا مـا ، الى الشمال الشرقـي من مـدينة تـونس ، وهي منطقـة شاسعة تتصل بالمبـاني الحديثة من عـاصمة تـونس ، تكسو هـذه المنطقة غابـات من الاشجار الباسقة مختلفة الالـوان متشابكـة الاغصان تتخللها طـرق ملتويـة . وضعت في ارجـائهـا مقاعـد متنـاثـرة هنا وهناك على حافـة الطرقات تتدلى عليهـا اغصان تلـك

الاشجــار فتبسط عليها ظـلا وارفـا يقي الجـالس حـرارة الشمس ، وبمـا انها منطقــة سياحيــة جميلــة يكثــر فيها المتنزهــون من مختلف الاجنــاس والالــوان .

قلت حـدد لي الزمـان والمكـان ، وقـد حضرت في المكان والوقت المحددين بالضبط والتقيت بالضابطين ، ولم اعـرفهما من قبـل ، ولم أتمكن من معرفة اسميهما ، ذلك لانهما قدمـا لي نفسيهما بلهجة فرنسية باريسية عميقة ادغمت الحـروف في بعضها وبسرعــة ، ولا ادري هـل كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد ، وبعـد التحيــة وجولــة قصيرة داخـل الحـديقة وسط تلك الاشجـار الباسقــة انتحينا ناحيــة في زاويــة يقـل فيها مرور الناس نوعـا مـا .

جلسنا ثلاثتنا على مقعـد طويـل تحت شجـرة ذات افنان متدلية على ذلك المقعـد وما حولـه ، وبينما نحـن نتبادل الكلام فيما التقينا من اجلـه اذ مـر من امامنـا شاب عـربي طويـل القامـة معتدل الجسم جميل المنظر انيق الملبس في حـوالي الثلاثين من العمـر فنظـر الينا نظرة يبدو عليها شيء من الاهتمام ومحاولــة التعـرف ، ولكن دون ان يتوقف ، وبعـد ان ابتعـد عناقليلا سالني احـد الضباط قائـلا هـل تعـرف هـذا الشخص .. ؟ قلت أجـل اعـرفـه معرفــة سطحية ، وليس بالاسم وهو من سكـان (المـرسى) فظهـر عليهما الامتعـاض وامتقع لـونهما ونظـر احـدهما للآخـر وقـال لـه بالفـرنسية : (ca y est nous sommes remarqués) ومعنــى هــذه الجملــة بالعــــربية تقريبـا : « كفـى فقـد اكتشفنـا » .

وذلك لانهما يعلمـان جيـدا ان ايطاليـا لم تكن بغافلــة عـن مثـل هـذه الحركات وغيرها والحالــة الدوليــة بالغــة حـدا من التوتـر والخطورة ، وهي أي : ايطاليــا عازمــة على الانقضاض على الحلفاء في شخص فرنسا والوقوف بجـانب المحـور ، وجاليتها في تـونس كبيرة جـدا لا يخلـو منها مكان لا في البوادي ولا في الحـواضر ، كما ان لها من العمـلاء عـددا غيـر قليـل مـن الايطاليين وغيرهم يعملون لحسابها ، وهـي تبـذل الامـوال بسخـاء فـي هـذا السبيـل .

مؤامـــرة ايطاليـــة

في اواخـر سنة ١٩٣٧ م على حين غفلـة وبدون سابق اتصال ولا مقدمات جـاءني شاب ليبي هـو من جماعتي مـرسل من طرف شخص ايطالي ، وهـذا الشاب اصبح اليوم في آخـر ايـام الكهولـة مشرفا على الشيخوخـة ولا يزال حيـا يـرزق ، ومن سكان طـرابلس في الحـال ، هـذا الشاب كان قد درس في مـدرسة ايطاليـة كانت قائمـة في المنطقـة التي يسكنها هـو وانـا .

جـاءني هـذا الشاب مرسلا من طـرف الشخص الايطالي كما اشرت آنفـا وهـذا الايطـالي يدعى « روسو » وروسو هذا حسبما قيـل لي انـه برتبـة قنصل في السفـارة الايطاليـة بتونس . جـاءني هذا الشاب يحمـل بشرى « على حـد تفكيـري حينذاك » . وهـذه البشرى هي انـه قـال لي : انني كلفت من طرف « السنيور روسو » باسم السفـارة الايطاليـة بان أبلغـك ان هـذه السفـارة تطلب منك الاتصال بها في اقـرب وقت ممكن لتنظر فيما انتم تطالبـون بـه لكي تسوي معكـم المشاكـل نظـرا الـى أن الحالـة اصبحت تفـرض عليها حسم المشاكـل الجـانبيـة لكي تستعـد لمـواجهـة المستقبـل المنتظـر . والذي يحمـل في طياتـه مشاكل ضخمـة وخطيـرة . هذه الدعوى هي التي اعتبرتها انا بشرى فعـلا وسررت بها لاسباب ثلاثة هي :

١ ـ لانني فهمت من هـذا ان ايطاليا ستكون ضد فرنسا حتما . اذ لـو كانت في جـانبها لاعتمدتها ، وهي تكفيها مـؤونة القضـاء علـى حـركتنـا .

٢ ـ ليس بالقليل ان تـرضخ ايطاليا على طريق حـركتنا ، وان نتحصـل منها على حقوق لم يتمكن من الحصول عليها الذين كانوا من قبلنـا رغم تضحياتهم الضخمة في الانفس والامـوال نسبيـا .

٣ ـ استنتجت منها قـوة حـركتنا ومـدى تاثيرها على اعـدائنا الامـر الذي جعلهم يطلبون التفاهم معنا ليتفرغوا لمواجهة ظروفهم الآتية .

لهـذه الاسباب الثلاثة اعتبرت استدعاء السفـارة الايطالية بشرى وقبلت الدعـوى مغتبطـا ، وراح الشاب المذكـور الى مـرسله ليبلغـه المـوافقـة . وعند ما وصلتها المـوافقة حـددت موعـد الاجتماع ومكانه ، فمكان الاجتمـاع هـو السفارة الايطاليـة نفسها ، ومع ذلك لم يخالجني ادنى شك في سلامـة المـوقف ، وما كان يـدور بخلـدي ابـدا ان العمليـة كلها كانت تدور حـول مخاتلة لتنفيـذ مؤامـرة دنيئـة !!

وفي اليوم المحـدد ركبت « التـرام » من محطة « الكـرم » وحالمـا وقفت داخلـه جلت بنظـري في اركان العربـة ، واذا انا برجـل من عظماء التونسيين من سكان المـرسى فيما اظـن يلـوح الي بيـده ان اقدم حـذوي ، انتقلت مـن مكـاني وجلست بجـانبـه ، ومـرت عشرون دقيقـة هي كل الـوقت الـذي يستغرقـه « التـرام » من « الكـرم » الى تـونس . مرت في احاديث عادية ، وصل القطـار الى تونس ونزلنا منه ليأخذ كل منـا وجهته . ولمـا مددت يـدي لاودعـه قـال لي انـا في حاجـة اليك وقـد ارسلت رجـلا يفتش عنك ، وهـذه صدفـة حسنة تعـال معـي لي حاجـة اكيـدة معـك . فقلت لـه انا على موعـد اكيـد لا يمكنني التخلف عنه ، وعند الانتهاء سوف اتيك بسرعـة ان شـاء اللـه .

فسألني ما هـو موعـدك ومع مـن .. ؟ فترددت في الجـواب .. ولكـن

الرجل الح علي حتى احرجني فاضطررت ان افشي له سر الموضوع فنظر الي نظرة غير عادية وقال : تعال معي واترك هذا الموعد لوقت آخر .

وهنا اخذتني دهشة كيف أترك موعدا محددا مع جهة رسمية ، وفي مهمة وطنية عظيمة ، ومن جهة أخرى كيف يمكن لي ايضا رفض طلب رجل ليس بالرجل العادي . وانا اعرف هذا الرجل جيدا واعرف مواقفه ونواياه ومدى اطلاعه على احوال البلاد .

وبدافع من الحيرة والقلق سألته بلهفة ماذا في الامر يا استاذ .. ؟

فاجابني بقوله تعال معي وحينما نصل المكتب سوف اخبرك بما ليس لك به علم ...

وعلى كل فلم يسعني الا ان تركت الموعد وذهبت معه وانا في حالة نفسية من شدة القلق ، موعد رسمي تركته ، وكلام غامض سمعته من شخصية سياسية تعرف كل ما يدور في البلاد ، امران محيران فعلا . وصلنا الى مكتبه ، وبعد الجلوس قليلا سألني كيف بدأ موعدك هذا فاعدت له ما وقع .

فابتسم الرجل وقال لي ان موعدك هذا مؤامرة مدبرة في الخفاء للقبض عليك داخل السفارة الايطالية .

قلت له : انني قد اعلمت بعض الاخوان بالامر احتياطا وهم سينتظرون خروجي قرب السفارة .

قال : الا تدري ان مبنى السفارة قطعة من ارض ايطاليا فاذا دخلت هناك فلا يستطيع اخوانك ولا نستطيع نحن انقاذك حتى مع علمنا بوجودك هناك ...

ومع ذلك فاننا كما تعرف مغلوبون على امرنا وانتم مشردون فاية مقدرة لنا .. ؟ وهل تظن ان الفرنسيين يهمهم امرك فعلا .. ؟ وهم يفتشون عن رضا ايطاليا بأي ثمن ، وبأي وسيلة ... ولقد اندهشت لهذا الامر الذي كنت جاهله تماما واستغربته في نفسي .

فسالت الرجـل : لا تؤاخـذني يا استاذ عن هذا التجـاوز ... بالله عليك من انبـاك بهـذا .. ؟ فقـال : هذا امـر اكيـد لا شك فيه من مصدر عليـم من داخـل السفـارة نفسها . ولا تسال عن الاسم . فبالامس وصلنا ما دار بشانك ... فقلت عجبا ! كيف يحصل هـذا والشاب المـرسل هو مواطني ولي فيه ثقـة ، بـل هناك قرابـة بيني وبينه وفـوق هـذا وذاك فاني لا اشك فـي اخـلاصـه .

فقـال : الشاب مكلف من الخـارج ولا يعلـم بما دار داخـل السفارة وقد يكون الشاب على حسن نيـة وليس هـذا بالامـر الغـريب لانها امور سريـة جـدا .

وهكذا فلقد انقـذني من هـذا المـازق المرحوم الاستاذ « محمد محـي الدين القليبـي » رحمـه الله وجـزاه خير الجزاء انه على ما يشاء قديـر .

خـرجت من مكتب المرحـوم الاستاذ محي الدين عائـدا ادراجي الى « الكرم » وقـد تركت الموعـد بعـد مـا عـرفت سرا خطيـرا في المـوضوع ، لم اكـن اتصوره من قبـل ، وبـدا التفكيـر يدور حـول ما اذا اعيـدت الدعـوة ماذا سافعـل .. ؟ الرفض .. ؟ ام مـاذا .. ؟ واذا سالـوني عن سبب عدم الحضور في الموعـد المحـدد ما هـو العـذر المعقول الذي ينبغي لي ان اتـذرع به عـن هـذا التخلـف .. ؟ هذه الاشياء شغلت فكـري وانا في عـودتي الى منـزلي واصبحت في دوامـة من التفكيـر الحائـر ...

هذه هي كانت حـالتي النفسية في ذلك اليوم كلـه . وهذا ما كان يشغل بـالي ، ومن الغـد وفي الساعـة الخامسة بعد الظهـر جـاءني الشاب ، وبعد ان القى التحيـة قـال لي : ان السفـارة استغربت تخلفك عـن الحضور ولـم تعلمهم او تطلب تغييـر المـوعـد ...

فقلت لـه : انني آسف جـدا لهـذا التخلف الذي فـرضته ظروف قاهـرة . ولم اتمكن من اشعارهم بذلك ، وعلى كل فانا لا زلت على استعداد ، والشيء

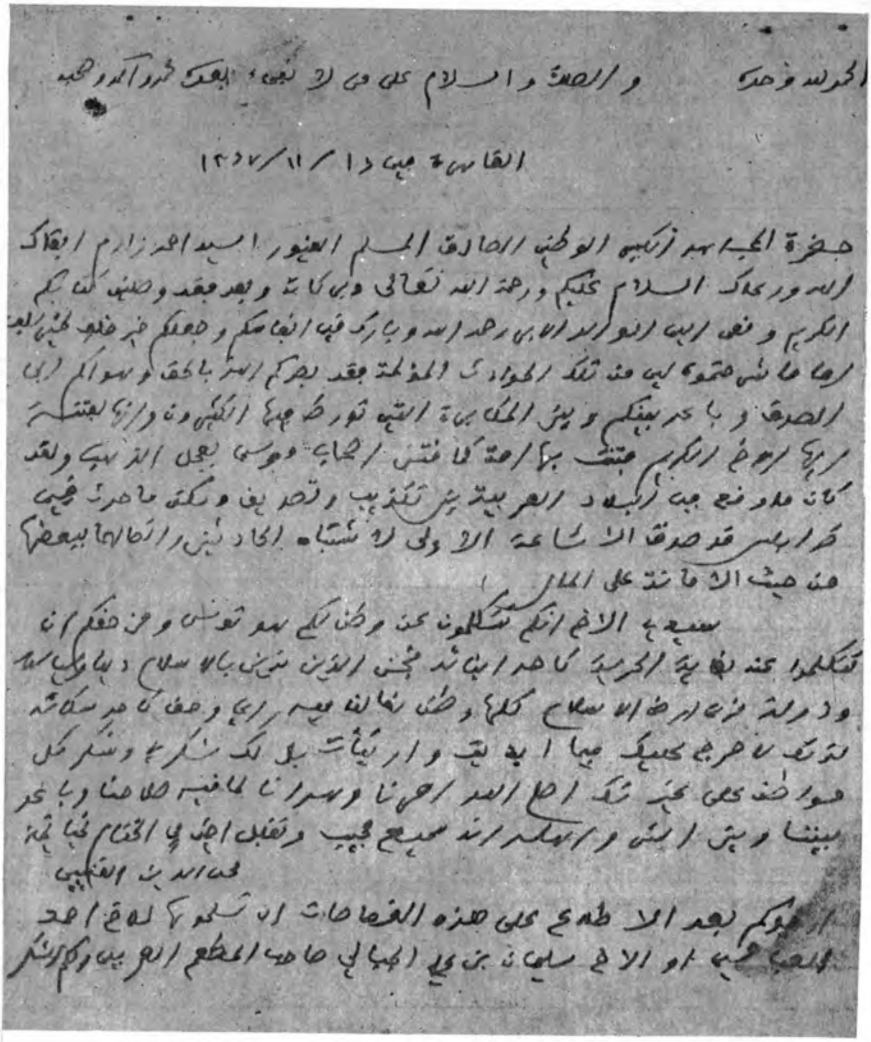

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيء بعده محمد وآله وصحبه

القاهرة في ١٥ / ١١ / ١٣٦٧

حضرة الحبيب الهمام الزعيم الوطني الصادق المسلم الغيور السيد احمد زارم ابقاك الله ورعاك السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم وفيه اسم الولد الذي رحمه الله وبارك في ابنائكم وجعلكم خير خلف لخير السلف رجال ما نشتهي حقيقة بين هذه تلك الحوادث المؤلمة فقد بصركم الله بالحق وهداكم الى الصدق وباعد بينكم وبين المكر بجاه النبي تورط فيها الكثيرون وإنا لنعتز بهذه الروح الكريمة فتلك بمثابة كما قيل الحجاب وهو سيظهر الذهب ولقد كان هناك نفع من أجل البلاد العربية من تكذيب وتحريف وتلفيق ما حدث بحيث صدرت شائعة الأولى لاستياء الحادثين وانتهائها ببعضها من حيث الاشاعة على المال

صحيح يا أخي أنكم تتكلمون عن وطنكم لأنكم تونسيون ومن حقكم أن تتكلموا عنه نهاية الحرية كما هو الشأن مع الذين يدينون بالاسلام دينا ولكن ودولة من ارض الاسلام كلها وطن لنا لا نفرط في شبر منه وهو كما هو شأنه لتونس لا حرج عليك فيها أبدا وارتاحت نفسي بل لك شكري وشكر كل مسلم غيور على شرف أمته أرجو الله أن يحقق آمالنا وأمانينا وأن يجمع بيننا وبين الأمل والسلام وهو سميع مجيب وتقبل أخلص تحياتي أخوكم

محي الدين القليبي

إن يهمكم بعد الاطلاع على هذه القصاصات أن تسلموها للأخ أحمد ... أو الأخ سليمان بن يحيى الجبالي صاحب المطبعة العربية ولكم الشكر

رسالـــة محيي الديــن القليـبي

الـوحيد الذي اطلبه منهم هـو تغيير مكان الاجتماع على ان يكون في محـل عمومـي بـدلا مـن السفـارة .

ابلـغ الشاب طلبي هـذا وجـاءني في اليوم التالي بما يلي : قـل لاحمـد زارم كنا نريـد ان نقول له : ان الحكومـة الايطاليـة مستعـدة لنقلـه الـى طـرابلس بعائلته على حسابها وهناك يعطى وظيفة محترمـة ونعتبـره مـن اعيـان البـلاد . اعـاد لي الشاب هـذا الكلام ، فكان جـوابي عليه ما يلي :

كنت أظـن ان السفـارة الايطالية تعتبرني رجـلا وطنيا يعني ما يقول ، ولست من اولئك الذين يتصيدون في المـاء العكـر . وانها تـدرك ان مطالبنـا وطنيـة عامـة . وليست شخصية خـاصة فاذا بها تنزل بنا الى هذا الاسفاف من القـول . كما انها تعلـم اننا هيئـة سياسية وطنيـة ذات مبـادىء ونظام وفـروع وان أحمـد زارم كشخص وحـده لا يعني شيئا في المـوضوع ومـع ذلك فانا لست في حاجـة الى ايـة وظيفة كما وانني لست راغبـا في العودة الى البـلاد والحالـة على ما هـي عليـه .

فالذي يهمنا في الدرجـة الاولى ولا يقبل المساومـة هـو ان بلادنا في حاجة الى حقـوق حيويـة ناضل شعبنا في سبيلها عشرين عامـا . وايطاليا مـن اعـرف النـاس بذلك فلا يمكن التنازل عنها باي ثمـن فاذا انصاعت ايطاليـا لهـذه الحقـوق وعملت على تنفيـذها بجـد واخـلاص فسوف يعـود جميع الذين هم بالخـارج ويبـداون التعاون معها باخـلاص كدولة صديقة وعادلـة وتكون لها الاولويـة في جميع المصالح وننتهي من هذه المشاكـل لكي نتجـه جميعـا الى العمـل وتعميـر البـلاد لصالح الجميـع .

ذهب الشاب وابلغهم هـذا الكلام الذي يبدو انهم لم يهضموه ، اذ يؤخـذ من لهجـة الـرد انهم قد استشاطوا غضبا ، حيث قالـوا له ان يبلغني ما يلي : قـل لاحمـد زارم حيث انه رفض تكرم الدولة عليه فسوف يكون سائـرا في يـوم من الايـام في احـد شوارع المـدينة فيتلقى ضربة قـاضية لا يعرف مصدرهـا ، وهو يتذكـر جيـدا اننا استطعنا ان نقضي على احـد الايطاليين

من معارضينا قضاء ابديا في داخل مكتبه وفي وسط تونس العاصمة » (يعنون بقولهـم هذا سكرتير جمعية ، لانتي فـاشيستا » الذي اغتالوه وسبق ان ذكرنا حـادثته) ايظن احمـد زارم اننا نعجـز عن اسكات عـربي مثلـه ، فليفكـر كثيرا قبـل فـوات الـوقت ، وبابنا دائمـا مفتـوح له ولامثالـه .

جـاءني الشاب يسعى من جديد وعلائم التأثـر بادية عليه ، وقبل ان يبدأ هـو في كلامـه بادرتـه بقولي : هـل من جديد اليوم يا « ... » .. ؟ فقـال بسرعـة نعـم جـديـد ولكن « نبح السلوقي اغـلاظ » .

قلت ليس هناك شيء اكثـر مـن المـوت ...

فقـال : هـو ذاك ، واعـاد لي الحكاية من اولها الى اخـرها كمـا امليت عليه بالضبط حسب قولـه . الا انه أردف التبليغ بكلمة من عنده ـ فقـال لي : (انقولك الحق هم راهم اليوم يتعاركوا وغـدوه يصالحوا وايولوا لبعضهم) .

وهنا لم اجـد جـوابا على تهديدهم هذا الا هـذه الكلمـات : قـل لهـم يـا « ... » المسلم يعتقد انـه لا موت الا بالاجـل . وسيموت الانسان بما كتب لـه من عند اللـه ، وهذه عقيدة دينية راسخة عند كل مسلـم يؤمـن باللـه ورسولـه حقـا وصدقـا لا يتزعـزع .

ولـذا فأنا افـوض امـري الى اللـه ان الله بصير بالعبـاد ، هـذا مـا ارجـوك ان تبلغـه لهم بدون زيـادة ولا نقصان ، وكفاني هذا جـوابا لهـم ، والامـر للـه من قبـل ومن بعـد .

نداء وبيان

الى الجالية الطرابلسية البرقاوية بتونس والجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين

يا ايها المهاجرون الطرابلسيون البرقاويون انكم تعلمون بان الله جلت قدرته وتعالت حكمته خلق الانسان وعلمه ما لم يعلم وجعل لكل امة سكنا من الارض تتوطنه وفطر الامم على حبه والدفاع عنه ورد كل عادية تروم به شرا ونحن معشر الطرابلسيين البرقاويين ابتلينا في وطننا بالاستعمار الايطالي الفاشيستي وتوليه التصرف في امورنا تصرفا مطلقا وفي جميع حقوقنا فاحرمنا حق الحياة الطبيعية فضلا عن التمتع بنعمة [illegible] [illegible] اللذين يرون من انواع القساوة والتوحش الذي لم يحفظ لنا التاريخ مثلهما ومن اجل ذلك اصبح ربع مليون من مواطنينا يجوبون الارض فلا تجد قطرا من افريقيا وآسيا وحتى اوربا تقريبا خاليا من مواطنينا فرارا من الظلم الفاشيستي وكل هذا لم يشف غليل الفاشيست فاصدر طاغيتهم امرا اخيرا بالحاق بلادنا الحاقا ابديا فاصبحت على زعمهم في الحاضر قطعة من التراب الايطالي وصارت ارضنا عبارة عن ثكنة عسكرية تموج الجنود الايطالية من شرقها الى غربها كما صار جميع سكانها ووسائل النقل فيها من المصنوعات الى المخلوقات ملكا للحكومة عند الحاجة بدون مقابل ولا قيد ولا شرط طبقا للقانون الذي اصدرته ايطاليا وهو [illegible] منذ سنوات [illegible] ولا يزال نصه محفوظا . لقد تولى على بلادنا اربعة عشر واليا وكل واحد منهم اشر من سلفه وكل واحد منهم يبرز هاته الاعمال

المؤدية للقضاء المبرم على شعبنا حيث الهدف الذي يرمي اليه الفاشيست هو افناء العنصر المتشبع بالعقيدة الاسلامية من وطننا وتنصير البقية الباقية وقد بدأوا الآن في طبع النشء على الطابع الفاشيستي الايطالي فكل هاته الاعمال ايها المهاجرون جرت وطنكم الى شفير هاوية الموت فماذا انتم فاعلون وفي انقاذ وطنكم على من معولون يا رجال الوطن الاشداء يا من اخرجتكم من دياركم نخوة العز والاباء لا ينسيكم في اخوانكم البعد ولا يقعدكم عن خدمة اوطانكم الوهم والخيال فان الوهم قتال والحياة كلها كد ونضال فالعيش حرام علينا والحزن مخيم بين اهالينا ما دامت حقوقنا مغصوبة وحريتنا مسلوبة وشرفنا مهان واملاكنا منهوبة تختطفها [illegible] الظلم والعدوان فكروا ايها المهاجرون في مصير شعبكم الذي ذهب كثير من ابنائه في جحيم اسبانيا وتلال الحبشة وهاهو الفاشيست الايطالي يتحفز بالبقية الباقية من اخوانكم للاغارة على تونس ومصر العربيتين المسلمتين لينفيهم ويفني بهم فهل نقف من هذه الاعمال موقف الخائف المضطرب موقف المغشى عليه من الموت ولا نحرك ساكنا بعد ما برهنا للعالم انا رجال الحرب وفرسان الكر والضرب فيا ايها الاخوان الاعزاء ورجال الجهاد الاشداء لقد توفقت نخبة من اخوانكم منذ سنوات لتاسيس هيئة متفرعة «جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بالشام» في هاته الجهات لتقوم بالواجب المفروض عليها نحو الوطن العزيز فعملت ما سمحت لها الظروف به مسايرة في ذلك سير الظروف واليوم فقد آن [illegible] بان تظهر نشاطها وتضاعف جهودها فقد [illegible] هيئتها فتركبت هاته الهيئة من عشرين شخصا [illegible]

نـداء وبيـان للجاليـة الطرابلسيـة البرقاويـة

نــــداء وبيـــــان

الى الجاليــة الطرابلسيــة البرقاويــة بتــونس والجزائــــر

بسم الله الرحمان الرحيم وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبــه اجمعين

يا ايها المهاجرون الطرابلسيون البرقاويون انكم تعلمون : ان الله جلت قدرته وتعالت حكمته خلق الانسان وعلمه ما لم يعلم وجعل لكل امة سكنا من الارض تتوطنــه وفطر الامم عـلى حـبه والدفاع عنه ورد كل عادية تروم به شرا ونحن معشر الطرابلسيين البرقاويين ابتلينــا في وطننا بالاستعمار الايطالي الفاشيستي وتوليه التصرف في امورنا تصرفـا مطلقـا وفي جميع حقوقنــا فاحرمنا حق الحياة الطبيعية فضلا عن التمتع بنعمة الحرية . فعمل السف والمشنقة في رجالنا . وفعل فينا ما خفي عن جده نيرون من انواع القساوة والتوحش اللذين لم يحك لنا التاريخ مثلهما. ومن اجل ذلك اصبح ربع مليون من مواطنينا يجوبون الارض . فلا تجد قطرا من افريقيا وآسيا وحتى اوروبا تقريبا خاليا من مواطنينا فرارا من الظلم الفاشيستي . وكل هذا لـم يشف غليل الفاشيست فاصدر طاغيتهم امره اخيرا بالحاق بلادنا الحاقا ابديا فاصبحت على زعمهم في الحاضر قطعة من التراب الايطالي وصارت ارضنا عبارة عـن ثكنة عسكرية تموج بالجنـود الايطالية من شرقها الى غربها كما صار جميع سكانها ووسائل النقل فيها من المصنوعات الى المخلوقات ملكـا للحكومة عند الحاجة بدون مقابل ولا قيد ولا شرط طبقا للقانون الذي اصدره ملك ايطاليا ووزراؤه منذ سنوات فارطة ولا يزال نصه محفوظا « لدينا » .

لقد تولى على بلادنا اربعة عشر واليا وكل واحد منهم اشر من سلفه . وكل واحد منهم يعزز هاته الاعمال المؤدية الى القضاء المبرم على شعبنا حيث الهدف الذي يرمى اليه الفاشيست هو افنـاء العنصر المتشبع بالعقيدة الاسلامية من وطننـا وتنصير البقية الباقية وقـد بـداوا الآن في طبع النشء على الطابع الفاشيستي الايطالي . فكل هاته الاعمال ايها المهاجرون جـرت وطنكم الى شفير هاوية الموت . فماذا انتم فاعلون في انقاذ وطنكم . على من معولون يا رجال الوطن الاشداء يا من اخرجتكم من دياركم نخوة العز والاباء . لا ينسيكم في اخوانكم البعد ولا يقعدكم عن خدمة اوطانكم الوهم والخيال . فان الوهم قتال والحياة كلها كد ونضال . فالعيش حرام علينا والحزن مخيم بين اهالينا ما دامت حقوقنا مغصوبة وحريتنا مسلوبة وشرفنا مهانـا واملاكنـا منهوبـة تختطفها يد الظلم والعدوان . فكروا ايها المهاجرون في مصير شعبكم الذي ذهب كثير من ابنائه في جحيم اسبانيا وتلال الحبشة ، وها هو الفاشيست الايطالي يتحفز بالبقية الباقية من اخواننا للاغارة على تونس ومصر العربيتين المسلمتين ليفنيهما ويفني بهما،فهل نقف من هذه الاعمال موقف الخائف المضطرب ، موقف المغشى عليه من الموت ولا نحرك ساكنا بعدما برهنا للعالم اننا رجال الحرب وفرسان الكر والضرب . فيا أيها الاخوان الاعزاء ورجال الجهاد الاشداء لقد توفقت عصبة

وكلفينه وكاتب عام وكاهيته وامين مالي وكاهيته واربعة عشر عضوا من اخلص اخوانكم للدين والوطن وستتبع في عملها جميع الوسائل التي ترى فيها الفائدة غير هيابة ولا وجلة لذلك فان الهيئة تهيب بجميع اخوانها المهاجرين بان يلبوا دعوتها بالانضمام اليها لاعانتها ماديا وادبيا حتى يتسنى لها القيام بالواجب المفروض عليها احسن قيام وهي تعاهدكم امام الله والناس اجمعين ان تبذل الروح والمال في سبيل الوطن وان تسعى لخيره واسعاده مهما كلفها الامر الى ان يقضي الله امره. فهبوا الى العمل بالفرج قريب ان شاء الله . اياكم واليأس الذي هو من انواع الكفر فلا تتركوا له سبيلا الى قلوبكم ولا تستصغروا عمل عامل منكم فلكل عمل فائدة ولكل حركة اثر - وان ليس للانسان إلا ما سعى .

الكاتب العام لفرع جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة

بتونس

احمد زارم بن خليفه الطرابلسي

صدر في سنة ١٩٢٠ م

المطبعة الفنية ـ نهج [illegible] رقم ١٩ ـ تونس

من اخوانكم منذ سنوات لتاسيس هيئة متفرعة عن « جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي » بالشام في هاته الجهات لتقوم بالواجب المفروض عليها تجاه الوطن العزيز فعملت ما سمحت لها الظروف بعمله مسايرة في ذلك سير الظروف . واليـوم رأت انـه آن لهـا ان تظهر نشاطهـا وتضاعـف جهودها فقد جددت هيئتها فتركبت هاته الهيئة من عشرين شخصا : رئيس ، وكاهية « اي وكيل رئيس » وكاتب عام وكاهيته ، وامين مال وكاهيته واربعة عشر عضوا من اخلص اخوانكم للدين والوطن وستتبع في عملها جميع الوسائل التي ترى فيها الفائدة غير هيابة ولا وجلة لذلك فـان الهيئة تهيب بجميع اخوانها المهاجرين ان يلبوا دعوتها بالانضمام اليها لاعانتها ماديا وادبيا حتى يتسنى لها القيام بالواجب المفروض عليها احسن قيام وهي تعاهدكم امام الله والناس اجمعين ان تبذل الروح والمال في سبيل الوطن . وان تسعى لخيره واسعاده مهما كلفها الامر الى ان يقضي الله امره . فهبوا الى العمل فالفرج قريب ان شاء الله . اياكم والياس الذي هو من « مرادفات » الكفر ، فلا تتركوا له سبيلا الى قلوبكم ، ولا تستصغروا عمل عامل منكم فلكل عمـل فائدة ولكـل حركة اثر . وان ليس للانسان الا ما سعى .

الكاتب العام لفرع جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة بتونس

احمد زارم بن خليفة الطرابلسي ١٩٢٨ م

ابدال الاتصال

نحـن الآن في سنة ١٩٣٩ م وقد اوضحنا في الصفحـات السابقة طريقـة بـدء اتصالاتنا مـع السلطـات الفـرنسية على طريق تلك الـرسل التنكريـة المتقدم ذكرها . ثم بدا الاتصال المباشـــر مع عدد من الضبــاط التابعيـــن « لمكتب الشؤون الاهليــة » وقد تعـددت اللقاءات في أزمنـة متفرقـة وفـي اماكـن مختلفة ، ولقـد دامت هـذه وتلك مـدة غير قصيرة ، ثم أبدلت طريقة اتصالاتنا فأصبحت على طريق شخصين اثنين مـدنيين . ولقد اصبح الاتصال غير محاط بما كان عليه من السريـــة والتحفظ . وهذان الشخصان احدهما مسلـم عـربي تـونسي ، والثاني اوروبـي مسيحي فـرنسي ، فالعربي هو : « البشيـر الكيلاني » من بلـدة « القصر » : بقفصة : تـونس . وهو مـوظف في « الصندوق العقـاري » بتونس العـاصمة ومستواه الثقافي متحصل على الشهادة الثانوية من « جامع الزيتونة » أمـا بالفرنسية فلديــه الشهادة الابتـدائيـة .

والحقيقـة التي لا بـد من الاعتراف بها وتسجيلها للتاريخ هـو ان السيد « البشيـر » تـولاه الله برحمته ، وجـزاه اللـه عن اعماله معنا خير الجزاء ، كـان هذا الرجـل مـدة عمله معنـا في منتهى الاخلاص والناصح الامين لنـا

حتى لكاتبه مكلف من طرفنا وليس من طرف الفرنسيين في جميع اعماله التي تتعلق باتصالاتنا مع هذه السلطات . وهو رجل فيما تحت الاربعين من العمر حسب تقديري . ذكي الفؤاد سريع الخاطر نشيط الحركة قوي الحجة رحمه الله رحمة واسعة .

اما الثاني فهو كما اوضحت آنفا فرنسي صميم مستشرق في حوالي الخمسين من العمر او اكثر قليلا على ما يبدو لي واسمه « برشي » وهو موظف سام في الكتابة العامة للحكومة التونسية ، والكتابة العامة في تونس على عهد الحماية الفرنسية هي عبارة عن وزارة الداخلية بالضبط . وبرشي هذا رجل فطن قليل الكلام عميق التفكير هادىء الطبع في غاية الاتزان لا يبدو عليه التعصب الاستعماري ولا غطرسة كبار الموظفين من الفرنسيين ... وهو على جانب من الثقافتين العربية والفرنسية حسبما استنتجته من اجتماعاتنا العديدة معه ، وكما اتذكر انني سمعته في يوم من تلك الايام يلقي محاضرة في الاذاعة التونسية موضوعها التعليق على « مقامات الحريري » باللغة العربية الامر الذي يدل على مستواه في هذه اللغة .

هذا ما عرفته انا شخصيا في هذا الرجل مدة اتصالاتنا به ، وقد يكون بخلاف ذلك عند الاخوان التونسيين وهذا امر لا علم لي به . ومما لا شك فيه انهم هم اعرف به وبحقيقته مني ذلك لان « رب الدار ادرى بما فيها » خصوصا وان اوضاعنا ومواقفنا تجاه الفرنسيين حينذاك كانت مختلفة جدا . وقد استمرت اتصالاتنا بالسلطات الفرنسية عن طريق هذين الرجلين مدة غير قصيرة وقد كنا واياهم في غاية من التفاهم والانسجام .

ففي اول شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ م بدات الحرب العالمية الثانية باقتحام الجيوش الالمانية الاراضي البولاندية بدون اعلان حرب . وجوابا علي ذلك وما تبعه اعلنت كل من فرنسا ـ وبريطانيا ـ الحرب

على المـانيـا ، وبهـذا بـدأت الظـروف التي كنا ننتظـرها تقترب ، ويـوم ثـورتنا يـدنـو من ساعته ، وان كان « مـوسوليني » لم يعلـن الحـرب بعد ، ولكـن مـوقفـه اصبح واضح الاتجـاه وخطـاباته التي تـزداد حـدة من يوم لآخـر لم تترك شكـا في انـه اصبح في حكـم المحـارب مـع المحـور ضـد الحلفـاء .

ومع هـذا ورغـم هـذا فان فـرنسا لم تياس نهائيـا ، بـل لا يـزال يراودها بصيص مـن الامـل ضئيـل في استمالـة ايطاليا وذلك اعتمادا على ما بينهما من الـروابط المـذهبية والعرقية ، والجوار وغير ذلك من المصالح والاعتبارات ، وعليه ما فتئت فـرنسا تجامـل ايطاليـا وتخطب ودها الـى آخـر لحظـة ـ ومـوسوليني ـ يـزداد غطرسة وابتعـادا ...

ففي هـذه الاثنـاء والحـرب في اوروبـا علـى اشدهـا والـدول تتساقط بسرعـة مذهلـة امـام ذلك الـزحف الكاسح الـرهيب ، كنا نحـن ننتظـر بفـارغ الصبـر ساعـة الصفـر بالنسبة لنـا ، ولذلك اخـذنا نحـاول دفـع فـرنسا للدخـول في مـوضوعنا عمليـا ، ولقـد اشار لهـذا الاخ محمد عباس في احـدى رسائلـه بانه سيرسل مذكـرة « للمقيم العـام الفـرنسي » بتونس لهـذه الغـايـة .

وفي هـذا الـوقت الذي كان فيه دكتاتور ايطاليا يوالي خطابـاته النارية باستمـرار واصبح صوتـه يسمعـه كل من يقتـرب من اي منـزل ايطالي في البـلاد التـونسية ، ففي هـذه الظـروف التي رأيناها مـواتية لنـا والتي هيئتها لنـا تصرفات زعيـم ايطاليـا بخطاباتـه التي تلهب مشاعر الجاليـة الايطاليـة في تـونس من جهـة . وتعمـل للقضاء على ذلك البصيص الضئيل مـن الآمـال المتبقيـة في نفـوس الفـرنسيين من جهـة أخـرى .

وتدعيما لمـا سيقوم به الاخ محمد عباس ، فقد قمـت من جهتي بحملة صحفيـة مركـزة ضد ايطاليـا الفـاشية لعـدة ايـام على التوالي ، مركـزا على التشهيـر بصوت الـزعيم الايطالي ، وعلى عقـوق الجاليـة الايطـاليـة

وتنمرها ، هذه الجالية التي كانت تتمتع بمعاملة خاصة من طرف فرنسا .. ؟

ثم رايت ان اعزز هذه الحملة الصحفية وتلك المذكرة بعمل ما ، فقمت بمشاركة « البشير الكيلاني » رحمه الله بتحرير تصريح كتابي سلمته الى « شركة الشرق العربي للاخبار » التي كان مقرها بمبنى (الكوليزي) بتونس ، ولقد اذاعت الوكالة هذا التصريح في صورة خبر ملتقط ، ومن الغد نشرته الصحف نقلا عن الوكالة المذكورة فاحدث تحركات في الدوائر الفرنسية .

وهذا النص الحرفي لما نشرته الوكالة :

« علمت « شركة الشرق العربي للاخبار » من مصادر اكيدة ان المهاجرين الطرابلسيين يوالون اجتماعاتهم واتصالاتهم استعدادا لعقد مؤتمر في القريب العاجل لتحديد موقفهم ورسم خططهم على ضوء الظروف الراهنة » .

وعلى اثر ذلك تحركت الجهة الفرنسية المختصة باتصالاتنا . واستدعت المرحوم « البشير الكيلاني » بصفته المنتدب من طرفها ، وسالته عن صحة الخبر ، فاكد لها صحته . وعندها طلب منه الاتصال بالجمعية ليطلب منها تاجيل هذا الاجتماع ، فقال انه لا حظ هذا الامر لاعضاء الجمعية حينما اطلع على الخبر ، ولكنهم امتنعوا ، قائلين : انهم لا يتركون الظروف تداهمهم على غير استعداد . والوقت غير قابل للتاخير ...

فسالوه هل تعرف اين سيقع الاجتماع .. ؟ فقال : اظنه بمنزل احمد زارم « بالكرم » فطلبوا منه ان يتصل باحمد زارم باقصى سرعة ويطلب منه باسم الكتابة العامة للحكومة تاجيل الاجتماع لمدة قصيرة دون بيان الاسباب ، ولكنه وقع التاجيل فعلا لمدة حددوها ، وعلى اساس من هذه الحركات والاتصالات كتبت للاخ عباس اعجمه بما جد .

النص الحـرفي للرسالة التي ارسلت الى ابن عبـاس

حمـدا وصلاة وسلامـا

حضرة الاخ الكريم الفاضل الشيخ محمد عباس ، حفظـه اللـه

تحية وتكريما ، وبعـد : نتيجـة للمذكـرة التي قدمتوهـا من هناك ومـا اعقبها من الحملـة الصحفيـة ، وما اذاعته الوكالـة فان الجهـات الفـرنسية قـد استجابت الى ما نطالب بـه من المـوافقـة على قيامنـا بجـولـة علـى مضارب المهاجـرين ، يعقبهـا اجتمـاع مـؤتمر الجمعية الذي ستكـون لـه اهميـة خـاصة ، ولقـد تلقينـا لحـد الآن الموافقة وتاكيد الحضور من السادة :

١ ـ محمد الحـاج حسن المشاي ، المشـاشيـة	١٠ ـ حميدة علـي المطمـاطـي ، بنغـازي
٢ ـ سالم عبد النبي ، الـزنتان	١١ ـ احمد الحـاج خليفـة بـن مبارك ، نـالـوت
٣ ـ محمد غالب الكيب ، العلالقة	١٢ ـ محمـود العش ، طـرابلس
٤ ـ عمر ضيا المـدفعي ، ككلـة	١٣ ـ مفتاح احمـد عـريقيب ، زليتـن
٥ ـ محمـد خليفـة بن عامـر ، ورشفانـة	١٤ ـ الحـاج اسمـاعيـل بـن اسماعيـل ، مسراتـة
٦ ـ علي محمد ابو ستة، المنشية	١٥ ـ محمد عويدات ، المشاشية
٧ ـ حسن رضا ريح الفيتوري ، النـواحـي	١٦ ـ الطاهـر البـدي ، « اولاد بـوسيـف »
٨ ـ الجابري الصويعي ، الختنة	
٩ ـ محمد احمد عريقيب ، زليتـن	

هذا مع الاخوان الموجودين بتونس امثال :

١ ـ محمود علي الزنتاني ، الزنتان
٢ ـ المبروك عمر بالريشة ، غريان
٣ ـ رمضان حسن بن طالب . سوق الجمعة
٤ ـ محمد شكري كويدير ، بنغازي
٥ ـ عمر مالك ، غدامس
٦ ـ أحمد تريفيس ، زليتن
٧ ـ سالم النعمي ، تاجورا
٨ ـ محمد فياض ، غدامس
٩ ـ مفتاح غليليب ، زليتن
١٠ ـ رمضان محمد شادي ، ورشفانة
١١ ـ ابراهيم السويحلي ، زليتن
١٢ ـ محمد علي الشعثاني ، ككلة

هؤلاء المذكورون وغيرهم يجب ان يكونوا على علم وبينة من مسؤولياتهم تجاه وطنهم لكي ياخذوا الاهبة للظروف على اختلافها ، التي تكاد تكون في حكم الواقع ، حتى يتمكنوا من مجابهة الاحداث المقبلة المتداخلة .

وغني عن البيان ، ان الميدان من الجبهتين ليس لنا فيه صديق بالمعنى الصحيح ، كما انني لست في حاجة بان أقول لمثلك ان الدول ترتبط بالمصالح والظروف في اتجاهاتها . وهي لا تتورع عن ابتلاع الصديق والحليف والنصير اذا كانت مصالحها تقضي بذلك . وليس هذا بالشيء الجديد ، والويل للضعيف من ضعفه .

وهذا ما يجب ان يفهمه كل واحد منا حتى لا تغرنا المظاهر المؤقتة والابتسامات المصطنعة وذلك ما يجب ايضا أن نخطط له من الآن ما دمنا مجتمعين ، ونرجو من الله الاعانة والتوفيق .

الكاتب العام للجمعية
أحمد زارم

وجـوابا على رسالتنا تلك ، وصلتنا رسالـة من الاخ محمد عبـاس وفيما يلـي صـورتها ونصهـا :

حمـدا وصلاة وسلامـا

حضرة الاخ الكريم الوطني الصادق العظيم سيدي احمـد زارم ، حفظه الله

تحية واحترامـا ، وبعـد : فاني أقـدم الـى حضرة اخـوتكـم الساميـة تحيـاتي الحـارة وتهاني الصادقـة بحلول عيـد الفطـر المبارك جعلـه اللـه سعيـدا عليكم وعلى آل بيتكم اجمعين وعلى وطنكم وجميـع المسلميـن في مشارق الارض ومغـاربها ، آميـن

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أخوكم : محمد عباس

محطـة الكـريب في ٢٩ رمضان ١٣٥٨

بعثت لك عـدة كتب آخـرها بتاريخ ٨ اكتوبـر ولا ادري وصلتك ام لا . ونعلـم حضرتك انني بعثت كتابـا طويـل الذيـل الى حضرة المقيـم بينت فيه اطـوار خـدمتنا من منذ ١١ سنة وطلبت منه الاذن لنا في جعـل مـؤتمر عام وانتخـاب هيئـة جديـدة للجمعية . وهـذا المكتوب استغرق ٣ صفحات مـن كاغط « المينيستر » (الوزيـزي) وعـن قريب تاتيك نسخـة منـه احفظهـا للتـاريـخ ، والسـلام .

بعـد ما تقـدم شعـرنا بانه من جملـة نتائج مذكـرة الاخ محمد عبـاس ومـا تبعها أن ارتاحت فـرنسا لـموقفنا وبنـاء على ما لمسناه من استعدادهـا للتحـرك . وعلى أساس مـن الجـو الـذي اخـذ يـوضح مـوقف ايطـاليـا يومـا بعـد يـوم وكأنه يمهـد لانطـلاق ثـورتنا المنتظـرة ، بنـاء على ذلك كلـه فقـد تقدمنـا الى الجهـة المختصة بمذكـرة طلبنا فيها استقدام اربعـة من زعمـائنا القـدامى ليتولوا قيـادة الثـورة حـربيا وسياسيا نظـرا لمـا لهم من التجـارب المـاضيـة في الميـدانيـن ، والسمعـة داخـل الـوطـن وخارجـه . والزعمـاء الذين طلبنا استقدامهم هم : سليمان الباروني ـ بشير

السعداوي ـ عون محمد سوف ـ احمد الشتيوي السويحلي ـ رحمهم الله جميعا ، وجزاهم بما هم اهل له من الرحمة والرضوان .

وبعد عدة اجتماعات مع الجهة الفرنسية المختصة حول الثورة ومتطلباتها طلبت منا هذه الجهة ان نقدم لها صورة من قانون جمعيتنا ، فاهتبلنا الفرصة وارفقنا هذه الصورة بمذكرة توضح اهدافنا من هذه المشاركة والطرق التي يجب اتباعها في حالة قيام الثورة .

لقد سبق ان قلنا ان منظماتنا في الشرق وفي الغرب قبل هذه الحرب كانت قد اتفقت واقسمت على التمسك « بالميثاق الوطني للشعب الطرابلسي البرقاوي » والعمل باخلاص على تحقيقه باية طريقة تتاح ، وقد سجلنا نصه حرفيا في هذه المذكرات للتاريخ ، واشرنا الى اننا تقدمنا لفرنسا بطلبات غير الميثاق .

والمبرر لهذا التحول واضح ومعقول . فان انفجار الحرب العالمية الثانية ، وانتقالنا نحن من العمل الوطني السياسي . الى الثورة المسلحة التي نعد لها واصبحنا على ابواب انطلاقها ، فان هذا الميثاق اصبح غير ذي موضوع . اذ قد تجاوزته الاحداث ، وخلفته الظروف ، فلا بد اذن من شيء جديد يتفق مع الظروف الجديدة ، ولذلك فقد تقدمنا لفرنسا بالمواد التالية :

نص المواد الجديدة بعد حذف المقدمة :

١ ـ استقلال بلادنا ليبيا بحدودها الطبيعية المعروفة لدينا من حدود مصر شرقا الى حدود تونس غربا باعتبارنا مشاركين فعليا في الحرب بجانب الحلفاء .

٢ ـ عدم ادخال الشباب الليبي في الجيش الفرنسي . حتى الذين ولدوا خارج ليبيا لكي تكون الثورة قوية قادرة على اداء مهمتها .

٣ ـ عدم اختلاط محاربي الثورة بالجيش الفرنسي في حالة الزحف ، اولا لان التكتيك الثوري يختلف عن التكتيك العسكري النظامي ، وثانيا ليطمئن اخواننا داخل الوطن لحركتنا فنجد منهم الاعانة .

٤ ـ جعل قيادة الثورة في عهدة ليبيين تعينهم الجمعية لانهم اعرف بطرق بلادهم واماكن المياه فيها ونواجع البدو ونزعات قبائلها ومشاعر رجالاتها ، وطرق استمالتهم .

٥ ـ تزويد الثورة بما تطلبه من متطلبات الحرب كل ما طلبت ذلك دون تقصير او تاخير سواء كان ذلك تموينا بشريا ، أو عتادا حربيا أم اطباء وغير ذلك . كل ما يطلب من الثورة او يعطي لها يكون عن طريق الجمعية وبطلب من قيادة الثورة .

٦ ـ عدم معاملة الليبيين من طرف الحلفاء اينما كانوا ، كما يعامل رعايا الطليان في حالة اعلان ايطاليا الحرب على الحلفاء

٧ ـ العناية الكاملة بعائلات الذين يلتحقون بالثورة ورعايتهم والاهتمام بهم في كل الحالات الناتجة عن الحرب الى ان يعودوا لاوطانهم الاصلية أو حيث ما ارادوا .

٨ ـ تبذل الدولة الفرنسية مع حلفائها وغيرهم جميع جهودها ومقدرتها الديبلوماسية في جميع المؤتمرات والاجتماعات والمقابلات ابان الحرب وبعدها لتحقيق ما تضمنته هذه المذكرة وان هذا كله نعلقه على شرف فرنسا العسكري والسياسي .

هذا هو النص الحرفي للمذكرة التي سلمت للجهات الفرنسية المختصة في تونس ويخيل لي ان ذلك كان في اوائل سنة ١٩٣٩ م اذا لم تخنني الذاكرة وقد ارسلنا صورتين منها الى كل من السعداوي في دمشق والباروني في بغداد للاطلاع . وبعد أيام وصلنا جواب عنها من الباروني يحمل الينا شكره ورضاه عن عملنا .

كما جاءت في جوابه هذا جملة في آخر كلامه أعجبت بها وجعلتني اسرح في خيال واسع يربط الماضي بالحاضر وحتى المستقبل القريب ، ولقد رسخت هذه الجملة في ذاكرتي منذ ذلك اليوم حتى لكأنها بيت من الشعر الحقيقي أعني المقفي وهي :

ففي هذه الايام نسمع اخبار الحرب من راديو « لندن ، وروما ، وباريس » فتتوتر الاعصاب والله يقدر لوطننا الخير . هذا وانني انصحكم ايها الاخوان ان تعتمدوا على انفسكم ولا تتوقفوا على استشارة اخوانكم في الشرق ، فاعملوا بما توحيه اليكم ضمائركم ، وتمليه مصلحة وطنكم . ذلك لان ظروفا سوف تحل فينقطع فيها الاتصال حتما .

في يوم من ايام شهر يونيه سنة ١٩٣٩ م فيما اظن كنا مجتمعين في اجتماع محدود العدد جدا وكان من بين المجتمعين المرحوم « محمد غالب الكيب العلاقي » بحثنا في هذا الاجتماع وجوب اعداد خطة يلتزم رؤساء الثورة وقادتها باتباعها وهي تتعلق بمستقبل حركتنا عند ما تبدأ الثورة ، ولم ندخل في التفاصيل . وانفض الاجتماع وعاد الاستاذ غالب الى منطقته . وبعد مدة وضعنا التخطيط كتابيا من صورة واحدة انتظارا لقدوم الاستاذ محمد غالب واطلاعه عليها واخذ رأيه فيها .

ولقد كان هذا التخطيط على جانب من الخطورة اذ انه يحدد مواقفنا وتصرفاتنا تجاه الفرنسيين في حالات معينة بمجرد احتلال النقط الاولى من بلادنا للمحافظة على تحقيق أهدافنا وسلامة مستقبل بلادنا . وبما ان الاستاذ غالب رجل عسكري دراسة وتطبيقا تخرج من « المكتب الحربي في الاستانة » وشارك في الجهاد حتى آخره ، وهو احد المهاجرين ومن اعضاء الجمعية . كما انه بلغ من العمر أول مرحلة من مراحل الشيخوخة . ومن ذلك كله فقد اكتسب من الخبرة والتجارب ما يجعل لرأيه قيمة واعتبارا .

الا ان الرجل يسكن في منطقة تبعد عن تونس العاصمة بما لا يقل عن مائة وعشرين كيلومتر ، ولا يحضر الا حينما يطلب منه الحضور ، او عند ما تدعوه خصوصياته ، ونحن عند ما وضعنا التخطيط كنا ننتظر اول فرصة لحضور الاستاذ غالب لنطلعه على الوثيقة وناخذ رأيه فيها ، وفي شهر اغسطس من هذه السنة نفسها تلقيت رسالة منه يتساءل فيها عما وصلت اليه الحركة ومدى استعدادها لما هي مقبلة عليه . ولقد ظننت انه برسالته هذه يتساءل عن ذلك التخطيط الذي وقع الكلام عليه بمحضره بطريقة غير واضحة بل غير مفصلة فقد كتبت نسخة من الخطة وارسلتها اليه بواسطة البريد على ان يعيدها مع ملاحظاته عليها . وبمجرد تسلمه الرسالة جاء الى الكرم حيث انا ، وهو في حالة من الغضب الشديد ، وبعد السلام سألته اذا كانت الرسالة وصلته فقال : نعم وصلت ، ارني الاصل فقدمته اليه وبعد ان نظر فيه قليلا وجه لي لوما شديدا . قائلا ما هذا التهور أترسل مثل هذا في البريد . ؟ ! ! فلو قدر واطلعت عليه فرنسا لنكلت بنا ، ولضاعت آمالنا عن طريقها . ونحن نحاول ان نقنعها باخلاصنا . ولعلها لو اطلعت على ذلك لمكرت بنا وقد تسلمنا لايطاليا . ثم قال الصورة التي وصلتني احرقتها بمجرد اطلاعي عليها ، وحتى هذه لا أريدها ان تبقى ومزقها واحرقها .

جناب الوطني الفاضل سيدي أحمد زارم ، السلام عليكم وبعد :

فقد ظهرت في هذه الايام نشاطات حركات عسكرية كبرى في القطر التونسي فما من يوم الا وترى فيه جيوشا تجهز وترسل لتاخذ مكانها في الواجهة استعدادا للطوارىء ونحن وسط هذه الاستعدادات والحركات النشيطة كالاجانب الذين لا يهمهم امر هذه الحركات لحرب متوقعة والمسالة تهمنا مباشرة حيث انها اذا وقعت ستقع في بلادنا وضد عدونا فانها فرصة مناسبة لاظهار نشاطنا باخذ مكاننا في الواجهة ليعلم عدونا اننا لم نمت ولم يقض علينا بل نحن احياء ودائما مستعدون وحاضرون للفتك به ولا نترك فرصة تمر دون ان ننتهزها ضده فهل انتم على اتصال

مـع الحكـومـة .. ؟ وهل قـررتم معها شيئا في خصوص تعبئة الطرابلسيين واخـذ مكانهم اللائق بهم في الواجهـة استعدادا للغـارة على عـدوهم . أم انتم سكـوت .. ؟ والسلام

٢٩ اوت ١٩٣٩ م

أخوكم : محمد غالب

محمـد غـالـب الكيـب العـلاقي

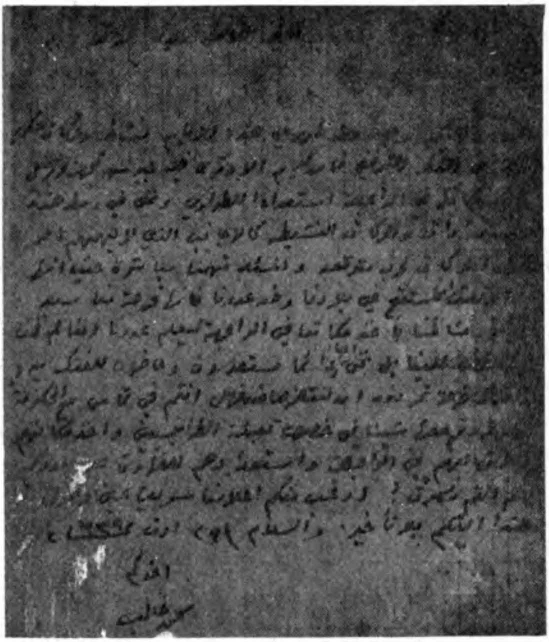

رسالـة محمد غالـب الكيب العـلاقي

جولة استطلاعية فى البلاد التونسية

قلنـــا انفـــا بعــد مذكرة الاخ عبـــاس وما تبعها اننا قــد لمسنا استعدادا من فرنسا للتحــرك ، وفعــلا فانه بعــد ايام قليلة وافقتنا على القيــام بجولــة على أماكن المهاجرين بالبــلاد التونسية بعدما هيــأت لنا الجــو باشعار مسؤولي الجهــات بأن لا يتعــرضوا لاعمالنا وتنقلاتنا واجتمــاعــاتنا التــي سنعقــدها مع اخــواننا للــوقوف على أوضاعهم ومعرفــة مــدى استعدادهــم واحصاء الصالحين منهم لحمــل السلاح ، وتشكيل وحــدات منهــم في كــل مكــان توجــد فيه مجموعــة لتكون هــذه الوحــدات همزة وصل بين جهاتهــم ومركز الجمعية ولرعاية مصالحهم في الظروف الاستثنائية .

وتــم تكليف السيدين « محمد أحمــد عــريقيب ـ وأحمــد زارم خليفــة » للقيــام بهــذه الجولــة . ولقد بــدات الرحلــة في يــوم ٧ ديسمبر مــن سنة ١٩٣٩ م من تــونس العــاصمة في اتجــاه مــدينــة « سوسـة » عــاصمــة الساحــل التونسي . ولم يمتــد بقــاؤنا فيها اكثــر من يوم واحــد ذلك لعــدم وجــود ليبيين بهـــا . ومن الغــد واصلنـــا السفــر بالقطــار الــى مــدينــة « صفــاقس » ـ وبمجــرد وصولنا اليها اتصلنا « بعاملهــا » وكــان اذ ذاك « عبد العزيــز الجلولي » فيما أظــن . ومرتبــة العامــل في تــونس تســاوي مــرتبة المحــافظ عندنا في ليبيــا . « والعامــل » تسميــة عربيــة أصيلــة .

وبعد مقابلة العامل والتحادث معه قصدنا منزل العالم الصالح الشيخ الوقور « محمد السلاع » تولاه الله برحمته ورضوانه . والشيخ هذا من المهاجرين فعلا ، وقد استقر في « صفاقس » في حي من احياء ضواحيها ، ضاع مني اسمه . بعائلته في منزل كبير متسع من احسن مساكن تلك المنطقة الحديثة ، وهو يحظى باحترام وتقدير كبيرين من جميع السكان ، وله سمعة طيبة جدا . ولقد انسر بقدومنا ، وتناولنا الغداء معه .

وبعد الانتهاء وفي فترة « الشاهي » وجه زميلي في الجولة المرحوم « محمد عريقيب » الزليطني كلامه الى الشيخ قائلا له : ان الحكومة الفرنسية تسأل عنك كثيرا ، وقد حملتنا ان نبلغك تحياتها « هكذا كان الكلام حملتنا بضمير الجمع » واوصتنا بان نبلغك بانها على استعداد لتلبية جميع طلباتك في اي حاجة كانت .

ولقد اجاب الشيخ السلاع على هذا التبليغ بقوله : انا في نعمة من الله وراحة تامة وليست لي اية حاجة اطلبها ولا اي طلب ارغبه ، وكل ما ارجوه هو البقاء في مكاني محترما ، وكفى بهذا طلبا ، والجدير بالذكر في هذا الموقف هو ان السيد « محمد عريقيب » ابلغ الوصية باسمنا معا . كما هو واضح من عبارة « حملتنا » والواقع انني لم اسمع بهذه الوصية قبل ذلك اليوم مطلقا ، لا من الفرنسيين ، ولا من زميلي في الجولة ، الا حينما اعادها للشيخ امامي .

والشيء الذي يجب أن اذكره بالنسبة لهذا الموقف هو ان هذا الامر قد احدث في نفسي تاثيرا سيئا خوفا من تلاعب الاستعمار . والا فما هو سبب اخفاء هذه التوصية عني .. ؟ ايكون احد حذرهم مني .. ؟ الامر الذي جعلهم يحترسون من جانبي ..! والحق انني قد هممت بأن احتج على ذلك واعود ادراجي من (صفاقس) غير انني فكرت مليا فرأيت أن الظروف غير سامحة والموقف يقضي بالسكوت ، ومواصلة الجولة الى ان تتاح الفرصة ...

وحينما انتهينا من محـادثتنا مـع الشيخ السلاع ودعناه ، وعـدنا الـى مدينـة « صفـاقس » والمسافـة لا تزيـد عن اثنين كيلومتـر . وبـدأنا في الاتصالات بالاخـوان أذكـر من بين من اجتمعنا بهم السادة : الدكتور صالح الغـريـاني ـ محمد بن خميـدة ـ مسراتة ـ الفيتوري البودي ـ ترهونـة ـ محمود العش ـ طرابلس ـ رحمهم الله جميعا سعيد الحاج حامـد ـ الرحيبات ـ الشيخ محمد بن اسماعيل ـ مسراتة وغيرهم . ولقـد اتممنا تنظيماتنا وتبادلنا الآراء فيما نحـن نسعـى اليـه .

وبعـد يومين من اقـامتنا بصفاقس غـادرناها متجهين نحـو « قابس » والملاحظ انـه لم يكن بقابس من الليبيين الا ثلاث عائلات فيما نعلم هـي : عائلتـا المرحومين : محمد حلمي الجحاوي الخمسي ـ وعبد اللـه الـدرباسي ـ رحمهمـا اللـه ـ وعائلة علـي فكيني وهـذا الاخير لم نلتق به في قـابس . اذ قيـل لنا انـه متغيب عـن البلاد ، اما والـده المرحوم الحاج محمد فكيني فكان يسكـن بعيـدا عن قـابس ، في بلـد اسمه « اقبلي » والمـواصلات اليها غيـر متـوفـرة اذ ذاك .

قصدنـا منـزل المرحـوم الاستاذ « محمد حلمي الجحـاوي » ومـن الغـد اتصلنا بالمـراقب المـدني . وهـذه وظيفـة خـاصة بالفـرنسيين وهي فـوق مستـوى العامـل وهـذا المـراقب شاب فـرنسي لم اتحصل على اسمـه ، كان مـوقفه معنا لينـا بشوش الوجـه لطيف المحادثـة وبعـد الانتهاء من مقابلته خـرجنا عائـدين الى مكاننا وفي طـريقنا التقينا بشيخ كبيـر في حـوالي السبعيـن من العمـر ، هـو المرحـوم : سالـم مسعود الهنشير مـن قبيلـة « النـدوة » احـدى قبائـل مديريـة الرحيبات ، وكان قادمـا من بـر طرابلس في طريقـه الى تـونس لزيـارة ابناء أخيه مجتازا الحدود بدون جواز سفر .

التقينا بهـذا الشيخ فاستوقفته حصة للسلام عليه وسؤالـه عـن الاهـل والاقـارب ، وهـذا الشيخ رجـل أمـي ولم يكن ممن يعرفون السياسة ، ولا الحركـات العسكريـة . ولا يدرك ما نحـن بصدده أيضا ، وبعـد ذلك ذهب

الشيخ في شانه وعـدنا نحن الى مكاننا نستعـد للسفر ، ومن الغـد ركبنـا القطـار من قـابس متوجهين الى « قفصة » ولا يوجـد مـن الليبيين بها الا شخص واحد هو السيد : « الطاهر بن وفا » المسراتي تاجر مـواد غذائية بالتفصيل ، بتنا تلك الليلة بقفصة عند رجـل اسمه (بن دولـة) معرفة زميلي في الجولـة (عـريقيب) وبن دولـة هذا من اصحـاب الاعمـال الحـرة .

ومن غـد ذلك اليوم ركبنا السيارة العمومية الى « صهيب » أو « امظيلة » هكذا فان هـذا المكان لـه اسمان . وصهيب هذه منجـم كبير « للفسفاط » قريب من قفصة ، بـه عـدد كبير من المهاجـرين الليبيين من بينهم الشيخ « محمد الغطـاس » من زليتـن ولهـذا الرجـل قصة من اغـرب القصص ، وقد سمعتها منه مبـاشرة ، والذي أسفت له هـو انني لم اسالـه عن الطريقة التي قبض بها عليه الايطاليون . ولا عـن المكـان الذي اعـدم فيه رفاقـه ، وافلت هـو مـن براثـن المـوت بقـدرة قـادر ، وانا وان كنت لا أصدق هذه القصة ولا أكذبها ، ولكن لغـرابتها رايت ان اسجلها هنا كما سمعتها ، وللقـراء أن يصدقـوا او يكـذبـوا .

القصـة كما سمعتها من صاحبها بالـذات

يقـول الشيخ محمد الغطـاس : كنت من بين جماعـة قبضت عليهم ايطاليا ، واصدرت عليهم حكمها بالاعـدام . ثم أودعتهم السجـن انتظـارا لامر التنفيذ . وفي ليلـة ظلمـاء شديدة البـرد اخـرجونا من السجـن الى قـرب شاطـىء البحـر ، واوقفونـا صفـا واحـدا ونحـن مقيدون بسلسلـة في ايـدينـا ، وبعـد ان مـر بنا الضابط ذهـابا وايابـا ، واحصى عـددنا ، تأخـر الـى الـوراء حيث كان الجنـود المسلحـون ينتظـرون الامـر باطـلاق النـار .

وحينما صـدر الامـر باطـلاق الـرصاص علينا ، ومـع ارتفـاع صوت الضابط بالامـر . ارتفع صوتي في آن واحـد دون وعـي مني صائحـا باعلى صوتـي « يا سيدي عبـد السلام » ونفضت يـدي فسقطت السلسلة منها وفي

خفة وفي حالة لا شعورية اندفعت نحو البحر ودخلت الماء حتى وصلني الى الذقن وحينئذ انتبهت لنفسي فاذا انا بصخرة حجرية ضخمة فاختفيت وراءها وحينما تقدم الضابط « أوكلهم » لا ادري ليتاكدوا من موت ضحاياهم وجدوا العدد ناقصا فأخذوا يعدون يمينا وشمالا وكثرت رطانتهم والخيرا اخذوا يطلقون الرصاص في كل اتجاه وبعد ان يئسوا وضعوا تلك المجموعة في هوة كانوا قد اعدوها من قبل واهالوا عليها التراب وانصرفوا .

اما انا فقد مكثت مدة حتى خلا الجو من كل حركة وتحركت من مكاني واخذت اعدو واتعثر في مياه البحر مسافة طويلة واسناني تصطك من شدة البرد وقوة الانزعاج ثم خرجت الى البر وسرت في حذر وخوف شديدين حتى وصلت منزلي واختفيت فيه يومين وليلة حتى فارقني الرعب وذهب عني التعب ووجدت نفسي في حالة طبيعية وفي استطاعتي السير للالتحاق بمنطقة المجاهدين .

اخذت ما احتاج اليه وما امكنني نقله وتسللت ليلا . وبعد تعب شديد اشرفت على الوصول فتنفست الصعداء حيث وجدت نفسي قد نجوت من الموت فارتحت نفسيا وحمدت الله على الطافه ... دخلت اماكن المجاهدين وقصدت مجموعة « زليتن » وما كدت استقر على الارض حتى جاء من أخذني الى مركز قيادة المجاهدين . وقد ظننت انهم سيحمدون السلامة ويسألونني عما اذا كانت لدي معلومات عن استعدادات العدو وتحركاته .

ولكن الامر كان غير هذا ، فبعد ان سالوني فعلا عن ذلك وكيف نجوت وغير ذلك وقد كانت طريقة السؤالات غير مريحة . وفي آخر الموقف اسقط في يدي وصدمني واقع ادهى وأمر من الاول . ! ! فقد قبضوا علي ووجهولي تهمة الخيانة بحجة ان افلاتي من ايدي الطليان دون مجموعتي كلها لم يكن مجرد صدفة . بل اعتبروه ثمنا لقيامي بالجوسسة لمصلحة العدو . فأوثقوا كتافي وتركوني جانبا ريثما يحين وقت التنفيذ . والحق انني قد يئست من الحياة مرة أخرى .

ولكن الطاف الله تعالى ، وبقية من عمر في دفتر القدر سخرت جماعة من « الفواتير » توسطوا في امري وتحملوا مسؤولية ما قد يثبت عني أو يصدر مني في مستقبل الايام وبذلك نجوت مرة ثانية من الموت المحقق وهكذا اراد الله لي أن أعيش الى هذا اليوم لاقاسي ما كتبه الله علي من آلام الغربة وشظف العيش ولا ادري عن البقية من العمر ماذا تخبىء لي فيها الاقدار ... والحمد لله على كل حال . ؟

هذه هي القصة الغريبة كما سمعتها من صاحبها مباشرة وبالذات ، ولعل في « زليتن » من لا يزال على قيد الحياة من رجال ذلك العهد ويعلم شيئا عن هذه القصة العجيبة فيؤكدها ويوضح ما غمض منها ان كانت ...

وبعد انتهاء هذه القصة اعود لذكر تفاصيل جولتنا وانتقالنا من مكان لآخر ومقابلات الاخوان ونتائجها ومدى استعدادهم وتفهمهم للموقف . فأقول : وجدنا في « مظيلة » عددا غير قليل من المهاجرين من بينهم صاحب هذه القصة وهو شيخ كبير يربو على الثمانين من العمر ـ والمرحوم علي محمد ابو ستة الذي كان من رماة المدفعية في الجيش الوطني ايام الجهاد ـ وحسن رضاريح الفيتوري الذي كان صف ضابط في الجيش الوطني . وعبد الهادي زرقون متزعم قبائل ورفلة في المهجر بعد استشهاد زعيمها الشهير عبد النبي بلخير » رحمه الله . وعلى العموم يوجد في هذا المكان جماعات من مختلف القبائل الطرابلسية وقد بقينا في صهيب من يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٣٩ الى يوم ١ جانفي ١٩٤٠ م وقد نظمنا الجالية وتم الاتفاق على كل شيء .

غادرنا المكان الى (قفصة) ومنها الى المتلوي ، والمتلوي هذا هو ايضا منجم لاستخراج الفسفاط ولكنه اكبر واقدم اربعة مناجم في المنطقة وكلها من نتاج واحد ولقد كان من بين من استقبلنا في المتلوي ـ الحاج اسماعيل بن اسماعيل من كبار تجار المكان ، والشيخ مفتاح الفيتوري ومحمد عيسى رحمهم الله تعالى ـ والشيخ صالح الجعفري والطاهر القمودي وغيرهم من الاخوان ولقد انهينا اعمالنا في ثلاثة ايام .

من المتلوي ركبنا القطار الى منجم « الرديف » وصلنا في نفس اليوم والملاحظ ان الطريق بين المتلوي ، والرديف بها سبعة انفاق يمر منها القطار تحت الجبال فلا يكاد يخرج من نفق حتى يدخل في اخر ذلك لان الارض بينهما ذات جبال عالية واودية عميقة الا انها جرداء لا نبات فيها ولا زرع لان المنطقة قليلة الامطار جدا .

استغرق وقتنا في الرديف الى يوم ٨ يناير ١٩٤٠ م وفيه اتصلنا بكثير من الاخوان بينهم وجهاء واعيان وقادة مجاهدون منهم المرحوم : « محمد بن الحاج حسن » كبير قبائل « المثاشية » واحد زعماء الجهاد وقادته ، وبطل معركة « خرمة بوغرة » والشيخ « محمد عويدات » من اثرياء قبائل المثاشية وزعيم احدى قبائلها ، والشيخ « الطاهر البدي » متزعم قبائل « أولاد بوسيف » في المهجر ومجموعة كبيرة من تجار المهاجرين من مختلف القبائل . ولقد انهينا اعمالنا في خلال ثلاثة ايام .

اخذنا القطار واتجهنا الى منجم « أم العرائس » ولم نمكث بهذا المكان الا يوما واحدا ، ومنها اخذنا القطار في طريق العودة الى تابديت ـ فتالابت ـ فماجل بن عباس ـ ففريانة ـ فالقصرين الى سبيطلة التي وصلناها في الساعة الثالثة صباحا وقصدنا محل تجارة المرحوم السيد « محمد حنيدر » تركنا حقائبنا هناك وذهبنا الى محل المرحوم « مفتاح احمد عريقيب » شقيق المرحوم محمد عريقيب زميلي في الرحلة .

ولقد وجدنا معظم الموجودين في منطقة « سبيطلة » من اخواننا الصيعان ولا يوجد بين مجموعتهم من يمكن الاجتماع به والتفاهم معه في الموضوع ، ومن الغد ركبنا القطار في طريق العودة الى تونس العاصمة فوصلناها في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم ١٤ يناير ١٩٤٠ م .

وبمجرد وصولنا الى تونس علمنا ان السلطات الفرنسية ابدلت السيدين « البشير الكيلاني ـ وبرشي : Berchet » بشخصين آخرين هما السيدان : « محمد إسكندر ـ وسالوموز » فالاول تونسي كان يشغل وظيفة

« عامل » واحيل على التقاعد وكان عمره اذ ذاك يتجاوز الخامسة والستين عاما تقريبا وهو رجل هادىء الطبع لين العريكة متزن التفكير قليل الكلام ، لا يظهر عليه الميل لنا ولا علينا .

اما الثاني فهو فرنسي مستشرق على جانب من الثقافتين العربية والفرنسية وهو في الخامسة والخمسين من العمر تقريبا يشغل وظيفة رئيس مجلس التعقيب في العدلية التونسية قليل الكلام كثير الملاحظات يبدو على ملامحه الذكاء كما انه يحمل في طوايا نفسه جانبا من المكر الغامض حسبما فهمت عنه ، الا انه لا يعرف عنه ذلك الا بالتجربة .

وبعد عودتنا من الجولة وبالتحديد في يوم ١٨ يناير ١٩٤٠ م ذهبت الى مكتب الاستاذ « سالومو » اولا للسلام عليه والتعرف به لانه حل محل « برشي » بعد خروجنا في الجولة ، ذهبت اليه وبعد التحية قدمت له تقريرا يتعلق بالجولة ولم اذكر ذلك الشيخ الذي تقدم ذكره والذي التقينا به في « قابس » وهو قادم من بر طرابلس بدون جواز سفر .

وبعد أن تسلم التقرير واطلع عليه ، حوله الى أفراد من « الرهبان » كانوا في مكتب حذو مكتبه حوله لهم ليترجموه الى الفرنسية وبدأ يتحادث معي فيما يتعلق بالجولة فسألني لماذا لم اذكر في التقرير ذلك الشخص الذي التقينا به في قابس .. ؟ وبتجاهل ، قلت اي شخص هذا فقد التقينا بكثير من الناس .. ؟ فقال ذلك الشيخ الذي سلمتما عليه بعد خروجكما من المراقب مباشرة والشخص قادم من طرابلس .

وهنا تداركت الموقف بعد ان فهمت انه على علم دقيق بالامر ، فقلت صحيح التقينا بشخص هو من بلادي (الرحيبات) ولكنه شيخ طاعن في السن ومن القرى النائية عن العاصمة ومع ذلك فهو رجل امي لا يفهم شيئا مما نحن بصدده ولا يفيدنا ، فقال : يجب ذكر كل ما يصادفكما في طريقكما حتى ولو كان تافها .

قلت : اسمح لي يا استاذ « سالومو » اننا ذهبنا في عمل معين ومحدود

وفيما يختص بـه احطت بكل شيء ، وهـذا اهـم ما نفكـر فيه في جـولتنا . اما هـذا الشيخ وامثالـه فهناك ارصاد الحدود ومراكز البوليس والجمـارك وسيمـر هـو وغيره بهذه جميعا وهذا عملهم . امـا نحـن فموضوعنا شيء آخـر ومـع هـذا كله فانتم لم توصونا بهذه الاعمـال الجـانبيـة بالنسبـة لموضوعنا . وانا لا اريـد أن اتطفل من تلقاء نفسي على عملٍ لم أومـر به وليس هـو من اختصاصي ولا هـو من برنامج عملنا في جـولتنا اساسا .

انهينا مـوضوع التقرير وتغير الحـديث فقـال لي : لقـد اصبح قريبـا من المؤكـد ان تكون ايطاليـا ، في جـانب المحور وضد الحلفـاء ومـن بـاب الاستعداد فاننا نريـد اخـذ بعض الشبـاب من الطـرابلسيين لتدريبهم على الهبـوط من الطائرات بواسطة المظلات ما رايك .. ؟ فقلت انا لا ارى مانعـا بل أحبـذه وارغبـه ، هـذا رأيي الخـاص وساطرح الموضوع على الجمعية في اول فـرصة ولا أظـن وجـود من يعـارضه . وكل ما الاحظه في المـوضوع هـو ان يكون جمعهم بواسطـة الجمعيـة .

الدعوة للاجتماع بعد نهاية الجولة

بعد الانتهاء من الجولة التي تقدمت تفاصيلها باختصار . بعد ذلك بمدة قصيرة تحصلنا على موافقة الجهات الفرنسية المسؤولة في الموضوع على عقد المؤتمر الذي كان موضوع مذكرة الاخ محمد عباس ، التي ارسلها الى « المقيم العام الفرنسي » بتونس .

وعلى اثر ذلك كتبنا للاخ محمد عباس بالحضور الى تونس قبل الوقت بأيام للتفكير في كيفية الاجتماع .. متى .. واين يكون .. ؟ وموضوع الاعتناء باولئك الذين سيفدون من الجنوب التونسي امثال : محمد بن الحاج حسن الشاي ـ وسالم بن عبد النبي ـ ومحمد عويدات ـ والطاهر البدي ـ وعبد الهادي الزرقون ـ وغيرهم . ومن المعلوم انهم لم يسبق لهم ان دخلوا مدينة تونس من قبل . فانهم في حاجة الى مأوى خاص . ورعاية .

كما ان هناك السعي لايجاد محل لاجتماع المؤتمر يكون لائقا به ، ويستوعب المؤتمرين ، وهناك الاتصالات بالجهات الفرنسية وغير ذلك ، لذا فان حضور ابن عباس قبل الوقت بايام كان ضروريا جدا . ولهذه الاسباب وغيرها كتبنا له الرسالة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخ الاستاذ محمد عباس المحترم ، سلاما واحتراما ، وبعد :

كنا قد كتبنا اليك رسالة من مدة ماضية اي قبل القيام بالجولة ، والآن وبعد مرور هذه المدة في الانتظار فقد تحصلنا على الموافقة لاجتماع المؤتمر وعلى كل فنحن في انتظار حضورك لكي نقوم جميعا بالاعمال التمهيدية ونحدد موعد الاجتماع .

وهذا ما دعانا لطلب حضورك باستعجال فالرجاء الأسراع بالقدوم لكي نتمكن من القيام بالتحضيرات اللازمة كايجاد محل للاجتماع ، وآخر للقادمين من جهة الجنوب امثال : محمد بن الحاج حسن المشاي ـ وسالم بن عبد النبي ومن ياتي معهم .

ذلك لانهم لم يعرفوا المدينة من قبل . وهناك الاتصالات مع الفرنسيس وغير ذلك من الاعمال . وعلى كل فان حضورك بسرعة ضروري جدا . ؟

اخوك : احمد زارم
٣ فبراير ١٩٣٩ م

ملاحظة :

بعد كتابة ما تقدم ، وقبل ايداع الرسالة في البريد جاءني الشيخ رمضان بن طالب ، وطلب مني ان اكتب اليك ما يلي : انه يطلب حضورك قبل الوقت بمدة لمفاهمة خاصة بينكما لم يوضحها لي ، وليس من حقي ان اطلب منه التوضيح ، ما دمت اعتقد أن النوايا طيبة والضمائر سليمة والهدف واحد . ؟

وصل السيد محمد عباس الى تونس . وبدأت الاجتماعات التمهيدية وفي خلالها كتبنا رسائل الدعوة للاخوان في مختلف جهات البلاد التونسية . ثم اخذ المجتمعون في السعي لايجاد مكان للاجتماع ، وقد تمكنا من العثور على محل يتكون من طابقين ، ارضي وعلوي يقع في « نهج

الصباغين » بتونس ، وقد خصصنا طابقا منه لجماعة الجنوب المشار اليهم آنفا وطابقا لاجتماع المؤتمر .

وفي آخر اجتماع من هذه الاجتماعات التمهيدية قرر المجتمعون موعد الانعقاد ، وعلى ان يدوم المؤتمر ثلاثة أيام هي : ايام ١٠ - ١١ - ١٢ فبراير . وفيما يلي صورتان « بالزنكوغراف » ارسلت احدهما الى المرحوم : « محمد بن الحاج حسن المشاي » والاخرى الى المجاهد المرحوم « سالم بن عبد النبي » وهما رسالتان وحيدتان تحصلت عليهما من احد الشباب الذين يسعون باستمرار وراء الحصول على الوثائق التاريخية . هو الاخ : « حسن علي خشيم المسراتي » فشكرا له أضعهما هنا كنموذج لرسائل الدعوة للمؤتمر .

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الزعيم المحترم المجاهد سيدي محمد بن الحاج حسن

تحية واحتراما ، وبعد :

بناء على ارتباك الحالة السياسية الدولية الحاضرة ، وبناء على ما تحتمه علينا المصلحة الوطنية ترى جمعيتكم لزوم حضوركم بالعاصمة التونسية . صباح يوم ١٧ الجاري للتفاهم فيما يختص بقضيتنا والاتفاق على جميع أمورنا .

وعليه فالجمعية تناشدكم باسم الوطن المحتضر وسكانه المقهورين ان تلبوا الدعوة ، وان تحضروا في الوقت المعين اعلاه بسرعة ، والفضل عائد لكم ، ودمتم موفقين محترمين . ؟

الكاتب العام للجمعية
احمد زارم خليفة الرحيبي

الرئيس
١٩ جمادي ١٣٥٨ هـ ٣٩/٧/٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الزعيم المحترم سيدي سالم عبد النبي ، تحية واحتراما

بناء على ارتباك الحالة السياسية الدولية الحاضرة ، وبناء على ما تحتمه علينا المصلحة الوطنية ترى جمعيتكم لزوم حضوركم بالعاصمة التونسية صباح يوم ١٧ الجاري للتفاهم فيما يخص قضيتنا والاتفاق على جميع امورنا . وعليه فالجمعية تناشدكم باسم الوطن المحتضر وسكانه المقهورين ان تلبوا الدعوة وان تحضروا في الوقت المعين اعلاه بسرعة ، والفضل عائد اليكم ، ودمتم موفقين محترمين .

كاتب الجمعية
الرئيس
١٩ جماي ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩/٧/٧ م

قلنا اننا كتبنا الى الشيخ محمد عباس للحضور بسرعة ، وقد وصل الى تونس ، وبوصوله بدأت الاجتماعات التمهيدية بين بعض الاخوان الموجودين في العاصمة ، وفي خلال هذه الاجتماعات كتبت رسائل الدعوة للاخوان في مختلف انحاء البلاد التونسية ، ووضع جدول عمل المؤتمر الذي يتكون من خمس نقاط ، وهي :

١ ـ قراءة تقرير يتضمن تطورات الجمعية واعمالها ، وما وصلت اليه .

٢ ـ النظر في هيئة الجمعية لاقرارها أو تعديلها او تجديدها كليا .

٣ ـ النظر في الخطوات التي ينبغي اتخاذها للمستقبل .

٤ ـ اشياء غير منظورة واقتراحات وسؤالات المؤتمرين .

٥ ـ قراءة الرسائل الواردة بخصوص المؤمتر ـ وانتخاب امين مال للجمعية .

اجتمع المؤتمر في الوقت المحدد له ، وافتتحت الجلسة بتلاوة آيات من الذكر الحكيم تتفق مع الموقف ، وعلى اثرها نهض رئيس المؤتمر وهو « كاتب عام الجمعية » وقدم الاعضاء العاملين واحدا واحدا للمؤتمرين .

وبالانتهاء من ذلك قرأ التقرير الذي تضمن تطورات الجمعية واعمالها منذ نشأتها واتصالاتها بالشرق والغرب لنشر قضية الوطن في انحاء العالم بقدر الامكان ، ورفعت الجلسة لتستأنف في اليوم الموالي .

عادت الجلسة للانعقاد في اليوم التالي . وفي هذه الجلسة اعلن كاتب الجمعية بان الهيئة تعلن للجميع بانها تضع الامر الآن في أيدي المؤتمر لينظر بملء الارادة ومطلق الحرية ، ان كان يريد تعديل هيئة الجمعية او تجديدها كليا باخرين ، او الابقاء عليها ، فتناقش المؤتمرون في الموضوع طويلا .

وفي غمرة هذه المناقشات : رفع الشيخ « محمد الحاج حسن » يده طالبا الكلمة . فالتفتت نحوه الانظار وارهفت الاسماع وعم السكوت ، نظرا لكبر سنه وماضيه الدالين على الخبرة في مثل هذه الامور . على حد ما يعتقده المجتمعون . وتكلم هذا الشيخ قائلا : هاكم رايي في الجمعية بعد سماعي مناقشاتكم التي استغرقت وقتا طويلا . رايي : ان الناس الذين اسسوها ، وسيروها كامل هذه المدة الطويلة ، ووصلوا بها الى هذا المستوى من تلقاء انفسهم ، وبدافع من شعورهم . فاحيوا بها في نفوسنا ماضيا كدنا ان ننساه ، وثأرا طالما انتظرناه فهؤلاء الرجال في نظري اولى من غيرهم ، واجدر من سواهم بمواصلة المسيرة التي ابتدأوها ونحن معهم ورهن اشارتهم فيما يختص بمصلحة وطننا .

أما اذا نحن ابدلناهم باخرين من الذين لم يفكروا في هذا الواجب الا عندما دعوا اليه ووجدوا كل شيء جاهزا ، فنكون حينئذ من الغالطين ، بل من الخاسرين بارتكابنا تغييرا لا مبرر له ، وقد يؤدي ذلك بحركتنا هذه الى الفشل ، وقد يستغل ذلك الغير . لهذا فاننا نحن ومن على راينا لا نريد بهم بديلا ، فليواصلوا عملهم ، والله معهم ونحن من ورائهم ، واذا ازفت الساعة فنحن أمامهم ، ومن الله الاعانة والتوفيق .

هذا هو رايي والناس يسمعون . ثم التفت الى الشيخ « سالم بن عبد النبي » وكان جالسا بجانبه ، وقال له ما قولك يا شيخ سالم .. ؟

« واجاب الشيخ سالم بقوله : هذا هو رايي الذي كنت أود أن أقوله وقد سبقتني اليه يا شيخ محمد » ثم توجه الشيخ محمد للمجتمعين يمينا وشمالا ، وقال : ما رايكم .. ؟ ايها السادة فأعلن الجميع موافقتهم على ما قاله على فهم واقتناع . وبهذا انتهت الجلسة الثانية ، لتعود للانعقاد في اليوم التالي .

وعاد المؤتمر للانعقاد في اليوم الثالث ، وهو الاجتماع الاخير وفيه طلب من المؤتمرين ان يتقدموا بآرائهم واقتراحاتهم وملاحظاتهم ان كانت لهم ... وبعد اخذ ورد استغرق حصة من الوقت . بعد ذلك طرح على الاجتماع انتخاب امين مال للجمعية فاتجهت الانظار نحو الاخ محمد عباس .

الا ان هذا حاول جاهدا الهروب من هذه المهمة والتخلص من مسؤولياتها ، ولكن المؤتمر اصر عليه بالاجماع والزمه بانه يقبل ذلك لانهم يرون فيه خير من يقوم بهذه المهمة وترتاح له النفوس . واخيرا امام ذلك الالحاح والاجماع لم يسعه الا القبول نزولا عند ارادة الجميع .

قبيل ان ترفع الجلسة وبدون مقدمات ولا سابق علم تقدم المرحوم « محمد شكري كويدير » رئيس الجمعية من سنوات ماضية تقدم للاجتماع باستقالته في اصرار وتصميم معلنا تخليه عن رئاسة الجمعية واستقالته منها نهائيا ، ولقد ساد الاجتماع جو من السكوت الحائر بسبب المفاجأة غير المنتظرة وغير المسببة ايضا والتي لم يدرك المجتمعون في نفوسهم من داع لها .

ولقد حاول المؤتمرون بمختلف الطرق ارجاعه عن عزمه او معرفة الاسباب التي جعلته يتخلى عن الرئاسة والانسلاخ تماما عن أي عمل في الجمعية باية صفة حتى يعملوا على تذليلها ، ولقد وقعت اتصالات جانبية كثيرة للكشف عن السبب ولكننا لم نصل معه الى نتيجة .

ونتيجة لهذا الحدث الغامض تقدم اثنان من الاخوان هما حديثا

اجتماع المؤتمر

عهد بالجمعية اذ لم يلتحق بها ولم يشارك في اعمالها بأي وجه من الوجوه الا في ذلك الاجتماع . فذلك اليوم هو اول عهد له بها . تقدم الاثنان كل منهما يطلب الرئاسة ، ولكل منهما قوة خفية تدفعه من الوراء وتؤديه في الظلام لغايات هم ادرى بها . تقدم الاول وهو السيد (...) وابرز مذكرة جاء بها جاهزة يطلب الموافقة عليها والعمل بها فيما اذا اسندت اليه الرئاسة واعلنت الثورة ودخلنا الوطن والمذكرة تتضمن شروطا اثارت جدلا حادا بل عنيفا بين المجتمعين الى حد جعل المرحوم « محمد غالب الكيب العلاقي » يطلب بلهفة والحاح شديدين من سكرتير الجمعية بوصفه رئيس الاجتماع بان يستعمل نفوذه ويوقف الجلسة نظرا لتوتر الجو بصورة مزعجة .

وامام هذا الجو المتكهرب طوى صاحب المذكرة مذكرته وانكمش ، وهنا خلا الجو للرجل الثاني وهو السيد (...) وهذا رجل شبه امي ولكنه على جانب من الدهاء والتلاعب والاستغلال ، تقدم هذا الرجل الثاني طالبا الرئاسة ولكنه لم يجد قبولا بل لقي معارضة شديدة فانكمش هو الآخر ولكنه اسر في نفسه امرا ينفذه عند سنوح الفرصة وهو على جانب من الدهاء كما قلنا آنفا .

انتظر هذا الرجل حتى ساعة متأخرة من الليل حيث لم يبق في المكان الا القادمون من الجنوب بما فيهم الشيخان : (ابن الحسن ـ وابن عبد النبي) رحمهما الله قائلا لهما ان الجو متأزم جدا وغدا قد يحدث ما لا تحمد عقباه . وهو يود انقاذ الموقف وعليه يطلب منهم موافقتهم على ان يقوم باعمال الرئاسة حتى اجتماع آخر فينتخب رئيسا للجمعية في هدوء واطمئنان . واكد لهم انه لم يكن راغبا في الرئاسة ولكنه يريد انقاذ الموقف .

ولقد وافقه الشيخان ومجموعة معهما على ذلك ولما عدنا في صباح اليوم التالي لتصفية الذيول اعلمونا بما تم بينهم وبين الرجل من

« اعطاء الكلمة » ولما وجهنا لهم اللوم عن هذا التصرف من الوراء قالوا : لقد اعطينا الكلمة وانتهى الامر (على حد تعبيرهم) ومعنى هذا عندهم انهم لن يتراجعوا في كلمتهم تلك . ولقد قبلنا ما وقع بحكم الظروف ، وبذلك بقي الرجل قائما باعمال الجمعية بصورة مؤقتة ودون ما انتخاب ولا محضر .

قلنا ان لكل من الرجلين طالبي الرئاسة قوة تؤيده وتعمل لتمكينه . واوضحنا ان الاول تخلى عن هدفه اثر تلك الزوبعة التي اثارتها مذكرته . اما الثاني فقد دبر امره بليل كما اوضحنا آنفا ولقد اتصل هذا بالجهة التي تؤيده وابدى لها انه في وضع غير ثابت وانه غير مرتاح لذلك ، ولا يستطيع ان يتصرف ، فطمانته هذه الجهة بانها ستعمل على تمكينه في أمد غير بعيد .

وبعد ان افترق المؤتمرون ، وعاد كل الى منطقته التي جاء منها لكي يستعد بمن معه للمستقبل المنتظر بعد مدة من ذلك لا استطيع تحديدها بالضبط حضرت في يوم من تلك الايام بادارة الجمعية فوجدت توصية تقول ان المسيو (سالومو) يطلب مقابلتي ، فذهبت اليه وبعد ان سألني عن بعض الاشياء في حديث قصير قال لي :

أود ان ابدي لك امرا . واريد منك ان تفهمه جيدا ...

فقلت تفضل يا استاذ انا سامع وتحت الامر ...

قال : نحن الآن في حالة حرب وقد ارتبطت مصالحكم بمصالحنا . فاذا ضاعت مصالحنا ضاعت مصلحتكم أتعرف هذا ..؟

قلت نعم اعرف هذا جيدا وهو كلام صحيح سليم ...

فقال اذن نريد منك ان تكون يقظا فنحن نعول عليك اكثر من غيرك وانت عربي مسلم كاهل البلاد . لذا تستطيع ان تختلط بهم . وهم يطمئنون اليك ، نريد منك ان تخبرنا عن العناصر الدستورية ، (يعني بذلك) عناصر الحركة الوطنية التونسية المتحركة » عن اجتماعاتهم

واماكنها وكن مطمئنا اننا سنحتفظ بسرك دائمـا كما تريـد . كما اننا نعطيك الكلمـة بأن لا نضـر احـدا منهم . وانما نوقفهم في اماكن معينـة ونوفر لهم اسباب الراحـة تحت الرقابـة حتى تنتهي الحرب فنطلق سراحهم ، افهمت .. ؟

وما كدت اسمع هذا الكلام حتى أحسست باضطراب نفسي شديد الوقـع ، وتهيـأ لي اننا بصدد الدخـول في صراع محرج وخطير . ذلك ان عمـلا كهذا لا يقبلـه ضميري ولا يتحملـه وجـداني ، مع منافاتـه للمصلحة القـوميـة ومجافاتـه للكرامـة الشخصيـة . والظروف خطيـرة ، والمعارضة فيها تعتبر جريمـة ، خصوصا ان تكون مـن عـربي ...

وفي تلك اللحظة هتف هـاتف في اعماقي قائـلا . ان الحركـات الـوطنية ومجابهـة المستعمرين ليست وظيفـة فيها كـرسي وفيها فلوس بل هي ميدان مـلآن بالجـوع والعـرى والعـذاب والمـوت . فاصدع بالحـق وتوكـل علـى اللـه . ولقـد بعث اللـه في روعي شيئا من الشجـاعـة الادبيـة فألهمنـي كلامـا كان مقبـولا ، كما قـذف اللـه في روع الـرجـل هـو الاخـر شيئـا من التفهـم وحـب الانصـاف .

فقلت : تسمح لي يا استـاذ سالومـو ، ان اجيبك بصراحـة .. ؟

فقـال : نعـم الصراحـة كـل الصراحـة ...

قلت : اعتقـد انكم تعلمون باننا نتذكر دائما . ومانسينا في أي مناسبـة من المنـاسبات ان نصرح ونعتـرف بفضل فرنسا علينا ، حينما التجـأنـا الى تـونس قبلتنا وأمنتنا ، بعـد ما اجتـزنا الحـدود . وفتحت في وجـوهنـا ميادين العمـل لكي نعيش ونستقـر . وهو ما نقـدره لها دائمـا ونشكرها عليه . كـل ما عـادت بنـا الذكريات الى تلك الايـام الخـوالي .

وما دمنا نقـرر هذا لفـرنسا ، فلا شك انـه في الـوقت نفسه لا ينبغي لنا بأي حـال من الاحـوال . ان نقف عكس ذلك تجاه اخـواننا التـونسيين وننسى فضلهم ، وقد استقبلونا بعطف اخـوي وفتحوا لنا ابواب منازلهم ،

وقاسمونا اقواتهم وشاركونا في آلامنا ورثــوا لحالنـــا ، وذلك هو كل ما يستطيعـون .

فوق هـذا وذاك فهم اخـواننا كما تفضلت حضرتك . فهـل من المروءة أم من الانسانيـة أن نقابـل ذلك كله بأن نصبح نقمـة عليهم في عقر دارهم .. ؟

لهذه الاسباب ارجـوك بصفتك الشخصية ان تكون في جانبنا في هـذا الموضوع ، وان تدافـع عنا جهـدك لكي تعفـونا من هـذا ... واعتمـادنـا عليك بصورة خاصة لانك تفهمنا اكثر من غيرك ، ومع ما تقدم فان لكـم في التـونسيين انفسهم ما يغنيكم عنا في هذا الامـر ، وبدون شك انهـم هم ادرى بحركاتهم وعناصرهم ، وهذا ما نرجوه منكـم ، ونكون شاكرين اذا تفضلتم بقبـول عـذرنـا ...

ولقـد كان الاستاذ « سالومـو » ينصت الي بعناية واهتمام حينمـا كنت اتكلم . ولما اتممت كلامي حول نظـره الى المنضـــدة امامه مطــرقا قليلا ثم رفـع راسه قـائـلا :

قـال : كلامك صحيح وانت على حـق فيما قلت ، ولكنها الظروف تقضي بهـذا واكثـر من هـذا ، وعلى كل اطمئن سوف أعمل ما يمكنني عملـه .

اقـول : وما كـدت اسمع كلامـه هـذا حتى إكبـرت الـرجـل وتنفست الصعـداء وحمدت الله ، اذ انني ما كنت انتظر منه هـذا الجواب بل توقعت منه انزعاجـا وغلظـة وغضبا وتهديدا . كمـا هـي عـادة الموظفيـن مـن المستعمرين الفرنسيين بتونس تجـاه من يعارضهم خصوصا ونحن في ظروف جـد دقيقـة والمعـارضة فيها تشكـل خطـرا على صاحبهـا .

قلنـا انتهى المـؤتمر الاول في نهج الصباغين ، وبعـد الانتهـاء وعـودة المـؤتمرين كـل الى جهته كما اسلفنا ، اتخذت الجمعية مقـرا لها في « نهـج الـذهب » المتفرع من نهج « سيدي محرز بن خلف » وبعـد حوالي شهر تقريبا الحت الجهة الفرنسية في اكثر من مقابلة الى رغبتهـا في ابـدال اسـم

الجمعيــة . وقــد القت الى مندوبها السيد « محمد اسكندر رحمــه الله تعالى . بالاسم الذي تــرغب ان يحــل محــل الاسم الاول ، وطلبت منه ان يقترحــه عند طــرح المــوضوع للبحث في اجتمــاع المــؤتمــر .

كما ان اجتماع المؤتمر الاول . تــرك الجمعية بدون رئيس . وهذان امران لا يمكن تسديدهما الا باجتماع المؤتمر مرة ثانية ، وفعلا فقــد تم استدعاء المــؤتمر ثانية ، واجتمع في آخــر مارس ١٩٤٠ م وذلك بالمقر الجديــد بنهج الــذهب وقــد دام الاجتمــاع يومين . وبعــد اتصالات ومباحثات حول الداعي للتبديل وافق المجتمعون عليه واصبح اسم الجمعية منذ ذلك اليوم كما يلي [جمعية التوادد والتعاضد بين المهاجرين المسلمين] كما تم انتخاب رئيس لها وقد فاز بالرئاسة السيد [ ] بقدرة قادر ..

وبعد الانتهاء بمدة لا استطيع تحديدها ولكنها في اواسط شهر ابريل على ما اتذكر دعاني الاستاذ (سالومو) الى مقابلته فذهبت اليه وبعد تبادل التحية وحديث قصيــر بدالي ان هذا الحديث ليس الا مقدمــة ولذا قد توقعت ان وراء هذا الحديث ـــ حديثا لابد ان يكون اهــم واخطر . وفعلا فقد تخلص بعد ذلك الى ما يلي :

س : هل الطريقة السنوسية منتشرة في طرابلس ..؟

ج : نعم منتشرة بكثرة قلت هذا لاني توقعت ان وراء هذا غاية لذلك عولت على المبالغة .

س : انا اعني جهتنا هذه القريبة من هنا اعني طرابلس فقط من غيــر برقــة .

ج : اجبته بهدوء وبساطة كانني لم افهم ما يرمي اليه فقلت نعم انــا أيضا اعني طرابلس فالزوايا منتشرة ولها مشائخ واتباع يكونون الاغلبية الساحقة . وعندها بدا على وجه (سالومون) الامتعاض

س : كيف تقول هذا وبين الطرابلسيين والسنوسيين عــداوات بسبب المنازعات القديمة والضغائن لا تزال كامنة في الصدور .

بطاقة الجمعية بالعلم

ج : هذا صحيح وقع في الماضي ولكن البلاد انتبهت لتلك الغلطات وان كان الانتباه جاء متأخرا بالنسبة للميدان الداخلي . وعلى كل فقد ذهبت تلك الاحداث المؤسفة وطويت صفحاتها في اكفان التاريخ وبقيت الموعظة وها هي جمعياتنا في الشرق وفي والغرب تضم الطرابلسيين والبرقاويين وهذا دليل على ما اقول .

س : اسمع اذا كان الاتفاق غير ممكن بين الطرفين في المستقبل وهذا ما اعتقده نظرا للسوابق التاريخية فليكن العمل منفصلا من الان . كما طلب مني ان اطرح الموضوع على اعضاء الجمعية لبحثه على ضوء الماضي وان اعرفه بالنتيجة .

ج : سافعل ذلك ان شاء الله . وحينما عزمت على الانصراف استوقفني وقال اود أن الاحظ لك شيئا وهو ان هذا الكلام الذي ابديته لك هو رأيي الشخصي . وليس من الحكومة الفرنسية ولذلك نبهتك لكي تعتبره كذلك .

ولقد كان حاضرا في هذا الاجتماع الكبتان (اجي) وبهذه المحادثة اتضح لي تماما السبب الغامض الذي اجبر المرحوم « محمد شكري كويدير » على الاستقالة . والاحظ هنا انني قد توخيت المبالغة في موضوع انتشار الطريقة السنوسية باقليم طرابلس آملا في ان يكون في ذلك تأثير على نواياهم السيئة المبيتة . ولكن الامور بيد الله هو الذي يسريها كيف يشاء لا كما يشاءون غير أن الاستاذ « سالومو » كلما برهنت له على وشائج وحدة البلاد وادلتها امتقع لونه وكاد ان يوقفني عن الكلام بلهجته التي تتسم بالشدة والامتعاض الا انني تظاهرت بالتجاهل وعدم فهم قصده . وواصلت خطتي في سذاجة مفتعلة كانني لم افهم شيئا مما يرمي اليه من امتعاضه ذاك .

ومن الغد أعدت هذا الحديث في اجتماع لاعضاء الجمعية بمقرها . وقد فهم الجميع ان هناك اتفاقا سريا بين الحلفاء لاقتسام بلادنا . ولكن الله سلم « أنا أريد وانت تريد والله يفعل ما يريد » ولم يكن في حسبانهم انهيار

فرنسا . ذلك الحدث الذي غير مجرى التاريخ خصوصا بالنسبة لبلادنا . فلقد نسف هذا الحدث كل ما سبقه من ارتباطات واتفاقات وهذا مـــا اراده الله « ومصائب قوم عند قوم فوائد » .

ان ذلك الحدث قد جعل فرنسا في نظر حلفائها غير ذات موضوع رغم وجود « الجنرال ديجول » بينهم . ولكن في الحقيقة والـــواقع كان وجوده بينهم « كفحل بلا ابل ــ او تيس بلا معز » وبسبب ذلك التبرم غير الشريف في سياسة الحلفاء نحو حليفتهم فرنسا التي كبأ بها الجواد من اجل الجميع تغيرت السياسة الفرنسية الى ما هي عليه اليوم . وبمناسبة هذا الاجتماع انضم للجمعية الاخوان التالية اسماؤهم :

محمد حلمي الجحاءي	الخمس	مسعود محمد كعرود	الرحيبات
محمد علي العرضاوي	الرحيبات	عبد الله السركسي	مسراتة ــ
يونس عبد النبي بلخير	بني وليد		ختنة
نور الدين شميلة	زليتـــن	الهادي الحـــرك	نواحى
الشيخ مفتاح الفيتوري	زليتـــن	سالم ابراهيم الدوة	الرحيبات
الطاهر القمودي	مسراتة	الشيخ محمد الغطاس	زليتـــن
عبد الهادي الزركون	بني وليد	الشيخ احمد الفرجاني	ترهونة
الشيخ مفتاح الزنتاني	زليتـــن		

الحرب العالميـــة الثانيـــة ١٩٣٩ - ١٩٤٥ م
او ايطاليا تعلن الحرب وسفري الى الجزائر

قلنا اجتمع المؤتمـــر الثاني بعدما اتخذت الجمعيـــة مقـــرا لها في نهج « الذهب » ومنها اصبحت الاجتماعات متواليـــة والاستعدادات للمستقبـــل القريب والبعيد جارية . ونحن نهييء انفسنا لما ينتظرنا من المواقف العصيبة تجاه العدو والصديق على السواء . ذلك لانه لا يوجد في قامـــوس المصالح الدولية . صديق تدوم صداقته . ولا عدو تدوم عداوته . وانما هما حالتـــان ترتبطان بالمصالح القومية للدول ارتفاعا وانخفاضا . وهذا هو لون السياسة الدولية . ومن لم يكن ذئبا اكلته الذئاب .

وفي اليوم الحادي عشر من شهر يونية ١٩٤٠ م اعلنت ايطاليا الحرب على الحلفاء . وفي اليوم الموالي ١٢ منه استدعيت من طرف المكتب المختص. فذهبت اليه . وعند حضوري طلب منـــي أن نستعـــد للسفر الى الجـــزائر للالتحاق بالقيادة العامـــة للحلفـــاء في شمال افريقيا . وكان مقـــرها في « الجزائر » على ان يكون السفر باقصى ما يمكن من السرعة .

وبعدما تلقيت هذا الامر عدت الى الاخوان في مقر الجمعية . وقد كانوا في اجتماع متواصل نتيجة لاعلان ايطاليا الحرب . واعدت لهم ما طلبه مني المكتب الفرنسي من امر السفر . فاستولى على الجماعة جو من الوجـــوم والتفكيـــر العميق .

وبعد لحظة في ذلك الوجوم . تكلم الاخ محمد عباس . قائلا : [يجب ان ترفض . مالنا والقيادة . فنحن اتجاهنا الى بلادنا لبدء الثــورة . وان هذا السفر لكأنه امر مبيت سيؤدي الى تشتيتنا الذي ينتج عنه ضياع مصلحتنا الوطنية . لان اتصالنا ببعضنا والتشاور في خططنا وما يطرأ من الامــور يصبح متعذرا . ونحن ما دخلنا هذه المعمعة لكسب شخصي مادي كان أو معنوي . وانما لتحقيق مصلحة وطننا وهي استقلال بلادنا .]

وبعد هذه الجملة من الاخ عباس انطلق الاخــوان في بحث الموضوع . وبعد مناقشة اجمعت الاكثرية الساحقة التي كادت ان تكون اجماعا على أن الظروف ضيقة لا تقبل المعارضة وعليه يجب التنفيذ .

وفي نفس الوقت غادرت الاجتماع عائدا الى منزلي في « الكرم » لكــي أهيء نفسي للسفر . وقبل ظهر يوم ١٢ منه جــاءت الطائــرات الايطالية المغيرة مستهدفة المنشئات الحيوية في المنطقة . من بينها : مركز توليــد الكهرباء في « حلق الوادي » ومطار « آيروبور » الجوي . والخط الحديدي المكهرب الرابط بين تونس العاصمة واحوازها الشمالية من حلق الوادي الى المرسى — وغير هذه من الاهداف .

وقد اخذت الطائرات تمطر هذه الاماكن بوابل من قنابلها المــزعجة . ومن الطاف الله تعالى انها لم تصب اي هدف من الاهداف في ذلك اليوم .

ولقد كان ذلك اليوم يوما تاريخيا في حياة تونس وشعب تونس . يومــا ويا له من يوم . يوما اذهل العقول ، واضطربت فيه النفوس ، وطارت لهوله الالباب . يوما خرجت فيه النساء المحجبات حافيات يخبطن الارض بارجلهن بدون وعي في ذهول وشرود . وتخلى الكثير من الرجال عن كبريائهم . وهم يهرولون في ذعر وانزعاج لا يفكرون في غير انفسهم . يوما يمثــل صورة مصغرة من يوم القيامة كل يطلب النجاة لنفسه وكفى .

والواقع ان الناس معذورون . اذ لا عهــد لهم بمثل هذه الاحــداث في ماضيهم . فهي أول مرة في تاريخ تونس فيما اعلم يرون طائرات حــربية

عدوة تغزو الفضاء التونسي محلقة فوق رؤوس الناس . وتلقـي بصواعقها على أهداف ضخمة وحيويـة . ولقد زاد في رهبـة الموقف اختلاط صدى انفجارات القنابل بهدير الطائرات فكونا معا صدى رهيبـا مزعجا يصم الاذان . ويهز مشاعر كل انسان رغم ارادته مهما اوتي من قوة الجنان .

ومما يزيد في هول المنظر ، ورهبة الموقف ، واضطراب النفوس هو أن بعض القنابل سقطت في الطرف الشمالي (من بحيرة شكلى) فشاهد الناس المفعول المريع لتلك القنابل فحينما تسقط القنبلة داخل تلك المياه الضحلـة لهذه البحيرة يندفع الماء صاعدا الى علو شاهق في خفة وسرعة خاطفـة كانما هو يدفعه الشوق المتاجج المضني لاستقبال القنبلة وتقبيلها قبل أن تصـل اليـه .

وهذا امر زاد في ازعاج الناس على السواء . وقد انتشر رجال الدفـاع السلبي في كل مكان وكلهم من العرب في تلك المنطقة يرشدون الناس لاتقاء الاخطار . وقد قاموا بواجبهم خير قيام .

قلت آنفا غادرت الاخوان في مقر الجمعية بعد ان اجمعوا على وجـوب التنفيذ . وبعد ان تقرر من الجميع ان يحل محطي في اعمال الجمعية الاخ « محمد عباس » وفي يوم ١٣ يونية ١٩٤٠ م ركبت القطار من تونس وتحرك بنا في اتجاه الغرب بطريق « غرديماو » صوب الجزائر تاركا عائلتي في ذلك الجو المرتبك الرهيب . والاخوان في اتصالات مستمرة مع السلطات الفرنسية آخذين في جمع الصالحين من المهاجرين لحمل السلاح. وقد كان محل التجمع مكانا قريبا من (قفصة) استعداد لتسلم الاسلحة في ساعة الصفـر للزحف على حدود بلادهم . ولقد بلغ عدد الذين تجمعوا واستعدوا حتى يوم سفري اربعة الاف رجل ولا تزال بعض مجموعات لم تصل بعد .

قلت ركبنا القطار . والجدير بالذكر هو انني لم تسبق لي معرفة بارض الجزائر ولا بشعبها ، والافراد الذين اعرفهم كانت معرفتي لهم بطريق المكاتبة وهم كلهـم من عناصر الحركة الوطنيـة . وهذه العناصـر كانت في تلك

الظروف مشتتة بين السجون والاقامة الجبرية . والمراقبة الشديدة اليقظة من طرف السلطات الفرنسية . ومع ذلك فمواقفنا مختلفة واتجاهاتنا متباينة عمليا . اذ لسنا في طريق واحدة . فانا في واد . وهم في واد آخر . وإن كان الجوهر واحدا ولكنها مواقف فرضتها ظروف وحتمتها مصالح ليس لنا فيها من اختيـــار .

وفي يوم ١٤ يونية ١٩٤٠ م بعد الظهر الثاني وصل القطار الى الجزائر العاصمة بعد أن قطع بنا مسافة الف ومائتي كيلو متر . مخترقا انفاقا يمتـــد بعضها كيلو مترات تحت جبال شاهقة خضراء تكسوها اشجار باسقة متطلة الاغصان متشابكة الافنـــان كأنها شجرة واحدة تغطـــي الجبل كله . وصل القطار . ونزل منه عالم كبير لا اعرف منه احدا . ولقد سرت في غمرة تلك الجماهير الكثيفة المتجهة نحو المصعد «Sancëur» للصعود الى المدينة . وكنت افكر أن أقصد أي فندق من الفنادق ومنه اجري اتصالات تليفونية مع الجهات الرسمية ذات الاختصاص .

وبينما كان هذا التفكير يدور براسي ، اذ وقع اكتشافي بطريقة جوسسية لطيفة وانا سائر في تحفظ وذونما التفات ولا ما يدل على انني غـــريب عن البلد ، اذ بي اسمع من الخلف وعلى حين غفلة صوتا خـــافتا هادئا يقول : « زارم » وبدون أن أفكر فيمن يكون هذا المنادي ؟ وما هي دوافعه ؟ أدرت وجهي نحو مصدر الصوت وبمجرد التفاتي تقدم مني شخصان احدهما عربي والثاني أوروبي — وسألني الاوروبي انت : احمد زارم ..؟ قلت نعم . ومن انت لم اعرفك ، فقال نحن مكلفـــان باستقبالك استقبالا ســـريا من طرف الحكومـــة .

فالاوروبي رجل قصير القامة نحيل الجسم في حوالي الخمسين من العمر حسبما يبدو لي . أما العربي فهو شيخ على راسه عمامـــة بيضـــاء يرتدي لباسا عربيا على الطريقة الجزائرية طويل القامـــة خصب الجسم في غير سمنة حاد النظر ، ابيض اللون ، يناهز الخمسين هو الآخر . ولقد عرفت

فيما بعد ان الاوروبي مستشرق اسمه « روفيى » وقد قيــل انه استــاذ بالمدرسة الثعالبية وهو يتكلم العربية باللهجة الجزائرية .

اما الشيخ ، فهو الشيخ « احمد بن زكري » واظن أصله من جبل «زواوة» وهو من ابرز الشخصيات الجزائرية ومن أصحاب الثقافة العالية في اللغتين العربيــة والفرنسية . حسبما قــرأته عنه في الصحف حينما عيــن نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية بعد الهدنة وبعد التعارف سرنا جميعا نحو المصعد « Sanceur » ثم ركبنا سيارة اجرة نقلتنا الى بيت الشيخ احمــد وهناك تركوني لآخذ الراحة من تعب السفر .

ومن الغد خرجت صحبة الشيخ احمد لشراء حاجات كانت بالنسبة لي ضرورية لكي اغير بها الزي حتى لا اكون ملفتا للانظار نظرا لجو البلاد الذي يسيطرعليه الحذر والانتباه خوفا من الجوسسة والبوليس السري تشعر به في كل خطوة تخطوها والعيون مفتحة لكل حركة ياتيها الانسان . لذلك كان لزاما علي التكيف مع هذا الواقع الجديد .

وفي اليوم الثالث خرجنا لنتجول في البــلاد وبالمناسبة زرت ضــريح « سيدي عبد الرحمن الثعالبي » رضي الله تعالى عنه . ثم عــرجنا على المدرسة الثعالبية . وهي مدرسة جميلة البناء متسبعة الارجاء تقع في مكان مرتفع من المدينة . وعند خروجنا منها دخلنا حديقة عمومية اظنها تابعــة للمدرسة او هي حذوها . وهذه الحديقة منتــزه عمومي جميل المنظر حسن الموقع تكسوه النباتات الخضراء وتزينه الازهار ذات الالوان المختلفة . وفي هذا المنتزه مقاعد حجرية متناثرة هنا وهناك فوقفنا قليلا وسرحت نظري يمينا وشمالا واظهرت اعجابي بذلك المنظر الجميل والموقع البديع . وعندها قال لي الشيخ احمد : هذا منتزه عمــومي وامثاله كثيــرة للترفيه علــى الفرنسيين بينما نحن العرب الكثير منا يرقد في الشوارع تحت الجدران في أيام الحر وفي أيام البرد على السواء . ولا تسأل عن المظالم فهي اكثــر من أن تعــد .

وبعد انتهاء الشيخ من كلامه هذا ، قلت له : اذن كيف تجد فرنسا من يقف بجانبها من المسلمين ما دامت هذه هي معاملتها وما دام هذا الشعور يملا الصدور ويختلج في النفوس !؟

فأجابني الشيخ احمد بقوله : نحن قلنا لهم « يعني عناصر الحركة الوطنية الجزائرية » اذا كنتم تريدون ثورة مسلحة ووفرتم لنا مقوماتها ، فنحن معكم في الطليعة . اما اذا كانت الحركة سنيانسية سلمية فهي لا تزيدنا الا ضغطا وحرمانا عما نحن فيه . قال هذا القول وسكت . وفي الواقع ان كلامه هذا لم يقنعني غير انني انتبهت للموقف الذي انا فيه ورأيت أن التوغل في مثل هذا الموضوع ليس من مصلحتي في تلك الظروف فسلمت جدلا .

ومن هنا ، من تلك الحديقة الزاهرة انحدرنا نحو مقهى لاحد اصدقاء الشيخ احمد اسمه « الحاج حسين » وهو كصديقه من زوارة . وهذه المقهى تقع بالقرب من ميدان صغير يعرف اذ ذاك باسم « بلاصت العود » سمعت انه بعد الاستقلال اطلق عليه اسم « ميدان الشهداء » والجدير بالملاحظة ان تحت قاعة هذه المقهى مكانا متسعا ومفروشا ونظيفا معدا للصلاة . فاذا حضر وقت الصلاة ترى الكثير من الجالسين يرفعون تربيعة من الخشب وينزلون منها لاداء الصلاة والذي لا يعرفها لا يظن انها مدخل بل ولا ينتبه اليها لانها طليت بطلاء في لون الزليز ومقسمة في حجمه .

نحن في طريقنا الى المقهى . وقد لفت انتباهي منظر غريب واثار في نفسي حيرة وعجبا . لم استطع السكوت ، فدفعني الفضول رغم وضعي وضغطت على غريزة حب الاطلاع حتى استوقفت مرافقي الشيخ احمد لاوجه له السؤال التالي عن هذا المنظر الغريب عني .

وهذا المنظر الذي حيرني هو اني رايت بناء ضخما تدلّ جميع مظاهره على أنه جامع وصومعته قائمة وهي في شكل مربع على نسق الطريقة الحنفية ويقع في أحسن موقع المدينة . وقد رايت النصارى يدخلون اليه ويخرجون منه بينما لم ار مسلما دخل اليه أو خرج منه . فلهذه الظواهر

الغريبة سألت الشيخ احمد بن زكري : أهذا جامع أم ماذا .؟! فسكت لحظة . ونظر الى البناء المذكور . وقال لي ، متاثرا جدا : هو جامع اسلامي فعلا بني في عهد الاتراك العثمانيين واليوم انقلب الى كنيسة . وسكت قليلا ثم واصل كلامه . قائلا :

ففي وقت من اوقات هذا الاحتلال المشؤوم . قال الفرنسيون : بما أن جوامعكم كثيرة نريد اخذ هذا الجامع لنحوله الى كنيسة وهو ما وقع فعلا .

وسألت الشيخ : وما داموا قد حولوه الى كنيسة لماذا ابقوا على مظاهره بما فيها الصومعة ..؟

فأجابني : ليس الصومعة فحسب بل حتى المحراب داخله لا يزال كما هو ...

فتساءلت وما السر في ذلك ..؟

فاجاب : لا اعرف لذلك من سر . الا الامعان في اذلال المسلمين وقهرهم كي يقتلوا ما بقي في نفوسهم من شعور بالكرامة . واحساس بالاسلام . والتفكير في الاصل .!!

وبعد ثلاثة أيام قضيتها في بيت الشيخ احمد . انتقلت الى « فندق » « هوتيل » لم اتذكر اسمه . ولا اسم الشارع الذي يقع فيه . واظن انه قرب « باب الوادي » .

وفي يوم من تلك الايام . وبعد صلاة المغرب بقليل جاءني الشيخ احمد بن زكري . وذهبنا معا الى حيث التقينا بضابطين هما : ليفي بروفنصال — ومنطان — واتجهنا جميعا في تلك الليلة الى مطبعة ضخمة لم أتمكن من معرفة اسمها . ولا الحي الذي تقع فيه . وهناك طلبوا مني كتابة منشور باللهجة العامية الليبية جاء فيه تفاصيل القبض على المجاهد الشهيد « عمر المختار » رحمه الله . وكيف أعدم بأيدي الايطاليين . وبالجملة فهو منشور اثارة لشعور الجنود الليبيين . وحثهم على الانحياز لصفوف الحلفاء لتحرير بلادهم مع اخوانهم الزاحفين .

نبأ وفاة البـــاروني

وفي اليوم الموالي لكتابة المنشور الآنف الذكر بينمـــا كنت جالســـا في حجرتي بالفندق اطالع كتاب : (الدولة العربيـــة المتحدة) تاليف المرحـــوم (امين سعيد) المصري وقد استصحبته معي لأتامل في الاماكن الواقعة على مشارف المدينة والتي يصفها هذا الكتاب بانها مواقـــع كان يعسكـــر فيها المجاهدون يحاصرون جيوش الاستعمار القابعة داخل المدينة أيام الحروب الجزائرية الفرنسية في أوائل القرن التاسع عشر بقيادة المغفور له الامير عبد القادر الجزائري ذلك البطل العظيم برد الله ثراه .

بينما كنت أطالع الكتاب وانظر من نافذة الغرفة الى الاماكـــن المذكورة كمنطقة باب الـــوادي مثلا . وغيرهـــا التي اصبحت اليوم كلهـــا عمارات وشوارع معبدة فهي اليوم من احياء المدينة . اجل بينما كنت سارحا أحلق بمخيلتي في أجواء التاريخ الفسيحة . اذ بطارق يطرق باب الغرفة ففتحت فاذا هو الشيخ (أحمد بن زكري) يستدعيني للغداء في بيته . ذهبت معه وبعد الغداء بقليل دخل علينا الضابطـــان « ليفـــي برونصال — ومنطان) فالاول يهودي فرنسي مستشرق وهو رئيس المكتب السياســـي في القيادة العامة للحلفاء بالجزائر . والثاني قائد اسراب الطيران في القيادة . وبعد تبادل التحية اخذ كل منا مكانه . وبعد حديث قصير وجه لي (بروفنصال) السؤال التالي :

س : » من هم الزعماء الذين طلبتم استقدامهم من الشرق ..؟

ج : » الباروني ـ السعداوي ـ عون سوف ـ أحمد السويحلي ..

قال : » بعد غد يصل الجزائر اثنان منهم

قلت : » من هما ...؟

قال : » عون سوف ومعه شخص آخر . ولما لم يذكر اسم الشخص الثاني عرفت انه من غير المطلوبين وقد اتضح عند وصولهما انه الاستاذ « محمد توفيق الكميشي الغرياني » رحمه الله .

قلت : » والسعـــداوي ..؟

قال : » ابن السعود لا يسمح له بالتغيب ..!!

قلت : » والسويحـــلي ..؟

قال : » كان مستعدا غير انه في آخر لحظة تراجع في موقفه وامتنع عن السفر ...!!

قلت : » والبـــاروني ..؟

قال : » ارسلنا له برقية ليعد نفسه لركوب الطائرة وحددنا له المكان والزمان فرجع الجواب يقول ان الباروني قد توفي منذ خمسة عشر يوما مضت ...

وحينما سألت الضابط عن الباروني توقف عن الجواب قليـــلا ونظر لي نظرة فيها شيء من الحيرة . ثم قال الخبر . واقول الحق ، لقد كان لهذا النبأ المفاجىء صداه السيء في نفسي وتاثيره الاليم على شعوري

وفي الواقع انها صدمة شديدة عنيفة اوصلتني الى حد الذهـــول . ولقد حاولت جاهدا التجلد وعدم الاهتمام بالنبأ ولكن التأثير كان باديا وقد خيم السكوت على الجميع لحظة ثم خرق جو السكوت الضابط (بروفنصال) محاولا تحويلي عن ذلك الذهول فقال ان الارتباك من باب الضعف في مثل

هذه الظروف . انما يجب التجلد وقوة الصبر . فالانزعاج والحزن لا يفيدان شيئا فالوقت وقت عمل .

فاجبته بصوت متأثر . نعم كلام صحيح ونحن وان كانت هذه بوادر غير سعيدة بالنسبة لنا الا اننا سائرون في طريقنا المرسوم قطعا الى النهاية . فلا يضعفنا اي حادث مهما عظم . وهنا تدخل الضابط « منطان » وقال لزميله : لقد تلقى الرجل صدمة وله الحق . فلنتركه الى غد . وغادرا المكان .

ولقد امضيت تلك اللية بدون نوم اتصارع مع الهواجس النفسية . واسأل نفسي هل مات الباروني حقا ..؟ ولماذا لا يموت الا الآن ..؟ وفي هذه الظروف بالذات ..؟ اليس هذا نذير شؤم بالنسبة لمستقبل حركتنا ولما نهدف اليه ..؟ ما هي عواقب هذه المصادفات السيئة يا ترى ..؟

السويحلي يعدل عن المجيء في آخر لحظة .!!

السعداوي لا يسمح له ابن سعود بالتغيب .!!

الباروني يموت في هذا الظرف بالذات .!!

هل انا الآن في منام مزعج سوف تذروه رياح اليقظة عند الانتباه ..؟

ام هي الحقيقة المرة الاليمة ..؟ ارجو الله ان يجعل العاقبة خيرا ...

ولقد امضيت تلك الليلة في هواجس مزعجة واحلام مرعبة وفي غمرة هذه الهواجس والافكار حاولت ان اقول ابياتا من الشعر لاعبر بها عن حالتي النفسية في تلك الليلة . ولكنني لم استطع . والواقع انا لست بشاعر ولا اعرف الشعر وان كنت قد قلت كلمة وبالمراجعة وجدتها الى السجع اقرب منها الى الشعر فتركتها ولم احتفظ بها . وعلى كل فهي تعبر تماما عن حالتي النفسية .

والواقع ان هذه الاحداث المفاجئة وغير المتوقعة هي مصادفات مخيفة تبعث التطير في نفس المسلم نظرا لوقوعها في ظروف جد خطيرة ومستقبل جاهم غامض . واقول الحق انني قد تطيرت منها . وقد كنت اكره التطير والمتطيرين .

ولاغرو فان الباروني رحمه الله له منزلة ممتازة في نفوس الشعب وسمعته منتشرة داخل الوطن وخارجه نظـرا لغزارة علمه وكثـرة تجاربه وظهور شخصيته ونحن على ابواب حرب تعمل فيها الاسلحة عملها أولا ، ثم تدخل المناورات السياسية والانتباه الفكري تغذيهما زبدة التجارب . تدخل هذه العوامل قبيل النهاية الاخيرة للصراع المسلح وهي التي تثبت المصالح وتقر الحقـــوق .

ونحن وان كنا معتمدين على الله أولا ، ثم على أنفسنا بالذات . وعلى شعبنا عند الاتصال وقد اعددنا انفسنا للوقوف في وجـــه كل المناورات . ومصارعة كل المحاولات لانتزاع حقوق بلادنا من أي كان ما استطعنا لذلك سبيلا الا أننا رأينا انه من باب الاعتراف للفاضل بفضله والسابق بسبقه اعطاء السيف باريها مادام مخلصا وقادرا ومستعدا .

ولذلك فقد اتجهت افكارنا نحو زعمائنا القدامى أبطال الجهاد الاول نظرا لما لهم من الخبرة والتجارب . اربعة زعماء طلبنـــا استقدامهم . فلم يحضر منهم الا واحد هو : المرحوم « عون محمد سوف » وهذا من الناحية الحربية والشجاعة والاقدام والاخلاص في منازلة الاعداء في الذروة من زعمائنا ولا يجارية في ذلك اي منهـــم ولكن من الناحيـــة العلمية والسياسية لم يكن كذلك .

ومن المعلوم المسلم به ان نتيجة الحروب لا تكسب بالشجاعة والاخلاص وحدهما كما انها لا تكسب بالعلم والسياسة وحدهما . وانما لا بد للفـــوز بالنتيجة المطلوبة من هذه وتلك .فالسيف اذا لم تكن له اقلام تعززه وآراء تؤيده لا ياتي بنتيجة مرضية كما أن العلم والسياسة لا يردعان العدوما لم يفعل السيف فعله ... هذه هي العوامـــل التي جعلتنـــي أتلقى نبأ موت الباروني . وعدم مجيء السعداوي والسويحلي بعميق الحيرة والارتباك .

ومن غد ذلك اليوم الذي تلقيت فيه هذا النبأ . وبعيـــد المغرب جاءني الشيخ احمد وذهبنا معا الي الضابطين المتقدم ذكرهما . ثم ذهبنا جميعا الى

المطبعة التي ذهبنا اليها اول مرة . وفيها كتبنا منشورا آخر كالاول عن عمر المختار ـــ وهذا عن الباروني . ولما اخذت في الكتابة قال لي الضابط « بروفنصال » قل ان سبب موت الباروني هو ان الايطاليين أرسلوا له احد عملائهم فدس له السم فمات مسموما .

وحينما قال لي هذا الكلام توقفت عن الكتابة . وسألته : هل هذا صحيح ..؟ فتردد قليلا ثم قال مبتسما نحن في حالة حرب وكل ما يفيد في الحرب جائز . ومن هنا فهمت ان الموت كان طبيعيا .

ملاحظة على ذكر المناشير

تقدم ان ذكرت باننا كتبنا منشورين وقد القي المنشوران في الاراضي الليبية بواسطة الطائرات والغريب في الامر هو انني حينما جئت الى طرابلس بعد انهزام ايطاليا في السنوات ١٩٤٣ و ١٩٤٤ و ١٩٤٨ م الى ان وقع اخراجنا من الوطن في مارس ١٩٥٢ م بصورة سيأتي تفصيلها فيما بعد .

وفي كامل هذه السنوات وانا افتش واسأل الكثير من المواطنين عن هذه المناشير عسى أن اجد منها واحدا لكي اضمه لهذا المذكرات فما وجدت لها من اثر . ولا عثرت لها عن خبر . ولكن بعدما نشرت حلقات من هذه المذكرات في جريدة « الشعب » لصاحبها الاستاذ علي مصطفى المسراتي . واشرت فيها الى هذين المنشورين وبينما كنت في يوم من الايام سائرا في احد شوارع طرابلس اذ استوقفني احد الاخوان من الذين اعرفهم ومن الاصدقاء الصادقين والذين لا اشك مطلقا في صحة كلامه . استوقفني هذا الاخ وبعد تبادل التحية قال لي : ان المنشور الذي ذكرته في مذكراتك . ولم تجد من وقع في يده او علم به . اود ان افيدك بان احد هذين المنشورين استطيع ان اخبرك عنه . قلت كيف ذلك .؟ هات يرحمك الله . قال : انا شخصيا رايته ووقع بيدي . قلت : اخبرني قال : لقد نودي علي في مركز البوليس الايطالي في ذلك العهد وقدموا لي المنشور بعينه طالبين مني ترجمته

للايطالية فترجمته . وهنا قلت لصديقي هذا اذا كنت لا ترى مانعا . فاكتب لي رسالة في الموضوع لكي آخذها « بالزنكوغراف » لوضعهـا في كتاب ذكرياتي . فكان جوابه بالايجاب . ولكن انتظرت منه ذلك حتى طبعت هذه ولم يفعل .

عون وتوفيق فى الجزائر

ففي اليوم الثاني وبعد كتابة المنشور الثاني وصل الجزائر السيدان : « عون محمد سوف ، ومحمد توفيق الغرياني » قادمين من القاهرة بطريق الجو عبر السودان العربي « المصري سابقا » وتشاد وبينما أنا جالس في حجرتي بالفندق واذا بالشيخ احمد بن زكري يطرق البـــاب ففتحت له وبعد تبادل التحية جلس ليقول لي : الجماعة وصلت وهما الآن بالمقهى .

وبما أن الحالة كانت متحرجـــة والبوليس في يقظـــة يتتبع كل حركة ويسترق من كل لهجـــة ويقترب من كل زي يخالف زي البـــلاد خـــوفا من جوسسة العدو . ومن جهة اخرى فان عناصر الحركة الوطنية الجزائرية تشغل بال السلطات الفرنسية . نظرا لهذه الحالة فقد نبهني الشيخ أحمد بان لا آتي بما يلفت الانظار حتى في طريقة التحية مع الاخوين يجب أن تكون عادية للغايـــة .

ولقد نهضت معه الى أن وصلنا قرب المقهى التي يجلس بها « عون ، وتوفيق » فتخلف الشيخ وسرت لوحدي فوجدتهما جالسين فتبادلنا التحية طبقا للتوصية ولم امكث معهما الا لحظة قصيرة ثم افترقنا . وبعد أيام لا أعرف عدتها من وصولهما انتقلنا بامر من السلطة العسكرية الى داخل نطاق القيادة العامـــة .

وفي داخل هذا النطاق خصصت لنا « ڤيلا » يحيط بها بستان متسع

زارم - عـــون - توفيـــق

الاركان تعمره أشجار مثمرة مختلفة الانواع مسيج باشواك طبيعية (طلح) واخرى صناعية من الاسلاك الشائكة . ومقر هذه القيادة يقع الى الجنوب الغربي من مدينة الجزائر فيما اتصور في منطقة جميلة ذات تربة زاهية واشجار خضراء وارفة اسمها « بنعكنوت » وهي احدى ضواحي العاصمة . وقد كان رئيس هذه القيادة جنرال فرنسي اسمه « نوجيس » وكان معه جنرال انجليزي كنت قد سجلت اسمه عندي ولكنه ضاع مع غيره من الاوراق .

ومنطقة القيادة هذه متسعة ومحاطة كلها باسلاك شائكة ذات ارتفاع وعرض كبيرين ولها مداخل معينة يحرس كل مدخل منها جندي شاكي السلاح في منتهى اليقظة والانتباه لكل حركة لا يدخلها أحد ولا يخرج منها الا برخصة خاصة .

وفي هذه « الفيلا » خصصت لنا القيادة رجلا مسنا اسمه « اعراب » من قبائل « زواوة » رجل وديع في حوالي الخمسين من العمر أو اكثر قليلا . نحيل الجسم قصير القامة ولكنه على غاية من النشاط والانتباه محافظ على الصلاة كامل المدة التي قضاها معنا مهمته شراء ما يلزم من المدينة وطهي الطعام يدخل ويخرج يوميا للمنطقة برخصة خاصة . وقد كنا نحن في هذه « الفيلا » ندرس الطرق وآماكن المياه ومراكز الجيوش ومواقع القبائل وميولها وغير ذلك بواسطة خرائط عسكرية ومدنية وفرتها لنا القيادة .

وفي يوم من تلك الايام الخوالي بينما كنا جالسين ثلاثتنا اذ بالضابطين (ليفي بروفنصال ، والكبتن منطان) يصحبهما الشيخ احمد بن زكري والاستاذ (روفيي) وبعد جلسة قصيرة شغلتها مقدمة حديث تمهيدي طلبوا منا والمتحدث منهم (بروفنصال) تحرير كلمة تكون مركزة وبليغة ضد « الامير شكيب أرسلان » رحمه الله للتشهير بموقفه المنحاز لالمانيا واعتبار ذلك خيانة منه على أن يلقيها احدنا في الاذاعة .

وبعد لحظة تبادلنا خلالها النظرات فيما بيننا تكلم المرحوم « عون سوف »

قائلا لهم غدا ان شاء الله نجيبكم عن هذا والى هنا غادرونـــا جميعهم . واخذنا بعدهم نتداول الامر . ولم تكن المداولة في أن نفعل هذا أو لا نفعله كلا . ولكننا كنا نفكر في طريقة الرفض باسلوب هادىء ومنطق معقول وعذر وجيه مقبول حتى لا نقع في خلاف معهم ونحن على أبواب الثورة . ومن جهة أخرى ان الاساءة الى شخصية هي من أعظم شخصيات العرب والمسلمين في عصرها هي الخيانة بعينها . خيانة للقضية العربية واهانة للقومية . وضربة في الصميم بالنسبة لنا نحن الليبيين مهما كانت الظروف والمصالح ومهما كانت حجتنا .

وهنا قال المرحوم « عون سوف » : « الجماعة يريـــدون الضحك على ذقوننا » فهل نحن جئنا هنا لمحاربة ايطاليا أم لمحاربة بعضنا ..؟ ومن هنا حددنا الجواب الذي يجب أن يقال على أن يبدأ بالكلام (عون) ذلك لانه اكبرنا سنا ومقاما ثم انه جرىء يقول ما يريد أن يقوله ولا يبالي بشيء . وعندئذ يتدخل « توفيق » بالمبررات لانه رجل طلق اللســـان غزير المادة جهوري الصوت .

ومن الغد وبعد الظهر جاء الاربعة فنهضنا نحن للقائهم أمام الفيلا . وبعد تبادل التحية وقفنا السبعة اشخاص في دائرة . وقال (بروفنصال) جئنـــا لموضوع أمس . فأجابه (عون) بسرعة ان هذا الطلب مستحيل علينا أن نفعله ... فقال : بروفنصال ـــ من أين جاءت هذه الاستحالة ..؟ وهنا تدخل توفيق بسرعة قائلا : « ان شكيبـــا شخصية عـــربية اسلامية معروفة في العالمين العربي والاسلامي . بل معروفة في العالم كله ومن هنا فان كلا منا لا يؤثر فيه . ثم كلامنا فيه يجعلنا سخرية في نظر العرب على الاقل في الغرب وفي الشرق ومنهم بلادنا ليبيا نفسهـــا .

وفي اعتقادنـــا أن هذا ليس في صالحنـــا ولا في صالحكم ..؟ الخ فقال « بروفنصال » أليس شكيبا مع المانيا اليوم ..؟ فقال عون سوف نحن لا علم لنا بذلك وانما الذي نعلمه انه في سويسرة . وعلى فرض انحيازه لالمانيا . أليست الاسباب التي جاءت بنا نحن هنا هي نفسها التي تدفع شكيبا الى

المانيا اذا صح ذلك . افهل من المنطق أن نلوم شكيبا ونعذر أنفسنا ..؟ فهذا أمر يعرفه كل الناس . وفوق هذا أو ذاك فاننا اذا فعلنا ذلك سيزعزع ثقة بلادنـــا بنـا .

والحق اقول انهم لما سمعوا هذا الكلام لم يجادلوا فيه بأكثر مما تقدم ذكره ولم يلحوا او يعيدوا الكرة وانما تخلوا عن الفكرة نهائيا . وبعد هذه المحاولة بايام . طلبت القيادة أن يستعد « عون سوف » للسفر . ولم تذكر لنا وجهة سفره . الا أننا فهمنا نحن تلقائيا انه لا بد أن يكون اتجاهـــه الى تونس لقيادة الثورة والزحف على الحدود . والمرحـــوم عون سوف تتوفـــر فيه الشجاعة والاخلاص في مجابهة العدو . كما انه اصغر الزعماء الليبيين القدامى الموجودين بالقطر التونسي سنا لذلك اختير لقيادة الثورة .

ولقد استعد (عون) وسافر ليلا ملتحقا بتجمعات المهاجرين الليبيين في منطقة (قفصة) من البلاد التونسية حسبما فهمناه بطريق التخمين . حيث كانوا في انتظار تسلم الاسلحة . وبدء الزحف . وصل عون سوف صبـــاح اليوم التالي لتلك الليلة . ومن غد يوم وصوله اخذت السلطات العسكرية في توزيع الاسلحة واستمر ذلك لمدة اربع ساعات وعلى حين غفلة . وبدون سبب ظاهر لنا أوقف توزيع السلاح . ثم اخـــذت السلطات في استرجاع ما وزعته دون أن تبدي سببا لذلك التراجع .

انهيار فرنسا أمام الزحف الهتلـــري

بعد غياب ليلتين ويوم واحد عاد الينا عون سوف ، ومن غد رجوعه بينما كنا جالسين بعد الظهر نتساءل مع بعضنا . ونتكهن عن أسباب العودة واسترجاع الاسلحة . اذ ان السيد عون لم يذكـــر لنا شيئـــا عن أسباب رجوعه وارجاع الاسلحة . ولا ادري اذا كان على علم منها . او لم يعلمـــه الفرنسيون بذلك .

نحن في تكهناتنا تلك . واذا بذلك الشيخ « الطاهي » اعراب . قادم من المدينة كعادته . ولما وصل لاحظت على وجهه تغيرا على غير ما عرفنـــاه .

أستطع له وزنا ولا نظما وفي الحقيقة انا لست بشاعر . ولا زجال ولكنها الظروف والمناسبات ترفع الانسان الى محاولة ما قد ينفس به ضيق صدره ويخفف عنه آلام نفسه .

وفي الصباح الباكر قبل أن يتبين الانسان الخيط الاسـود من الخيط الابيض طاف علي طائف من سهاد لا هو بنوم صحيح ولا هو بيقظة مدركة اذ بلساني يردد : « قعدت شهر في حكومة عمل جزائر » فانتبهت علي هذا الترديد ورددته في اليقظة عدة مرات ثم جرت على لساني بدون صعوبة بعض المقطوعات الزجلية التي سوف يجدها القارىء في آخر الكتاب ان شاء اللـه .

العودة من الجزائر الى تونس

اشرت الى انني قلت ابياتا من الشعر الشعبي ستجدونها في آخر الكتاب ولقد كتبت هذه الابيات وارسلت بها الى تونس بطريق البريد . وبالطبع كانت مصحوبة باخبارنا كموت الباروني وتراجع السويحلي وعدم مجيء السعداوي ووصول الاخوين « عون سوف — ومحمد توفيق » وغير ذلك .

وبعد ذلك اعود فأقول لقد وقعت تلك الهدنة على نفوسنا وقوع الصاعقة او اشد وقعا . تلك الهدنة التي تم توقيعها بين فرنسا والمانيا يوم ٢٢ يونيه ١٩٤٠ فيما اتذكر ثم تلتها بين فرنسا وايطاليا وتم توقيعها هي الاخرى يوم ٢٤ منه وبذلك فقد انهارت القوات الفرنسية . وبانهيارها انهارت آمالنا في ثورتنا حيث ماتت في المهد قبل أن تظهر لعالم الواقع العملي . (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم) .. صدق الله العظيم .

ونظرا الى هذه الكارثة التي حلت بفرنسا والفرنسيين فقد تغيب عنا الضباط وغيرهم من العناصر التي كانت تتصل بنا باستمرار . وتغيبوا أياما لا أدري عدتها . وفي يوم من الايام جاءنا احدهم وقال لنا الآن يجب عليكم الاسراع بالسفر كل الى حيث يريد ونحن على استعداد للقيام بالواجب علينا معكم وارجو أن لا يحرجكم الحاحنا هذا لاننا نخشى عليكم من الاعداء وقد أصبح وضعنا كما تعلمون .

وهنا قال (عون سوف) و (محمد توفيق) أن مدة تأشيرتيهما قد انتهتا فيجب تجديدهما. ذلك لانهما خرجا من مصر بتأشيرتين خروج وعودة فطلبا من الضابط تجديدهما .

أما أنا فبعد ما تفاهمت مع الاخوين (عون — وتوفيق) على الذهاب معهما الى مصر . ولا أعود الى تونس لانني أكره العودة اليها لانها أصبحت بعد الهدنة . أو الانهيار الفرنسي واقعة تحت رحمة الايطاليين . وذلك ما كنت اتخيله وانا مهدد من طرف الايطاليين كما سبق وان أوضحت في الصفحات السابقة . لذا فقد عزمت على عدم العودة الى تونس مفضلا الذهاب الى مصر وقد شجعني على ذلك المرحوم توفيق .

عزمت على الذهاب مع الاخوين ولهذا طلبت من الضابط الفرنسي أن يهيء لي السفر الى مصر فقبل ذلك وجهز لي « وثيقة سفر » وجاءني بها الضابط . وقال لي : هذا اسمك فاحفظه — وهذه بلدك فاعرفها — ذلك لانهم منحوني اسما جديدا ومكان الولادة في احدى قرى الجزائر .

وبعد ذلك أخذ الضابط جوازي سفر (عون — وتوفيق) ووثيقتي وراح بها الى السفارة البريطانية لاخذ التاشيرات لدخول مصر . وبما ان مصر مستقلة داخليا (اذذاك) فقد طلبت السفارة المذكورة مهلة اربع وعشرين ساعة لتستشيرها برقيا . ولقد كانت عملية تسليم الجوازات في الساعة الرابعة بعد الظهر ومن هنا كان لا بد من انتظار الموعد المحدد من طرف السفارة المذكورة وهو الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم الموالي ليوم تسليم الجوازات . وفي خلال هذه الفترة — فترة الانتظار حدث ما لم يكن في الحسبان .

فلقد تجمع الاسطول البحري الفرنسي كله أو جله في « مرسى الكبير » بوهران . وبما أن فرنسا بما فيها الشعب والجيش في البر والبحر والجو قد انقسمت على نفسها نتيجة لقيام حكومة (فيشي) بزعامة الماريشال (بيتان) على أساس الهدنة مع المحور . وفرار الجنرال (ديجول) من فرنسا

فبادرته بالسؤال . عمـــا في المدينة من جديد . فأجـــاب بسرعة وبلهجته الجزائرية بقوله : رايت الناس يعودون الى مساكنهم . ورايت أصحاب المقاهي يجمعون كراسي مقاهيهم ويوصدون أبوابها وهم يرددون عبارة : « لرمستيس ، لرمستيس » وهذه عبارة فرنسيـــة تعريبها : « الهدنة ، الهدنة » فهذا الخبر الذي جاء به السيد « اعراب » قد حل لنا لغـــز عودة عون سوف واسترجاع الاسلحة الى حدما . ذلك لاننا نحن لم نتصل باي خبر من الجهات الرسمية حتى نعرف نوع هذه الهدنة . فنحن داخل منطقة القيادة لا نرى احدا ولا نسمع شيئا عن سير الحرب . ولقد ازداد قلقنا بهذا الخبر المقتضب . ولكننا صبرنا على مضض .

وفي صباح اليوم التالي بينما كنا جالسين في (صالـــة الفيلا) واذا بالاستاذ « روفيي » قادم يسير متثاقلا كأنه سائر الى مكروه . ولما وصل بادرته بقولي : « خيرا يا مسيو ، روفيي » فأجابني بالعربيـــة وباللهجة الجزائرية هكذا : « والله ما هو الخير . والله غير واحد الشر » فقلت له ما شاء الله كان . ثم اردف قائلا متأثرا جدا جدا : والله غير للمـــان غلبنا وسلمنا . واعادها مرتين ثم غلب عليه البكاء . فتهالك على كرسي كان أمامه واخذ في النحيب حتى لقد ظننت انه قد اغمي عليه .

ولقد خيم السكوت على الجميع لحظة ثم اخذ الاستاذ محمد توفيق رحمه الله يلاطفه ويصبره بقوله : ان هذه المعركة هي بداية وليست بنهاية . وسوف تعود فرنسا الى ما كانت عليه . الى غيـــر ذلك من العبارات ... وبعد قليل غادرنا الى شأنه فاخذنا نفترض الفروض للايام المقبلة ولقد بتنا تلك الليلة في حيرة وقلق شديدين عما سيؤول له الامر . ولم يدن مني النوم في تلك الليلة . وفي غمرة تلك الهواجس والتخيلات التي هاجمتني بسبب تلك الاحداث التي لم تكن في الحسبان والتي عادت بنا الى طريق محفوف بالخواطر والمخاطر ومجهول النتائج .

ففي هذه الحالة النفسية المضطربة حاولت ان اقول أبياتـــا من الشعر العربي لاصف بها وضعنا ذلك وحالتنا تلك ورغم محاولاتي الطويلة فلـــم

اسمه حتى حدود السودان العربي . ذلك لان الطائرات الفرنسية اصبحت بمقتضى الهدنة لا يمكن لها الطيران . هذا اذا كان قد بقي في حوزة فرنسا طيـــران .

قلت انني وصلت الى تونس العاصمة يوم ١٤ يولية . وبمجرد نزولي من القطار ذهبت راسا الى مقهى يقع في نهج الصادقية . يعرف اذذاك « بمقهى مودلياني » كنت سابقا التقي فيها ببعض الاخوان . ولذلك ذهبت اليها عسى ان أجد احدا منهم لاعرف منه ما جد من الحوادث في مدة غيابي . وفي طريقي اليها التقيت بالاخ عمر مالك الغدامسي . وكان شابا نشطا متحمسا . وبعد تبادل التحية ابديت له رغبتي في الذهاب الى السفارة البريطانية فاستحسن الموقف وقال لنذهب معـــا .

تركت حقيبتي في المقهى المذكور . وذهبنا الاخ عمر وانا الى السفارة . وطلبنا مقابلة السفير بالذات لامر هام . فقابلنا شخص . لا أدري ان كان السفير أو غيره.. لان المقابلة كانت خارج مكتب السفير . ولانني لم تسبق لي معرفة السفير شخصيا . ولكن يبدو من مظهره وكلامه . انه السفير . وقد دخلنا معه في حديث يتعلق بانهيار فرنسا . واعدت له ما حصل لنا في الجزائر . وأفهمته بانني عائد من الجزائـــر في هذه الساعـــة ولا زالت في الطريق ولم اصل الى منزلي بعد .

وبعد ذلك دخلنا في الموضوع . فقلت له : ان اخواننا الذيـــن جمعناهم للثورة لا يزالون متجمعين وهم ونحن على اتم الاستعـــداد للمضي في تنفيذ خطتنا الثورية برغم ما حدث . ولا ينقصنا الا السلاح . فاذا كان في امكان بريطانيا تزويدنا بالاسلحة بطريق الجو في نقطة من الصحراء نتفق عليها . سواء كان ذلك في الاراضي الليبيـــة او في الحدود التونسية او الجزائرية فنحن نستطيع اجتياز الحدود بوسائلنا الخاصة والوصول الى النقطة المتفق عليها . وبعد ذلك نعرف كيف ومتى واين نبدأ الثورة .

فاذا وافقتم على ذلك فاجروا اتصالاتكم . وحينما تحصل الموافقة اعلمونا

الى بريطانيا. ومن هناك اعلن نداءه باسم فرنسا الحرة معلنا تصميمه على مواصلة الحـــرب .

ونتيجة لهذا الوضع الفرنسي جاء الاسطـــول البريطاني الى « مرسى الكبير . بوهران » وانذر الاسطول الفرنسي المتجمع هناك بان يتبعه اسيرا والا اضطر الى نسفه . وقد حدد له فترة من الوقت قصيرة ليقـــرر ما يراه وعلى اساس الانقسام المذكور آنفا خرج من الاسطول من اراد الانحياز الى صف (ديجول) وبقي من راى الانحياز الى حكومة (فيشي) وحلت الساعة الموعودة في الانذار ، فاطلق الاسطول الانجليزي صواعقه على الاسطول الفرنسي فدمره .

وكنتيجة حتمية لهذا الحدث فقد حوصـــرت السفـــارة البريطانيـــة في الجزائر . وفي الوقت المحدد بيننا وبين السلطات العسكريـــة الفرنسية جاءنا احد الضباط . واعلمنا بما حدث . وقال ان التاشيرات الآن اصبحت مستحيلة .

وهنا قال لي المرحوم (عون سوف) : نحن خرجنا من مصر بتأشيرتي خروج وعودة فنستطيع الرجوع اليها ونتحمل مسؤولية التاخير مهما كانت . اما انت فسوف لا يسمحون لك بالدخول حينما تصل الى حدود مصر . اي حدود السودان المصري ــ السودان العربي الآن ــ فتضطر للبقاء هناك مدة قد تطول . حتى نصل نحن القاهرة ونجري اتصالاتنا ومساعينا لدى الجهات المسؤولة . والظروف كما تعرف ظروف حرب . ولهذا فانني ارى أن عودتك الى تونس افضل وهي الطريق الاسلم .

وهكذا فقد عدلت عن الذهاب الى مصر . وعدت الى تونس وانا كاره . عدت الى تونس بنفس الطريق التي جئت بها الى الجزائر . فوصلتها يوم ١٤ يولية ١٩٤٠ م .

أما المرحومان « عون ، وتوفيق » فقد غادرا الجزائر في طريق العودة الى مصر عبر الصحراء الجزائرية على سيارة يصحبهما ضابط فرنسي لم أعرف

لنرسل عناصر من اخواننا خبراء الصحراء كــي يتواجدوا في المكان المتفق عليه ليتلقوا الاسلحة . ثم ناخذ في اجتياز الحدود ونبدا اعمالنا . والجدير بالملاحظة والذكر : هو انه حينما كنا نتكلــم ونبحث مع هذا الشخص في موضوع استسلام فرنسا وثورتنا وهو يصغي الينا بانتباه واهتمام . كان في نفس الوقت يداعب سبيكة بين اصابعه . تبدو للناظر انها من الذهب . وكأن طولها بين عشر أو خمسة عشر سانتيمترا تقريبا .

وبعد الانتهــاء من شرح مــا جئنا له من أجله . أجابنا : بــان السفارة البريطانية الآن محاصرة وليس في مقدورها أي عمل ولا اتصال . فشكرناه وودعناه . ولما خرجنا من المبنى اي مبنى السفارة . قال لي الاخ عمر مالك : ارايت السفير كيف يداعب الذهب في يده ..؟ قلت نعم . ولكن ماذا يعني بذلك يا ترى ..؟ فقــال : فيما فهمت كانه يقول لنا انتظــروا فان الغلبة للذهب . قلت : قد يكون انه يعني ذلك ...

فترة ركود مؤقت فرضتها ظروف طارئة

بعد العودة من « الجزائر » وبعد الاتصال بالسفارة البريطانية في تونس والتي لم تسفر عن نتيجة . لم يبق بعد ذلك اي عمل في ميـــدان قضيتنا الوطنية الا الانتظار لما ستاتي به الايام والليالـــي من الاحداث والتطورات التي قد تغير مجرى هذه الظروف العابسة .

بعد ذلك عدت الى منزلي . وقد رايت من الـــواجب علي مكاتبة الاخوان فاخذت في كتابة رسائل لبعضهم في مختلف جهات القطر التونسي شرحت لهم فيها ما حصل في موضوعنا الوطني . وطلبت منهم أن لا يتركوا لليأس طريقا الى نفوسهم وان لا يغيب عنهم أن الحرب في بدايتها وسوف يحدث الكثير من التطورات بعد مرور الطفرة الاولى من الحرب . اذ لا شك أن في المستقبل من التطورات والاحداث ما لا يخطر على بـــال .

كما اشرت اليهم بوجوب اليقظـــة والانتباه لانه كما أن لنا في المستقبل آمالا لا يجب ان يغيب عنا ان لنا في طريق هذا المستقبل اتعـــابا واخطارا يجب ان نحسب لها حسابها لكي نتجاوزها بسلام وان النهاية ستكون في صالحنا باذن الله . كما اشرت على بعض العناصر من الذين كتبت اليهم من الاخوان بافضلية الانتقال من اماكنهم الى اماكن اخرى والانزواء الخفيف عن التجمعات والجماعات ما امكن ذلك .

وفعلا فلقد كانت لي ثقة في المستقبل رغم تلك الظواهر . اولا ثقة في الله بانه لا يضيع نتيجة تلك الشعلة النورانية من الجهاد الحقيقي النظيف من الشوائب . ذلك الجهاد الذي لم يتخلف عنه كبير ولا صغير والسنتهم تلهج بالجهاد في سبيل الله مسلحين وغير مسلحين . ولكنها قلوب مفعمة بالايمان ونفوس مطمئنة الى رضا الله . وضمائر طاهرة لا تشتري الدنيا بالدين مهما كانت الاحوال والاسباب . هذا أولاً .

وثانيا من ناحية وزن الامور بميزان العقل والتجارب كنت من بين الذين لا يؤمنون بانتصار المحور في النهايـــة ولم يكن هذا منـــي بسبب عاطفة ميول لجهة دون أخرى ولا هي نتيجة كراهية المحور بسبب وجود عدوتنا ايطاليا في صفه لا . والله . لا هذا ولا ذاك وانما كان تفكيري هذا مبنيا على أشياء تبدو لي أنها وجيهة ومعقولة . وهـــي :

١٠ » لا بد ان تتحقق النتيجة الطبيعية لكل حركـــة تحريرية اذ كان وراءها مطالب صامد لان الله تعالى يباركها ويهـــيء لها أسباب النجاح حيث هو الذي أمر بالدفاع عن النفس والمال والعيال .

٢ » اتساع رقعة العالـــم الذي يحاربـــه المحـــور هذا الاتســاع الذي سيؤدي الى تشتت قواه وبالاحرى قوة المانيا حتى تعجز عن المجابهـــة .

٣ » المناعة الطبيعية للجزيرة البريطانية وما عرف به الانجليز من قوة الصبر وعظيم الاحتمال والدهاء السياسي وعميق الخبرة الاقتصاديـــة .

٤ » ان الولايات المتحدة الامريكية لن تتخلـــى عن بريطانيا خاصة واوروبا بصورة عامة .

٥ » المقاومة الشعبية في الاراضي المحتلة وقد بدأت في فرنسا من اول وهلة ولا بد ان تنتشر بين شعوب راقية تحذق فـــن المقاومة ولها من الكبرياء ما لا يسمح لها بالرضوخ لحكم المذلة والهوان

فهي تدفع النفس والنفيس في سبيل حريتها وكرامتها . وفي طليعة هذه الشعوب الشعب الفرنسي .

اندفاع الروس في جانب الحلفاء وقد كان هذا الاندفاع منتظرا قبل وقوعه لاسباب يطول شرحها وهي ليست من موضوعنا هذا مع بعد « اليابان عن اوروبا . وضآلة المقدرة الحربية في ايطاليـــا .

هذه هي اهم العوامل التي بنيت عليها تفكيري وفي مقدمتها سر تلك الارواح المؤمنة التي ذهبت في سبيل الله حقا وصدقا لا رياء ولا طمعا . فان الله سبحانه وتعالى لا يضيـــع عمل عامل عمـــل في سبيله بصدق واخلاص . وهو الذي امرنا بالدفاع عن النفس والمال والعيـــال كما قلنا آنفا . بل لا بد ان يهيء لها الاسباب لتعطي ثمرتها للابناء والاحفاد في هذه الدنيا طال الزمان او قصر . لان الله وعد بذلك وهو لا يخلف وعده (وان تنصروا الله ينصركم) .

هكذا كان تفكيري في الموقف وتقديري للنتيجة والمحور في عنفوان قوته وتقدمه وانتصاراته . وكل الاخوان يعرفون عني هذا حتى ان احدهم قال لي يوما ونحن نتبادل الآراء في موضوع الحرب ونتكهن بنتائجها حينما قلت لا بد ان يخسر المحور نتيجة هذه الحرب . قال لي « انت تعيش في خيال » وفي مناسبة اخرى والحديث نفسه قال لي الاخ محمد عباس : « بماذا تجزم بانتصار الحلفاء . أبا لضربـــات التي يتلقونها الواحـــدة بعد الاخـــرى أم باقطارهم التي اخذت تتساقط الواحد تلو الآخر بماذا ..؟ »

والى هنا اعود الى الوراء فاقول : بعد وقوع الهدنة المتقدم ذكرها ونحن في الجزائر وبعد حلول لجان المراقبة للهدنة وقد تمركزت هذه اللجان في عدة اماكن من القطر التونسي . وقد تمركزت احداهـــا في مكان قريب من المنطقة التي اسكن بها . ومن البوادر غير المريحة ان كان الايطاليون اكثر ظهورا ونشاطا في هذه اللجان الا ان السيطرة الفعلية كانت للالمان مهما قل عددهم .

ففي هذه الظروف المخيفة بالنسبة لنا أصبحنا في دوامة من شدة القلق والتفكير العميق . وقد مرت مدة طويلة بالنسبة لما تعودناه من كثرة اتصالاتنا ببعضنا . ولم نتلق اية معلومات من الاخ محمد عبـــاس لذا فقد كتبت اليه الرسالة التالية ونظرا الى ما توحي به هذه الرسالة من واقع حالتنا النفسية ونظرا الى ظهور نشرة ايطالية نقلت اليه فقرات منهـــا في هذه الرسالة للاطلاع عليها نظرا لذلك فقد رأيت اثباتها هنا وفيما يلي نص الرسالة :

الكرم في ٢ رمضان ١٣٦٠ هـ

حضرة الاخ الكريم الصادق سيدي الشيخ محمد عباس حفظه الله واطال في العز والصحة بقاءه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أخي العزيز : انتظرت جوابكم لمدة طويلة فلم احظ به فاخذ مني التفكير مأخذه فتارة أتصوركم في غضب لا أعرف سببه وهو شيء ممكن وقوعه وتارة أراكم منكسري الخاطر لا تحلو لكم الكتابة ولا يطاوعكم القلم ولا تجدون ما تقولون بسبب معاداة الظروف لنا وتبلبل الاخبار وغموض المستقبل وغير ذلك مما يجعـــل الانسان عرضة للسآمة والانـــزواء .

ومعلوم ان البعيد لا يدري فبينما انا في هذه الدوامـــة اذ بساعي البريد يناولني رسالة . وبمجرد النظر في العنوان بدا لي وجـــه ابن عباس في خطه ... وكم كان سروري عظيما حينما علمت ان حالة أخ كريم عزيز علي وصديق مخلص في صحة جيدة فحمدت الله على ذلك ولقد بينتم في كتابكم هذا ما انتم عليه من القلق وضيق النفس من جـــراء الاحوال التي ناصبتنا العداءمنذ بدء الغارة الايطالية على وطننا وقهر شعبنا وتشتت شملنا .

ومقابل ذلك فقد بينتم الوسائل التي تتلهون بها للترويح على النفس ولو مؤقتا من تصرفـــات الظروف القاسية المعاديـــة وما يهاجمكـــم بسببها من التخمين والهواجس السيئة . وانا معك في هذا لاننا مصابـــون في وطننا وفي كرامتنا وفي اخواننا وعشائرنـــا . وما هي حقيقـــة الوطن يا ابن عباس ..؟

اليست هي : مال وبنون وعشائر اصولها متصلة وفروعها مرتبطة بالقرابة والمصاهرة . ومساحات من الارض سميت وطنا وقد فطر الله الناس على حبها يدفعون في سبيلها اعز ما لديهم ، المال والروح والبنين اليس كذلك ..؟ ولهذه الاشياء في النفوس شأن واي شان ، وهذا ما جعلني اعدد العوامل المتراكمة التي تحز في النفس وهي كثيرة . فوقوع الهدنـــة ـــ او الانهيار الفرنسي بعد ما استدعينا للعمل كانت صدمة نفسية لها تاثيرها وعدم تمكني من الذهاب الى مصر لاسباب كنت قد ذكرتها لك سابقا . وعودتي الى تونس مكرها . وتلك البوادر السيئة التي تطيرت منها ـــ موت الباروني ـــ تراجع السويحلي ـــ عدم الاتصال بالسعداوي .

كل هذه الاحداث تطيرت منها يا ابن عبـــاس مع انني اكـــره التطير والمتطرين . ولكن بسبب وقوع هذه الاشيـــاء في وقت واحـــد وفي ظروف غير عادية تطيرت فعلا ولا زلت ، ذلك لانـنـــي رايت فيهـــا بوادر تنـــذر باستمرار الظروف السيئة ارجو الله تعالى أن يخفف شرها ، وان يقصر مداهـــا .

واخيرا جاءت ثالثة الاثافي ، وذلك انه في المدة الاخيرة اخذت الحكومة الفرنسية بتونس في جمع ما يسمونه في عرف الاستعمار « بالمتشردين » من التونسيين لارجاعهم الى اوطانهم الاصلية . ولقد جمعوا في من جمعوا من الليبيين « والاستعمار لا يفرق بين العرب فكل العرب سواء » وما كان يخطر ببالنا قط ان فريقا من الذين كانوا بالامس القريب مادين ايديهم لاخذ الاسلحة والوقوف في وجه العدو المشترك في جانب الحلفاء يقـــع اليوم ارسالهم مرغمين الى عدوهم ولكن وقع هذا فعلا حسبما بلغنا من بعض الاخوان . وانا لا استطيع ان اؤكد الخبر او اكذبه ولكنني انقل اليك مـــا جاءني في هذا الشأن من رسالة تلقيتها اخيرا من احد الاخوان في الموضوع يقول فيها : (... ما هذه الفعلة النكراء من الحكومة الفرنسية ..؟ وما سبب هذا الاهمال منكم ..؟ فقد لا تعلمون ان قافلة تربو على الخمسة وسبعين نفـــرا

بين رجال ونساء واطفال جيء بهم من جهات تونس الى « بنقردان » ولم يمهلوهم الا بقدر ما اكلوا خبزهم .

فما هو عذركم يا اخي ..؟ اننا نشارك اخواننـــا حزنهم ونأسف لهذا الاجراء شديد الاسف كما اننا نخشى على انفسنا مستقبلا . فاذا كان هؤلاء الاخوان قد اذنبوا او اجرموا فنحن نرضى بالمحاكم التونسية أو الفرنسية على السواء واذا وجب ابعادهم لاي سبب ففي القطـــر التونسي متسع لايوائهم . وحتى الى الجزائـــر والمغـــرب ولانرى مبررا لما وقـــع وعليه اعلمناكم ...)

كل هذه يا ابن عباس عوامل ذات تأثير شديد على النفس ثم اننا تعبنا كثيرا وبذلنا بسخاء ورغبة فوق طاقتنا ولاشك انه ما كان ليؤلمنا بل ولايهمنا كل ذلك لو كتب لاصحابنا النجاح لاننا ربطنا مصيرنا بمصيرهم على امل ان ندخل بلادنا . وفي ذلك ما ينسينا كل الاتعاب والبذل ولكن شاءت الاقدار التي لا مرد لمشيئتها ان نصل الى ما نحن فيـــه .

وان كنت اظن انها حالة مؤقتة سوف تنقلب الى احســـن ان شاء اللـــه تعالى . وارجوه جل شانه ان لا تطول هذه الظروف الغامضـــة وان يعوضنا خيرا انه على ما يشاء قدير فهو نعم المولى ونعم النصير . هذا وارجو من الاخ ان لا يستنتج من كلامي هذا انني في حالة يأس أو فتور كلا ، والله ، فانني سأبقى دائما على ما عرفتني ما دمت حيا باذن الله وتوفيقه .

وقصارى القول انكم هناك قد تجدون تسلية تروح على النفس بعض ما بها ولو مؤقتا في هذه الايام الراكدة بالنسبة لنا وحتى بعدكـــم عن مجتمع المدينة المقلق لكم فيه راحة . اما اخوكم هذا فقد ازداد قلقه وتضاعفت حيرته وما اظنك يا ابن عباس تعلم تماما ما انا عليـــه او تحيط بما انـــا فيه من آراجيف الاقوال ومناورات السياسة والمجتمعات المشتتة الاتجاهات المختلفة الآراء المتباينة الغايات ، حسب الاوضاع التي ينتمون اليها ومن اجل ذلك فانا اعيش اليوم في يقظة وحذر شديدين .

واخيرا ففي هذه الايام حدث شيء جديد اود ان احيطك علما به وهو : ان الايطاليين قد اغتنموا الفرصة في هذه الظروف واخذوا يوزعون نشرتين ولا ادري ان كانتا مطبوعتين جاهزتين من قبل وحل ظرف التوزيع اليوم أم طبعتا من جديد ، نشرتان احداهما مصورة والثانية غير مصورة حسبما قيل لي لانني لم اتحصل الا على المصـــورة بواسطة احــد الاخوان ، حيث كان التوزيع بواسطة تاجر ايطالي في هذه المنطقة وهذه النشرة المصورة تحتوي على ١٢٤ صفحة وعلى ورق صقيل وطبع نظيف جميل وعنوانها كالآتـــي **أعمال ايطاليا في سبيل مسلمي افريقيا الايطالية .**

يوخذ من تعابير النشرة واهجتها انها كتبت بايدي عـــربية وبها نحو من خمسين صورة لمساجد ومدارس في ليبيا منها ما قالت انها اصلحتها ومنها ما ادعت انشاءه . وفيها الكثير من التلفيق والتضليل وعلى كل حال فهـــا انني انقل اليك فقرات منها مما يهمنا الاطلاع عليها .

جاء في الصفحة الخامسة منها ما يلي : [.. وانه في ليبيا قـــد اعطت ايطاليا الدليل القاطع على انها دولة اسلامية . وليبيا من البلاد الاسلامية البحتة التي اثبت أهلوها منذ قرون شممهم وانفتهـــم واشتهروا بمغامراتهم الحربية العنيفة وشدة مراسهم وقد كانت تمثل ميدانا خطرا للعمل لدولة ترغب في التوفيق بين حقوقها وواجباتها ..]

وجاء في هذه الصفحة نفسها : [.. ان الحكومة الايطالية قد حلت في حماية الدين الاسلامي لليبيين محل الطريقة السنوسية التي لم تتمكن يوما من اكتساب ثقة الشعب الليبي حتى ولا في الظروف الاكثر موافقة] وجـــاء في الصفحة الثالثة عشرة ما يلي : [.. وقد قضى على نشـــاط المطرودين الليبيين الذين صاروا نفرا قليل العدد لا نفوذ لهم ولا اتباع . أما الاصوات التي لا تزال ترتفع الفينة بعد الفينة في بعض الجرائد من وراء ستار منكرة الحقيقة الراهنة وجاحدة الاعمال المجيدة التي تقوم بها ايطاليا نحو رعاياها المسلمين ستستمر بلا صدى حتى تبح ..] واخيرا استشهدت النشرة بمـــا كتبه الامير شكيب ارسلان رحمه الله ابان حرب الحبشة .

وجاء في هذه الصفحة نفسها ما يلي : [.. وقد يكفينا ان يلقي المـرء نظرة فاحصة على حياة وشؤون الرعايا تحت سلطة ونفوذ الدول الغربية الاخرى فاذا ما التفتنا الى الجزائر مثلا راينا ثورة موقدة وعصيانا مستحكما وجورا عاتيا وطغيانا شاملا اخذ حده الاقصى عند مقتل مفتي الجزائر وعند العدوان الذي وقع على حياة مفتي « قسنطينة » واذا ما اتجهنا نحو مراكش وتونس نرى اضطرابات وقلاقل سياسية مختلفة الالــوان والصور تتنازع بين النزعة الوطنية والشرعية وان ادرناه صوب سوريا نرى فيها سلسلة مشاكل ذات صبغة داخلية ودولية استعصى معها تحويل السلطة الانتدابية الى سلطة محلية . واذا حولناه من جهة اخرى نحو فلسطين راينا ثــورة العرب ضد الصهيونية وضد الانجليز لا تزال مشتعلة رغم القمع الشديد .

اما ليبيا فانها وحدها دون غيرها من سائر البلدان الواقعة على حــوض البحــر الابيض المتوسط تنعــم الى حد في الهــدوء والسكينة والســلام والطمأنينـــة ..]

هذا ما عندي الآن كتبته اليكم وارجو ان يصلكم وانتــم جميعا بصحـــة جيدة . مع رجائي عدم تاخير جواباتك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص احمد زارم
٢٢ سبتمبر ١٩٤١ م

تعليقـــا على مـــا جـــاء في النشــرة

اليوم وقد تغيرت الظروف ، وزلزل الاستعمار وانهزم ، وصفيت رواسبه وتطهرت الديار بقدرة قادر جبار ، وببركة شهداء الجهاد الابرار وبمجهـــود اولئك المطرودين في مختلف الاقطار . وعزيمة ابنائهم من بعدهم الذين آلوا على انفسهم الاخذ بالثأر فاقتحموا المصاعب وركبوا الاخطار حتى طهـــروا الديار واذلوا الاستعمار . واجلوا رواسبه في يوم مشهود الى غير رجعـــة وذكـــر جميـــل .

وها قد عاد المطرودين « على حد تعبير النشرة » ورفع عنهم ذلك الستار

الذي كانوا يتكمون من ورائه الفينة بعد الفينة اولئك المطرودون الذين منهم من قضى نحبه والتحق بمن سبقه من شهداء الوطن الصادقين ، ومنهم من عاد الى الوطن من اتباع ومتبوعين . وهم وان لم يلاقوا جزاء اخلاصهم لوطنهم وما أصابهم في سبيله . الا ان رؤوسهم عالية وكرامتهم موفورة بالنسبة الى ماضيهم اذ انهم جاهدوا وهاجروا وصبروا والله مع الصابرين وعند الله تجتمع الخصوم . « والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور »

قلنا هذه الكلمة تعليقا على النشرة الايطالية روحا والعربية لفظا وخطا وفي هذه الكلمة ذكرى وموعظة . واعود الى الموضوع فاقول : ففي فترة من هذا الركود الجبري والضيق النفسي بسبب الظروف الاليمة التي خيمت علينا ردحا من الزمن جاءني المرحوم « محمود العيادي » وهو رجل متحمس يكاد يتميز غيظا على الايطاليين بسبب ما شاهده مباشرة من تصرفات السلطات الايطالية في طرابلس وبصورة خاصة عملية استملاك منطقة « شارع الصريم » بطرابلس من طرف الايطاليين . والتي حينما يرويها العيادي رحمه الله يكاد يختنق من الغيظ خصوصا عندما يقول وصلت الوحشية بالايطاليين ان هدموا مساكن على اصحابها لانهم تثاقلوا في التنفيذ حيث عسر عليهم الخروج من مساكن ورثوها عن آبائهم وفي بلادهم وليس لهم مساكن غيرها لتعطى للعمال الايطاليين .

جاءني الاخ محمود العيادي يشكو اضطرابا في النفس وقلقا في التفكير. وقال لي هل تساعدني ان نذهب معا الى الاخ « محمد عباس المسراتي » في منطقة الكريب من عمل الكاف لنمضي عنده يوما او يومين عسى ان يخفف ذلك عن نفسي هذا الكابوس الذي اشعر به ليلا ونهارا . بالبعد عن لغط المدينة الموبوءة بالاراجيف . خصوصا واننا وسط عالم متموج . وان كنا نحن منه وهو منا . ولكن قضت الظروف بان يتجه هو غربا ونتجه نحن شرقا . وهو اختلاف ظرفي مؤقت وكل منا له الحق في اتجاهه .

وعلى كل فلقد اجبت الاخ محمود الى طلبه وبعد يومين ركبنا القطار من تونس وحينما وصل بنا محطة (الكريب) وكان مسكن الاخ محمد عباس

قريبا من المحطة ، وحينما نزلنا من القطار راينا اناسا في مجموعتين أو ثلاثة متتابعة وراء بعضها متجهة الى القرية التابعة « للهنشيـر » مزرعة « الحاج مبارك بن التواتي الدريدي » والاخ محمـد عباس في نفس هذه القريـة .

ولقد تبادر لي ان تلك المجموعات ليسوا الا عمالا كانوا في عمل مـا من اعمال المزرعة فاتموه وهم عائدون الى مساكنهم . وحينما نزلنا من القطار استقبلنا الاخ « سليمان حسين المقصبي المسراتي » وهو صاحب متجـر للمواد الغذائية في نفس المحطة . وبعد وقفة قصيرة في متجـره سار بنا الى منزل (محمد عباس) ولقد وجدنا عنده احد الاخوان الليبيين اسمـه : « الساعدي » ولا اعرف من اي قبيلة هو ، ولم اعرفه قبل ذلك اليوم وقـد ظننت ان وجوده عند ابن عباس مجرد زيارة كزيارتنا فاقمنـا في ضيافة الاخ « محمد عباس » ثلاثة ايام بلياليها في راحة وانبساط وانـواع من الطعام والذكريات عن الماضي وتفكير في الحاضر والمستقبل ولم نشعر بأي تغيير في الجو اطلاقا في خلال هذه الايام الثلاثة .

وما كنا ندري ابدا ان تلك المجموعات التي رايناها تسير متتابعة يـوم وصولنا كان من بينها الاخ محمد عباس نفسه وهي عائدة من المقبرة حيث أودعت بها الابن الوحيد له . وما علمت بهذه الوفاة الا بعد ما جاءني الـى تونس فسالته عن احواله وعن ابنه الوحيد فذكر لي الامر بالتفصيل . اثبت هنا هذه القصة لما تنطوي عليه من معاني الرجولة ، وكرم الضيافة وقـوة الصبر وعميق الاحتساب وانه في الحقيقة لصبر ايوب واحتساب الصالحين وانها لرجولة ما رايت لها نظيرا ولا سمعت لها مثيـلا فيما رايت وسمعت من الاقاصيص .

نزول جيوش المحور بتونس وجيوش الحلفاء بالجزائر

قلنا فيما تقدم جاءني المرحوم « محمود العيادي » وطلب مني ان نذهب معا الى « محمد عباس » بمنطقة الكريب لتمضية يومين او ثلاثة وقد تـم ذلك كما اسلفنا . وعدنا الى تونس . وبعد العودة من هذه الزيارة لم يبـق لي الا التفتيش عن عمل ريثما تسفر الظروف عن اتجاه العمليات الحـربية سواء كانت لنا او علينا لنتخذ الطريق التي يفرضها هذا الاتجاه المنتظـر فسعيت فعلا مع احد الاخوان الليبيين هو : « السيد مسعود محمد كمرود » المستخدم بشركة « المياه والغاز » وقد كانت له كلمة نافذة فيها باعتباره من الفنيين . سعيت معه للحصول على عمل في هذه الشركة . وفعلا فقد تمكنت من الحصول على العمل المطلوب بواسطة هذا الاخ ولقد استمررت في هذا العمل من سنة ١٩٤٠ الى سنة ١٩٤٢ م .

وفي يوم من ايام شهر نوفمبر فيما اتذكر ، وكان يوم « احد » ويوم الاحد هو يوم الراحة الاسبوعية في تونس . بديلا عن يوم الجمعة . وهي طريقة فرضها الاستعمار ، وبقيت من رواسبه . وقد ابقى عليها عهد الاستقلال ايضا الى اليوم . ففي هذا اليوم من ايام شهر نوفمبر ١٩٤٢ م كنت مع اثنين من الاخوان الليبيين هما : « مسعود محمد كمرود ـــ واحمـد محمد البكوش » كنا ثلاثتنا في منطقة « قمرت » قرب المرسى ـــ ضواحي تونس . في جلسة

رتيبة فوق ربـــوة ضخمة نتحـــدث في شؤوننا الخاصـــة بعيدا عن اللغط والازدحـــام .

ولقد كانت جلستنا هذه في مرتفع من الارض يشرف على البحر . وعلى ارتفاع مئات الامتار منه . ومن هناك يقابلنا البحر بامتداده على مدى البصر. انها جلسة ابعدتني لحظة عن التفكير المتعب للحواس المضني للنفس الذي كان يسيطر على مشاعري ليلا ونهارا . بسبب هاتيك الظروف المقلقة لمـــا يكتنفها من غموض المستقبل والاشعاعات المزعجة واختلاف الاتجاهات التي كثيرا ما تؤدي الى التصادم .

اجل لقد كانت لحظة مريحة بفضل ذلك الموقع الجميل الاخاذ بمناظـــره الخلابة ، منطقة شبه جلية، ولكنها ترابية وليست صخرية . ومن ذلك العلو الذي جلسنا به يبدو امامنا منظر البحر الذي لم يكن بيننا وبينـــه الا ذلك الارتفاع . او عشرات من الامتار الرملية بين قاعدة الارتفاع . ومياه البحر ، فمنظر البحر هذا وزرقة مياهه الساكنة . وسعة الافق من فوقه وصفائه ، مع طبيعة الارض ذات النباتات الخضراء من نوع الـــزعتر وغيره وانتشار رائحة تلك النباتات في ارجاء المنطقة ، ومنظر الناس على الشاطىء بيـــن سابح في مياهه الصافية ، ومضطجع على رماله الذهبية الزاهية كل هذه تبعث في نفس الناظر المتأمل التفكير في عظمة الخالق وسعة ملكه وبـــديع صنعه . وانه الواحد الاحد مبدع هذا الكون العظيم .

كانت جلستنا هذه بعد الظهر ، وفي حوالي الساعة الرابعة . وبينما كنا في تلك اللحظة المريحة والجو الهادىء اللطيف والمناظر البديعة الساحرة ، نحن كذلك ، اذ رن في آذاننا صدى طلقة مدفع ، ولم نر مكان الانطلاق . وحاولنا عبثا ان نعرف ، ولكن انى لنا ذلك ولم يعد الطلق .

اخذنا نجول بانظارنا يمينا وشمالا في مختلف جهات المنطقة تارة ، وفي اتساع افقها تارة اخرى ، علنا نرى ما يفسر لنا ما حدث . وبدلا من ذلك رأينا سربا من الطائرات يتكون من ثلاث ، ولكنه مر بعيدا عنا ، ويبدو لنا

انه قادم من نحو ايطاليا في اتجاهه الى تونس . ولقد اخذ مني العجب مأخذه لوجود طائرات تسبح في سماء تونس مع ان الذي نعلمه ان الهدنة قد منعت الطيران الفرنسي من اية حركة ، هذا اذا كان لا يزال لفرنسا طيران .

اذن فما هو سبب وجود هذه الطائرات السابحة في سماء تونس . ان هذا لامر مريب ومحير ، نحن كذلك واذا بسرب آخر بنفس العدد يسير سيرا بطيئا مثقلا كأنه يحمل اثقالا من حمولته مر فوق رؤوسنا تماما ، فاستلقيت على ظهري ، واخذت اتامل في الطائرات لعلي اعرف هويتها ، وبتأملي لمحت علامة الصليب المعكوف « النازي » مرسوما عليها . وكما قلت آنفا تسير سيرا بطيئا مثقلا واضحا . فتذكرت تلك الابيات التي قالتها « زينوبيا » ملكة تدمر قديما بمناسبة تلك المؤامرة التي دبرت للقضاء عليها حيث قالت حينما رات الابل محملة وهي تسير سيرا بطيئا مثقلا بحمولتها فظنت بها الظنون ، وقالت :

ما للجمال سيرها وئيدا اجندلا يحملن ام حديدا ؟

ولقد صدق تخمينها ، فلقد كانت تلك الابل حاملة رجالا باسلحتهم داخل حمولها لكي تدخل المدينة بعنوان حمولة تجارية . ولقد نفذت الحيلة ، وكانت نهاية الملكة ان انتحرت مسمومة وهي تردد كلمتها التي ذهبت مثلا « بيدي لا بيد عمرو » .. الخ اجل تذكرت هذا البيت حينما رأيت تلك الطائرات واحسست بحرج الموقف . وساورني القلق .

واعود فاقول لقد رايت الصليب المعكوف مرسوما على الطائرات ، وحينئذ شعرت بان وضعي قد تحرج . وفكرت قليلا ثم تركت الاخوين اللذين كانا معي ، او كنت معهما ، وعدت مسرعا الى « المرسى » حيث اخذت دراجة وذهبت الى « مطار العوينة » وهو مطار تونس الدولي .

وصلت المطار فوجدته يعج بالجنود بين المانيين وايطاليين ، والطائرات بدورها تصل تباعا ، وتنزل منها الاسلحة والجنود ، بسرعة خاطفة ،

فتأكدت بان الحالة اصبحت خطيرة بالنسبة لي . وانه يجب علي ان اعود الى منزلي وافكر فيما يجب علي عمله . وفي عودتي من المطار عرجت على شاطىء المرسي ، فاذا في كل مسافة مجموعة من الجنود وجلهم ان لم اقل كلهم كانوا من الايطاليين .

ومن ثم عدت مسرعا الى منزلي في الكرم بطريقة عادية كأنه لم يحدث شيء حتى لا ينتبه والداي الى الامر فيحدث لهما انزعاجا . « وكان والدي يقول في عدة مناسبات « وكأنه يعنيني » ابنادم ما يجعلش نفسه بين جماعته راس ، فان الراس كثير العلل » وقد أسررت في نفسي العزم على الاختفاء .

وبهدوء تام اخذت « حولي » ووضعته في « قفة » وخرجت من البيت بصورة تبدو كأنني ذاهب الى السوق لشراء حاجيات ضرورة منزلية وقصدت محطة « الرتل الكهربائي » وفي صحبتي الاخ « محمد علي العرضاوي » وهو من انشط جماعتي واخلصهم ، واكثرهم فهما وهضما للموضوع ، صحبني الى تونس .

قصدنا منزل الاخوين : « صالح الباسي العروسي — ومحمود العيادي » رحمهما الله تعالى . ومن الغد ارسلت الاخ محمد المذكور الى ضابط فرنسي كان يعرفه هو من قبل ، وعرفته انا ايضا من بعد عن طريقه . ارسلته اليه كي يسأله اذا كان لدى الفرنسيين اية واسطة او وسيلة استطيع الخروج بها من تونس الى اية جهة كانت . وعاد الاخ محمد العرضاوي ليقول لي ان الضابط الفرنسي يقول انهم اي الفرنسيين اعجز عن الحركة والوسيلة اليوم . وهنا سلمت للاخ محمد مفاتيح كانت معي وحاجات اخرى يجب تركها في البيت . واوصيته ان يسلمها لوالدي ويعلمه بطريقة تدريجية وغير مفاجئة ، بانني ذاهب الى حيث الاخ محمد عباس . وساعود بعد ايام ان شاء الله .

وهكذا فقد عاد الاخ محمد الي الكرم . وبقيت انا بمنزل الاخوين « صالح

ومحمود » وقد علم بعض الاخوان تونسيين وليبيين فجاؤوا ليلا وكان بينهم من ذوي الخبرة والدراية . ومنهم علمت ولاول مرة ان سبب مجيئي جيوش المحور الى تونس هو نزول جيوش الحلفاء في الجزائر والمغرب وغيرهما . وبالتحديد الجيوش الامريكية وهي زاحفة الى تـــونس . وهذا طمأنني بان غيبتي لن تطول ان شاء اللـــه .

وبما ان الاخ « صالح الباسي » رحمه الله تاجــر مــواد غذائية بمنطقة « نهج سيدي البشير » وهذا النهج هو المـــدخل الرئيسي لمـــدينة تونس بالنسبة للبدو وغيرهم من سكان المدن الاخرى ، والقرى الواقعة في جهتي الغرب والقبلة . لذا فقد اوصيته ان يفتش لي عن واسطة اي كانت اخـــرج معها للجهة الغربية .

وفي اليوم الثالث من وجودي في بيت الاخـــوين المذكورين ، جاء الاخ صالح ، وقال لي : هناك عربة « كريطة » يجرها حصان واحد ستتجه الى الفحص بعد ظهر هذا اليوم . فعزمت على الخروج ، بعدما كلفت الاخ صالح ليتم معه الاتفاق في موعد السفر . واجر الركوب ، وقد تم كل شيء .

هجرة بعد الهجرة

في آخر يوم ١٠ نوفمبر ١٩٤٢ م ركبت العربة من (نهج سيدي البشير) بتونس وكنا اربعة عرب بما فيهم انا وصاحب العربة وخامسنا شاب ايطالي من الفلاحين . ولم تسبق لي معرفة بأي منهم ، الا واحدا عرفت اسمه من اول ما ركبنا العربة وذلك من مكالمة اصحابه له ، اذ كانوا ينادونه (يـــا لبيض) والملاحظ لم يكن هذا اللقب من اسماء الاضداد كما قد يتبادر للقارىء كلا فهو ليس بالاسود .

ولبيض هذا مهنته شراء الملابس المستعملة من العاصمة وبيعها للاعراب في اسواق الدواخل ، وقبيل غروب الشمس تحركت بنا العربة ولما وصلنا آخر المدينة في موقع يسمى « زيتون الجربي » وجدنا البلاد مطوقة والطريق مغلقة باعمدة كتلك التي توضع عادة في الحدود بين دولـــة واخرى وعليها ايطاليون من جاليتهم في تونس وهم يتكلمون العربية الدارجة كاحـــد ابناء البلاد يتحرون عن الداخل والخارج ، ولما رايتهم ايقنت بأنني قد وقعت في الفخ فيا لها من ساعة نحسة ، وقلت في نفسي ذلك المثل العامي التونسي : (وقفت الزنقة بالهارب) .

وقفت بنا العربة في صف طويل من العربات حتى جاء دورنا وتقـــدمت عربتنا امام المتحري وعندها نهض الشاب الايطالي الذي كان معنا واقفـــا في العربة، ورفع يده بالتحية الفاشية دون ان يتكلم فقال له المسؤول الايطالي

[تو ــ باصه] هكذا بالايطالية ثم نهض احد الاخوان العرب وقال بصــوت عال مخاطبا المسؤولين الطليان بقوله « حتى احنا العــرب ..؟ » فاجــابه المسؤول بقوله : « هيا تعدوا انتم » هكذا بالعربية .

اما انا في هذه اللحظة فقد كنت في وضع يشبــه (الارنبة) اذ يحكى ان الارنبة حين يشتد عليها الحــر تركن الى اي ظل تجده تقيــل فيه ، فاذا اكتشفها الصياد وسدد سلاحه نحوها فتتنبه هي لذلك وتفتح كلتا عينيها ولكنها لا تتحرك ولا تهرب وانما تردد في نفسها : [ان شاء الله ما تجيش في] حتى يقع ما قدره لها الله .

هكذا كان وضعي فقد كنت ممددا على العربة انظر بعيني لحركات المسؤولين الطليان مرهفا سمعي الى ما يقولونه ولم ارفع راسي وانا اردد في نفسي باستمرار : « تحصنت بذي العزة والجبروت وتوكلت على الحــيّ الذي لا يمــوت » وقد انتهينا من هذه النقطة الخطيرة بسلام . تحركت العربة وبعد قطع مسافة رفعت راسي وتنفست الصعداء وحمدت الله على الطافه . وفي الصباح الباكر وصلنا الى بلدة (الفحص) وهي بلدة تقع في منبسط من الارض الى الجنوب الغربي من تونس العاصمة تبعد بحوالي ستين ك.م تحيط بهذه البلدة حقول معظمها مزارع حبوب .

ولقد كان يوم وصولنا (الفحص) يوم سوق بها وكان يوما شديد البرودة والسماء مكفهرة والمطر ينزل رذاذا ، تركت العربة بمن فيها ودخلت السوق اتجول فيه لعلي اجد بين الناس من اعرفه لكي استعين به واسترشد منه لمعرفة طريق ربع سليانة . او اجد واسطة اذهب معها لانني لم يسبق لي معرفة الجهة ولكنني لم اجد من اعرف .

وهنا تبادر لي ان اذهب الى مركز الجندرمة لعلي اجد منهم مساعدة . وفعلا فقد ذهبت اليه ودخلت لكل المكاتب الواحد بعد الآخر وكنت التقي بافــراد الجندرمة خارجين داخلين ولم يسألني احد منهم عما اريد لانهم في ذهول وشرود من شدة الصدمة . فلقد كانت صدمة الهزيمة وكان الخــوف والهلع من توقع وصول العدو بين يوم وآخر يملأ قلوبهم .

وحينما ايقنت ان لا فائدة ترجى من الجندرمة تركت السوق وخرجت الى اطراف البلاد اترصد الطرقات وبينما انا واقف اذ رايت جنديا فرنسيا راكبا على عربة (شريول) يجرها ثلاثـــة خيول فهرولت نحوه واستوقفتـــه ثم سألته : اذا كان ذاهبا الى ربع سليانة او هي في طريقه لاذهب معه اذا كان ليس له مانع من ذلك ..؟ فقال : انه لا مانع لديه في ان اذهب معه اذا كان البلد الذي اريده يقع في هذه الطريـــق . اما هو فانه لا يعرف اي جهة ولا حتى البلاد الذاهب اليها . وانما هو تلقى امرا بان يسير في هذه الطريق حتى يصل الى بلد اسمه (تبرسق) فوجدت هذا الجندي هو اجهـــل مني بالجهة وطرقها .

عندئذ عدت الى السوق وبينما انا اتجول اذ وجدت صاحبنا (لبيض) يحزم بضاعته فسألته عن وجهته فقال لي اي سوق يجتمع اليوم التالي . فقلت له فتش عن عربة نذهب فيها سويا الى سوق الربع وانا ادفع اجرها . فتمكن لبيض من ايجاد العربة بسرعة وسارت بنا الى (ربع سليانة) وهذه المنطقة هي الاخرى منطقة فلاحية وبها ســـوق . وكان السيد « محمد بن خليفة بن عامر الورشفاني » رحمه الله يسكن في مكان من هذه المنطقة يدعى « سيدي سعيد » والاخ محمد من المهاجريـــن .هجرة حرب وليست هجرة عيش وهو من اعضاء الجمعية . والملاحظ ان تلك هي اول مرة ازوره في مكـــانه .

وصلنا الى ربع سليانة . وقفت العربة امام حانوت على حافة الطريق قرب منزل محمد بن خليفة . دفعتاجرة العربة وواصلت سيرها الى مكان السوق . واذا بالاخ محمد يخرج من هذا الحانوت مع جماعة من بدو المنطقة وقد استقبلني بسرور مشوب بدهشة . واخذ يسألني عن الاحوال في تونس وعن مجموعة الاخـــوان وبعد حوالي ساعة انتقلنـــا الى منزله وجيء لنا بالعشاء . وبعد ذلك بقليل سمعت البكاء في منزله فسألته عن السبب فقال لي : ان النسوة علمن بقدومك فخشين ان نختفي معا ونتركهن لوحدهن .

وفي يوم ١٨ نوفمبر ودعت الاخ محمد رحمه الله وذهبت الى سوق الربع

الذي يبعد عن منزله بحوالي ستــة ك.م لافتش عن واسطــة للذهاب الى سليانة . وكان ذلك اليوم يوم سوق الربــع وكان الجــو شديد البرودة والسحب متراكمة كثيفة والمطر ينزل باستمرار ولكن طل وليس بــوابــل . تجولت في اركان السوق . فلم اجد فيه من اعرف الا الشيخ (احمد) ذلك الذي كنت قد اجتمعت به في الدكان مع المرحوم محمد بن خليفة عند وصولي من الفحص الى الربــع .

وبعد قليل غادر الشيخ السوق وبينما انا اتجــول اذ وجدت صاحبي « لبيض » عارضا بضاعته وحينما وجدتــه ارتحت وتهأ لي أن عقدتي قد انحلت وسوف لن اعدم الواسطة الى « سليانة » بعد وجود « لبيض » سواء كان ذلك معه او بواسطته . تقدمت اليه وحييته بتحية الصباح . ولسبب لا اعرفه اشاح عني وجهه وكأنه لم يعرفني من قبل اذ لم يــرد علي التحية واشتغل بمكالمة شخص كان حذوه فقلت في نفسي يا لها من ساعة هذه التي صادفتني وعولت على ان اعود اليه ساعة اخرى قد تكون ابرك .

تراجعت الى الوراء وواصلت تجوالي في السوق واثناء ذلك خطرت لي خاطرة عولت على تنفيذها عسى ان يكون فيها حل للموقف . ذهبت الى بائع البيض واشتريت منه اربع بيضات ورحت بها الى صانع « الفطائر » : « سنفاج » فجعل لي بها اربع فطيرات اخذتها في يدي وبدات في اكل واحدة منها وانا سائر في طريقي الى صاحبي « لبيض » .

وقفت امامه وناديته « يا لبيض » « اتحب تفطر فنظر الي وقال : « اخي اللي ادير الخير ما يشاورش » فناولته الفطيرات الثلاثة وبدا في اكل الاولى واعطى واحدة للرجل الذي كان يتكلم معه . فاسرعت انا بمخاطبته : يا لبيض انت معرفتي الوحيدة هنا وصاحبي في الطريق ارجــوك ان تفتش لي عن واسطة لاذهب معها الى (سليانة)

وفي نفس الوقت نادى بأعلى صوته (يا ذهبي) ثم نهض من مكانه وفي لحظة جاء يصحبه شاب معتدل القامة يميل قليلا الى الطول . وسيم الوجه

معتدل الجسم نظيف الملبس في فيه سن من الذهب الاصفـــر في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر . فناوله الفطيرة الثالثة ثم قال له : « ها ذهبي اخي : هذا صاحبي كيف خويا (واشار الي بيـــده انحبك اتهنيني عليه دبرله كريطة يمشي معاها لسليانة ابجاه ربي اتهنيني عليه ويدفع حق الركوب » .

والملاحظ ان الوسائط كالعربات والدواب موجودة يستطيع الانسان أن يجدها بنفسه ودون ما احتياج الى واسطة وبدون مقابل ايضا لو كانت الظروف عادية . ولكن في تلك الايام بدأت الفوضى تطل براسهـــا وبوادر الخطر تتراءى في الطرقات خصوصا حينما يسدل الليل ستاره . ولذلك فاذا لم تكن معروفا أو واسطة معروفة لا يطمئن لك احد . هذه ملاحظة لايضاح سبب الحيرة والحاجة الملحة للتفتيش عن معرفة يساعدك في الحصول على رفيق الطريق ليقبلك الرفيق وتطمئن انت له .

بعد هذه الملاحظة اعود الى : « لبيض — و — الذهبي » فاقول لقد قبل الذهبي التوصية وبذلك شعرت بالطمأنينة واخذت اتجول في أطراف السوق حتى اخذ الناس يحزمون بضائعهم ويغـــادرون السوق وعندهـــا اتصلت بالذهبي لاذكره فذهبنا معا الى صاحب عربة وقال له هذا رجل معرفتي وانا مسؤول عنه فخذه معك الى (سليانة) ويدفع لك ثمن الركوب وهو عشرون فرنكـــا .

وبعد قليل غادر « الذهبي — ولبيض » السوق وتخلف صاحب العربـــة ولم يستعد للحركة الا في ساعة متاخرة من النهار ، واخيرا حزم بضائعه وتهيأ للحركة جئته وقلت له يا سيد انا الرجل الذي اوصاك عني الذهبي للذهاب معك الى سليانـــة .

وعادت ساعة النحس مرة اخرى . ويا لها من ساعة ! فعلا لا ادري ما الذي اصاب الرجل ؟ فلقد اجابني بحدة وخشونة مزعجة . اجابنـــي بقوله « الذهبي موش شريكي . لا نعرف ذهبي ولا غيره فكني من دعوتك » ولقد

حاولت جهدي ان اهدىء من غضبه ولكنه ازداد غلظة ومكرا . وقال « امشي دور على الذهبي اجي اركبك » — (والكرارطيـــة) في تونس معروفـــون بمكرهم وتهورهـــم .

ولقد كان النهار في آخره والسوق ليس بها اذ ذاك محلات ولا سكان ولا مسجد الا مقهى توصد ابوابها عند انتهاء السوق ويغادرها صاحبهـــا الى مسكنه البعيد . والبرد شديد كما اشرت آنفا والظلام حالـــك والطريق لا اعرفها . وهي خطر على سالكها منفردا بسبب فوضى الحرب واختلال النظام نتيجة لتسابق المتحاربين كل منهم يحتل جهة من البـــلاد وكل منهم يواصل زحفه نحو الآخـــر .

ولقد تعجبت مما اصاب الرجل صاحب العربة حتى يقف مني هذا الموقف بعد أن كان قد وافق . اذن ماذا افعل معه يا ترى ..؟ انتظرت حتى اتم اعماله لعله يتأثر . ولكنه جلس على مقدمة العربة ونهـــر الحصـــان فتحرك نحو الطريق فاتبعته من الوراء خطوات . وفي خفة وسرعة تسلقت من الخلف واستقررت فوق العربة ظنا منـــي انه لا ينتبه الي ولكن من سوء الحظ ان الرجل احس بي فاوقف عربته ونزل فوجدني في قمتها فاستشاط غيظا وصاح بي صيحة شديدة قائلا : « اهبط والا نطلع نحدف ديـــن امك » فاجبتـــه مستجديا في لطافة وهدوء فلم يزده تلطفي الا عتوا ونفورا .

وحينئذ ايقنت انه لم تبق لي من حيلة الا « الاسنة » اي مقابلة الشيء بمثله فقلت له : اسمع يا خويا انا الآن ركبت ولن انزل منها الا في (سليانة) واذا حاولت انزالي فسوف لا تذهب انت ولا انا الـــى (سليانة) واذا لـــم تصدقني فجرب حظـــك . وهنا اخذ يشتم امـــي وابي و ،،، ملائكتي ،،، وخالقي ،،، العرب والمسلمين — حتى لقد كاد ان ينفجر من شدة الانفعال . وانا ساكت لا اجيبه بشيء . ولما لم اجبه ركب عربته وصب جام غضبه على ذلك الحصان المسكين بالشتم والضرب حتى كاد ان يخرج بنا عن الطريق وتنقلب العربة ويحصل لنا ما يحصل ولكن الله سلم . وسار دون ان يكلمني ولو كلمة حتى سليانة .

وصلنا (سليانة) وكان وصولنا اليها بعد الغروب . ولما نزل تقدم الي وقال بغضب : (هات عشرين فرنكا حق الركوب) فقلت له لا ! لا أعطيك شيئا ولا حق لك علي . ومراكز الحكومة امامك . فكر قليلا ثم نظر الي وقال : « برا انوكل عليك ربي » فقلت له عجبا في الربع كنت تشتمه وهنا تريد أن ياخذ لك حقك ..؟ فركب عربته وتحرك دون ان يجاوبني . وعندها التحقت به واعطيته العشرين فرنكا وقلت : خذها فانا لا اجاريك لانني افضل منك عقلا ودينا ان شاء الله . وافترقنا .

ظروفي في سليانــة

قلت وصلنا الى « سليانة » وسليانة هذه بلدة صغيرة جميلة تقع فــي منخفض من الارض يجاورها واد جاف لا يجري به ماء الا عند نزول الامطار. وهي منطقة زراعية خصبة شديدة البرد في الشتاء وصلتها متأخــرا كما اشرت آنفا فما وجدت في شوارعها من يدب ، تجولت بنظري في جوانب السوق فرايت محلا مفتوحا فذهبت اليه فاذا هو مطعم .

دخلت المطعم وطلبت اذا كان عنده شيء من الاكل . والواقع ما كانت لي شهية للاكل وانما فعلت ذلك رغبة مني في فتح باب المكالمة عسى ان اجد لديه مكانا انام فيه تلك الليلة فقدم لي صحنا لم اعرف نوع الاكــل الذي به وما استطعت أن آكل منه لرداءته .

وحينما وضع امامي الصحن قلت له : انا رجل غريب عن هذه البلاد ولا اعرف فيها احدا فانا من تونس فاذا تتكرم بقبولي لانام هنا هذه الليلة اكون شاكرا لك . فـامتنع عن قبولي بحجة انه ممنوع عليه واشار لي الى اصطبل للحيوانات قريب منه في نفس السوق فيه غرف للمبيت بالايجار وقال فيه جماعة من جهتكم وعندهم غرفة . ذهبت الــى هذا الاصطبل ولمـــا سالت صاحبه عن الغرفة اشار علي بها . ولقد كنت انا سائر اليها أتبيــن ضوءا يبدو لي من فجوة صغيرة في الباب ولما وصلت وطرقت الباب انطفأ الضوء وسكتت الاصوات التي كنت اسمعها وصارت الغرفة كانه لم يكن بها ساكن .

وفي الحقيقة ان هذه الحالة لم تكن عادة في الناس هناك ابدا . وانما هي حالة طارئة اوجدتها ظروف الحرب ووجود الجيوش المتحاربة التي كانت سببا في انتشار الفوضى والخوف من كثرة الحوادث والاتعاب التي قد تنجر للانسان بسبب ايواء الغريب . كل هذه جعلت الواحد لا يثق حتى بمن يعرفه فضلا عن الغريب المجهول .

رجعت الى صاحب (الاصطبل) حيث عنده غرفة انظف ما في الفندق تقع بجانب المدخل الرئيسي يستعملها لنفسه ومعاونه ومعارفه ، فوضحت له وضعي وتخوفي من شدة البرد وطلبت منه أن يقبلني معه تلك الليلة حتى الصبح وانا مستعد لدفع الاجر الذي يطلبه .

فكر صاحب الاصطبل قليلا ثم سالني : هل عندك (دابة) ..؟ يعني اي نوع من حيوانات الركوب . قلت ، لا ، قال : اذن لا يمكن ان اقبلك فاستعطفته بكل ما اسعفتني به القريحة من عبارات لطيفة ومؤثرة فلم يقبل مني ذلك فقلت له انا ادفع لك الثمن — (ثمن دابة) يبقى عندك حتى غد فرفض .

ولما عجزت عن اقناعه التجأت الى سقف بدون باب (برطال) فيه صف طويل من الحيوانات خيول وبغال وحمير وبجانبها قليل من الفراغ وقلت له : هذا مكاني الى غد وادفع لك ما تطلبه اذا سمحت . والا فسابقي هنا رضيت أم لم ترض لانني لا استطيع المبيت في الشارع فانفعل الرجل من هذا الكلام وقال لي مهددا اياي : «شفتني رجل كبير بتستذرع علي تو انجيب لك من يخرجك » تركني هناك وخرج مغاضبا وبعد حوالي ربع ساعة تقريبا جاءني باربعة رجال اكبرهم لا يتجاوز الاربعين فيما يبدو لي . ولقد بادرني احدهم بدون سلام ولا كلام للاستفهام عن سبب الخلاف بادرني بقوله « انت شفت الرجل شايب كبير بتستذرع عليه انا نتملح منك) فاجبته بهدوء : مهلا يا اخواني اسمعوا كلامي . وبعد ذلك تصرفوا بما ترونه . فقال الذي هددني نفسه : « تكلم اشنو كلامك ..؟ »

فقلت : انا رجل غريب . غريب عن هذه المنطقة . فانا اصلا طرابلسي وقادم من تونس . ولم تسبق لي معرفة هذه الجهة . ولا اعرف احداهنـــا . والبرد شديد خصوصا في الليل . ولا تنسوا اني اخوكم مسلم فهل تسمح لكم ضمائركم ان أموت بالبرد في الشارع ..؟ فانا لست « مستذرعا » كما تقولون ولكنني مضطر ـــ وأنا مستعد لدفع ما يلـــزم .

قد يكون صاحب المحل يخشى الغريب فله كل الحـــق في ذلك . ولكن للاطمئنان فانا اسلم له امامكم ثمن « دابة » واكثر حتى الصباح . وبعد هذا انتم الآن اربعة رجال مسلمين اليس بينكم صاحب مروءة يتحمل مسؤوليتي فيضمن في واجره على الله ..؟ وحينما سمعوا كلامي تقدم احدهم وسالني :

انت طرابلســـي ..؟

قلت : نعـــم

فقال : الى أين ذاهب ..؟

قلت : الى الكريب .

قال : من تعرف في الكريب ..؟

قلت : عندي أخ طرابلسي يسكن في « هنشير » « الحاج مبـــارك بن تواتي الدريدي » . وهذا أعرفه ويعرفني ايضا وهو من كبار الفلاحين العرب في المنطقة . فالتفت هذا الرجل الذي يسالني التفت الى جماعته وصاحب المحل . وقال بجد وتصميم : اعطيه مكانا يرقد فيه الى غد ولا تاخذ منـــه شيئا . انا ادفع لك وكل ما يحصل منه أنا مسؤول عنه . فوافقه الجميع وانتهى المشكـــل .

وهنا أمر صاحب المحل معاونه . وهو شاب صغير فقال له « هزه للبيت يرقد فيها » فقادني هذا الشاب الى غرفة في ركـــن من الفندق فدخلتها في ظلام دامس . فاذا بقاعتها كانها مطاط فاستغربت الامر وانحنيت في الظلام اتلمس القاعة فاذا هي ملآنة بروث الحيوانات . في سمك عشرين سنتيمترا تقريبا على سعة الغرفة . فطلبت من صاحب المحل ان يسعفني باي شيء أضعه تحتي للوقاية من ذلك الروث وما قد يكون فيه من الحشرات .

ولقد كاد هذا الطلب أن يسبب لي الخروج من الفندق . واخيرا انتهت الزوبعة . وامر معاونه ان يفتش لي عن شيء انام عليه . غاب الشاب لحظة وجاءني « بجمبة كريطة » فوضعتها فوق ذلك الروث وجلست فوقها افكر في تصرفات الدهر .

بينما انا جالس في ذلك الظلام الحالك . واذا برجل بدوي . من بدو تلك الجهة يطلب المبيت وليس له (دابة) هو الآخر . وامتنع صاحب «الاصطبل» عن قبوله . وسمعت جدالهما يتواصل . فاقتربت منهما وطلبت من صاحب المحل ان يقبله لينام معي . وانا مسؤول عنه . وبهذا التدخل اثرت على نفسي زوبعة جديدة كادت أن تطوح بي خارج « الاصطبل » وما كان أغناني عن ذلك . ولكن الانسان اذا تراكمت عليه المصائب . وناصبته الظروف العداء يزداد هو سعيا وراء ايجاد المزيد منها .

وعلى كل فقد قبل البدوي بعد جهد ، ونام معي . واسترشدت منه عن الطريق الى « الكريب » وكم هي المسافة ومبلغ العمران فيها . وهل توجد متاجر ومياه للشرب وغير ذلك . وهذا هو السبب الذي دفعني للتدخل في امره . بتنا في تلك الغرفة . ويا لها من ليلة فريدة في حياتي . واي ليلة هي تلك التي لم أعرف فيها للنوم طعما من شدة البرد وفراغ البطن وما كنت اتحسس به في الظلام من دبيب لم اعرفه . وانى لي ان اعرفه . وقد كان الظلام أطلق لتلك الحشرات الحرية الكاملة للتصرف في جسمي .

وفي الصباح الباكر ايقظت ذلك الاعرابي من نومه . واعطيته خمسة فرنكات ليأتينا بشيء من الفحم او الحطب لكي نضرم النار لنصطلي عليها . بينما يبتدىء السوق وتفتح المتاجر وغيرها . وجاء الاعرابي بحزمة من الحطب واضرمنا النار ولكنها لم تفد شيئا .

انتشر ضوء الصبح . وبزغت الشمس لحظة ثم اختفت وراء جحافل من السحب الكثيفة المتراكمة . واخذ المطر ينزل رذاذا . وخرجنا من مسكن الحيوانات . وكان ذلك اليوم يوم سوق في القرية . خرجنا بعد ما دفع

كل منا (فرنكين اجرة المبيت. سبق ان قلت ان الرجل الذي توسط في قبولنا سيدفع اجرة المبيت ولكنني رفضت ذلك . ودفعت لانني رايت ضمانته اكبر من دفع اجرة المبيت وكفى بذلك فضلا .

اجل خرجنا من « الاسطبل » الى السوق . وقصدنا المقهى . وكان البرد قد اخذ مني مأخذه . فجسمي كله يرتعد كالريشة في مهب الريح . واسناني تصطك يسمعها من يكون بقربي . وصلنا المقهى . وهـــات يا قهواجي . الاولى ، والثانية والثالثة ، ظنا مني انها ستطـــرد البرد . ولكن هيهات . فقلت للبدوي فتش لنا عن محل اكل سخـــون . فذهب يقـــول هناك محل « للمدمس »

قمنا حالا الى محل « المدمس » وهو على الطريقة التونسية (طبعا) وهي طريقة تختلف عن الطريقة (المصرية) تماما . فهذا المدمس هو خبز ثريد بمرقة الحمص مع شيء من « الهريسة : فلفل حار » وكمـــون . وكروية . وزيت زيتون نيء — وهي اكلة لذيذة . فأكلنا وملئت البطون فاختفت رعدة البرد وصرنا في حالة اعتيادية ثم عدنا الى المقهى جلسنا بها حصة مـــن الوقت .

ثم تبادر لي أن اتفقد (الحولي) عما عســـى ان يكـــون قد علق به . وهنا المفاجأة المزعجة والمنظر الاليم الذي لا يصدق تأملت في « الحولي » فرايت وياالهول ما رايت منظرا مريعا لا يمكـــن أن يعرف السامـــع حقيقته مهما وصفت . ولا تتصوره مخيلته مهما صورته . ولعله لم يحدث لغيري من قبل فيما اظـــن .

ذلك انني حينما نظرت الى « الحولي » وهو جديد لم استعمله من قبل على اي وجه من الوجوه . رايته مغطى طولا وعرضا بطبقة كثيفة متراصة من « القمل الاسود » وحشرة صغيرة سوداء هي الاخرى لم اعرفها ما هي وكثير من « القراد » الامر الذي ارتعدت منه فرائصي . فطويت « الحولي » وجعلته في « العلاقة » وتحملت لفح البرد القارس طول الطريق من سليانة الى الكريب .

بعد أن تحسنت حالتي أخذت الطريق في اتجاه الكريب حسبما دلني عليه ذلك البدوي . وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت الى محطة القطار الذي يربط بين مدينتي تونس والكاف اسمها « محطة لخوات » . وهذه المحطة تبعد عن محطة الكريب بحوالي سبعة ك.م استرحت بها قليلا . ثم واصلت السير الى محطة الكريب وهناك استقبلني الاخ سليمان بن حسين المقصبي المسراتي . وهو صاحب متجر لبيع المواد الغذائية في نفس المحطة .

ولقد قال لي الاخ سليمان : البارحة كنا نتكلم عنك وان الاخ محمد عباس كان منشغل البال من جهتك . وان كان يتوقع خروجك من تونس . ولكنه لا يعرف أين سيكون اتجاهك . ثم بدأ يسألني عن الاخـوان في تونس . ولكنني قلت يا أخ سليمان اسعفني بفراش لكي أنام فانا في شدة من التعب وأعفني من السؤال الآن . جاءني بفراش ورحت في نوم عميق .

بينما كان هو قد ذبح أرنبا وأحضر الاكل ثم أيقظني . فكانت أكلة لازلت أتذكر لذتها . ولعل ذلك كان نتيجة الجوع والتعب . وبعد ذلك شعرت براحة تامة . جاء الاخ محمد عباس فكان سروره عظيما لخروجي من تونس وافلاتي من أعين العدو . وحال وصوله أطلعته على غريبة « الحولي » . فأخذ جميع ملابسي الى منزله . وطبخت طبخا كافيا حتى زال منها ما علق بها . ثم غسلت فاذا هي كما كانت من قبل كأنها لم يمسسها سوء . ولا أثر لما كان .

بين الكريب والكاف

وصلت الى « الكريب » وفكرت في الامر مليا فاستقر رايي على ان ابقى مع الاخ « محمد عباس » أولا لانه ليس لي في هذه المنطقة غيره ارتاح للبقاء معه . ثانيا لاني ابتعدت عن خطر العدو وصرت في منطقة وسط بين الزاحفين « الحلفاء والمحور » ومع ذلك فاني متوقع وصول الحلفاء الى هذه المنطقة قبل المحور . ثم انه لا بد لنا من انتظار الحلفاء للاتصال بهم . واستئناف اعمالنا معهم اثباتا لوجودنا في المعركة عسى ان تكون لنا في ذلك فائدة أو تكون لنا فيها حجة في يوم من الايام المقبلة .

وفي يوم من تلك الايام الخوالي في « الكريب » فكرنا — الاخ محمد عباس . وانا ان نذهب الى « الكاف » حيث ترامت الينا اخبار تفيد أن بعض الفرنسيين موجودون بالكاف في شبه حكومة . بينهم ضابط انجليزي مع وجود اخ لنا يسكن بمدينة الكاف هو المرحوم : « محمد احمد عريقيب » لذا فقد راينا الذهاب اليها للاطلاع على حقيقة هذه المعلومات التي وصلتنا عن طريق عناصر ليست من المصادر الاكيدة .

وفي يوم لا أستطيع تحديده بالضبط ذهبنا الاثنان الى « سوق الثلاث » وهو سوق منطقة الكريب يبعد عن مقرنا بحوالي أربعة أو خمسة ك،م تشقه الطريق المعبدة الرابطة بين مدينتي تونس العاصمة والكاف — عبى

ان نجد واسطة تحملنا الى الكاف . ومن بـــاب الصدف ان وجدنـــا سيارة عسكرية تابعة للجيش الفرنسي يسوقها شخص مالطي مدني في لباسه — فتقدمنا منه ورجوناه ان يحملنا معه الى الكاف حيث انه هو ذاهب اليهـــا فامتنع في شدة وعنجهيـــة .

وبينما نحن نحاول معه بلطف رغم ما اظهره لنـــا من الخشونة . وهو يصدعنا . بينما نحن كذلك واذا بضابط عربي جزائري من الجيش الفرنسي « طبعا » واظنه في رتبة ملازم ثان اذا لم تخني الذاكرة فتقدم منا وسالنا عن حاجتنا . فقلنا له : ان وسائط النقل بالاجرة مقطوعة تماما . وطلبنا من هذا ليحملنا معه فامتنع ونحن لنا حاجات ضرورية ومستعجلة .

وبعد سماعه كلامنا تقدم نحو السائق وهو داخل السيارة مزمع على التحرك وامره بان يحملنا معه . فأذعن للامر ولم يستطع ان يرفض . ولكن ظهرت على وجهه علامات عدم الرضا . ومهمه ليتكلـــم . الا ان الضابط الجزائري عاجله بصيحة لم يستطع معها الكـــلام . ثم التفت الينا وقال : اركبوا معه واذا تكلم في الطريق اضربوا على راسه — وانا الضابط فلان — وسمي لنا رقمه وفرقته بالتفصيل . والمالطي يسمع ولم يتكلم فركبنا وسارت بنا السيارة حتى وصلنا الكاف ، ولم يكلمنا . ولم نكلمه .

مدينـــة الكـــــاف

الكاف هذه مدينة قديمة تقع في مرتفع من الارض كانه جبل وبها بقايا من سور قديم — وقصبة — الامر الذي يدل على انها ذات حضارة تاريخية . وفي نفس البلاد توجد عين جارية ذات مياه دافقة قوية الاندفاع عذبة المذاق وهواء الكاف — هواء جاف صحي الى حد بعيد . الا ان طقسها بارد جدا في الشتاء . وكثيرا ما تنزل بها الثلوج في معظم السنين ان لم اقل في كل سنة . ومنطقة الكاف على وجه العموم منطقة زراعية خصبة معظم زراعتها (القمح) ومما يلفت النظر بصورة خاصة في مدينة الكاف . انها تشرف من عليائها على مساحات من الاراضي الخصبة المترامية الاطراف وتقـــع الى الشمال

الشرقي . أو الى الشرق منها . وهذه الاراضي اسمها « الزعفران » فهي اسم على مسمى . أراض ذات تربة حمراء فاقع لونها تسر الناظرين .

وحينما وصلنا الكاف قصدنا منزل أخينا « محمد عريقيب » رحمه الله حيث كان يسكن بها وبعد راحة ذلك اليوم طلب الاخ محمد عباس من الاخ محمد عريقيب نظرا لانه من سكان المدينة ويعرف دوائرها . طلب منه أن نذهب جميعا للاتصال بالضابط الانجليزي الموجود بالكاف وهو برتبة (ميجر) لعلنا نفهم منه شيئا عن الموقف . أو نجد عنده ما يفيدنا في مستقبل حركتنا بعد ان اصبحت فرنسا في حالة ضعف قريب من العدم . فالفرنسيون هناك اصبحوا عبارة عن جماعة لاجئة لا تملك من الامر شيئا . ولكن الاخ « محمد عريقيب » امتنع عن ذلك دون أن يبدي السبب لتبرير امتناعه .

ولقد غضب الاخ محمد عباس من هذا الامتناع الذي أظهره المرحوم عريقيب . ولم يبرره وبعد خمسة ايام رجعنا الى الكريب دون ان نتصل باحد ولقد حملنا معنا بعض اشياء من المواد الضرورية الغذائية عن غير قصد تجاري . ولكن حينما وصلنا (الكريب) وجدنا في الناس رغبة شديدة في الاقبال على شرائها . وكسبا هائلا في تلك المواد التي حملناها معنا . الامر الذي جعلني اتردد على الكاف من أجل التجارة .

عدت الى الكاف مرة اخرى واتصلت اثناءها بجماعة من الفرنسيين . وقد وجدت بينهم أفرادا من الضباط الذين كنا عرفناهم من قبل في تونس مجتمعين في شبه حكومة . وكان من بين الذين عرفناهم وبقيت أسماؤهم في ذاكرتي هم : ميكار — لفدان — جوسران — اوجي — بوري — وغيرهم.

فهؤلاء الضباط وغيرهم نزحوا من تونس وغيرها وتجمعوا في مدينة الكاف وهم من الفريق المناصر لموقف الجنرال (ديجول) وقد شكلوا من انفسهم شبه حكومة لتتولى شؤون المنطقة كما انهم نصبوا رجلا من عائلة في الكاف تعرف « بعائلة قدور » أو بن قدور ليقوم مقام « الباي » ملك تونس سابقا ويصدر الاوامر باسمه . وحينما اتصلت بهذه المجموعة . سالوني متى

خرجت من تونس .؟ وكيف خرجت .؟ وباي واسطة .؟ وعلى اي طريق .؟ ووالخ — ثم سالوني عن مبلغ القوات المحورية التي نزلت بتونس وطلبو مني اعطاء رايي فيها حسبما رايت وما فهمت .

فقلت : ان القوات التي نزلت لحد خروجي هي في نظري ضئيلة بالنسبة لحالة حرب كهذه كما أن الطريقة المستعملة في الاتيان بهذه القوات على اختلافها هي الاخرى طريقة ضعيفة فاذا لم تتغير وسائل النقل فلا أظنها تصمد طويلا في مواجهة القوات الزاحفة والتي بلغنـــا أنها من الضخامـــة بمكان . وهذا هو رايي فيما رايت . فقالوا : هذا كلام صحيح . وذلك هو ما تجمع لدينا من المعلومات في هذا الشان . ومن مصادر مختلفة . ثم طلبوا مني الاستمرار في الاتصال بهم فاعتذرت لانني لاسباب خاصة لا استطيع البقاء في الكاف . كما أن الواسطة غير متوفرة . فاذا احتجتم لي اتصلوا بي تلفونيا بطريق محطة الكريب . بطرف الاخ محمد عباس فسأكون موجودا هنـــاك .

والى هنا انتهت مقابلتي لمجموعة الضباط . ثم اشتريت من البضاعة ما امكنني الحصول عليه ونقلتها الى الكريب فاذا الناس في انتظارها . واذا بالارباح خيالية الامر الذي شجعني على الاستمرار في هذا العمل . خصوصا وأنا قد خرجت من تونس وليس معي الا ثمانية آلاف فرنك . وانا لا أدري كم ستطول هذه المدة ومتى تنتهي تلك الظروف الحزينـــة .

ولذلك فقد واصلت هذا العمل ابتداء من شهر ديسمبر الى آخر مارس . فكان عملا مربحا جدا . ولكنه متعب وشاق جدا . وخطير ايضا . فقد كنت اذهب الى الكاف واعود منه مرتين في الاسبوع . وانا محمل بما يتجـــاوز الثلاثين ك.غ . ولا يصل الاربعين من مختلف البضائع المطلوبـــة . والمسافة بين « الكريب والكاف » حوالي سبعين ك؟م . والاعسر من ذلك كله هو انه ينبغي لي ان اقطع هذه المسافة في يوم . ولا اغادر المكان الا والشمس قد بسطت ضياءها على الكون — وكما ينبغي لي ان أصل مكاني قبل اختفـــاء الشمس . وذلك نظرا الى خطورة الطريق في الظلام بسبب فقدان السلطة

واختلال الامن حيث اغتنم اصحاب الاجرام غياب النظام فاخذوا يعيثون في الارض فسادا .

ونظرا الى هذا الخطر في الطرقات . ولما كنت على معرفة بالضباط الفرنسيين . ولما كانوا قد طلبو مني استمرار الاتصال بهم . نظرا لذلك كله فقد ذهبت اليهم في يوم من تلك الايام وشرحت لهم حالة الخطر التي استهدف اليها في الطريق . وشرحت لهم طبيعة عملي الخاص الذي صممت عليه والذي سيجعل من الممكن مواصلة اتصالي بهم كما طلبوا . طلبت منهم منحي سلاحا احمي به نفسي سواء كان ذلك بندقية او مسدسا على الاقل فاجابوني بانه لا يوجد لديهم اي سلاح .

فقلت انا اعذركم في هذا . فقد لا يكون عندكم سلاح فعلا . ولكن اعطوني رخصة مكتوبة منكم تسمح لي بحمل السلاح . وانا اتدبر الامر . فقالوا من اين تتحصل على السلاح ..؟ قلت انا ادخل الواجهة والتقط منها بندقية : وهو امر ممكن . فقال لي احدهم الا تخشى ان تموت ..؟ قلت السنا خرجنا نفتش عن الموت . ونحن الآن مستهدفون لها ..؟ فضحك الجميع .

ثم عدت الى الالحاح في طلب الرخصة . وعندها قال لي (ميكار) (العرب يقولون اخوك ، اخوك) هكذا عبارته بالعربية حرفيا وكما نطق بها . وبعد هذا الجواب لم يبق لي من امل في الحصول لا على الرخصة ولا على السلاح عن طريقهم .

وبعد شهر او اكثر من مواصلة عملي التجاري تحسنت حالتي المادية الى حد سمحت لي بشراء (حصان) كان عند احد الضباط الجزائريين . فابتعته منه . وبذلك اصبحت فارسا فخف عني التعب . التجأت الى الفرنسيين من جديد طالبا منهم ان يمدوني « بسرج » من اي نوع كان ، لانني لم اجده في السوق . ولكنهم اجابوني بانهم هم احوج الى السرج . وان لديهم خيولا عاطلة لعدم وجود « السروج » .

مفاجأة واخطار مزعجة

في احدى ترددداتي على الكاف قال لي الاخ محمد عباس لنذهب معا هذه المرة . قلت : على بركة الله تعالى . وكان ذلك ، وفي اليوم الثاني لوجودنا في الكاف بينما كنا نسير معا في الشارع الرئيسي في طريقنا الى مقهى للاخ محمد عريقيب رحمه الله . لنجلس به حصة من الوقت . وعلى حين غفلة ظهرت امامنا سيارة آتية من خارج المدينة . وقد لمحنا داخلها الاخ « محمد بن خليفة بن عامر » رحمه الله . وكانت مفاجأة لم نكن نتوقعها بعثت في نفوسنا قلقا واضطرابا اذ قد تهيأ لنا أن المحور قد زحف على « الربع » ولعله احتل حتى « الكريب » واصبح قريبا من « الكاف » وهذا أمر مزعج لنا بدون شـــك .

وذلك لاننا كنا نعلم أن « ربع سليانة » كان مهددا باحتلال الالمان له . وفي لهفة اشرنا الى سائق السيارة بالوقوف . فوقف ونزل منها الاخ محمد فسلمنا عليه ثم سألناه بسرعة وحيرة عن سبب مجيئه الى الكاف فقال : ان جيوش المحور قد اقتحمت منطقة الربع ففررت ليلا وتركت عائلتي لوحدها وانا الآن غير مرتاح اذ لا ادري ما جرى لها بعـــدي .

وفي اليوم التالي غادرنا الكاف ثلاثتنا الى الكريب حيث مقر الاخ « محمد عباس » وفي الليل اجتمعنا وكان قد حضر معنا الاخ « سليمـــان حسين المقصبي » بمنزل ابن عباس وقررنا جميعا ان نسافر « محمد بن خليفة —

وأنا » ونحاول بالطريقة التي نراها اختطاف عائلة الاخ محمد ونقلها الى الكريب .

ومن ثم قمنا راجلين . وقد بتنا في الطريق عند عائلة تدعى « عائلة بن عبروق » وهي من اشهر العائلات ان لم اقل اشهرها في تلك المنطقة على حد معرفتي ، ثم واصلنا السير في الغد ولما وصلنا مشارف الـــربع قصدنا احد الفلاحين يعـــرفه الاخ محمد . والملاحظ هنـــا ان الاخ محمد بن خليفة معروف جدا في تلك المنطقة وله بين سكانها احترام وتقدير . وهذا الفلاح الذي قصدناه يبعد عن منزل السيد محمد بحوالي عشرة ك.م تقريبا فقررنا الاختباء عنده حتى يسدل الليل ستاره للقيام بما جئنا لاجله .

ولقد استقبلنا هذا الرجل الفلاح ببشاشة وسرور . وبسرعة جيء لنا بالاكل وقد كنا في حاجة الى الراحة والاكل وبعد ذلك سألناه عن الحالة في المنطقة . واين يوجد الالمان ، فقال : لقد وصل الالمـــان الى هنا ، بل تجاوزنا الى الامام بمسافة ثم انسحب تلقائيا ولم يحدث اي شيء للسكان . وهو الآن يعسكر في « جبل منصور » وبهذا الانسحاب أصبح مسكن السيد محمد آمنا بعيدا عن الخطر . فواصلنا السير الى أن وصلنا منزله فوجدنا كل شيء على ما كان عليه . وبعد راحة يوم وصولنا . عدت الى الكريب . وبقي السيد محمد بمنزلـــه .

وفي يوم من تلك الايام التي لم اذهب فيها الى الكاف ، قال لي الاخ « محمد عباس » هيا بنا نمشي الى المحطة نستنشق الاخبار عن جيوش الحلفاء اين وصلت في ليبيا . وقد كان الفرنسيون واضعين خريطة في المحطة على لوحة وبها اشارات « دبابيس » توضح تقدم وتاخر الواجهة في الكر والفر بالاراضي الليبية طبقا لتحركات الجيوش ساعة بساعة . وصلنا المحطة وقد كانت مكتظة بالناس وكلهم يتبادلون أحاديث الساعة . وبعد وقـــوفنا قليلا على الخريطة ، ذهبنا الى دكان الاخ سليمان لنرتاح به قليلا .

بينما نحن داخل الدكان اذ سمعنا ضجة أصوات تنبىء بوجود انزعاج

عام . ثم سمعت قائلا يقول : الطيارات ، الطيارات . ونحن اربعة داخل الدكان : صاحبه ــ ومحمد عباس ــ وشيخ كبير من تاجوراء اسمة « مروان » وانا ــ ولما كثر الضجيج خرجت لاستوضح الامر فاذا بتلك الجماهير التي كانت محتشدة تملأ دروب المحطة ومحلات التجارة فيها مئات من الناس لا وجود لاحد منها فقد اختفت في لمح البصر .

وفي نفس الوقت سمعت هدير الطائرات يختلط بكبكبة قطار الخط الحديدي آتيا من جهة تونس في اتجاهه الى الكاف فنظرت الى مصدر الصوت في الافق واذا باربع طائرات المانية من نوع « استوكا» وفي الوقت نفسه اطل القطار براسه يسحب على السكة الحديدية كانه ثعبان داهمته المزعجات من الاحداث . ولقد وصلت الطائرات والقطار الى المحطة في آن واحد هذا في ارضها وتلكم في سمائها . وقف القطار ونزل منه الناس بسرعة قصد الاختباء والهروب من الخطر . وتفرقوا كل الى حيث هداه تفكيره هروبا من الموت . اما عمال القطار فقد التجأوا الى مخبأ تحت الارض في نفس المحطة . ووقفت انا خارج الدكان . وناديت يا ابن عباس اسرع الطائرات وصلت والناس اختفت .

ولكن ابن عباس تثاقل كانه لا يعنيه الامر ولا يهمه الخطر ثم خرج بهدوء واطمئنان ونظر الى الطائرات وهي محلقة فوق رؤوسنا . وقال : اين المفر الآن ..؟ لا ينفع الحذر من القدر فلندخل الدكان وننتظر تصرفات القدر تجاوزتنا الطائرات الاربعة الى الغرب وواصلت اثنتان منها طيرانها الى الامام . أما الاثنتان الاخريان فقد انقلبتا عائدتين لتلقيا بصواعقهما الجهنمية على المحطة ومن فيها وما حواليها . دخلنا اربعتنا الدكان والتجأ كل منا الى زاوية من زواياه ، وذلك طبقا لما كنا نجده في المجلات المصرية التي تنبه الناس الى طرق اتقاء اخطار الغارات الجوية اذ تقول : في حالة الغارات يجب الالتجاء الى زوايا المباني فهي اسلم مكان داخل البيوت .

وما كدنا نصل الى زوايا الحانوت حتى اخذتا الطائرتان تمطران المحطة بقنابلهما المرعبة . قنابل من وزن خمسمائة ك.غ ويصحب سقوط هذه القنابل

وابل من رصاص الرشاشات من نفس الطائرة . والعجب العجاب هو ما يتراءى للانسان ولا ادري اهو خيال في حقيقة أم حقيقة في خيال . ذلك انه كلما انفجرت قنبلة الا واريت بام عيني الشجر يخر لها راكعا حتى ليكاد يقبل الارض ثم ينتصب كما كان في انتظار انفجار آخر ليعيد ركوعه وانتصابه وهكذا دواليك كل ما وقع انفجار .

اما الدكان الذي نحن داخله فقد اراه رأى العين يركع عند الانفجار حتى اظنه قد انهار على رؤوسنا ثم يعود ادراجه . وعند ركوع الدكان كنت اسمع خرير الحجارة في الحائط كتلك السيارة المعبأة بالحجارة الصغيرة حينما تفرغها في الارض . وهكذا كان جميع الشجر والمباني التي هي في نفس المكان . ولقد نزلت قنبلة على بعد اثنتي عشر مترا امام الدكان الذي نحن به فامتلأ بالدخان حتى لم يعد احدنا يرى الآخر رغم صغر الدكان .

واقول الحق فلقد ظننت أن الارض قد زلزلت وان الساعة قد ازفت وان حياتنا قد انتهت اربعتنا ، كما أن قنبلة اخرى سقطت بينها وبين المخبأ الذي التجأ اليه عمال القطار ثلاثة امتار فقط وبعد انتهاء الغارة خرج اولئك الذين كانوا في المخبأ . وقد حصل لاحدهم اختلال عقلي فخرج وهو يهذي كالمحموم فكنت تراه يعدو هاربا ثم يعود . ثم ينظر الى الافق ويحاكي هدير الطائرات وصدى انفجار القنابل .

عاد الجمهور الذي هرب عند بدء الغارة . عاد عدوا وبعضهم يردد باصوات عالية « الطرابلسية ماتوا كلهم » ولكن عند الوصول وجدونا سالمين ما عدا جرحا بسيطا حصل لابن عباس في جهته ، ولا ادري اهو من رصاص الرشاشات ام من شظايا سقف الدكان عندما يخترقه الرصاص لانه سقف ياجور .

اما ذلك الشخص الذي حصل له الاختلال العقلي فقد بقي على تلك الحالة حصة من الوقت ولم يتغير حاله . ثم اخذوه في القطار المتجه الى الكاف ولا أدري ما فعل الله به بعد ذلك . وفي شهر فبراير اجتمعنا ثلاثتنا محمد

عباس ــ محمد بن خليفة ــ احمد زارم في منزل الاول وقررنا ارسال تقرير الى قادة جيوش الحلفاء . وقد ارسلت التقارير فعلا وبعلم الوصول وكانت كلها عن طريق القائد العام للحلفاء بالجزائر .

وبعد أيام تلقى الاخ (محمد عباس) اشعارا بوصول تلك التقارير وحينما كنت اكتب هذه المذكرات جاء الى طرابلس الاخ محمد عباس فسالته عن ذلك الاشعار اذا كان لا يزال يحتفظ به . لكي اضعه في هذه المذكرات . فقال انه قد تلقى الرد ولا يزال يتذكره ويعتقد انه بين أوراقه . ولكنه فتش عليه كثيرا فلم يعثر له على اثر . وعلى كل فان زبدة هذا التقرير هو ما يلي :

اولا « اننا كنا قد استعددنا للوقوف الى جانب الحلفاء باعلان الثورة في بلادنا وذلك عن طريق فرنسا . واننا وان كنا كما ذكر ولازلنا على ذلك الاستعداد فلا نرى مانعا من زيادة التاكيد بان نضع انفسنا تحت طلب الحلفاء للقيام باي عمل يطلب منا القيام به ضد العدو المشترك .

ثانيا « لتعلم الدوائر الحليفة عسكريوها وسياسيوها بما سبق أن قدمناه عن طريق فرنسا وهو اننا لا نطالب باي شيء مقابل موقفنا واعمالنا الا حرية بلادنا واستقلالها عند نهاية الحرب . ونحن وان كنا ندرك ان تحرير الشعوب هو من مبادىء الحلفاء ولا نشك في ذلك . ومن ذلك قامت هذه الحرب الا اننا نرى انه من المفيد ذكر ذلك ... الخ

الاتصال بالجيش الانجليزى

بعد ارسال تلك التقارير وتسلم العلم بوصولها لم يبق لنا من عمـل في مجال حركتنا الوطنية الا انتظار الايام المقبلة . ووصول جيـوش الحلفاء الزاحفة لاستئناف عملنا معها . ولذلك فقد انصرف كل منا الى عمله الخاص مع مداومة الاتصال ببعضنا لتبادل المعلومات .

وفي يوم من تلك الايام وصلت الى « ربع سليانة » قادما اليها من الكاف بما لدي من بضاعة وقد اقمت بطرف الاخ محمد بن خليفة ثلاثة ايام . لبيع ما اتيت به . وفي اليوم الثالث جاء ضابطان وشاب على سيارة جيش انجليزي وكان احدهما برتبة « كبتن » اما الثاني فلم اعرف رتبته . اما الشاب فهو برتبة « سرجن » .

فالضابط المسؤول الاول انجليزي اسمه « ادجار هربرت » والثاني عرفنا فيما بعد انه عربي مسيحي اسمـه : « ادوار شدياك » اما الشاب فاسمه « تيم » وهو « ازلندي » حسب قوله مختص بالمخابرات اللاسلكيـة . أما ادوار شدياك هذا العربي المسيحي . فحينما انتهت الحـرب من القطـر التونسي تزوج بفتاة فرنسية هي ابنة لاحد المعمريـن الفرنسيين اسمه « موزي » يملك ضيعة : « هنشير » بالتعبير التونسي . في ربع سليانة . ولا ادري ما فعل الله بادوار شدياك بعد ذلك . ولا اين يوجد الآن .

اما « ادجار هربرت » فحينما جئت الى طرابلس وجدتـــه موظفا . ثم انتهى وظيفه وعاد الى بلاده . اما الشاب (تيم) فلم أره بعد ذلك ولم أعرف عنه شيئا منذ ذلك الوقت .

قلنا جاء ضابطان وشاب . ومعهم اسماؤنا مكتوبة في ورقة . على حد قول المرحوم محمد بن خليفة . اما انا فلم ار هذه الورقة . وبالسؤال اهتدوا الى منزل هذا الاخير . فاجتمعنا بهم وطلبوا منا العمل معهم وبما أن بلادنـــا قد احتلت من طرف الجيش الثامن الانجليزي ، وقد دخلت طلائعـــه الاراضي التونسية . ونحن يهمنا أن نكون مع من سيكون له التاثير في المستقبل خصوصا بالنسبة لبلادنا . فقد رأينا ان عملنـــا معهم اجدى . فأجبناهم لطلبهم .

ومن ذلك اليوم بدأنا العمل فعليا . وأول ذلك قمنا بجولة علىطول الواجهة الممتدة من البحر شرقا الى حدود الجزائر غربا مما يلي الكاف . وبعد هذه الجولة والاطلاع على اماكن الجيوش . والجهات التي لنا فيها اتباع بدأنا في ارسال بعض الاخوان الذين جاؤا للعمل تلقائيا الى مـــا وراء واجهـــة المحور .

ومهمة هذه البعثات مختلفة فكل بعثة تكلف بشيء معين . فمن هذه البعثات من كلفت ببعض الاخوان الليبيين في مختلف الجهات التي يحتلها المحـــور يحملون اليهم توصيات كتابية . وشفوية تطلب منهم اختطـــاف الاسرى من جنود الحلفاء والاحتفاظ بهم في أماكن أمينة . ومنها المكلفة بالاعمال التخريبية باضرام النار في مخازن الوقود وفي الغابات الكثيفة . وأخـــرى لاكتشاف تجمع الآليات تحت الاشجار واعطاء معلومات عنها لتدميرها بالطائرات .

وبعد مدة في هذا العمل ونحن في طريقنا الى ارسال بعثة من جهـــة القيروان جلسنا للغداء في موقع قرب (وادي برقو) الى الجنوب منه فيما يبدو لي . وهي منطقة شبه سهل يكثر فيها شجر « السدر » هناك اختلى الضابط (هربرت) بالسيد محمد بن خليفة . وقـــال له انه يرغب منا أن

نشكل منظمة من انفسنا لنواصل العمل باسمها . وجاءني السيد محمد وأعاد لي رغبة الضابط . فقلت : ان تشكيل منظمة والعمل باسمها سوف يجعل لنا سلطة يفرضها باسمنا ويستغلها بواسطتنا ولا نستطيع أن نمتنع . وهذه مسؤولية ضخمة وخطيرة علينا وعلى اخواننا .

وعلى كل حال فاذا كانوا يريدون منا ذلك . ولفائدة الجميع . وان نعمل بطريقة نظامية لكي نتمكن من تجنيد أوفر عدد ممكن من اخـوانـنا ونتحمل المسؤولية الوطنية والتاريخية . فاننا نطلب مقابـل ذلك وعدا كتابيـا من القيادة العامة باستقلال بلادنا . وحينئذ نستطيع ان نعمل كل ما يطلبون منا . وفي امكاننا ان نجند الآلاف . داخل منطقة احتلال المحور وخارجها . ونندفع بضمائر مرتاحة . اعتمادا على وثيقة تضمن نتائج مرضية لشعبنا وتغطي ما سوف ندفعه من تضحيات بشرية . اما اذا كان الامر بدون ضمان . وبدون أن نعرف لماذا نعمل . ولماذا ندفع باخواننا في جحيم الحرب . فهي طريقة صعبة وعملية خاسرة سلفا . هذا جوابي وانت صغه بالطريقة التي تراها .

فانا شخصيا غير موافق الا بضمانة كتابية . وحتى هي في الحقيقة غير كافية مع هؤلاء المستعمرين ولكنها حجة على كل حال . اقول هذا لانني أعرف الانجليز منذ الثورة العربية الكبرى وفيما قبلها من خلال التاريخ البعيـد والقريب فهم لا يؤمن جانبهم . لان تاريخهم مليء بالغدر خصوصا بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين بصورة عامة . فهم لا يثق بهم الا مغفل أو مغرور أو طالب صيد . وحتى موقفنا هذا لم يكن ناتجا عن ثقـة في الانجليز . كلا ولكننا في ظروف اضطرارية حتمت علينا هذا الموقف .

اما نحن فبصفتنا الشخصية نعمل معهم بكل ما نستطيع . ومن ينضم الينا من اخواننا تلقائيا نقبله للعمل معنا فلا مانع من ذلك . وسواء غدروا بنا او انصفونا . فاننا لم نكلف غيرنا . ولسنا مسؤوليـن عن غيرنا . أعاد المرحوم محمد بن خليفة هذا الكلام للضابط « ادجار هربرت » من غد ذلك

اليوم . فرفض الضابط هذا الطلب . معتذرا بان الوقت غير قابل لمثل هذه المراجعات . وهكذا فقد استمررنا في العمل معهم . وقد انضم الينا كثير من الاخوان من تلقاء انفسهم . ومن بين من انضم : مجمد ابو زيد عبد الله — حميدة علي المطماطي — محمد شكري كويدير — حميدة محمد القعود — عبد الله الصادق بعيو — وغيرهم ضاعت الآن عني أسماؤهم . وقد قمنا باعمال كثيرة وخطيرة جدا .

قصة فاطمة وعلي : ففي يوم من أيام تلك الجولات الكثيرة المتوالية على طول الواجهة . جلسنا في مكان ما . اذ تقدم الينـــا الضابط « ادجار — هربرت » باقتراح يقول فيه : انه اذا كان في امكاننا ارسال زميله « ادوار شدياك » الى ما وراء واجهة العدو صحبة أحد اخواننا على ان نهيء له عناصر داخل منطقة احتلال المحور ليحافظوا عليه ويعملوا معه . وهذا امر بالرغم مما يحيط به من الاخطار . فانه بالنسبة لنا متيسر . وكما ان عناصر كثيرة من اخواننا الذين هم داخل منطقة احتلال المحور يقومون بذلك ويـــرحبون بـــه .

وبعد جلسة خاصة درسنا فيها الموضوع دراسة وافية من كل جوانبه ونتائجه المتوقعة . رسمنا الخطة التي يمكن المرور بواسطتها في اختراق الواجهتين . وتعيين الجهات التي يجب الاتصال بها قبل البدء في اي عمل بعد ذلك تقدمنا للضابط المذكور بمذكرة توضح تفاصيل الخطة . فوافق عليها. وبدأنا التنفيذ فاستدعينا احد الاخوان اسمه : (علي) أظنه من ورشفانة فيما اتذكر . وقد بسطنا له الموضوع . واوضحنا له ما فيه من أخطار ثم تركنا له يوما ليفكر في امره .

وجاء علي المذكور وهو على استعداد . واوضحنا له مرة اخرى ما قد يتعرض اليه من الخطر . فاجاب بانه فهم كل شيء وانه مستعد له وهو اهل لتحمل هذا واكثر . ثم عاد الى اهله واعلمهم بانه سيتغيب اياما وقد تطول هذه الايام . وعليه فاذا ارادوا السؤال عنه فاخباره لدى (محمد بن خليفة) وعاد الينا مستعدا .

ومن ثم ركبنا السيارة بما فينا (علي) واتجهنا الى مدينة (القيروان ، لشراء الاشياء المقررة . وصلنا الى مدينة عقبة ابن نافع رضي الله تعالى عنه وارضاه ومنها اشترينا جميع ملابس المراة البدوية من اخمص الاصبع الى قمة الراس « « ثياب وحلي » وكان الحلي كله من الفضة .

اتممنا ما يلزم واتجهنا بسيارتنا الى (دار الباي) ودار الباي — هذه بلدة حديثة تحيط بها منطقة زراعية هي ارض منبسطة مترامية . فيها الكثير من اشجار الزيتون الحديث . ومعظم الاراضي مزارع حبوب . وللبلدة سوق كبير اسبوعي كثير الرواد . وصلنا هذه البلدة بعدما اجتزنا مؤخرة الواجهة فاذا هي خاوية على عروشها لانها تقع في مقدمة واجهـــة الجيش الثامن الانجليزي حيث تتبادل الواجهتان طلقات المدافع .

وفي موقع يقع الى الشرق من البلدة او جنوبها الشرقي وجدنا بيتا قريبا من البلدة شاغرا لا شيء فيه . والواقع أن جميع المبانـــي بل كـــل المنطقة شاغرة من السكان الاصليين تماما الا جنود الجيش الثامن في خنادقهم . فلقد كانت واجهة المحور تتمركز في سلسلة جبل (جرادو) تمتد شرقا وغربا بموازاة واجهة الحلفاء . ومن هذا الجبل الذي يشرف على منبسطات (دار الباي) الفسيحة من جهة الشمال — من هذه السلسلة الجبلية تنبعث قنابل المدافع الالمانية تشق الفضاء كانها صواعق شواظ من نار ونحاس . فتجاوبها مدافع واجهة الجيش الثامن بنفس القوة والكثافة فتحدث هذه وتلك جوا قاتما من غبار الارض ودخان الانفجارات الكثيف على مدى ما يبدو للناظر من امتداد الواجهتين غربا وشرقا والقنابل متبادلـــة من هنا وهنـــاك بدون انقطـــاع .

دخلنا نحن في ذلك المبنى الشاغر في حين كانت القنابل تتساقط حواليه والانفجارات تتوالى حولنا . والدخان الممزوج بغبار الارض يمـــلأ الجو . ويرتفع مراحل فيـــرتفع رويدا رويدا ليتبدد في الفضـــاء اللانهائي ثم تتلوه مراحل اخرى . وهكذا دواليك . وقد كان المبنى والحالة هذه يوالي اهتزازاته تبعا للانفجارات القريبة منه حتى لكأنه قد أصيب برعدة من شدة الخـــوف الناتج عن صدى تلك الصواعق الرهيبة .

ففي هذا الجو المتهب والذي هو في الواقع اكثر مما استطيع وصفه . دخلنا في ذلك البيت المهجور والبسنا « ادوار شدياك » لباس المراة البدوية وأملينا عليه كيف يتجنب أعين الرجال . وكيف ينتحي ناحية فيما اذا التقى باحد في الطريق . كما لبس علي لباس رجل بدوي في مظهر فقير بائس وفي رجليه حذاء مرقع اكل عليه الدهر . ويحمل على ظهـــره كيسا قديما مرقعا هو الآخر . وبه بعض مواد غذائية وحاجات اخرى مما يوجد عـــادة عند البدو في اسفارهم .

خرجنا من ذلك البيت الذي قلت انه يكاد ينهـــار من كثرة الاهتزازات وشدتها واطلقنا على (ادوار ــ اسم فاطمة) اما علي فهو علي ــ وسار علي تتبعه (فاطمة) امامنا للتجربة فاذا (بادوار) قد اتقن دوره كما ينبغي ان يكون الاتقان . ثم وقفنا جميعا وجاء الضابط واخذ لنا صورة « فوتوغرافية » بما فينا هـــو .

ولقد وعدنا هذا الضابط بانه سيعطي لكل واحد منا صورة منها للذكرى والتاريخ ولكنه لم يف بوعده ولا اعرف السبب في عدم الوفاء اهو النسيان ام شيء آخر في نفسه . وبعد ذلك سار الرجل والمراة في اثره ونحن في مكاننا ننظر اليهما . وبعد مسافة رايناهما قد اوقفهما ضابط انجليزي . ولما طال وقوفهما خف الضابط بالسيارة والتحق بهما وانهى المشكل ــ وواصل الرجل والمراة سيرهما ونحن نرقبهما حتى غابا عن الانظار .

وعندما ركبنا السيارة واتجهنا الى جبل منصـــور ، حيث ان الـــواجهة الالمانية ارتدت الى (الفحص) ذهبنا الى هذا الجبل لملاقاة بعثة كنا ارسلناها قبل يومين الى ما وراء واجهة المحور . وكان الموعد المضروب قد قرب وبعد ساعتين من الانتظار تحت ظلال اشجار الصنوبر التي تكسو ذلك الجبل ، وصل الاخ المنتظر . وهو فيما اتذكر « شوشان غرياني » وبعد اخـــذ مـــا لديه انصرف للراحة . وارسلنا اثنين آخرين في نفس الوقت .

وفي اليوم التالـــي عدنا الى دار البـــاي نتسقط اخبار « فاطمة وعلي »

فوجدناهما قد عادا الى البيت الآنف الذكر . وسبب العودة يحكيه « ادوار شدياك » فيقول : [حينما وصلا الى نقطة في الواجهة الانجليزية اعترضهما ضابط انجليزي واوقفهما ليتحقق من امرهما ــ الا انه وجد نفسه امام عربي من البادية شكلا وموضوعا ، مظهر فقر شديد ، لا يفهم اية لغة من لغـــات الغرب ، كل ما يفهم انه يلوح بيديه الى الامام بمعنى انه يريد الذهاب الى الامام فكانت مشكلة .

استحال التفاهم بينهما الا بالاشارة ، والاشارة لا تغني شيئا في مثـــل هاتيك الظروف الدقيقة وفي اخطر مكان من ميدان الحرب. فطال بينهما الاخذ والرد واشتد الجدل وعيل صبر الضابط فاحتد في كلامه . وهنا شعـــرت فاطمة بخطورة الموقف وخشيت ان يحـــدث شيء نتيجـــة لغضب الضابط الانجليـــزي .

اضطرت فاطمة الى التدخل وكلمت الضابط بلغة انجليزية سليمة . وهنا كانت المفاجاة المحيرة ، وبهت الضابط . امراة بدوية في كامل مظرها زوجة لرجل بدوي يدل مظهره على منتهى الفقر والسذاجة والجهل تتكلم اللغـــة الانجليزية بطلاقة ؟ امر غريب .!!

واخيرا كشف « ادوار شدياك » السر عن نفسه واوضح حقيقة أمرهما. وعندها منعهما من مواصلة تقدمهما قائلا انهما سيهلكان حتما دون ما نتيجة. ولذا امرهما بالرجوع اذ لا فائدة من المحاولة . وانه لا يسمح لهما بالمـــرور حتى ولو ارادا ذلك فرجعا حيث وجدناهما .

الفرنسيون يطابون حضوري واستشهاد شكري-وقضية الحاج ربانة

لما كان المركز الرئيسي بالنسبة لنا في هاتيك الظروف هو « الكـريب » حيث مقـر الاخ محمد عبـاس لذلك فقد كنا بين آن وآخـر نلتقي هناك لتبادل ما يجد عندنا من الاخبار وما قد ترد الينا من الرسائل وغيـر ذلك وفي يوم من تلك الايام وفي احدى اللقاءات بعد جولة في الناحية الغربية من الواجهة عذنا الي (الكريب) ومـن الصـدف ان اتصـل بي الفرنسيون « تليفونيا » في ذلك اليوم يطلبون مني موافاتهم « بالكاف » .

وقد كان الذي يخاطبني مباشرة هو المسيو « جوسران » واذا به يقـول اننا نطلب حضورك لامر ضروري . ونظرا الى اننا قد ارتبطنا بالانجليـز وباشرنا العمـل معهم من مدة فلم ار بـدا من مصارحته بالحقيقة الواقعية فقلت له : انني لا استطيع الحضور لديكم في الوقت الحاضـر فتسـاءل (جوسران) عن المانـع ؟

فقلت انتم تعلمون ان الانجليز قد احتلوا بلادنا واصبحوا اسياد الموقف فيها ولقد جاؤونا هم انفسهم ولم نسع نحن وراءهم وطلبوا منا العمل معهم ونحن نرى انه ليس من مصلحتنا ان نرفضهم فاجبنا لذلك وقد ارتبطنـا بهم فعلا منذ ايام ماضية ونحن اليوم في عمل متواصل لم يترك لي وقتـا للحضور (بالكاف) . وانتم تعلمون من خلال اتصالاتنا بكم وما قدمناه كتابيا وما ابديناه شفويا ان هدفنا هو حرية بلادنا واستقلالها .

هذا من جهة ومن جهة اخرى ففي اعتقادنا انكم حلفاء تحاربون عـدوا واحدا وتعملون لهدف واحد . وهو انتصار الحلفاء ومن هنا نرى ان عملنا سواء كان معكم او مع الانجليز فهو لم يخرج عن هذا الهدف وصدقني يا مسيو (جوسران) ان هذا ما نراه . وعلى كل فلا تظن بنا اننا بعملنا هذا قد استبدلنا صداقة فرنسا . كلا فانها هي الصديق الاول لنا وستبقى دائما كذلك . واننا نتمنى لها الفوز على اعداء الجميع حتى تتمكن من اعادة مجدها وعزتها وتعيد للشعب الفرنسي حريته في بلاده .

والجدير بالذكر والملاحظة هو انني قد فهمت فيما بعد ان الفرنسيين قد استاؤوا من انقطاعنا عنهم ، اذ حينما انتهت الحرب بالبلاد التونسية ودخولنا تونس وبعد عودتنا من زيارتنا الاولى لبلادنا لم يبق لنا من عمل الا ترصد التحركات السياسية والاتصالات الديبلوماسية انتباها الى ما قد يدور في لقاءاتهم من المفاهمات حول المستعمرات الايطالية في افريقيا ومنها بلادنا ليبيا . وقد اصبحت هذه المستعمرات هدفا للاطماع .

ففي هذه الظروف رايت ان اسعى في ايجاد عمل حر ريثما يسفـر ذلك الغموض في اتجاهات دول الحلفاء لكي نعرف طريقتنا الذي يجب ان نسير معه فبدافع من هذا التفكير رايت ان اتصل « بالمسيو سالومو » وقد تقدم ان اوضحت بانه كان على راس المكتب المختص باتصالاتنا لمدة طويلة . ومن هنا فان معرفتنا كانت قوية وراسخة . ولذلك فقد كان لي امل قوي في انه سيساعدني .

توكلت على الله وذهبت الى (المسيو سالومو) وبعد تبادل التحية افتتحت معه الكلام بقولي : اعتقد انك لم تنس باننا قد عملنا معا وان كانت النتيجة غير ما كنا ننتظر وتلك مشيئة الله والمستقبل خير ان شاء الله ، فاجابني بهدوء مشوب بشيء من البرود بقوله « نستشعر » هكذا تعبيره كما نطق به بالضبط ، ثم اردف قائلا : انت ما زلت هنا لم ترجع الى طرابلس حتى بعد ان احتلها الانجليز ..؟!

ومن هنا شعرت بتغير الجو . وفهمت ان لا فائـــدة في طلب مساعدتـــه ولذلك لم افاتحه فيما جئت اليه من اجله وانما غيرت تفكيري فقلت له : أنا آخذ في الاستعداد للسفر الى بلادي وجئت لاسلم عليك اذ ربما لا اتمكن من مقابلتك عند السفر ، ثم ودعته ولم اره بعد ذلك حتى اليوم ولا ادري اهــو لا يزال بتونس او غادرها .

قلت عندما طلبني الفرنسيون اعتذرت . وفعلا لم اعد الى الكاف بعــد ذلك . وواصلنا عطنا مع الجيش الثامن الانجليزي وقد اخذت واجهة المحور في الانحسار والانكماش الى الوراء وقد وصلنا في تقدمنـــا الى منطقـــة (سمنجة) في تتبع خطوات هذه الواجهة في تقهقرها . وفي هذه المنطقـــة ارسلنا اربعة من اخواننا الى ما وراء واجهة المحور اتذكر منهم ثلاثة هم :

١ ــ محمد شكري كويدير بنغازي
٢ ــ عبد الله الصادق بعيو مسراتة
٣ ــ حميدة علي المطماطي بنغـــازي

اجتاز هؤلاء الاخوة الاربعة واجهة الحلفاء وفيما كانوا بين الواجهتين في طريقهم الى اختراق واجهة المحور اذ نزلت بينهم قنبلة مدفع آتيـــة من جهة المحور ولا يعرف اهم مقصودون ؟ أم هي من باب الصدف ؟ وحينما انفجرت اصيب الاخ « محمد شكري » بشظية منها اصابته في رأســه فكانت اصابة خطيرة جدا . وقد كانت هذه الواقعة بالقرب من مزرعة « الحاج عياد ربانة »

نقل الاخوان زميلهم المصاب الى هذه المزرعة فاستقبلهم صاحبها وعماله وتسلموا منهم المصاب . وقال لهم الحاج (عياد ربانة) : اتركوا زميلكم هنا فنحن نعالجه فان كانت له بقية من عمر في دفتر القدر تجدونه سالمـــا ان شاء الله . وان كانت الاخرى فنحن نقـــوم بالواجب باذن اللــــه . وخذوا طريقكم الى مهمتكم فانني اخشى ان ينتبه الالمان لوجودكم هنا فينكل بنـــا وبكم . تركوا زميلهم وواصلوا مهمتهم . وفي طريق العودة مـــروا بالمزرعة للوقوف على خبر زمليهم فوجدوه قد انتقل الى رحمة الله تعالى ودفن هناك .

الاجتمـــاع الثـــلاثي في الماجستيـــله

وفي النصف الاول من شهر مايو سنة ١٩٤٣ م دخلت الجيوش الحليفة الى تونس وقد انهزم المحور وانجلى عن الارض التونسية ولم يبق منه الا فلول في « دخلة المعاويين » وهذه الفلول آخذة في الاستسلام . وبعضهـا يفر على (فلائك) صغيرة . وعلى الواح عادية تحملهم الى الشواطىء الايطالية القريبة من شواطىء (الدخلة) . وحينما دخلنا تونس قصدنا راسا « فندق الماجستيك هوتيل » بشارع باريس .

وفي هذا الفندق عقدنا اجتماعا مع الضباط الانجليز ، ونحن ثلاثة :

١ ــ محمد محمد عباس	مسراتـة
٢ ــ محمد بن خليفة بن عامر	ورشفانة
٣ ــ احمد زارم خليفة	الرحيبات

حررنا مذكرة اوضحنا فيها اعمالنا معهم كما اشرنا الى حركات اخواننا في الشرق . واكدنا لهم ما نهدف اليه من موقفنا هذا واعمالنا . ورجونا في هذه المذكرة من بريطانيا وحلفائها ان ينصفونا وان يقفوا في جانب اهدافنا بكل جد وصلابة واخلاص كما وقفنا في جانبهم بجد واخلاص .

ومن غد ذلك اليوم وقبل ان نسلم مذكرتنا هذه نمي الينا خبر يقول : ان « الحاج عياد ربانة » قد القي عليه القبض من طرف الفرنسيين ونقل الى جهة ما . بتهمة تعاونه مع المحور ، وانه من المتوقع جدا ان يعدم . فاسرعنا نحن للاتصال بالضابط الانجليزي (هربرت) وطلبنا منه سرعـة التدخل لانقاذ الرجل الذي اوى صاحبنا وعالجه ولما توفي دفنه واعان اخواننا على مهمتهم . فلو كان هذا الرجل يتعاون مع المحور لذهب اخواننا كلهم ضحية . ولا شك انها فرصة له مع الالمان . ولكن كل مـا في الامـر ان الفرنسيين يحقدون عليه لانه رجل ثري ويساعد الحركة الوطنية ماديـا فاهتبلـوا الفرصة للانتقام من الحركة الوطنية في شخصه .

وبسرعة اتصل الضـابط بقيادتهم . واتصلـت هذه بـدورها بالجهات الفرنسية المسؤولة واطلق سراح (الحاج عياد ربانة) رحمه الله ، وبعدما

انتهينا من هذه القضية سلمنا لهم المذكرة ومن غد ذلك اليوم تركت الاخوان (محمد عباس) و (محمد بن خليفة) في تونس يستعدان للسفر كل منهما الى منطقتـــه .

عدت انا الى بيتي في (الكرم) وهكذا فقد انتهت هذه الهجرة الثانية التي دامت ستة اشهر في ظروف جد قاسية . وبعد بضعة أيام لا اتذكر عددهـــا بالضبط ولكنها لا تتجـــاوز اصابع اليدين . وعلى غير انتظـــار وصل الي الاخوان : محمد عباس ، ومحمد خليفة ، والضابط (هربرت) في الكرم ، وقال الضابط المذكور : اكراما لكم من اجل موقفكم أمرتنا القيادة بحملكـــم لزيارة بلادكم لمدة خمسة عشر يوما ثم نعيدكم هنا .

وفي الواقع ان هذه الزيارة كانت امنية غالية علينا حيث نزور بلادنـــا واهلينا بعد غياب عشرات السنين وبعد انهزام ذلك العدو الذي كان سبب بلاء بلادنا وشقاء شعبنا وتشتت شملنا ايدي سبأ فان تجوالنا في بلادنـــا بحرية وبقايا ذلك العدو تنظر الينا وهي ذليلة كذلنا نحن بالامس القـــريب نشعر بها في نفوسنا نعمة من نعم الله علينا فله الحمد والشكر ..

اول زيارة لوطننا

في ١٥ من شهر مايو فيما اتذكر سنة ١٩٤٣ م ركبنا السيارة العسكرية يسوقها الضابط (هربرت) وسارت بنا في اتجاه طرابلس . وصلنا مدينة (صبراتة) وكان وصولنا اليها في يوم جمعة ، فطلبنا من الضابط الوقوف بها قليلا ، ونزلنا من السيارة فتجمع حولنا جمهور غفير يريدون التحدث معنا . الا انهم كانوا في طريقهم يتهيئون الى اداء فريضة الجمعة ، ولذلك فلم يمتد اجتماعنا بهم طويلا ، حتى ان احدهم قال لنا : الا تمشوا معنا لصلاة الجمعة حتى نجتمع بكم بعد الصلاة اجتماعا مطولا ونحدثكم عن الكثير من الامور التي قد تهمكم معرفتها .

وبما اننا لا نستطيع البقاء طويلا فقد اجابه الاخ « محمد عباس » بقوله نحن مسافرون ، ولا جمعة على مسافر . والآن نحن في طريقنا الى طرابلس وسنعود اليكم في يوم آخر لنسمع منكم ان شاء الله ، وفي تلك الحصة القليلة من الوقت اطلعونا على آثار فعلة نكراء ومن الغرابة بمكان ، افراد من المواطنين في ايديهم كي بالنار ...!!؟

قالوا ان مدير الناحية واسمه « محمد اليعقوبي » كان يقبض على كل من يتحرش بالايطالين او يحاول نهب ارزاق الحكومة الطليانية المنهزمة . او يتظاهر بأي عداء لايطاليا ويجعل له علامة في يده هي : ذلك الكي بالنار على أمل عودة ايطاليا ليقدم لها مواطنيه للانتقام منهم ومحاكمتهم ، ويتلقى

هو مكافأة على اخلاصه لها . والحجة التي لا يمكن التنصل منها هي ذلك (الكي) الذي لا يزول اثره من الانسان ما دام حيا .

والحقيقة اننا ما عرفنا لهذا الاخلاص العميق لايطاليا من سبب الا شيئا واحدا لعله هو السبب.، وهو ان ايطاليا كما قيل لنا انها قبيل انسحابها من ليبيا تجر اذيال الهزيمة ظهـــرت للمواطنين بمظهـــر الناصح المحب فدفعت لجميع الموظفين والمستخدمين رواتب ثلاثة اشهر مقدما قائلة لهم : انهـــا ستعود بعد هذه المدة واوصتهم بالمحافظة على الايطاليين وارزاقهم في خلال هذه الفترة ، وكنتيجة للماضي الرهيب لحكمها اخذ الناس كلامها هذا حقيقة مسلمة الا قليلا منهم . ربما هذا هو الدافع لهذا الاخلاص اعتقادا منـــه ان ايطاليا ستعود حقا وسينال منها مكافأة جزاء اخلاصه هذا . وهذا الرجل قد توفي في العهد الملكي نرجو له من الله العفو والمغفرة .

واصلنا سفرنا من (صبراتة) الى طرابلس فوصلناها في وقت متاخر من النهار . وقفت بنا السيارة امام « بنك روما » سابقا « مصرف الامة اليوم » نزلنا من السيارة ووقفنا ننظر الى البلاد كيف تغيرت ننظـــر الى امتـــداد شارع عمر المختار وميدان الشهداء وكيف توارت المدينة القديمة وراء مباني هذا الشارع المرتفعة بالنسبة لذلك الوقت ولمباني المدينة القديمة ، مناظر حديثة لم يعرفها أحد منا من قبل ، لقد اصبح موقفنا في تلك اللحظة يشبه موقف « اصحاب الكهف » مع الفارق .

وجدنا شوارع المدينة خاوية على عروشها فقليلا ما ترى مارا ، ذلك لان الناس لا تزال اكثريتهم الساحقة لاجئين في الدواخل بسبب ظروف الحرب واخطارها ، وبينما نحن ننظر في دهشة طبقا لما يقال « لكل قادم دهشة » اذ مر بنا رجل ابيض اللون طويل القامة خصب الجسم يبدو في أواخر ايـــام الشباب مشرفا على الكهولة يرتدي اللباس العربي المحلي وكان يسير على عجل في اتجاه ميدان الشهـــداء .

مر هذا الرجل من حذونا وبعد ان تجاوزنا بخطوات وقف والتفت نحونا

ينظر الينا ثم ركز نظره نحوي بصورة خاصة ، نظرة يبدو عليها شيء من الاهتمام والتعرف فبادلته نفس النظرة فتهيأ لي كانني اعرفه من قبل . ولكن الذاكرة لم تنجدني ، فتقدم الينا الرجل وقال : اانت احمد زارم ..؟ قلت نعم ، فسلم علينا وحينئذ عرفته انه (الحاج محمد يونس الكريكشي) وقد كنت عرفت هذا الرجل في تونس سنة ١٩٣٦ م ، ولكنها دهشة القادم كما قلنا . ولقد كان هذا الرجل من اهم مصادرنا عن ظروف الوطن وتصرفات الايطاليين . ولم يكن لآخر لقاء بيننا اكثر من ست سنوات ولكن ..

ودعنا الحاج محمد وواصل سيره وفي هذه اللحظة وصل الضابط (هربرت) الذي ذهب في مهمة له حال وصولنا . فقال لنا انه سيذهب الى المعسكر ويلتقي بنا في الغد ، وفي نفس المكان . وعند ذلك قال الاخ (محمد ابن خليفة) انه يتذكر منزل (الحاج اسماعيل المبروك) دخلنا من باب الحرية وسرنا في طرقات المدينة ولكن الاخ محمد لم يهتد الى المكان . وصادف مرور احد المواطنين فسألناه فاشار لنا عليه ومن حسن الصدف ان وجدنا الحاج اسماعيل نفسه ، فبتنا تلك الليلة في منزله وكانت اول ليلة لنا في طرابلس بعد ذلك الغياب الطويل .

ومما يستحق الذكر بهذه المناسبة انه بينما كنا في تناول العشاء تلك الليلة اذ حدثت محاولة غارة جوية فكان الدفاع الجوي في غاية الانتباه والكثافة ، وقد راينا قنابل تنبعث من الارض مخترقة الفضاء كانها شهب ثواقب ترجم اخوان الشياطين الذين ارادوا بالناس شرا . وبفضل ذلك لم تلق اية قنابل من الطائرات المغيرة وانتهت الغارة بسرعة وخيبة .

ومن الغد اتصلنا بالحاكم العسكري الانجليزي واسمه : « لوش — او لاش » وهو أول حاكم عسكري انجليزي في طرابلس ، وكان مقره في مبنى وزارة الداخلية اليوم » وقد راينا من واجبنا ان نبسط له موضوع «صبراتة» وفعلا فقد شرحنا له الموضوع ، موضوع (مدير ناحية صبراتة) ومعاملته المنكرة للمواطنين وقد طلبنا منه بالحاح ايقاف هذا المدير عن العمل واجراء التحقيق معه في الموضوع ، وقد وقع ذلك فعلا .

استغرقت زيارتنا لطرابلس خمسة عشر يوما ، عقدنا في خلالها اجتماعا في « مكتب الفنون والصنائع الاسلامية » وقد حضر هذا الاجتماع عدد من الاخوان لم يبق في ذاكرتي منهم الا خمسة اشخاص هم : الحاج مصطفى ميزران رحمه الله — والحاج محمد يونس الكريكشي — احمد الفقيه حسن (رحمه الله) — على الفقيه حسن — احمد الحصائري — وقد تداولنا الحديث في هذا الاجتماع فيما ينبغي ان يطالب به الشعب ويتمسك به دائما هو : « الاستقلال الكامل الناجز » ولا ينبغي الاصغاء الى اي طلب يخالف هذا ايا كان مصدره ومهما كانت مبرراته .

وفي مدة هذه الزيارة وقعت امامنا حادثتان طريفتان جديرتان بالتسجيل لذا رأيت ان اثبتهما هنا ، فذكر الاولى فيه موعظة حتى لا ينسى الناس اليوم ولا تجهل الاجيال المقبلة مكر الاستعمار وتصرفات الاجانب واذلالهم للشعوب . وان الحكم الوطني مهما استبد بالامور وقسا في تصرفاته فهو افضل الف مرة من الحكم الاجنبي ، اقول هذا وانا اعلم ان الناس يعرفون هذا كما اعرفه انا واكثر . ولكن هناك اجيال جديدة واخرى آتية لم تعرف مرارة الحكم الاجنبي ولذلك اقول هذا للتحذير والموعظة « وليس من راى كمن سمع » .

وذكر الثانية لكي يعلم الناس في الحال والاستقبال : ان عاقبة العقوق الوطني شر مستطير على صاحبه وخسران مبين وللآخرة اكثر شرا واعظم خسرانا . ففي خلال الخمسة عشر يوما التي بقيناها في طرابلس في هذه الزيارة كان من بين من استضافنا اثنان هما « الحاج سالم انديز » رحمه الله ، و « الحاج محمد يونس الكريكشي » والاحظ هنا انني ذكرت هذين الاثنين دون غيرهما ذلك لان الحادثتين ترتبطان بضيافتيهما .

ففي احد تلك الايام كان الغداء عند عميد آل انديز المرحوم « الحاج سالم انديز » في (سانيتهم) بشارع الجرابة بسكرة ، وقبل ان اذكر الحادثة أود ان اوضح باختصار وضع تلك الجهات وما كانت عليه في سنة ١٩٤٣

فاقول : ان (ميدان الوسام الذهبي سابقا) ميدان القادسية الان كان هـذا الميدان معبدا نوعا ما وكانت الطريق من الميدان الى (السانية) الانفة الذكر طريقا رملية تغوص فيها رجل الانسان فضلا عن الحيوان والعربات .

وكانت المنطقة كلها سواني شمالا الى البحر ويمينا الى ما شاء الله وكان يكتنف هذه الطريق شبه سياجين من شجر الهندي المرتفع عن اليمين وعن الشمال للسائر فيها يحجبان عن الناظر الى حد ما تلك السواني ومـا فيها من الاشجار المتشابكة الاغصان المختلفة الالوان الكثيرة الافنـان ولا اثـر للبناء في هذه المنطقة المذكورة الا تلك المساكن التقليدية المتواضعة داخـل كل (سانية) سكنا لصاحبها يحجبه عنك سياج ذلك الهندي .

هذا هو باختصار شديد وضع تلك المنطقة الزراعية الغناء في ذلك العهد والتي لا تجد فيها اليوم اثرا لتلك الاشجار ولا علامـة لوجود تلك الرمال فلقد اصبحت من اجمل مناطق المدينة في وقتنا الحاضر .

الحادثـة الاولـى :

قلنا ان الغداء في سانية آل اندير بشارع الجرابة ، ولما كانت المسافة طويلة متعبة لوجود ذلك الرمل الذي لا يستطيع الانسان السير فيه الا اذا كان حافيا . جئنا من ميدان الشهداء الى ميدان القادسية الذي كانت تقف فيه العربات التي تجرها الخيول (كراريس) للايجـار وكان معنا الضابط الانجليزي (هربرت) فوجدنا (كروسة) وكان صاحبها الذي يقودها شابا طليانيا ، اشرنا اليه فتحرك نحونا بسرعة ، ويبدو ان الايطالي كان يظن اننا لسنا الا سعاة بين يدي الضابط الانجليزي ، اذ عندما ركبنا الاربعة تغير وجه الايطالي وامتقع لونه وظهرت عليه علائم الامتعاض التي تـدل واضحا على عدم الـرضا .

ولكنه تحرك الى آخر الميدان من الشرق حيث تبتديء الطريق الـرملية وهناك اوقف عربته وقال : الحصان لا يستطيع السيـر في هذه الطريق الرملية وحاول الرجوع الى الوراء . نحن عرفنا السبب الحقيقي لموقفه هذا

من اول وهلة لاننا على اتصال دقيق بتصرفات الايطاليين في بلادنا ، وبما ان الاحتلال الانجليزي حديث والايطاليون لا يزالـــون في احلامهم الاولى بانهم اسياد البلاد ، والسيد لا يخدم المسود ، وهي طريقة ايطالية مستعملة في طرابلس ، يمنع الايطالي ان يركب في عربته عربي ويسوق به العربة ، ومما زادهم غرورا هؤلاء البسطاء ، ما قالته حكومتهم من انها ستعود بعـــد ثلاثة اشهر ، هذا ما جعلهم يتشبثون بتطبيق سياستهم العنصريـــة تلك السياسة التي كانت سببا في ضياع اموالهم وتبخر آمالهم .

قلنا استنكف الايطالي ان يركب عربي في عربته وهو يسوقهـــا . ولمـــا اوقف عربته ، مال المرحوم « محمد بن خليفة » على الضابط (هربرت) وقال له : لم يكن سبب وقوف الايطالي صعوبة الطريق كما يقـــول ، وانما فعل ذلك مستنكفا ان يركب معـــه عرب ، وهي طريقـــة طبقها في البلاد حكـــم الفاشيست الايطالي . وحينما فهم الضابـــط الموضوع ، صـــاح بالايطالي صيحة شديدة قائلا له : « انت موش كويس ، انت لسه بتفكر طلياني ، نمره بتعك نمره بتعك » هكذا بالعربية وعندها خاف الايطالي عاقبة تصرفه وسير عربته حتى وصلنا الى المكان دون توقف ولا عائق .

الحادثـــة الثانيـــة :

اما الحادثة الثانية ، ففي يوم آخر من تلك الايام الخوالي كان الغداء عند « الحاج محمد الكريكشي » وقد كان مسكنه اذذاك في حي « بومشماشة » ولقد حضر معنا بطريق الصدفة ، اذ لم يكن مدعوا ، ولم يكن حضوره في الحساب بالنسبة لنا وللمضيف . ولكنها الصدفة ، حضر معنـــا شخص معروف من جميع المواطنين بانه من العناصر التي اضرت بالوطن ضـــررا فادحا وناصر الاستعمار الايطالي واخلص له ، ولهذا الرجل سمعة سيئـــة عند المواطنين ، وهو اليوم في عالم الاموات وسينال جزاء ما قدمت يـــداه أيا كان ما قدمه .

بعد الانتهاء من الغداء خرجنا جميعا . وبعد قليـــل فارقنا هذا الـــرجل

وهو « عاكف » فارقنا الى شأنه واتجهنا نحن الاربعة في طريقنا الى ميدان الشهداء ، وبعد ان توارى الرجل تساءل الاخ محمد بن خليفـــة (رحمه الله) عمن يكون هذا الرجل ..؟ حيث انه لم تسبق له معرفته ، فقال له الحـــاج محمد يونس الكريكشي هذا : « عاكف » وطبعـــا فالناس حتى الذيـــن لا يعرفونه شخصيا يعرفون اسم عاكف . فتأسف محمد بن خليفة وظهـــرت عليه علائم الغضب ووجه لومه ضمنيا الى مضيفنا الحاج محمد . وقد اقسم محمد بن خليفة بمحرج الايمان ان لو عرفه انـــه هو هذا فلان لترك الغداء ولغادر المحل ولم يقابله . وهذه هي صيغة اللوم الضمني .

العودة الى تونس من اول زيارة للوطن

بعد العودة الى تونس من الزيارة الاولى لوطننا راينا ان نقيم احتفــالا بهزيمة عدوتنا « ايطاليا » وفعلا فقد قمنا بجميع الترتيبات اللازمة . فاجرنا « صالة الافــراح » الكائنة في « باب سويقــة » بتونس . كما استأجرنــا « شافية رشدي » بفرقتها ووزعنا الدعوات لحضور هذا الاحتفال . والواقع ان الجو في تونس كان غير قابل لمثل هذه المظاهر في تلك الظروف ، ذلــك لان الاخوان التونسيين كانوا يتمنون هزيمة الحلفاء لان من بينهم « فرنسا » الجاثمة على بلادهم . وهم واياها في صراع مرير . وكنا نحن نتمنى انهيار المحور لانه كان من ضمنه « ايطاليا » ونحن وايطاليا في حرب متواصلــة في الداخل والخارج . وهكذا فلقد حتمت الظروف علينا بان نفعل ما لا يريده الاخوان ونحن في بلادهم . ومع ذلك فلم يقــاوموا اعمالنا ولم يتظاهــروا بعداوتنا الا أن النفوس كانت يبدو عليها عدم الرضا . وكنتيجة لذلك فــان احد سفراء تونس في ليبيا هو السيد « عامر المكني » بالرغم من انــي لا اعرفه ولم اسمع باسمه مطلقا الا حينما اصبح سفيرا لبلاده في طرابلس . قال عني هذا السفير في حديث مع من نقل الي الخبر انني « جاسوس فرنسي » !! وهكذا كان الجو الذي عشناه في تونس في سنوات الحــرب خاصــة .

وموقف آخر يدل على عدم رضا الاخوان التونسيين : فحينما تمت كــل

الترتيبات ، وقبل بدء الاحتفال بساعة تقريبا او اقل ، كنت انا شخصيا واقفا في « بطحاء البيقة » قريبا من محل الاحتفال في انتظار قدوم بعض الاخوان فاذا انا بأحد وجوه تونس مارا في اتجاهه نحو « باب البنات » أعرفه جيدا ولكن اشتبه علي الامر الآن لطول المدة : اهو « محمد بن حسين » الكاتب المعروف في تونس — أم هو الكاتب الوطني السري المرحوم « علي كاهية » لا ادري أيا منهما كان مارا كما ذكرت فاعترضته وبعد ان حييته دعوته لحضور الحفلة ، فنظر لي نظرة عتاب ، وقال باستغراب : « اتحتفلون بانتصار قاتلة المسلمين !؟ » فاجبته بقولي : « لا يا سيدي نحن نحتفل بانهيار قاتلة الليبيين » وعندها واصل سيره في اتجاهه دون ان يجيبني بشيء .

بعد هذه الحفلة لم يبق لنا من عمل الا مراقبة تحركات واجتماعات رؤساء الدول المنتصرة في الحرب وما قد يدور بينها حول المستعمرات الايطالية في افريقيا اذ انه من المعلوم مما تقدم أن اتصالاتنا السابقة كانت مع الفرنسيين وقد عرفوا اتجاهاتنا واهدافنا . كما اننا عرفنا مراميهم وما يبيتونه . فهم يستعدون للفوز بما يريدون ، ونحن نستعد بقدر امكانياتنا لمجابهة ما نتوقعه منهم معتمدين بعد الله على الروح النضالية لشعبنا أولا . ثم على تلك الدول التي كرست سنين من الدماء والدموع واصابها في خلالها من الخراب والدمار ما يجعلها لا ترضى ولا تسكت على بقاء الفتيل مشتعلا ولو جزئيا . كما ان اية دولة من هذه الدول التي انهكتها الحرب لا تستطيع مواصلة حرب عصابات متنقلة تظهر متى تشاء وتختفي حينما تريد الاخفاء والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده وهو على كل شيء قدير . فهو نعم المولى ونعم النصير .

الا ان تلك الاتصالات التي كانت مع الفرنسيين اصبحت غير ذات موضوع بعد وقوع الهدنة كما اسلفنا وذلك تبعا لوضع فرنسا الجديد الذي تدهور ولم يفده حتى وجود « الجنرال دي غول » بما لديه من قوات تمثل الوجود الفرنسي في صف الحلفاء بل اعتبروا وجوده معهم عالة عليهم .

فوضعوه في تحركاتهم السياسية والحربية في درجة ثانيـــة اما مغانمهم المنتظرة فلاحظ لفرنسا فيها . ولا اعتبار لما اصاب فرنسا في سبيل الجميع .

وفي اوائل سنة ١٩٤٠ م قبل وقوع هذه الهدنة كان هناك خلاف نشب بين المهاجرين الليبيين في مصر بسبب اختلاف الآراء في الطريقة التـي سيشاركان بمقتضاها في الحرب « فالسيد ادريس » ومن انضم الى رأيه من جهة . والزعماء : عون سوف — وطاهر المريض — واحمد الشتيوي — رحمهم الله ومن انضم اليهم من جهة اخرى .

فالاول يرى وجوب الاندفاع في الحرب مع الحلفاء على طريق الانجليز دونما قيد ولا شرط ولا تحفظـــات تاركا النتيجة التي ستنجر لليبيا مقابل المشاركة لشرف بريطانيا . او ربما وهو الاقرب انه قد علم كما علمنا في تونس . وهو أن طرابلس ستعطى لفرنسا . وان برقة للانجليز وقد استسلم للامر . ولا يرى فائـــدة في التمسك بطرابلس ، ومن هنا كان منبع الخلاف وهو الاقرب عندي . وعلى كل فهو موقف يدل على وجود ثقة عميقة عند السيد ادريس في الانجليز .

بينما الجانب المقابل يتفق معه في دخول الحـــرب ولكن يريـــد ذلك بضمانات رسمية كتابية لمستقبل الوطن . وهذه الشروط من هذا الجانب تدل على عدم توفر الثقة لديهم في الانجليز . وكأني بلسان حال هذا الجانب يقول : فما مصيبة آل الحسين في الحجاز من قبل عنا ببعيد . ولا نكبة العرب والمسلمين في فلسطين الشهيدة من بعد بخافية السبب والمسبب .

ولقد ادى هذا الخلاف في الراي الى موقف خطير كادت ان تتكلم فيه لغة الرصاص بين ابناء الوطن الواحد فتتطاير الارواح من اجسادها لولا عناية الله التي حفت بالجميع . وكل منهم يحسب انه يحسن صنعا فلقد قال لي : « الشيخ عبد الرحمان دقدق » في احدى رسائله الي وأنا في تونس وهو طالب يدرس في الازهر وعلى اتصال وثيق بعناصر الحركة الوطنية الليبية في « مصر » قال في احدى رسائله ما يلي : « ،،، لقد وصل التوتر حده

الاقصى بين المجتمعين في مكـــان « كذا » ولقـــد شوهدت فيه الايدي على مقابض المسدسات . ولولا وصول قطار سكة الحديد الذي فرق بين الجموع المتحضرة والنفوس المتوترة لولا ذلك لحدثت مقتلة فظيعة ولكن الله سلم . ثم ان هناك موقفين سياسيين آخـــرين من قبل متضاربين . الاول موقف اللجنـــة الطرابلسية في « مصر » وعلى راسها الشيخ الطاهـــر الـــزاوي مفتي الجمهورية العربية الليبية اليوم . وقد وصلتني منه وانا في تونس عدة رسائل وكانت مواضيع رسائله كلها تحذر دائما من تمكين « السيد ادريس » من حكم البلاد بحجة انه غير صالح للحكم اطلاقا لانه رجل سلبي ضعيف الارادة . وعلى العموم فانه لا يرجى منه خير . هكذا رايه .

والثاني موقف « جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة » في سوريا وعلى راسها المغفور له « بشير السعداوي » وهذا يرى عدم مقاومة ادريس . لان مقاومته تجعله يرتمي في احضان الانجليز اكثر . بل وقد تدفعه الى التمسك علنا بتقسيم البلاد . وذلك ما يهدف اليه الانجليز . فلهذه الاعتبارات يرى رئيس هذه الجمعية ان يكون العمل كله موجها الى انقاذ البلاد من خطر الاستعمار اولا . والوصول الى الاستقلال على اي طريق وبأية وسيلة . وان نترك الكلام الآن عن تنظيماتنا الداخلية بما فيها نوع الحكم حتى يحين الوقت المناسب . ان هذه العوامل الاربعة التي جاءت هكذا على التوالي :

١) اختلاف النظريات سياسيا بين مجموعتي المهاجرين في — مصر وفي سوريـــا .

٢) انقسام مجموعة المهاجرين في مصر على نفسهـــا بسبب طريقة المشاركة في الحـــرب .

٣) انهزام الجيش الفرنسي ، ووقوع الهدنة وقيام حكومة « فيشي » الموالية للمحـــور .

٤) انقطاع الاتصال بيننا وبين اخواننا في الشرق حينما بدأ زحف الجيش الثامن من مصـــر .

كل هذه عوامل جعلت الجو لدينا غامضا . وطريقنا غير واضحة . كما ان

وبعد اتمام الفطور وقفنا في مرتفع امام مسكنه واشار علي بالطريق التي يجب على ان اسلكها بعيدا عن الطريق الرئيسية حتى اصل الى الحدود الليبية والمسافة حوالي ثمانية كيلومتر . وقال لي : ان شخصا ليبيا يدعى « احمد شلغم » يوجد قرب الحد داخل الاراضي الليبية عنده خيمة «قيطون» انتظر عنده وستصلك البضاعة ليلا ان اشاء اللـــه .

انطلقت من هناك مخترقا تلك الوهاد التي ينتشر فيها قليل من الابل والحمير ترعى هنا وهناك ، قطعت المسافة ووصلت مبنى الحد الليبي براس اجدير دون ان يعترضني احد ووصلت الى خيمة الشيخ احمد وفي الليل وصلت البضاعة . ومن الغد اجر لي الشيخ احمد « جمـــلا » لحمل البضاعة وانطلقنا انا والجمل وصاحبه بعد الظهر وقطعنا المسافة ستين كيلومترا مشيا على الاقدام . وصلنا في ساعـــة متأخرة من الليل الى مكان يدعى « الشطبان » الى الجنوب من مدينة « زوارة » وليس ببعيد عنها حيث مسكن صاحب الجمل وامضيت تلك الليلة غائصا في كومة من التبن داخل مخزن كبير معد لخزن التبـــن .

وفي الصباح الباكر قصدت مدينة « زوارة » حيث اتصلت بالحاج عبد السلام ابو سهمين واعلمته بوجود البضاعة ومكانها فقام هذا بالاجراءات اللازمة واستخرج لها ترخيصا لنقلها الى طرابلس . وارسلت حيث سلمت الى الحاج « محمد يونس الكريكشي » وبعد ليلتين في « زوارة » خرجت رفقه الحاج عبد السلام الى باديتها حيث كانت عائلته كلها تنتجع في منطقة اسمها : « العقيلة » .

وهناك في العقيلة اجتمعت بكثير من الاخـــوان الزواريين حيث صادف وجودي هناك مناسبة « جز الاغنام » استمعت الى احاديثهـــم في مختلف الشؤون وكانت احاديثهم فيما بينهم على الطبيعة لا تزويـــق ولا تنميـــق ولا تحفظات لانه لا يوجد بينهم غريب ، الا شبحا من رجل ساذج غلبان منزو في ركن من البيت « بيت الشعر » وفي صورة لا تلفت انتبـــاه اي

استعداداتنا وآمالنا السابقة اصبحت والحالة هذه غير ذات موضوع لانها ذهبت مع ذهاب وضع فرنسا الاول بالنسبة لنا نحن في تونس ولهذه الاسباب فقد رات الجمعية ان تدعو الى اجتماع لدراسة ما تجمع لديها من اخبار من مختلف المصادر . وفيما يجب عمله لاستجلاء هذا الموقف الغامض . وفعلا فقد دعت الجمعية كامل اعضائها الى اجتماع دام ثلاثة ايام متوالية وفيه قرر المجتمعون ارسال احد اعضائها الى ليبيا لمعرفة اتجاه الراي العام فيها . وما يكون قد تسرب اليها من اخبار اخواننا مهاجري الشرق الذين انقطعت عنا اخبارهم . وقد وقع الاختيار على سكرتير الجمعية «احمد زارم» للقيام بهذه المهمة تاركة له اختيار الطريقة التي يراها لاجتياز الحدود .

وتنفيذا للخطة التي كلفت بها رايت ان اسلم طريق هو انتحال صفة تاجر مهرب وهي عملية مألوفة في الحدود الليبية التونسية ولها انصار وعملاء . وهي الطريقة الاخف ضررا عند الوقوع في المحذور . ولقد عمدت الى شراء مائة كيلو غرام من الطاقية : « شاشية » وارسلتها الى «بنقردان» والتحقت بها بعد ثلاثة ايام . وصلت الى « بنقردان » واتصلت حال وصولي بالاخ « احمد صكّح المسراتي » وهو من سكان المكان ومن محترفي هذه التجارة فاتفق هذا مع احد افراد « السبابيس » من مجموعة ارصاد الحدود اتفق معه على نقلي وبضاعتي الى داخل الحدود الليبية مقابل اجر معين اتفقا عليه . وفي ليلة مظلمة وبعد صلاة العشاء بحوالي ساعة وضع البضاعة على حمار له وغادرنا « بنقردان » قطعنا ثلاثين كيلو مترا وصلنا الى « قصر الشوشة » حيث كان مسكنه في وقت متأخر من تلك الليلة .

بتنا في محل سكناه حذو القصر ، وفي الصباح الباكر قدم لنا الفطور ويتكون من «آنية بها الزميطة» وطبق به « جراد يابس » ثم اعقبهما الشاهي الاحمر . وعلى ذكر هذا الفطور أود أن الاحظ هنا فاقول : لعل البعض يظن انني ذكرت نوع الفطور قصد التعريض . كلا والله . وانما ذكرته لانني اعتقد انه شيء غريب عند شباب هذا العهد — عهد البترول . اما في الماضي فهذه اكلة معروفة بل ومحبوبة ومألوفة هنا وهناك .

انسان . وبالجملة فقد كنت في وضع شاذ . اجل في وضع شاذ حيث كنت في شكل المساكين وفي زي المعدمين ولباس رث وحذاء مهلهل « وطاقية » اكل عليها الدهر وشرب وعيون تنظر ، وفاه مغلق .

وفي سكون الغريب . وهدوء الساذج . وموقف المجهول من الجميع الا الحاج عبد السلام .

ان تلك الايام التي تربو على الخمسة فيما أتذكر . في بادية « زوارة » تركت في نفسي ذكرى لن انساها . وهي ايام جميلة . أجل جميلة رغم ما عليه مظهري المصطنع . لان نفسي كانت راضية . بل مغتبطة . ذلك المظهر الذي جعل مني شخصا لا يهتم به . ولا ينظر اليه الا كسائل رمت به الحاجة . وفي تلك الحالة وذلك الوضع تذكرت قول الشاعر العربي قديما حيث يقول :

ولما رايت الجهل في الناس فاشيا   تجاهلت حتى قيل اني جاهل

وفي يوم من تلك الايام تحركت في نفس الحاج خالد ابو سهمين ، شقيق الحاج عبد السلام غريزة حب الاطلاع واكتشاف المجهول . وفي غفلة من المجموعة . وجه الحاج خالد السؤال التالي الى شقيقه . قائلا له : من هذا الي جايبه معاك ..؟ فأجابه مقتضبا : هذا صاحبي — فنظر الحاج خالد الى اخيه نظرة يبدو عليها العتاب واضحا . وقال بلهجة السخرية : « ما لقيتش من تصاحب في الدنيا الا هالشكل ..!؟ » فأجابه بلهجة جدية : انت موش شغلك هذا . فسكت .

نادرة :

وبعد رجوعي الى الوطن سنة ١٩٤٨ م وقيام « المؤتمر الوطني العام » وقد كنت الشخص الثاني فيه من الناحية العملية . بعد وفاة المرحوم « الطاهر المريض » ففي احد ايام سنة ١٩٤٩ م فيما اتذكر كنا مجموعة من الاخوان في محل تجارة « الحاج خالد ابو سهمين » في اول شارع الرشيد مما يلي ميدان الشهداء — بطرابلس — فبينما كنا مجموعة من الاخوان نتبادل

الكلام في موضوع الوقت . اذ قاطعنا الحاج خالد بقوله : باللـــه يا جماعة سامحوني لحظـــة ..!!

فسكت الجميع وتركزت الانظار نحوه ، فوجه كلامه الي قائلا : : « اسالك بالله اتقول الحق ..؟ هو انت اللي جيتنا هاك العام مجرتل زي الدرويش ..؟ قلت: لا ادري ولكن اسأل الحاج عبد السلام ، فهو عنده الخبر اليقين .. فقال : والله لولا انني عرفتك وزدت سألت من الاول فتأكدت ، وصدقت . ما انصدق الي انت هو . واعاد القصة بأكملها للجماعة .

موقف مفـــاجـــيء

بعد ايام البادية عدنا الى مدينة « زوارة » ومن الغد خرجنا الحاج عبد السلام . وانا ، الى ميدان السوق استعدادا للسفر الى طرابلس . حضرت السيارة العمومية . وركب الناس وانا من بينهم . وتكامل المسافرون داخلها وانصرف الحاج عبد السلام لشأنه . وازمعت السيارة على السير . فأوقفنا ضابط انجليزي . لا اعرف رتبته . وصعد اليها واخذ يتفرس في الوجوه .
ودون ما سبب معروف عندي . ومن دون جميع « الركاب » تقـــدم هذا الضابط نحوي ، واخذ يتفرس في وجهي فقلت في نفسي : يـــا ساتر لا تكشف . وبدا يسألنـــي :

انت جاي من تونس ..؟

قلت : نعـــم .

قال : متى قدمت ..؟

قلت : منذ عـــام

قال : اسمـــك ..؟

قلت : احمد خليفة العمر . ولم اذكر اللقب الملتصق بي

قال : قبيلتك ..؟

قلت : من قبائل الرحيبـــات

قال : اين ذاهب ..؟

قلت : الى طرابلس

قال : ماذا تفعل في طرابلس ..؟

قلت : لاعود الى الرحيبات لعدم وجود الواسطة من هنا ...

والذي حيرني وجعلني افكر في الامر هو : لماذا قصدني دون الجميـــع . ورغم تخوفي من الموقف الا انني رغم ذلك فقد تجلدت واجبته بصورة طبيعية وبلهجة عادية . وبعد انتهاء سؤاله نزل من السيارة . وتحركت في طريقها الى طرابلس .

وجه لي احد « الركاب » واظنه حسب لهجته من احدى قبائل (صبراتة) قائلا لي : « ما تخافش منه يلعن ابوه ولا يهمك امره . فهو يبحث على رجل ارتكب جريمة قتل منذ ايام ماضية واختفى » وبوصولنا الى طرابلس اتصلت في نفس الوقت ، بالحاج محمد يونس الكريكشـــي . وعلمت ان البضاعة وصلت وتسلمهـــا .

العودة الى تونس بعد زيارة سرية للوطن

تقدم ان اوضحت بانني قد تجاوزت الحدود بسلام ودخلت طرابلس وبما ان مهمتي هي معرفة الاحوال السائدة في ليبيا وما يدور في الـراي العام بخصوص مستقبل البلاد فكان ينبغي لي ان اتصل بأجـزاء ليبيا الثلاثة — طرابلس — برقة — فزان) ولكن ذلك تعذر علي لاكثـر من سبب واحد ، وعليه فقد اكتفيت بالنسبة « لبرقة — وفزان » بالسؤال من بعيد مع التحري في صحة الاخبار ومصادرها .

واول ما لاحظته هو ان المؤسسات ذات الصبغة السياسية الوطنية غير موجودة في اقليم طرابلس قبل منتصف سنة ١٩٤٤ م الا « النادي الادبي — ونادي الاتحـاد الرياضي » وهذان الناديان عملهما كاسميهما . الا ان هناك جوا متحفـزا يتمثل في شبيبة شاعرة ومتحركة نحو حركة وطنية ولكنها غير منظمة تحت اسم معين فيما علمت .

اما في برقة فقد علمت بوجود مؤسسة سياسية واحدة يقال : حملت بها الايام في مصر وولدت في ليبيا سنة ١٩٤٤ م قوامها نخبة من الشبـاب الجريء النشط والمخلص تقاوم المناورات الاجنبية وتنادي بوحـدة الوطن هي : « جمعية عمر المختار » الا انها كانت تنتظرها مقاومة عنيفة في طي السكون مؤقتا لم يحن الوقت للهجوم عليها بعد .

أما الجنوب « فزان » فالحالة فيه غامضة لا مؤسسات ولا اتصالات . ولم يكن ذلك بسبب بعد الشقة أو عدم اهتمام سكان الاقليم كلا وانما لان الفرنسيين اغلقوا سبل الاتصال بهذا الاقليم عن الداخل اليه والخارج منه . آخذين في توجيه المنطقة نحو الجزائر . اما وسيلة التعامل النقدي . ففي طرابلس كان التعامل بعملة خاصة هي عملة عسكرية مؤقتة « مال » وفي بنغازي التعامل بالجنيه المصري . اما « فزان » فتتعامل بالفرنك الفرنسي . ومن هذا الوضع النقدي وغيره تفهم بوضوح المطامع الاستعمارية التي تسيطر على نفوس الدول . فكان يبدو لنا أن طرابلس غير معروفة المصير — اما برقة — فمصيرها النفوذ الانجليزي — وهذا كان واضحا الى حد ما من تصريح « ايدن » سنة ١٩٤٢ م — أما فزان — فان فرنسا تحاول الحاقها بالجزائر حينما كان الفرنسيون يظنون أن الجزائر من فرنسا الى الابد . هكذا على هذا الوضع وجدت ليبيا سنة ١٩٤٤ م

ومما يؤيد هذا الاستنتاج ما سمعته من تأوهات وانتقادات للمعاملات والاجراءات التي كان يلاقيها المسافرون من اقليم لآخر . وهذه المعاملات كانت على الصعيد الرسمي ، وشبه الرسمي . فالمعاملات كانت غير طبيعية بل احيانا تصل الى درجة الاستفزاز . فالحدود بين الاقليمين الشرقي والغربي قائمة وتكاد تكون مغلقة لما يتخللها من عراقيل . والمعاملة جافة فلا اثر للاخوة فيها . حيث سمعت من مجربين ثقات ، تجار وعمال وغيرهم أن اجتياز الحدود المصرية مثلا اخف اتعابا واحسن معاملة من الحدود التي اقامها الاستعمار الانجليزي بين اجزاء البلاد . وان الحدود التونسية اقل اشكالا واكثر تسامحا من حدودنا الداخلية المصطنعة والبضائع يمنع انتقالها من الشرق الى الغرب والعكس الا بجهد جهيد . اما بالنسبة لفزان فالامر ادهى واشد . هذه هي الحالة السائدة آنذاك في طول البلاد وعرضها .

وبما انني بصدد ذكر هذه الحالة في البلاد فمن الواجب على ان احدد كما علمت ايضا انصافا للتاريخ فأقول : ان الشعب في كل مكان من اقاليم الوطن هو شعب طيب الاعراق سليم الوجدان طاهر الضمير تجيش في

اعماقه عواطف الاخوة والمحبة . ولكن خبث الاستعمار واستخذاء عناصر من الشعب باعت الضمير وهو (الشيء الذي لا يباع) وبثمن لا يساوي قيمة رغيف من الخبز المر . أو « الخبز المسموم » على حد تعبير الاخوان الجزائريين ... وهذا الثمن على تفاهته سيعطى لهم من عرق شعبهم ومن خيرات بلادهم وليس من أموال المستعمرين ، ولكن ...

وبعد ايام في طرابلس اطلعت خلالها على ما تقدم ذكره عدت الى تونس وقدمت للجمعية تقريرا بكل ما علمته وتاكدت من صحته : دعت الجمعية الى عقد اجتماع لدراسة التقرير وما تجمع لديها من المعلومات الاخرى . وقد عقد الاجتماع في شهر يونية ١٩٤٤ م . وقد تقرر في هذا الاجتماع ما يلي :

١) رفع مذكرة الى قيادة الحلفاء بشان ما وصلت اليه الحالة في ليبيا .

٢) تشكيل وفد لمقابلة السفارة الامريكية بتونس بشأن مستقبل بلادنا .

وفي نفس الوقت شكل المجتمعون لجنة لصياغة التقرير ومن بين اعضائها صاحب هذه المذكرات . وعندما انجز التقرير في الوقت المحدد حضر الاعضاء ودرسوا التقرير ثم وقعت الموافقة عليه وقد تضمن التقرير فيما تضمنه النقاط التالية حيث بقيت عالقة بذهني .

١) ما وصلت اليه البلاد من الحالة النفسية نتيجة تصرفات الجيش التي تسببت في حوادث متعددة بين افراد منه وعناصر من الشعب حدثت ولا زالت تحدث .

٢) حدث تخريب من طرف الجنود فلقد انتزعت ابواب بعض المباني ووصلت الى تونس وبيعت هناك ولقد شاهدنا ذلك بالعين وهذا نوع من التخريب يدل على وقوع اشياء اخرى لم نتنبه لها بعد .

٣) ان الحوادث التي وقعت ولازالت تقع بين الجيش وافراد الشعب بسبب الخمرة ونشوة الانتصار مع كثرة الجنود قد تسبب ظروفا غير مرغوب فيها من الطرفين .

٤) اجتنابا الى ما قد يتطور له الموقف من تزايد الكراهيـــة بسبب تلك الحوادث ، الامر الذي قد يؤدي الى اصطدام بين افـــراد الجيش وعناصر غير مسؤولة من الشعب . وهذا يؤدي الى اضطرابات تشمل الشعب كلـــه .

فلهذه الاسباب وغيرها وللابقاء على راحة البلاد وسمعة الحلفاء وحفاظا على الامن العام في المنطقة نطلب بالحاح سحب الجيوش من كامـــل البلاد الا ما هو ضروري لحفظ الامن . وقد ارسلت صورتان من هذا التقرير الـــى القائدين الانجليزي والامريكي وكان الارسال بعلم الوصول ولم نتلق الجواب من اي منهما لا سلبا ولا ايجابا ،

اما الوفد فقد تاخر لاسباب راتها الجمعية .

وفي شهر ابريل من سنة ١٩٤٥ تألف الوفد من خمسة اشخاص هم : السادة محمد عباس ــ محمد بن خليفة ــ نور الدين شميلة ــ عمر مالك ــ احمد زارم ــ وقد استقبل من طرف السفارة الامريكية بمقـــرها الكائن في « شارع فرنسا) بتونس ودار الحديث حول المستعمرات الايطالية بصورة عامة . ثم تسرب الكلام الى ليبيا بصورة خاصة . وكان محور الكلام حول تلك الاشاعة القائلة بعودة ايطاليا الى ليبيا وعلى التحديد الى اقليم طرابلس الغرب . قلنا اشاعة وفي الواقع هي ليست اشاعة وانما هي مساع مـــن طرف ايطاليا وتساندها فرنسا وغيرها . وحينما انطلقت الالسن في الحديث ولاحظنا وجود آذان صاغية وانتباها واضحا لما نقولـــه شرحنـــا موقفنا بصراحة واسهاب . فذكرناهم بموقفنا في جانب الحلفاء عندما كانت تتوالى عليهم الهزائم وكانت مشاركتنا لهم فعلية في الشرق وفي الغرب .

وأوضحنا لهم انه وان كانت هذه المشاركة بالنسبة للموقف ككل ــ ولقوات الحلفاء تعتبر هذه المشاركة من الناحية المادية شيئا ضئيلا يكاد لا يذكر . الا انه من الناحية المعنوية ليس كذلك ، فهو موقف شعب كامـــل له في التاريخ صفحات غير عادية . وفي الحروب مواقف قل نظيرها نسبيا . ومن

ورائه أمة كاملة ذات تاريخ مجيد . وما موقفنا هنا وفي الشرق الا برهان صادق على عزيمتنا واندفاعنا في صف الحلفاء باخلاص وتصميم لا يتركان مجالا للشك . « وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ..؟ » ومن هنا نقول ان الواجب الاخلاقي والانساني يفرضان على الحلفـــاء معاملة شعبنا بقـــدر الثقة التي برهن عليها في جانبهم وفي استطاعتنا أن نؤكد بان شعبنـــا سوف لم ولن يرضى بعودة ايطاليا الى بلاده على أي مستوى كانت العودة وباي اسم سميت ولا اي نفوذ أجنبي آخر . وليس قولنا هذا من قبيـــل التهويل أو التهديد أو هو قول فرد لا يستند الى قاعدة عريضة . وانما هو نتيجة اتفاق عام اجمع عليه شعبنا في الداخل والخارج .

ولذلك نرى انه من الواجب علينا لمصلحتنا ومصلحة الامن العام في هذه المنطقة الامر الذي يهم الجميع ان نصارحكم في هذا الوقت المناسب باننا عازمون عزما اكيدا لا رجوع فيه على مقاومة اية محاولة تعمل على ارجاع النفوذ الايطالي او فرض اي نفوذ اجنبي آخر مهما كانت التضحيات ومهما كانت النتائج التي تترتب على ذلك ونحن ندرك جيدا مدى الاتعاب والاضرار الفادحة التي سوف يتعرض لها شعبنا ولكننا نعمل بالقول المأثور « ما الموت الا مرة ، والموت احلى من حياة مرة » ومع ذلك فان تلك الاتعاب والاضرار التي سيتعرض لها شعبنا فبقدر ما هي صفحة بيضاء ناطقة بالفخر والاعتزاز في منعطف من منعطفات تاريخنا توحي للاجيال المقبلة وللعالم اجمع مـــا لشعبنا من حب الفداء وكرم التضحية في سبيل الحق والعزة والكرامة . فهي في الوقت نفسه نقطة سوداء حالكة السواد في تاريخ الحلفاء ان هم وافقوا على عودة الاستعمار الايطالي الى بلادنا أو حاولوا فرض اي نفوذ اجنبي علينا وسيسجل عليهم التاريخ انهم قابلوا الحسنة بالسيئـــة .

وبالاختصار فلقد كان حديثنا طويلا ومؤثرا جدا وكان على جانب كبير من الصراحة والقوة حتى ان الشيخ « نور الدين شميلة » بعد ان تكلم ما بدا له سكت ليستمع الى غيره . وفجأة اندفع دون ما طلب للكلمة وقال وهو فـــي حالة من التأثر الشديد قال : اذا ساعدتم ايطاليا في سعيها للعـــودة الى

حكم بلادنا فسوف لن ينفذ عزمكم هذا ، ولن يستقر النفوذ الايطالـــي في ليبيا الا بعد فناء الشعب الليبي عن بكرة ابيه . قال هذا وغلب عليه التأثر فسكت . وقد رأيت عينيه امتلاتا دموعا .

وفي آخر الاجتماع قال لنا السفير نفسه سوف إبلغ كلامكم هذا بحذافيره وبكل أمانة الى جهات الاختصاص .

وبالنظر الى ما وجدناه من الاهتمام تهيأ لنا ان هذا السفيـــر شخصية عاقلة متزنة ذات احساسات انسانية . وقد تحققت فيه فراستنا . وذلك انه عند عودتنا الى الوطن سنة ١٩٤٨ م صادف في احد إجتماعاتنا الخاصة مع المرحوم السعداوي ان أخذنا نستعرض اعمالنا الوطنية في الخارج . فاعدنا حكاية مقابلتنا لهذا السفير واستقباله لنا واهتمامه بنا وذكرنا اسمه ، فقال السعداوي (رحمه الله) ، صدقتم ، ان هذا السفير سبق لي ان تعرفت بـــه فهو رجل طيب فعلا . اطيب رجل فيمن عرفت من الامريكان ، واثنى عليه .

وبعد هذه المقابلة بمدة لا اتذكر لها تاريخا بالضبط غادر الاخ محمد عباس البلاد التونسية عائدا الى الوطن . وبعد مدة اخرى غادر تونس الاخ محمد بن خليفة بن عامر عائدا الى الوطن هو الآخر ، رحمه الله تعالى وعلى اثـــر هذه المقابلة رفعت الجمعية مذكرة الى ملوك ورؤساء الدول العربية وجميع انصار العدالة والسلام .

مقابلاتى للوفد الامريكى فى لجنة الاستفتاء الرباعية بتونس

في آخر سنة ١٩٤٧ فيما اتذكر وعلى غير انتظار تلقيت بواسطة البريد دعوة حضور من السفارة الامريكية بتونس تطلب فيها حضوري بمقرها الكائن بشارع فرنسا بالعاصمة التونسية وقد كان الاستدعاء باسمي الخاص دونما اشارة للمنظمة ، والملاحظ هنا انه لم تكن لي اية اتصالات شخصية بهذه السفارة من قبل . ذهبت اليها في الوقت المحدد ، وحينما دخلت مقر السفارة وجدت في انتظاري اربعة اشخاص بينهم وجهان لم ارهما من قبل . ولقد عرفت احدهما فيما بعد فهو رئيس الوفد الامريكي في لجنة الاستفتاء الرباعية الدولية ، عرفته حينما جاءت هذه اللجنة الى ليبيا سنة ١٩٤٨ م ، كما ان السؤالات التي دارت بيني وبين السائلين في السفارة الامريكية كانت نفس الصيغة والمعاني التي استعملت في ليبيا من طرف اللجنة ، الا ان ما دار بيننا في السفارة بتونس كان اكثر عمقا واوسع صيغة . وفيما يلي نص السؤالات والاجوبة عليها كما وقعت بالضبط :

س : في نظركم من هي الشخصية التي تختارونها لحكم بلادكم سواء كانت ملكية او جمهورية ..؟

ج : لا يمكن لشخص واحد ان يختار .. خصوصا من كان مثلي بعيدا عن الوطن ولا يعرف له اتجاها في الوقت الحاضر ولذلك فانني لا استطيع الاجابة عن هذا السؤال .

س : اليست لكم منظمات سياسية وعلى اتصال ببعضكم ولكم برامج عمل واتجاهات محددة لمستقبل بلادكم تسيرون عليها وتعملون لتحقيقها منذ أمـد بعيـد ..؟

ج : هذا صحيح ولكن ظروف الحرب حالت بيننا وقد انقطعت اخبارنا عن بعضنا الا قليلا والحرب من شأنها تغيير كل شيء ونحن الآن ننتظر فرصة الاتصال ببعضنا لتصحيح اوضاعنا طبقا للظروف وللمستقبل.

س : هناك اربعة اوضاع نود منك ان تختار واحدا منها وهي : وصايـة فردية ــ وصاية ثنائية ــ وصاية جماعية ــ وصاية دولية ؟

ج : نحن نريد الاستقلال ، ولا نرضى بغيره ، ولا نختار عليه اي وضع آخر كفانا ما قاسيناه من الويلات لسنين طويلة .

س : واذا لم يكن الاستقلال ، فماذا تختارون من هذه الاربعة اوضاع ..؟

ج : في هذه الحالة للقوي ان يفعل ما يشاء . وللضعيف ان يتدبر امـره ويفكر في مستقبله ويتخذ طريقه متوكلا على ربه وكفى .

س : لا نحن لا نعني عدم الحصول على الاستقلال ، ولكنه مجرد فـرض لكي نعرف التفاصيل بين هذه الاوضاع بالترتيب الاول فالاول .. الخ مع اعتبارنا انكم مصرون على الاستقلال ولا ترضون به بـديلا فهل من الممكن ان تبين لنا ذلك ..؟

ج : اقول لكم ذلك ، ولكن كراي شخصي .. ومع ذلك لا تاخـذوها علي حجة في هذا الامر « فقال طيب » قلت الوصايـة الفردية اختـار مصر . واذا كانت جماعية اختار الجامعة العربية ، وهي مجموعة من الدول ، واذا كانت دولية اختار هيئة الامم المتحدة مباشرة .

س : عندما تكلمت على الوصاية الفردية فلماذا اخترت « مصر » بالذات دون غيرها ..؟ واذا لم تكن مصر فأي دولة تختار ..؟

ج : لم يكن لي ما اختار بعد هذا اذا كان الامر اختياريا

س : هناك ثلاث دول هي دول الحلفاء فلماذا لا تختار منها ..؟

ج : هذه دول استعمارية ونحن مللنا من الاستعمار ولا استطيع ان افرق بينها ولا اختار منها فهي في نظري في درجة واحدة .

س : اذن فلماذا اخترت مصر ..؟

وهنا ، عند هذا السؤال توقفت قليلا افكر ماذا اقول .. فبادرني مترجم السفارة بقوله « قل لانهم مسلمون » وعلى الفور قلت : لا ليس هذا هو الدافع فلو كان ذلك لاخترت (تركيا) وهي امة مسلمة واكثر تقدما من مصر ولكنني اخترت مصر من اجل ان آمالنا واحدة وعوائدنا واحدة واراضينا متصلة . وفوق هذا وذاك مسألة التعليم فالذي استطيع تعلمه باي لغة اجنبية في عشر سنوات يمكن ان اتعلمه بلغتنا في ست سنوات مثلا وهذه هي الدوافع الحقيقية لاختيار مصر .

بعد هذه المقابلة التي لم تكن معلومة لدى الاخوان اتصلت بادارة الجمعية وطلبت عقد اجتماع لكي ابسط لهم ما دار في هذه المقابلة . وقد عقد الاجتماع وبسطت للاخوان الموضوع . والجدير بالذكر هو اننا لم يتبادر الينا بانه الوفد الامريكي في لجنة الاستفتاء الرباعية الدولية ، بل ذهب تفكيرنا الى ان هذه المقابلة ليست الا نتيجة لمقابلتنا الاولى وما عرفت الحقيقة الا حينما عدت الى الوطن سنة ١٩٤٨ م ورايت الشخص نفسه على راس الوفد الامريكي .

والى هنا اود ان استدرك ما فاتني ان اذكره في حينه ، وعليه اعود الى الوراء قليلا لاقول ان الاخوين (محمد عباس) و (محمد بن خليفة) كانا قد غادرا تونس نهائيا عائدين الى الوطن الواحد بعد الآخر ، وذلك على اثر المقابلة السابقة للسفارة الامريكية والتي ذكرنا تفاصيلها في الصفحات السابقة ، وبغياب هذين الاخوين اصبحت الجمعية في نقص محسوس خصوصا وانهما عنصران قويان فيها وعليه تحتم ان يسد هذا النقص .

بعد هذه المقابلة مع السفارة الامريكية اصبح اهم ما يشغل افكارنا ويسترعي انتباهنا هو تحركات رؤساء الدول الحليفة واجتماعاتهم

وتصريحاتهم وما يصدر عنهم وما تنشره الصحف وتذيعه وكالات الانباء ، ولقد شعرنا بتحرك ثعالبة السياســة ورواد الاستعمار للاستحواذ على اسلاب الدول المغلوبة كل منها ترنو الى الحصول على النصيب الاوفر والاهم.

وتمهيدا لذلك ، وبالنسبة لبلادنا فقد اخــذت هذه الدول تعمــل لتفتيت وحدة الشعب بزرع اسباب التفرقة لخلــق الجو المــلائم لتقسيم البــلاد واقتسامها بناء على ذلك فقد عقدت الجمعية اجتماعا للنظر فيما يجب عمله تجاه هذه البوادر الاستعمارية . ولقد تقرر في هذا الاجتماع تغيير اســم الجمعيــة من [جمعية التــوادد والتعاضد بين المهاجرين المسلمين] الى [جمعية الوحدة الليبيــة]

وهذا التغيير يستند الى امرين اثنين اولهما ان الاسم الاول كان من نسج الفرنسيين فرضوه علينــا وذلك لمصلحتهم في عــدم ازعاج ايطاليا لعلها ترضى عليهم فتكون في جانبهم . والاسم الجديد « الوحدة الليبية » القصد منه جواب غير مباشر على مساعي دول الحلفاء لتقسيم بلادنا . وفي هــذا الاجتماع اسندت رئاسة الجمعية الى الاستاذ « محمد غالب الكيب » رحمه الله ، كما اسندت امانة مالها الى الاخ عمر مالك ، والبقية بقيت على مــا كانت عليه .

والاستاذ غالب رجل عسكري دراسة وتطبيقا فهو متخــرج من « المكتب الحربي في استنبول » برتبة ملازم ثاني على ما اتذكر ، كما انه على جانب من الثقافة العربية وله المام باللغتين الفرنسية والايطالية ، وهو شخصية وطنية صادقة مخلصة كان من ضباط الجهاد الوطني . ولمــا تغلب العــدد والعتاد الايطالي على المجاهدين هاجر الى تونس وبقي بها حتى انهــزمت ايطاليا فعاد الى وطنه وعاش بين اهله حتى وافاه الاجل المحتوم رحمه الله.

وبعيد هذا الاجتماع بلغنا من جهة سياسية لها خبرة واطلاع بان لجنــة دولية لاستفتاء سكان المستعمرات الايطالية ستحل بليبيا خلال شهر مارس من سنة ١٩٤٨ م وعلى اثر هذه المعلــومات طالبت الجمعيــة من اعضائها

الاسراع بالعودة الى الوطن كل بالطريقة التي تتاح له ، وبعد ايام سافر الاخ عمر مانك ملتحقا بالاخوان الذين سبقــوه . وهكذا بالنسبة للاخرين فقــد تتابع الاخوان في العودة .

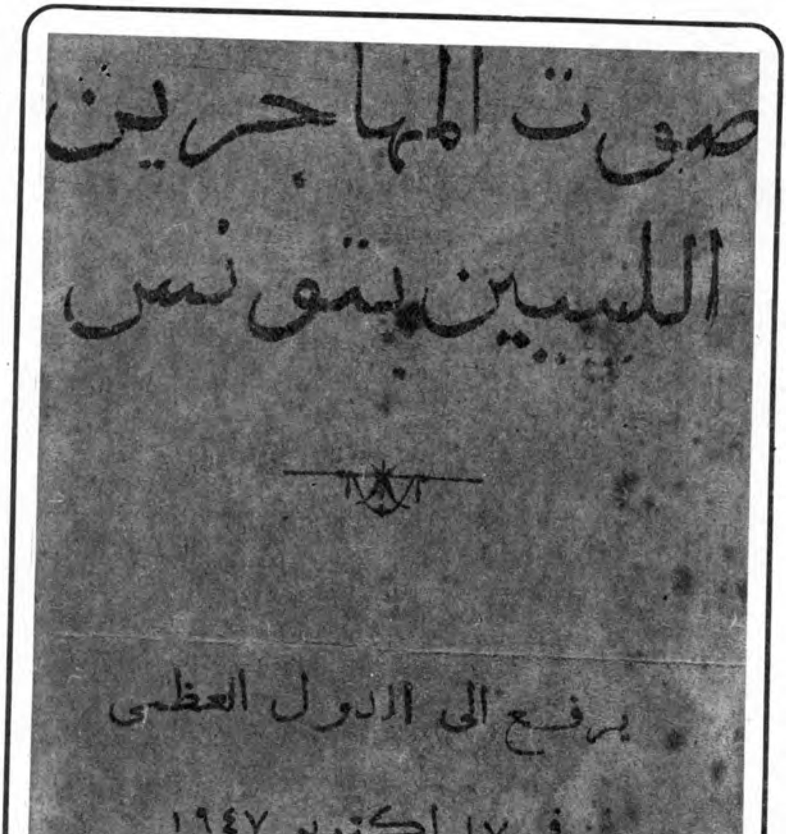

In any further communication on this subject, please quote
No. J 5509/27/66
and address—
not to any person by name
but to—
"The Under-Secretary of State,"
Foreign Office,
London, S.W.1.

Foreign Office.
S.W.1.

8th December, 1947.

Sir,

I am directed by Mr. Secretary Bevin to acknowledge receipt of your letter dated 17th October and to inform you that its contents have been noted.

I am,
Sir,
Your obedient Servant,

The President,
Association de L'Unité Lybique.

جـــواب الحكومـــة البريطانيــة على مذكرة جمعيــة الوحدة الليبية

جواب الحكومة البريطانية على مذكرة « جمعية الوحدة الليبية »

حينما وقع ابدال اسم الجمعية من « جمعية التوادد والتعاضد بين المهاجرين المسلمين » الى « جمعية الوحدة الليبية » ، قامت هذه بارسال مذكرات الى دول الحلفاء تذكرهم فيها بمشاركة الليبيين لهم في الحرب خارج بلادهم وداخلها وتطالبهم بالعدالة والجزاء الحسن ، وان لا تدفع بالشعب الليبي الذي قاسى الكثير الى الدخول في صراعات جديدة ضد اية قوة على وجه الارض تحاول السيطرة عليه ، وهو الذي صمم على تحرير بلاده مهما كلفه الامر . وبما ان نصوص المذكرات قد اعدمت بالطريقة التي سبق ان وضحناها فقد عثرت اخيرا وبطريق الصدفة بين صفحات كتبي على جواب الحكومة البريطانية على المذكرة التي ارسلت اليها مع ايصال الارسال بطلم الوصول .

وفيما يلي تعريب تقريبي لكلمات الجواب المذكور :

8 ديسمبر 1947

سيدي ،

لقد وجهت من قبل السيد السكرتير « بيفن » لاشعاركم باستلام رسالتكم المؤرخة في 17 اكتوبر ولاعلامكم بان محتوياتها قد لوحظت .

خادمكم المطيع
التوقيع

الى رئيس جمعية الوحدة الليبية

وفي خلال شهر يناير 1948 م جاء دوري في العودة . فقد حزمت امتعتي بعدما رتبت اموري كلها . وغادرت تونس الى ليبيا تاركا عائلتي هناك ولم استصحبها معي خوفا من ان يكون وجودها معي عامل ضغط في مواقفي تجاه المحتلين والمستخدمين . وذلك لاني مقرر تماما الصراع الذي ينتظرني ، عدت الى الوطن برخصة من السفارة الانجليزية في تونس بصفتها المسؤولة عن شؤون ليبيا انذاك . وبصفتي ليبيا لم احمل في حياتي اية جنسية او رعوية غير ليبية اطلاقا .

الا ان حكومة ليبيا في ذلك العهد الغابر لم تراع المنطق ولم تحترم الدستور الذي ينص بصراحة ووضوح على عدم ابعاد الليبي خارج حدود بلاده . وانا ليبي بالاصل وبالولادة وليبي بنص الدستور . وانتسبت الى اكبر حزب سياسي في البلاد . واصدرت جريدة سياسية ناهضت المناورات الاستعمارية ولكن حكومة ذلك العهد لم تتقيد بهذه الحجج الساطعة كلها . كما انها لم تقدر ماضي هذا الشخص الذي ابعدته ، ولم تفكر بانه عنصر من عناصر الحركة الوطنية له نصيبه في انتزاع ذلك الاستقلال الذي وصلت بفضله الى كراسي الحكم ، بل عمدت الى ابعاده خارج ليبيا . لا لذنب ارتكبه او جرم اقترفه . وانما لانه قال ونادى مع الشعب كله ان ليبيا يجب ان تبقى كما جعلها الله وشهد التاريخ بلدا واحدا حرا مستقلا و تمسك بهذا . ولم تستهوه الاغراءات او تخفه التهديدات . وما ظننت ان مطلبا شعبيا كهذا ينقلب الى جريمة في عهد حكومة زعموا انها وطنية وعلى راسها ملك عربي مسلم سليل شخصية صوفية لها مركزها في المجتمع الاسلامي طرا .

كلمة الأخ محمد محمد عباس

لما كان الاخ « محمد بن محمد بن عباس المسراتي » احد مؤسسي الحركة الوطنية الليبية في المهجر بالمغرب العربي الكبير . ومن الذين عملوا بعناية واهتمام . وبدون انقطاع منذ تاسيسها حتى عودته الى الوطن . فقد رايت ، وانا في حاجة للعثور على البعض مما نسيته من سير حركتنا وتطوراتها ، وقد نسيت منها الكثيــر جدا .

لذا رايب أن استعين بهذا الاخ اذا كانت توجد لديه بعض الوثائق او حتى ما بقي عالقا في ذاكرته . وانا مطمئن بان الاخ ابن عباس لا يقول الا ما هو واقع ومتأكد لا يتطرق اليه الشك . لذا فقد وجهت اليه رسالة رجوته فيهــا ان يزودني باية معلومات لديه من أعمال حركتنا هذه ، فكتب الي مشكورا ما يلـــي :

. . فقد تسلمت رسالتكم . . واطلعت فيها على طلبكم في اشياء لا اظـــن اني استطيع اجابتكم عنها بصفة صحيحة ، اولا لطول المدة ومر الملوان . وثانيا لتفريطي فيما كان لدي من الوثائق حيث سلمت اغلبها اليك عندمـــا اكدت لي انك عزمت على القيام بتدوين اعمالنا بتونس وابرازها في مؤلف خاص . وانك تحتاج الى مصادر وتواريخ : [وقع هذا فعلا في تونس وهي التي ذهبت طعمة للنيران مع غيرها كما اوضحنا سابقا] .

والتقيت في طرابلس بالاخ علي مصطفى المصراتي فتجاذبنا الحديث على المرحوم بشير السعداوي وعلى كفاحه داخل الوطن وخارجه . وقال لي : انه عازم ان يقوم بتأليف كتاب يذكر فيه جميع الادوار والاطوار الوطنية التي مارسها البشير في حياته .

وطلب مني تزويده بالوثائق الوطنية التي كانت تأتي من الزعيم فلبيت طلبه وسلمت له جميع ما عندي بسرعة . ظنا مني انه سيشرع في تنفيذ رغبته توا .

وقد ظهر لي بعد ذلك انك وعلي مصطفى المصراتي اقوالكما اكثر من افعالكما ، ولكن لا ضير فمن اكثر اللوم لاخوانه فقدهم .

اخي العزيز ، ان ما اتذكره الان من تاريخ حياتنا السياسية بتونس هو كما يلي : قدمت الى تونس ودخلت جامع الزيتونة ، وفي اثناء سنتي الثانية بالجامع اظنها سنة ١٩٢٨ اي قبل اكثر من ٤٠ عاما من الان . قرأت في الجرائد التونسية ذلك النداء الذي وجهه زعيمنا الراحل المرحوم بشير بك السعداوي الى جميع المهاجرين الليبيين بعد ان استقر كل منهم في مهجره كما استقر هو في مدينة دمشق بالشام بان يسارعوا الى تاسيس جمعيات تلم شعثهم وتوحد صفوفهم وان لا يجعلوا للياس الى قلوبهم سبيلا. فلا بد من يوم يثأرون فيه فتلاهم ويسترجعون فيه شعبهم . ولو بعد ذلك اليوم ، فيجب ان نتذرع بالصبر وان لا نجزع كثيرا مما آل اليه الامر ، واختتم مواعظه هذه بالبيت الذي كان كثير الاستشهاد به :

« وما ضاع حق لم ينم عنه اهله وما ناله في العالمين مقصر »

(وجدت هذه الكلمات مكتوبة في تقرير بكراسة مازلت محتفظا بها منذ كنا بتونس) .

ولم اتمهل كثيرا بعد اطلاعي على ذلك النداء في تلك الجرائد حتى ارسلت خطابا الى الزعيم استحسن فيه رايه واشكر فيه عمله وابايعه فيه على الكفاح والنضال حتى النصر . وبسرعة بادلني (رحمه الله) المراسلة .

وقد ذكر لي في احدى رسائله رحمه الله ما يأتي : انني متصل بـــرجل فاضل من اخواننا المهاجرين يسكن بتونس اسمــــه احمد زارم الرحيبي فارجوكم التعرف به وان تتعاونوا جميعا على تأسيس جمعية تلم شعثكم ، وتوحد صفوفكم .. الخ ما قال . فقمت من حيني وذهبت الى « الحاج محمد المجدوب » وكانت معرفتي به حديثة واطلعته على رسالتي وما كاد يفـــرغ من قراءتها حتى مد يده الى جيبه واخرج منه رسالة وقال (بعد ضحكة طويلة اخرجها من حلقه) ها انا لدي مثل رسالتـــك فمددت اليها يـــدي ومن اول نظرة فيها تاكدت انها مرسلة اليه من البشير . واذا بها من امر زارم مثل ما برسالتي ، فقلت له كيف السبيل الى الاتصال بهذا الاخ .الذي اظن انـــه رجل فاضل ، فقال كالمطمئن : الامر سهل اني اعرف « الشيخ محمد بن عمار الرحيبي » من طلبة جامع الزيتونة فلا بد انه سيطلعنا عليه فاطمأنت نفسي لذلك وتأكدت من اني سامتع عيني بالنظر الى محيا احمد زارم (هكذا يتمثل في مخيلتـــي) .

وغبت عن الاخ الحاج أقل من اسبوع ، ثم جئته وما كدت اجلس بجانبه حتى عرفت في وجهه انه عثر على ضالته المنشودة ، فتسرعت وقلت له : هل وجدت صاحبنا يا سي الحاج ..؟ فاعترته هزة عنيفة تبرهن وحدهـــا على انه ظفر بشخصية محبوبة وعلى انه معجب بها ، الا انه هاجمته نوبة من الضحك . وقد علمت من هذه ان الحاج وجد منظر الاخ زارم لا يتناسب مع سمعته التي انتشرت في كامل القطر التونسي وبين جميع قراء الجرائد التونسية بما ينشره فيها من المقالات الوطنية . فقلت له ضاربـــا على هذا الوتر « سماعك بالمعيدي خير من ان تراه » فقال نعم يا اخي . فكأن الحاج يريد ان يشاهد الاخ زارم في صورة جميلة ضخمة لم ير مثلها فيما مضى من حياته . وهكذا كانت تصورات قصار النظر والبسطاء . فقلت له : دعنا يـــا رجل ، فالرجال بعقولهم وافعالهم ، لا بصورهم وجمالهم ، ما ملاحظتك في وطنيته واخلاصه ، فقال ارى انه صادق في وطنيته مخلص في كفاحـــه حازم في عمله ذو عزيمة فولاذية . فقلت : « الله اكبر والحمد لله كفانا كفانا

يا أخي ، فهلا ضربت معه موعدا لاجتماعنا معه . فقال : اي والله هو يوم كــذا » .

ولم تمض فترة طويلة حتى التقى محمد عباس بأخيه الصادق احمد زارم . أمام دكان الحاج المجدوب بل الاصح .. (قصة التعارف هذه وجدتها مدونة بكراسة ما زلت احتفظ بها تحت عنــوان « من ذكريات الهجــرة ») وكان تعارفنا المذكور سنة ١٩٢٨ م لانني وجــدت ذلك في تقــرير كنت كتبته بتونس تحت عنوان (ملخص حياة محمد عباس المصراتي السياسية) واليك فقــرة منــه .

« وفي سنة ١٩٢٨ تعرفت بحضرة الاخ (احمد زارم) والشيخ (محمد عمار الرحيبي) واتفقنا على ان نعمل بتعاون واتحاد ضد البغاة المعتدين الطليان فاسسنا اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية فتضاعف عملنــا وانتشرت دعايتنا ضد الايطاليين حتى ملأت شمال افريقيا وصار معلــوما عند الكبير والصغير والانثى والذكر . جميع ما فعله وحــوش الطليــان بالشعب الطرابلسي المسكين .. » اهـ

ووجدت في كراسة اخرى في التقرير الذي ارسلته الى المقيــم العــام الفرنسي : « ايريك لابون » بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٣٩ م بعد تقديم استقالتي من جمعية التوادد والتعاضد ... الخ وجدت فيه ما ياتي : وقــد تمكنت في بحر سنة ١٩٢٨ م انا والاخ احمد زارم الرحيبي وبمساعدة عــدة افــراد آخرين من تأسيس جمعية تسمى : « اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية بتونس . وصرنا بعد تعارفنا نجتمع بــدكان الحاج المجــدوب . وفيما اظن ان اجتماعاتنا عند الحاج لم تكن كثيرة ثلاث او اربع مرات ثــم تركناه . ورفضنا العمل معه . مع اننا لم نتوصل معه الى عمل . وفيما أظن اننا كنا في ذلك الحين ثلاثة من غير الحاج ، انت والشيخ محمد بن عمــار ومحمد عباس . وذلك بناء على ما وجدته في تقريري من ذكريات الهجرة .

وبعد ان تركنا الحاج كان من أبرز من انضموا الينا «الشيخ محمد الزنتاني»

وقد اجتمعنا في خلوته « بالزاوية البكرية » عدة مرات . واتسع الشقاق بيننا وبين الحاج المجدوب حتى بلغ امره الى السيد « بشير السعداوي » ودامت المراسلة بيننا وبين هذا فترة من الزمن استطعنا اثناءها ان نوضح له اخلاق المجذوب وسلوكه الطائش فاستحسن راينا وايد سلوكنا . فاسترسلنا في عملنا وكثرت اتصالاتنا باعيان المهاجرين بالملكة التونسية وانضم الينا منهم عدد وافر .

والذي اتصوره الان بناء على ما زال عالقا بذاكرتي ، وبناء على ما وجدته مسجلا عندي بان الاعضاء البارزين في الهيأة التنفيذية للجنة ، والجمعية فيما بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٩ م هم : احمد زارم — محمد عباس — محمود الزنتاني — احمد تريفيس — رمضان الورشفاني — محمد شكري . ويؤيد ذلك رسالتك المؤرخة في ١٦ جمادى الاولى هـ ١٣٥٨ الموافق ٤ جويلية ١٩٣٩ م ، وتقريرك الذي ارسلته الى المؤرخ بيوم ٣٠ ربيع الاول ١٣٥٤ هـ الموافق ١ جويلية ١٩٣٥ م وها انا اعيد اليك الرسالة والتقرير .

ووجدت في كراستي : في بحر سنة ١٩٣٣ م غيرنا اسم اللجنة التنفيذية ،،، الخ باسم « جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة » ولم نغير هدفنا وغرضنا الاساسي الذي هو تحقيق الميثاق القومي للشعب الطرابلسي البرقاوي والذي سنعمل لتحقيقه بكل قوانا — اهـ .

وفي سنة ١٩٣٨ م حدث اتصال بيننا وبين حكومة فرنسا بتونس عن طريق « بيرجي » « زارم » فبرجي رئيس الديوان المدني للمقيم الفرنسي . وزارم الكاتب العام لجمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة .

ثم انتقلت مفاهماتنا مع السلطة العسكرية وعين للمفاهمة معنا القبطان (بوري) وانت اعلم مني بالدور الذي لعبه (بوري) هذا .

وفي ايام ١٩/١٨/١٧ جويلية ١٩٣٩ م عقد بتونس مؤتمر الليبيين الذي نتج عنه تأسيس (جمعية التوادد والتعاضد الخ ..) وانت هنا ايضا اعلم مني بالموضوع وفي مؤتمر الجمعية العام (جمعية التوادد والتعاضد ..) الذي

عقد في شهر مارس سنـــة ١٩٤٠ م انتخبت اميــن مال للجمعية باجماع الحاضرين وبالزام منهم .

وفي يوم ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ م وصلني الى محطة الكريب الاخ احمد زارم فارا من عاصمة تونس التي نزل بها الاعداء الطليان والالمان ثم ذهبت انـــا والاخ احمد زارم الى الكاف واجتمعنا بالسيد « محمد عريقيب ــ رحمه الله» وطلبنا منه ان نتصل بالماجور الانقليزي بالكاف فامتنع واعتذر باعذار كانت عندنا باردة وغير معقولة ، فتركناه ظهريا وعدنا الى الكريب .

وبعد مدة قدم الينا الاخ محمد بن خليفة الورشفاني وكان قدومه بعد طرد جيوش المحور من ليبيا . فاتفقنا على ان نبعــث بتهانينا الحـــارة ونؤكد انضمامنا من جديد الى صفوف الحلفاء واننا على تمام الاستعداد للكفـــاح معهم ضد اعداء الجميع . وبعثنا بتقارير ضافيـــة بهذا المعنـــى بتاريخ ١٠ فيفري ١٩٤٣ م الى كل من الرئيس تشرشل والرئيس روزفلت والقائد الاعلى للجيوش البريطانية بشمال افريقيا الغربي ، والقائد الاعلـــى للجيـــوش البريطانية في الشرق الاوسط الجنرال « اليكسندر » وكل هذه التقاريـــر وضعت في ظرف واحد وارسل باسم القائد الاعلى للجيوش البريطانية في عاصمة الجزائر وجعلناه مضمـــون الوصول ، وبعد مـــرور نحو اسبـــوع استلمت من محطة بريد (الكريب) اعلاما من القائد المذكور باستلامه الظرف.

وبينما كنت اسبح في بحـــر من التفكير المضنـــي والهواجس المتلاطمة المتراكمة حيث ذهب عني الاخوان زارم وبن خليفة الى « سليانة » وبقيت وحدي في (الكريب) قدم لي الاخ محمد بن خليفة في سيارة جيش انكليزية وبصحبته ضابط انجليزي هو « ادوار شدياك » وسألت الاخ عـــن سبب قدومهما فقال : انني اتصلت بضابطين انجليزيين مبعوثين ومأمورين بان يتصلا باعيان الجالية الطرابلسية لنعمل يدا واحدة ضد قـــوات الاعـــداء فسررت بذلك جدا ولبيت الدعوة حالا . وركبنا متن السيارة وتوجهنا الى عمل (سليانة) حيث يسكن الاخ محمد بن خليفة ، ويوجد الضابطان الكبتن

(هربرت) والكبتن (ادوار شدياك) ورفيقهما السرجان « تيم » والاخ احمد زارم شرعنا في العمل وطلبنا من الله الاعانة ونيل الامل .

كما انني وجدت في مفكرة جيب ما ياتي : في آخر شهر مايــو ١٩٤٣ م نظرا لصدق نياتنا ونتائج اعمالنا رأت القيادة الانقليزية نقلنا الى بلادنــا يصحبنا الكبتان « هربرت » والسرجن « تيم » وذلك لنزور بلادنا بعد غربة دامت اكثر مــن عشرين سنـــة . ولنتعرف على رجــال الادارة العسكرية بطرابلس . انتهى ما بالمذكرة . اما الافراد الذين عملوا معنا فلم أتذكر منهم اليوم الا خمسة افراد وجدتهم مسجلين في ورقة مع تواريخ ارسالهم خلف واجهة العدو ونتائج اعمالهم .. والخمسة هم :

١ ــ محمد ابو زيد عبد الله العجيلي

٢ ــ حميدة محمد حميدة القعود

٣ ــ عبد الله الصادق الحاج علي بعيو

٤ ــ حميدة علي محمد المطماطي

٥ ــ محمد شكري كويدير

وفي يوم ١٤ مايو ١٩٤٣ دخلنا تونس العاصمة بعد جلاء جيوش المحور عنها . وفي آخر شهر مايو هذا توجهنا الى زيارة الوطن الحبيب وعاصمته (طرابلس) الزاهرة . والى هنا يتوقف ابن عباس ويسلم الموضوع الى ذاكرة (زارم) .

وأرى :

اني ارى بان الاشخاص التافهين مثل : [« مم » و « م ج » و « ب س »] يجب ان يطهر منهم موضوعنا بعدم ذكرهم فيه لانهم تافهون ، ولنترك الكلام عن الاول ، فهو وان حشر معهم الا انه اسلم منهم وافضل .

اما الثاني : الا تتذكر كيف جاءنا بدافع من الطمــع حينما علم اننا قمنا

بطبع مئات من صـــور الشهيد عمـــر المختـــار لتوزيعها على المؤسسات والشخصيات السياسية والعلمية والانسانية في كل مكان . وحضر معنـــا الاجتماع في منزل الاخ « محمد بن سليمان الفيتوري » الا تتذكر كيف عارض التوزيع قائلا يجب ان نبيع ٨٠ ٪ من هذه الصور ونقتسم ثمنها ، ويكفي ٢٠ ٪ للتوزيع ، وهذا كثير . وحينما صودمت فكرته بشدة ، وافهمناه اننا لم نقم بذلك للانتفاع الشخصي . غادرنا يائسا من الغنيمة ، وذهب بدون رجعة الى اليوم ، انه طماع تافـــه .

أما الثالث فانت على علم بقضيته ايضا واطوارها ، وكيف جاء ليطلـــع على كل شيء عندنا ويذهب به الى السفارة الايطالية . وانـــت تعلم كيف فضحه .« المختار العربي » ثم اعترف هو نفسه بكل صراحة ، عند انهـــزام المحور من تـــونس في الحرب العالمية الثانيـــة . اعترف نتيجة خوفه من الانتقام فهذا خائن تافـــه ايضا .

محمـــد عبـــاس

من مآسى ايطاليا فى ليبيا

محمد فرحات بك الزاوي

من العناصر المتنورة النابهة في عصره ومن المجاهدين المخلصين الذين اعتمد عليهم في الدفاع عن الوطن . وغلى جـانب من الثقافتيـن العربية والتركية ويتكلم بعض اللغاب الاجنبيـة .

محمد حلمي الجحاوي الخمسي

هو الآخر من ذوي الثقافتين العربية والتركية متشبع بالروح الدينيـة وهو من الثقات المخلصين الذين واكبوا الجهاد وثبتوا على المبدأ في كامل أيام الجهاد ، وكان سكرتيرا مع رمضان السويحلي . هاجر الى تونس سنة ١٩٣٠ م .

سبق ان ذكرت فيما تقدم من هذه الذكريات تلك الجولة التي قمنا بها . المرحوم : احمد عريقيب ــ واحمد زرام خليفة المجدوب سنة ١٩٣٩ م على أماكن المهاجرين بالبلاد التونسية استعدادا للقيام بالثورة ضد ايطاليا فـي بلادنا ليبيا . كما انني ذكرت وصولنا الى (قابس) واتصلنا بالمرحوم حلمي الجحاوي » وكان اذ ذاك شيخا يبدو لي انه في عشرة الثمانين من العمر رجل وقور ذو لحية كثيفة بيضاء قصير القامة ممتلىء الجسم نظيف البشرة

يبدو عليه هدوء الطبع والاتزان . ذهبنا لمنزله للعشاء عنده . ودار بيننا كثير من الحديث عن الايام الماضية واتعابها وآلامها .

وفي تلك الليلة سألته عن مأساة المغفور له « محمد فرحات بك الزاوي » حيث بلغنا اخبار عن موته ونحن في تونس بطرق غير كافية لمعرفة الحقيقة . وحينما سألته لم نكن نعرف ان « محمد حلمي » هذا هو نفسه كان في نفس المصير الذي صار اليه « فرحات بك » لولا عناية الله .. فقال : كما تعلمون انني كنت كاتبا مع (رمضان السويحلي) وعندما مات السويحلي اصبح الامر بايدي مجموعة لا استطيع البقاء معها . وحتى اخوه احمد الذي تولى مكانه لم يكن اكثر من آلة تحركها هذه المجموعة .

لذلك غادرت مجموعة المجاهدين من موقع « نفد » الى ورفلة وكان قصدي الهجرة منها الى تونس ولكن لسوء الحظ لم اكد ارتاح من تعب الطريق حتى وقع احتلالها من طرف العدو فاتجهت مع الكثير من المجاهدين الذين كانوا بها الى « فزان » وما كدت استقر في فزان حتى قبض علي انا — وفرحات بك . الخائن عميل الاستعمار الايطالي « خليفة الزاوي » وقرر اعدامنا الاثنين بصفة كوننا من اعداء ايطاليا . وهو الايطالي اكثر من الايطاليين في « مرزك » وقد نفذ حكمه فعلا في فرحات بك فاعدمه .

أما انا فقد سخر الله لي صهره اسمه « مدني الشامي » وابناء سيدي حامد الحضيري فتدخلوا في أمري وانقذوني بعد الله من الموت . ولكنه ابعدني الى « الوادي الشرقي » الذي يقع الى الغرب بميل طفيف الى الشمال من « مرزك » والذي يبعد عنها مسيرة اربعة أيام بمسير قوافل الابل . وبقيت هناك تقريبا من ثلاثة اشهر . وفي هذه الاثناء زحفت قوات المجاهدين حينما بلغتهم فعلته مع « فرحات بك » زحفت على هذا الخائن خليفة الزاوي — بقيادة : عبد الجليل سيف النصر — وعبد النبي أبو الخير فكانت الغلبة على الخائن ربيب الاستعمار فاخرجوه من (مرزك) والتجأ الى اسياده الطليان في اشر الحالات واشنعها فلقي جزاء ظلمه وخيانته . وقد بقيت انا

في فزان زهاء ثماني سنوات تقريبا ثم غادرتها مع افواج المهاجرين الى الحدود الجزائرية ومنها انتقلت الى تونس حيث قصدت هذه البلدة (قابس) التي وجدت من أهلها كل تقدير واحترام والحمد لله على كل حال .

ابراهيم بن رمضان السويحلي

شاب صغير في مقتبل العمر تنقصه الخبرة وتعوزه التجارب والفراسة . ولكن لا يخلو من الشجاعة الموروثة . تولى قيادة جيش المجاهدين مكان عمه « سعدون » بعد استشهاد هذا الاخير . ورغم الحاح عمه احمد في ان يهاجر معه الى مصر فقد رفض .

تولى ابراهيم هذا قيادة الجيش وتصادم مع الطليان ثم انسحب الى (سرت) وعسكر في قصر بوهادي . وهناك تصادم مع قوة طليانية انسحب على اثرها متجها الى « الجفرة » ومنها الى « فزان » وفي احدى واحات الجفرة اجتمع مع « عبد الجليل سيف النصر » وقد ذكرنا فيما تقدم انسحاب سيف النصر هذا من سرت عائدا الى الجفرة . ورحب هذا بذاك . واقترح على ابراهيم ان يبقى هو شخصيا معه في (الجفرة) وعساكره تلتحق « باحمد سيف النصر » أخي عبد الجليل في (فزان) فرفض ابراهيم هذا الاقتراح . وقال انه سيواصل سفره بعساكره الى فزان كي ينضم للمجاهدين هناك ويواصل محاربة العدو معهم .

غير ان عبد الجليل سيف النصر قد بداله ان وراء هذا الاصرار هدفا ولعله يود الالتحاق بعبد النبي ابو الخير لكي يثأر لوالده . كما أنه يخشى أن يكون لابراهيم شأن في (فزان) حيث لا يعدم هناك من ينضم اليه بحكم سمعة والده أو غير ذلك من الاسباب التي تجعل الناس ينضمون اليه فيقوي بهم مركزه ويتسع نفوذه وتصبح له سيطرة تشارك آل سيف النصر نفوذهم في هذه المنطقة من اقليم طرابلس . وهذا أمر لا يرضيهم لانهم يعتبرون أنفسهم ملوكا غير متوجين لتلك المنطقة .

ارتحل ابراهيم بعساكره بعد راحة قصيرة متوجها الى « فزان » وحينما

وصل الى مكان يدعى (الرواغة) وهو ممر ضيق يقع بين جبلين ولما توسط هذا المضيق أطلقت عليه النيران من كل جهة فسقط ابراهيم السويحلي ميتا هناك . ولكل أجل كتاب وما تدري نفس بأي أرض تموت . وهذه الاخبار اخذها ناقلها عن « القن » وفرج التاورغي . وهما من عساكر ابراهيم ومن الذين حضروا المأساة .

خليفة بن عسكر رجل نالوت الاول

هو زعيم من زعماء الجهاد يتحلى بالشجاعة والاخلاص والثبات على المبدأ . طالما سدد ضربات عنيفة للعدو . ولم يرضخ في حياته رضوخا مخلصا لايطاليا .

نتيجة لدسائس ايطاليا في ليبيا وتوزيعها للاسلحة والاموال والوعود الخلابة حدثت خلافات في خط الجبل من الجهة الغربية . كما وقع ذلك في الجهات الاخرى من الوطن أيضا . وانني لا اعرف ولا استطيع أن احدد الظالم من المظلوم او المحق من المبطل في تلك الاحداث الرهيبة المدمرة والمؤسفة حقا وصدقا . فذلك يعلمه الله والراسخون في علم تلك الاحداث . ولكنني وبدون تردد استطيع أن أرجع اسبابها الحقيقية الى خبث تصرفات ايطاليا ودسائسها كما قلت آنفا .

نشب صراع مسلح ومدمر بين (الحاج محمد فكيني واتباعه من جهة — وبين خليفة بن عسكر واتباعه من جهة أخرى) فخسر فيها الطرفان خسائر فادحة . واضرت بمستقبل الوطن ضررا أفدح . وكان الكاسب منهما هي ايطاليا فلقد انتدبت « هيئة الاصلاح المركزية » وفدا برئاسة « بشير السعداوي » لتلافي الموقف والاصلاح بين الاخوان قبل ان يستفحل الشر ويزداد الخطر .

وركب السعداوي والمجموعة التي يتكون منها الوفد وفي مرور الوفد من الزنتان استصحب معه « الشيخ احمد البدوي » كشخصية علمية دينية لها وزنها واحترامها . وفيما كانوا في طريقهم بعد اجتياز اراضي فساطو وفي

أول اراضي الرحيبات اذ هم بفارس يجد السير بسرعة متناهية . وخلفه خيول اخرى تطلبه وهو رجل من الزنتان اختطف ذلك الجواد من الرحيبات هاربا به الى الزنتان فاوقفته مجموعة الوفد وسلمت الجواد لاصحابه . واصلحت الموقف . وواصلت سيرها فدخلت الرحيبات وباتت تلك الليلة بها .

وواصلت من الغد السير حتى طمزين . ونزل هذا الوفد هناك والمعركة قائمة على اشدها . فاستدعى السعداوي « الشيخ احمد السني » وكان احد قواد المعركة ضد بنعسكر وابلغه بان الوفد جاء لاجراء الصلـــح بين الاخوان المتقاتلين . وهو يريد أن يبعث بكتاب الى « بنعسكر » في هذا الامر . وكانت قوات بنعسكر تعسكر في « كباو » قريبا من طمزين . فكتب الكتاب وسلمه الى « أحمد السني » ليرسل به رسولا الى بنعسكر أعلمه فيه بمهمته وطلب اليه أن يعين المكان والزمان للاجتماع .

وبينما الوفد في انتظار الجواب اذ هاجمته قوات بنعسكـــر على حين غرة . ومن هنا بدأت المعركة الفاصلة التي انتهت بالتجاء بنعسكر الى ايطاليا مجبورا غير مختار فكانت نهايته المحتومة كما هو معلوم لدى الجميع . ما هو سبب زحف بنعسكر على الوفد والقوات الاخرى التي كان في حـــرب معها ..؟ كنا في يوم من ايام سنة ١٩٥٠ م فيما اتذكر في قاعة المؤتمر وكان بيـــن الموجودين الشيخ احمـــد السني وعبـــد العالـــي الصيد — وامحمد احنيتيش . وغيرهم . وبعد حصة غادر الاجتماع السني ومن معـــه من جماعة مـــزدة .

وبعد ذهابهم دار الكلام بيننا عن تلك الحرب في الجبل فقـــال لـــي السعداوي : « احمد السني » هذا هو سبب تلك الكارثة بين « فكيني — وبنعسكر » ولم يزد شرحا على هذا . فتعجبت من الامـــر وبقيت حائرا . كيف يكون السني سببا في تلك الكوارث وكنت اعتقد في نفسي انه رجل دين صوفي عاقل لا يرتكب الاخطـــاء عن عمد وكنت أود أن استفســـر من السعداوي عن هذا الامر . حتى لقد ظننت ان للسعداوي شيئا في نفسه على السني . ولكن حالت دون ذلك المشاغل والاحداث .

حتى اذا جاءت سنة ١٩٥٧ م حينما طلبني السعداوي للالتحاق به في مصر من أجل قضية الوطن سافرت من تونس على طريق ايطاليا . ووصلت الى مصر ولم أجد « بشير بك السعداوي » بها فاتصلت بالجامعة العربية التي علمت منها أن بشير انتقل الى « سوريا » ومن ثم اتصلت « بالدكتور محمد فؤاد شكري » حيث سلم لي نسخة من كتاب « ليبيـــا الحديثة » من تاليفه لايصاله الى السعداوي في دمشق . وعندما تصفحت هذا الكتاب وجدت فيه ما كنت أود معرفتـــه .

فلقد جاء في المجلد الثاني صفحة ٥٥٣ ما يلي بالضبط : تعجب بشير السعداوي من نبذ « خليفة بنعسكر » عرض الصلح مما أفضى الى هذه الحوادث المحزنة في الجبل من جهة وتسليم بنعسكر للطليان من جهة اخرى وظل السبب في مسلك بنعسكر سرا مطويا حوالي ثلاثين عاما حتى اجتمع السعداوي بالسيد « أحمد البدوي » في طرابلس الغرب خلال عام ١٩٤٩ م وسأله : كيف تسنى « لخليفة بنعسكر » ان يهاجمنا في طمزين ونحن نطلب الصلح والسلام فاتضح ان الكتاب الذي بعث به بشير السعداوي اليه بواسطة أحمد السني لم يصل الى صاحبه أصلا بل احتفظ به السني لانه يؤيد الزنتان في ميولهم العدائية ويتوقع ان يحصل على خمس الغنيمة من اسلاب الحـــرب .

نبذة من تعريف ذاتى وموقعى وأصولى

الفقير الى الله الراجي عفو مولاه الكريم . صاحب هذه الذكريات ، هو :

احمد زارم بن خليفة بن عمر بن سعيد بن المجدوب بن عمار بن احمد . وهو آخر اسم عرفته من اجدادي الاقربين رغم بحثي باستمرار عن معرفة ذلك . ومن طريق البحث وجدت في المجلد السادس ص ٨٤ من تاريخ « ابن خلدون » سلسلة من الاسماء هي بدون شك من اجـدادنا . وهذه السلسلة تبتدىء بالجد الاقرب وهو : « علي بن راشد » وتنتهي بالجـد الاعلى وهو «سليم» الذي ينحدر منه «بنو سليم» غير ان ابن خلدون لم يحدد في اي عصر او اي تاريخ كان وجود هذا الاسم . ومن هنا تعذر علي حتى الآن العثور على أسماء الاجداد الذين يربطون أو يصلون بين« علي بن راشد » هذا وبين « أحمد » الذي هو آخر اسم عرفته من اجدادنا الاقربين .

ويثبت « ابن خلدون » هذه السلسلة كالآتي : (بـ علي — بن راشد — ابن معرف — بن عثمان — بن عطية — بن رحاب — بن محمود — بن طوب ابن بقية — بن وشاح — بن عامر — بن فاتك — بن رافع — بن دياب — بن ربيعة — بن زغب الاكبر — بن جرو — بن مالك — بن خفاف — بن أمرىء القيس — بن بهثة — بن سليم) وهذا اصل بني سليم .

ويقول نفس المصدر ص ٨٥ : بطنان عظيمان : «المحاميد» بنو محمود بن طوب بن بقية بن وشاح ومواطنهم بين « قابس ــ ونفوسة » وما الى ذلك من الضواحي والجبال . ورئاستهم لهذا العهد في بني رحاب بنمحمود لاولاد سباع بن يعقوب بن عطية بن رحاب . وامير المحاميد الى أول القرن الثامن هو يعقوب بن عطية بن رحاب بن محمود . والبطن الآخر « الجواري » وبما أن تاريخ ابن خلدون كان في الربع الاخير من القرن الثامن الهجري ــ فكان يستهشد في بعض الاشياء « برحلة » أبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني لانها كتبت في العشرة الاولى من هذا القرن نفسه . كما أن « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » للنائب يذكر نفس الترتيب ــ وقد قارنت ما جاء في هذه المصادر الثلاثة فكانت كلها في غاية التطابق .

هذا من جهة ما جاء في هذه المصادر . ومن جهة اخرى أقول ــ ادركت شيخا كبيرا عمره يناهز التسعين عاما . اسمه : « الفقيه عمر الجليدي » هو من قرية « جيطال » احدى قرى بلاد الرحيبات . وهذا الشيخ عرفته في بر تونس . وقد توفي بها حوالي سنة ١٩٢٤ م فيما أتذكر . ذكر لي هذا الشيخ بان الرحيبات لهم صلة بالنسب الشريف .! قائلا ان الشجرة المثبتة لذلك رآها بعينه واطلع عليها في « جيطال » وذلك قبل أن ينتقل الــى البلاد التونسية . هكذا سمعت منه مباشرة وبالذات وهو في صحة جيدة نسبيا وادراك كامل وعلى جانب من التعليم الديني اي انه فقيه فعلا لا اسما . ولكنني لم اسأله عند من توجد هذه الوثيقة . والله أعلــم .

بعد ما تقدم من هذه اللمحة التاريخية أعود الى استكمال « التعريف الذاتي » فأقول انني من مواليد سنة ١٩٠٦ م تقريبا . كيف عرفت ذلك ..؟ أقول بما انني شغوف دائما جدا بمعرفة عمري واصولي كنت دائما احاول الوصول الى ذلك حتى تبادر لي في يوم من الايام خاطر دفعني الى سؤال والدتي رحمها الله تعالى . هل تعرفين متى انا مولود يا اماه .؟ فقالت : انت في معركة (غدو) عمرك عاميــن اثنين بالضبط . قلت : هل انت متأكدة من ذلك ..؟ فقالت بكل تاكيد . وكأنه اليوم .

ومعركة (غدو) هذه هي نزاع مسلح وقع بين قبائل : « الرحيبات ــ وفساطو) بسبب خلاف وقع بشأن أراض زراعية تعرف باسم : « بحيرة غدو » وهي أراض خصبة الى حد بعيد . وهكذا كانت العامة تعرف تواريخ الاشياء بوقائع مختلفة . كسنوات جفاف مثلا أو حوادث طبيعية او غير ذلك من الحوادث النادرة الوقوع . ومنذ سمعت ذلك من والدتي رحمها الله . وأنا أفتش عن تاريخ هذه الواقعة التي كانت قد وقعت في أواخر عهد الدولة العثمانية في طرابلس الغرب . أو ليبيا كما هي اليوم . وحينما عدت الى الوطن سنة ١٩٤٨ م بعد غياب دام حوالي عشرين سنة ومكثت به حوالي اربع سنوات أي حتى سنة ١٩٥٢ م وفي هذه الفترة كنت فيالحركة الوطنية في شغل شاغل وصراع عنيف مع الادارة البريطانية لم يترك لي وقتــا للبحث عن تاريخ تلك المعركــة .

وفي فبراير سنة ١٩٥٢ م وقع ابعادي من البلاد من طرف حكومة العهد الماضي بمساعدة الادارة البريطانية . وقــد دام الابعاد تسع سنــوات الا شهرين . وبالطبع ليس لي في الخارج مصادر ابحث فيها لكي أصــل الى النتيجة المطلوبة . وحينما عدت الى الوطن بعد رفع الابعاد عني في أول يوم من شهر يناير ١٩٦١ م وبعد فترة أحسست فيها بالاطمئنان نوعا ما . وما يشبه الاستقرار في الوطن . أخذت في التفتيش عن تاريخ تلك الواقعة اي « النزاع المسلح بشأن غدو » في المحفوظات « بالسراي الحمراء » بطرابلس فعثرت على التقارير المتعلقة بهذا النزاع وتأكدت بانها وقعت فــي سنة ١٩٠٨ م وعلى هذا اعتمدت في ضبط تاريخ ولادتي في أوراقي الرسمية . وهذا وان لم يكن بالضبط فهو قد يزيد قليلا او ينقص قليلا . ولكن الامر الذي جعلني اعتمد هذا التاريخ واثق به . هو أن الوالدة رحمها الله كانت على مستوى عال من قوة الذاكرة وحسن الادراك حتى انتقلت الى رحمة اللــه تعالــى .

واعود فاقول : انني من مواليد « الرحيبات » بالتاريخ السالف الذكر ــ محافظة (غريان) بالجبل الغربي . والرحيبات هذه تتكون من اثنتي عشرة

قبيلة . وام هذه القرى بلد السوق الذي يحمل اسم الرحيبات . وهـــذه القبائل كغيرها قسمت في نظام الثورة ــ ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ م ــ الى ثلاث محلات . وهي اي هذه القبائل تعتمد في حياتها اساسا علـــى الزراعة . زراعة الحبوب شعير وقمح وقليل من اشياء اخرى كالعدس والحلبة . والزيتون كما توجد شجيرات قليلة من الفواكه كاللوز والعنب والتفاح والرمان والمشمش وغيـــر ذلك وفي السنين المطرة يزرعون قليلا من الدلاع والبطيخ والطماطم والقرع .

كان والدي رحمه الله تعالى من اهالي القرية البارزين وكان من انشط مزارعيها ان لم اقل انشطهم كما انه اشتغل بالتجارة فترة طويلة من حياته . تجارة البقالة . والسفر الى الجنوب والشمال . وكان كريما شجاعا قوي الارادة . اذا صمم لا يرجع . فهو لا يهاب الخطر ولا يعرف الخوف الى نفسه سبيلا . كنا في عيشة طيبة وحياة سعيدة حتى حدث في يوم من الايام خلاف عائلي صامت نتج عن قسمة مخلفات الاجداد . غادرنا الوالد وفـــي نفسه شيء مكتوم الى طرابلس ومعه « بعيران » لجلب بضاعة تجارته مع قافلة من نفس القرية . وبعد ايام رجع البعيران يحملان اشياء استهلاكية عائلية مع نفس القافلة . ولم يرجع الوالد وبالسؤال قيل لنا انه ذهب الى « بر تونس » وذلك قبل مهاجمة ايطاليا طرابلس باشهر قليلة ، ١٩١١ م اما نحن ووالدتنا فقد بقينا في بلادنا . ادخلني عمي « محمد شقيق والدي » رحمهما الله تعالى « كتاب القرية » مثل غيري من الاطفال . قرانا ما تيسر من القرآن الكريم . وقد حاول فقهاؤنا ان يعلمونا نتفا من المسائل الفقهية اذ كانوا يلزموننا بكتابة سطر في آخر اللوح كلما محوناه وجدنا كتابته . وبذلك يكون الواحد منا قد عرف الكتابة والقراءة وصار يكتب بالاملاء .

وقريتنا الرحيبات تطورت اليوم كما تطورت قرى الرحيبات كلها وغيرها. وهو تطور في الحقيقة عم ليبيا كلها من شرقها الى غربها ومن شمالها الـــى جنوبها . فلقد شيدت في قريتنا « الفيلات » والمساكن الحديثـــة ذات الدورين . كما صارت بها سوق تباع بها كافة الوسائل والاجهزة الحديثة .

وبالطبع فان الصور تختلف عن ذي قبل . فالقرية كانت هادئـــة صغيـــرة متواضعة . ومع ذلك فلكونها مركز المديرية ومحور نشاطها ومركز تحركاتها فقد ظهر فيها اذ ذاك الوجود التركي حيث كان بها معسكر صغير تقيم به بعض سرايا الجيش التركي العثماني . وهي تقيم هناك بصورة دائمة .

كانت مكاسبنا في المنطقة على وجه العموم من الزراعة هي كل ما تقدم ذكره مع تربية الحيوانات من اغنام ومعز وبقر وابل وخيل وحمير . ولا توجد عائلة الا ولها من هذه الانعام نصيب بقدر ثروتها . والمعيشة تتقاسمها هذه وتلك . ومن المؤسف ان هذه الانواع من الحيوانات قد فقدت . ولم يبق منها الا شيء من الاغنام والمعز ، ومما يسر انه في هذا الوقت الحاضر ظهر نشاط ملحوظ لا باس به في زراعة الاشجار وخاصة « الزيتون — واللوز » وبعض الفواكه الاخرى التي توزعها وزارة الزراعة .

وهذا التطور العمراني والزراعي انتشر بصورة أوسع وانشط في عهد الثورة . حيث كان التنشيط على الزراعة أوفر والمحافظة عليها من الحيوانات وغيرها أشد . وقد كان الناس في الازمنة الغابرة يستعينون على الحياة من بعض الوجوه خروجا على المالوف بصيد (الغزال) والارنب والذئاب والثعالب — (والظربان) : « صيد الليل » وطريقة الصيـــد بعضهـــا « بالمنـــداف » وهو نوع من « الفخاخ » الحديدية يجري دفنه قريبا من سطح الارض . وعند مرور الفريسة تقع في المنداف فينتفع بها صاحبه . وأذكى واشجع هذه الحيوانات « الذئب » فهو لا يقع في الفخ الا قليلا . واحيانا حينما يقع في الفخ ويرى نفسه في خطر فوق خطر المنداف يعمد الى قطع رجله الحاصلة بالمنداف باسنانه ويختفي ناجيا بروحه .

أما صيد « الغزال » ففي الصحراء القريبة والبعيدة يكون بالاسلحـــة النارية . ومن الناس من اتخذ هذا الصيد مرتزقا ياكل منه ويبيع للناس . غير أن هناك فكرة منتشرة عند عامة الناس تقول : ان من فعل ذلك اي اتخذ صيد الغزال تجارة . وبالتالي اتخذه مهنة لا بد أن يموت فقيرا معدما

او يصاب بشيء في حياته . ولا اعرف صحة هذا القول من بطلانه . وعلى العموم فان معيشة الناس مختلفة عما عليه الناس اليوم جدا . فقد كانت وجبة النهار « الغداء » لبنا وتمرا أو لبنا وتينا يابسا للاغلبية الساحقة من اهل القرى الجبلية والبوادي ، وهكذا فان الظروف الاقتصادية عامة كانت غاية في الشدة . وقد تغلب الاهالي على ذلك بنشاط متزايد يستغرق ساعات النهار وجزءا من الليل بين المرعى والزراعة والصيد . رجالا ونساء يعملون في الحقول يزرعون ويحرثون ويحصدون جنبا الى جنب . بعكس ما هو حادث الآن . التجارة بسيطة غير مربحة نزرا ضئيلا .

اما السفر والخروج من القرية لاية جهة . ولاي شأن كان على ظهورالابل. وعليها تسافر الى طرابلس قوافل التجارة . وهكذا تبدأ المرحلة فحينما تسافر القافلة وهي غير محملة باثقال تصل الى طرابلس في ثلاثة أيام مع أن المسافة من طريق القوافل اظنها تتراوح بين مائة وعشرين . الى مائة وخمسين كيلومتر . وعندما يجرى تحمليها بالبضائع والمواد الغذائية والملابس وتأخذ طريق العودة تستغرق من ستة الى سبعة ايام للوصول الى القرية . وكانت القوافل تسير مسلحة ويتناوب اصحابها السهر في الطريق للحراسة . اذ لا يخلو الطريق يومئذ من وحوش أو لصوص احيانا وحتى قاطع طريق وما عدا ذلك فان الرحلة تبدو ممتعة الا فيما ندر من حالات خطف بعض الامتعة أو غير ذلك .

الصيد في الطريق يبدو كضرورة حينما يظهر على مقربة منها كالثعلب مثلا بفرائها المغري ذي القيمة ولحومها ايضا ، وهي وان كانت مكروهة الا انها ليست محرمة ، وفي بعض الاعوام تتوافد ارجال من الجراد كثيفة فيستغله الناس . اما منتجات الحيوان من صوف وشعر . ووبر فتصنع منه الالبسة ويصنعون منه بيوتا لسكنى البادية . ولاهل القرى في فصل الربيع حينما يرتحلون للالتحاق باغنامهم في الصحراء للقيام بما ذكرناه سالفا وهكذا فان سكان القرى يقضون احيانا تقريبا من نصف السنة في سكنى بيوت الشعر . وما يتوفر من انتاج كالسمن والصوف والخرفان وجلود

الحيوانات المستأنسة منها والتي يصيدونها يحملونها على الابل الى طرابلس مباشرة . واحيانا الى « بنقردان » وهي بلدة تتبع تونس حيث يوجد الفرنسيون الذين يقبلون على شراء فراء الثعالب المغرية خاصة .

✶ ✶

سبق لي ان اشرت في آخر صفحة من الصفحات بعنوان « عون — وتوفيق — في الجزائر » الى انني قلت ابياتا من الزجل واشرت الى انه سيجدها القارىء في آخر الكتاب وعليه اقول :

حينما سافرت من تونس الى الجزائر سنة ١٩ م بطلب من السلطات العسكرية الفرنسية للالتحاق بالقيادة العامة للحلفاء يخيل لي ان هزيمة عدونا اصبحت قاب قوسين او ادنى . وان اليوم الذي سنعود فيه الى الوطن الذي فارقناه منذ امد بعيد اخذ يقترب بسرعة .

هكذا كان يدور بمخيلتي ويدغدغ آمالي العريضة . ولكن هبت يومئذ رياح في غير صالح السفن . او صالح تلك الآمال على الاصح . اذ ما كدت امكث اياما في الجزائر حتى بدات تظهر في الافق بوادر عكسية الواحدة تلو الاخرى . ولقد كانت اول هذه البوادر نبأ موت « الباروني » رحمه الله . ثم تخلف الزعماء الذين طلبنا قدومهم عن المجيء . ولم يحضر الا واحد من اربعة . ثم كانت ثالثة الاثافي هي : انهيار القوات الفرنسية امام الزحف « الهتلري » ثم حادثة الاسطول الانجليزي مع الاسطول الفرنسي في مرسى الكبير بوهران : الجزائر .

ولقد كانت لهذه الاحداث المتوالية صدمة قوية عنيفة على نفسي . وليست الصدمة بسبب موت شخص ما مهما علت مكانته وارتفع شأنه . كلا فهذه سنة الله في خلقه . وما ذهب بطل الا وبعثت الاقدار بطلا محله . وهذه ايضا من سنة الله في الكون . كما انه ليس لعدم حضور زعماء كنا نعلق عليهم بعض الآمال في قيادة الثورة . فمن هذه الناحية لدينا عناصر من ذوي الماضي والخبرة . وعناصر من ذوي الفكر والاخلاص ، ولكن الصدمة كانت بسبب انعكاس الموقف كله بهذه الاحداث المؤلمة مجتمعة .

فبعد ما كنا ننتظر بين يوم وآخر اختراق حدود بلادنا في ثورة عارمة وقودها الناس ونتيجتها تحرير وطننا. بعد ذلك اصبحنا نفكر في ملجأ يخفينا عن اعين الاعداء الى ان تتجلى الامور وينفرج الموقف . ففي هذه الحالة النفسية والاحوال المرتبكة والظروف القاسية الاليمة حاولت جاهدا ان اقول ابياتا من الشعر العربي لأعبر بها عن حالتي النفسية فما استطعت لها تقفية ولا وزنا فتحولت الى الشعر الشعبي « زجل » فقلت :

قعد شهر في حكومة عمل جزائر   في جنان مترادع وزربه دائر

✶ ✶

في برج زين ارداعه
فرحان نرجى في السفر بالساعة
عكس دار جانا وقتنا باوجاعه
صار صلح خلى الفكر عندي حاير
انا دخت في هالوقت كيف افراعه
لا تعرفه لا تجيبلاش اشاير
لا تعرفه بصحيحة

✶ ✶

لا تامنه لا تقول فيه مليحة
بانقزوا تنقيز رجعت طيحة
وبنخلصوا الواحل وحل الغاير
وباروجوا للبرولت ريحة
عدونا كسب ليام فيه اتساير

✶ ✶

يا بجاه من هو يقرا
وكل من ركع خاضع لحكم القدره

وكل من قرا حامل كتاب نصـــدره
على نصرنا يجينا الخبر بشاير
على حدود برقة ارسموها حضره
تبدا الزنايز ظاهري وجفايـــــر

احمـــد زارم

الفهرس

توطئة	٥
الغارة الايطالية على ليبيا	١١
انسحاب الاتراك من الميدان وتشكيل حكومة وطنية	١٧
الهجرة الاولى نهاية سنة ١٩١٣ م	٢٣
الحرب العالمية الاولى واستئناف الجهاد في ليبيا	٣١
الحالة الاجتماعية والمعنوية في البلاد	٤٩
اعلان قيام الجمهورية الطرابلسية نوفمبر سنة ١٩١٨ م	٥٧
هيئة الاصلاح المركزية سنة ١٩٢٠ م	٦٩
بداية النهاية	٩٣
يوم مغادرة الوطن وكيف فكرت في خدمته	٩٩
بدء الحركة الوطنية بصورة منفردة والاختفاء وراء اسماء مستعارة	١٠٥
كيف ومتى تم الاتصال بالسعداوي لاول مرة في المهجر	١١٣
تشكيل اللجنة التنفيذية للجاليات الطرابلسية البرقاوية بتونس	١٢٧
استشهاد بطلين من ابطال الجهاد عمر المختار واحمد الشريف	١٣٥
صراعنا مع ايطاليا	١٤٥

مساعي فرنسا لمعرفة دخيلتنا ١٥٧
مؤامرة ايطالية ١٦٥
ابدال الاتصال ١٧٧
جولة استطلاعية في البلاد التونسية ١٨٩
الدعوة الى الاجتماع بعد نهاية الجولة ١٩٩
الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م او ايطاليا تعلن الحرب وسفري الى الجزائر ٢١٥
نبأ وفاة الباروني ٢٢٣
عون وتوفيق في الجزائر ٢٢٩
العودة من الجزائر الى تونس ٢٣٥
فترة ركود مؤقت فرضتها ظروف طارئة ٢٤١
نزول جيوش المحور بتونس وجيوش الحلفاء بالجزائر ٢٥١
هجرة بعد الهجرة ٢٥٧
ظروفي في سليانة ٢٦٥
بين الكريب والكاف ٢٧١
مفاجأة واخطار مزعجة ٢٧٧
الاتصال بالجيش الانجليزي ٢٨٣
الفرنسيون يطلبون حضوري واستشهاد شكري وقضية الحاج ربانة ٢٩١
اول زيارة لوطننا ٢٩٧
العودة الى تونس من أول زيارة للوطن ٣٠٥
العودة الى تونس بعد زيارة سرية للوطن ٣١٥
مقابلتي للوفد الامريكي بعد لجنة الاستفتاء الرباعية بتونس ٣٢١
كلمة الأخ محمد محمد عباس ٣٢٩
من مآسي ايطاليا في ليبيا ٣٣٧
نبذة في تعريف ذاتي وموقعي وأصلي ٣٤٣

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

انتهى طبع هذا الكتاب
جويلية ١٩٧٩
بمطبعة القلم
تونس

عدد الناشر : ٧٩ - ١٦ - ٤٠٠

الدار العربية للكتاب المقر الرئيسي : عمارة « وفـاء » شارع غومة المحمودي ص.ب : 3185 . طـرابلس الجمهوريـه العربيـه الليبيـة . هـ : 47.287 . الفرع الرئيسي : 23 نهج ليبيا ، تونس العاصمة . ص.ب : 1104 ــ الجمهورية التونسية هـ : 288.688 .

الثمـن ٧٥٠ ، ٢ د ل - ٣،٨٥٠ د.ت .